

مذكرات مسلم ليبرالى

أيمن عبدالستار

مذكرات مسلم ليبرالى

أيمن عبد الستار

مذكرات مسلم ليبرالى

عبد الستار، ايمن.

مذكرات مسلم ليبرالى / ايمن عبد الستار.

القاهرة، دار كتابات ٢٠١٢. ٢٤٥ ص، ٢٤ سم

١- عبد الستار، ايمن.

أ- العنوان: ٩٢٠

رقم الإيداع : ٢٠١٢/٧٤٨٣

رقم الإيداع الدولي: ٣ – ٢٢ - ٥٠٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

الإخراج الفني والغلاف : طارق جلال عبد الحميد

الناشر:

الشركة الحديثة للدراسات والمعارض والنشر- (دار كتابات) ش م م

٢١ش إسماعيل أباظة، لاظوغلي، القاهرة.

ت : ٢٧٩٤١١٨٩ فاكس : ٢٧٩٤٢٥٤٢



info@darkitabat.com

www.darkitabat.com

الطبعة الأولى- سبتمبر ٢٠١٢

مذكرات مسلم ليبرالى

أيمن عبد الستار

الفهرس

إهداء

إلى كل شباب مصر، إلى نصف الحاضر وكل المستقبل، الذين فجروا ثورة ٢٥ يناير بعد أن أطبق اليأس على النفوس: إلى الأمام.

إلى الذين استشهدوا دفاعا عن كرامة الوطن ويريد لهم الخونة أن يذهبوا فى النسيان : لن ننساكم أبدا ما حيينا!

إلى كل من فقأ الغدر عيونهم :" أبوس الأرض تحت نعالكم وأقول أفديكم"!

إلى كل من تكالب على مطامع رخيصة قبل الآوان : عودوا لرشدكم يرحمكم الله!

إلى شعب مصر العظيم : كما رددت الهكسوس والمغول، وانتصرت فى الحروب الصليبية، سوف ترد أعداء الخارج، وتقضى على الديكتاتورية والاستبداد وتصنع نهضتك.

مقدمة

فى البداية لم أكن متحمسا لكتابة مذكرات، فهموم الحاضر كبيرة، وما أن بدأت فى الكتابة حتى أدركت أننا عندما نكتب مذكراتنا فإننا نعيد اكتشاف ذواتنا مرة أخرى، نحيي أحداثا مرقت فى نهر التاريخ، وكان الظن أنها انتهت ولن تعود.. نعتقد أننا تركناها وراءنا ومضينا للأمام، و عندما نكتبها يصبح الماضى هو نحن فى طور من أطوارنا الكثيرة التى عشناها فى هذه الحياة وندرك أنه لا شىء يقع فى النسيان. حين نكتب مذكراتنا تسطع شمس الحقيقة أمام أعيننا، وندرك أننا قد تحولنا، لقد كنت ذلك الشخص المسمى" أنا" هناك فى الماضى، وغدا سوف يكون "أنا"، هناك فى المستقبل، ينتظرنى بصبر كما ينتظر البحر النهر الذى سيصب فيه بعد ما قطع رحلته بين البلاد والعباد، ورأى فيها ما رأى، وحمل فيها ما حمل وخلّف وراءه ما خلّف. حين نكتب مذكراتنا نعيد تقييم أفعالنا وأفعال أخرين على ضوء جديد و نكسب حياة أخرى إلى حياتنا الحاضرة، لكن بعبرة جديدة و روح جديدة، ها نحن نعيد تشكيل الماضي -ومعه حياتنا-ونصوغه صياغة جديدة،هذا الماضي الساحر الآسر الماكر الذى قبع البعض من أصحابه فى صمت المقابر، ماتوا وانتهت حياتهم، لكن حياته قد بدأت يوم أن تذكرنا الأحداث، وأعدنا كتابتها، هذا هو الماضى الذى ظل ساكنا منتظرا مجيئ الوقت المناسب حتى يوحى لنا من طرف بعيد بأن نتذكره، ونعيده للحياة مرة

أخرى. وها نحن نستجيب لأمره الذى لم يأمر به، إنه الوجود الحاضر للماضي.

بينما نبقى مشدودين للحاضر وللمستقبل، يظل جزء منّا مشدودا إلى الماضى بحبل سرّي خفي لا يكاد يبين، ها هو الماضى ينظر إلينا بثقة، يضحك منا ويقول :" هل تظنون حقا أنكم نسيتوني؟" فإذا بك تفتح له الباب وتقول له" تفضل!".

الهدف من هذه المذكرت ليس مجرد التسلية - وإن كانت ضرورية - الهدف الأساسى والدافع المهم الذى شجعني على القيام بمغامرة كتابتها هو مساعدة نفسى، ومساعدة الآخرين إذا ما رغبوا أن يكتشفوا أنفسهم والعالم المحيط بهم.

تبدأ قصتى من اليوم الذى أدركت فيه أن العالم عبارة عن مجموعة من الأكاذيب، سمعت يومها صوتا من داخلى يقول كل ما حولك أكذوبة كبيرة، حتى نفسك التى بين جنبيك هى نتاج هذه الأكاذيب،لكن ما زالت لديك شعلة صغيرة تقبع فى الأعماق، تنتظرك كي تأخذ منها قبسا تشعل بها القناديل التى ستضىء حياتك، ابحث عن تلك الشعلة، وحين تجدها تشبث بها، لأنه فى تلك اللحظات المقدسة سينكشف لك وهج الحقيقة وآلامها، تصبح قريبا من نفسك، و تدرك على الفور أنه قد غرر بك من قبل آخرين. حقيقتك التى بحثت عنها طويلا ليست عندهم، بل بداخلك، وبداخلك أنت وحدك.. هذه هى اللحظة المناسبة لبدء الرحلة فلا تتردد، رحلة البحث عن الحقيقة، حقيقتك أنت، وحقيقة العالم الذى تحيا فيه. هذا هو الصوت الذى سمعته واتبعته نصف قرن من الزمان فى رحلة لم تنته بعد، وما زالت فصولها مستمرة، و اليوم.. حانت لحظة الوقوف أمام المرآة كى أستمع مرة

أخرى لذلك الصوت الخافت، وأتذكر همساته أحيانا، وصرخاته أحيانا أخرى، وأتذكر ما حدث فى رحلتى، رحلة البحث عن الحقيقة.

عزيزى القارىء : بين يديك صفحات من ماض ذهب ولن يعود، ولكن تبقى منه العبرة. هذه الأحداث والسنين هى "سنوات التحول" فى حياة الكاتب والوطن، تبدأ من هزيمة ٦٧ المؤلمة الموجعة، وتمتد حتى اللحظة الراهنة. لم أذكر كل ما حدث لى وللوطن، بل اخترت من الأحداث والذكريات ما له دلالة على التحول الذى حدث. أرجو ألا أكون قد أثقلت أو آلمت أشخاصا بعينهم، ولكن ما حدث لا بد أن يحكى، وعلى كل حال فقد حرصت على أن تكون بعض الأسماء رمزية حين وجدت أن الضرورة تحتم ذلك، والله ولى التوفيق.

أتقدم بالشكر لكل من الأساتذة الدكاترة الذين أعتنوا بوالدي من الناحية الصحية أثناء مرضه، أخص بالذكر الدكتور حسن جاويش، والدكتور عبد الله عبد المجيد، والدكتور محمد الجندى،والدكتور عادل شفيق، والدكتور عادل غنيم، والدكتور محمد عفت، والدكتورمجدى الفوال، والدكتور محمد الزناتى، والدكتور حسام الشرقاوى، والدكتور أسامه خليل،والدكتور طارق جبران، وجميع أصدقائه وتلامذته الذين لم يبخلوا فى أى وقت فى ليل أو نهارعن تقديم المعونة الطبية.

..و شكر خاص للأستاذة د. نادية الجندى أستاذة اللغة العربية بجامعة الأزهر، كلية الدراسات الأسلامية على مراجعتها اللغوية ونصائحها الثاقبة.

كما أتقدم بالشكر لكل من قرأ تلك المذكرات قبل الطبع وأبدى نصائحه وملاحظاته، وأخص منهم المهندس محمد محرم، و اللواء المرحوم عصام الصاوى، والناشر الدكتور طارق جلال، والدكتور هشام عبد الغفار، وصديقى المهندس أنور ربيع.

أخص بالشكر صديقي الدكتور خالد عبد العظيم الذى كان لملاحظاته القيمة أكبرالأثرفى إضافة بعض الأفكار الهامة والأساسية.

قبل الجميع أخص بالشكر أسرتي، منها زوجتي إيمان وبناتي ندى وسارة وزينة على ملاحظاتهن الهامة أثناء كتابة تلك المذكرات، كما أشكرهن على تفهمهن لأمور كنت أظن أنه من غير المناسب التحدث عنها.

أشكر كل من راجع هذا العمل حتى خرج فى صورته النهائية.

١- المدرسة

" الشارع ده رحنا فيه المدرسة....
اللى باقى منه باقى واللى مش باقى اتنسى"!

العبقرى صلاح جاهين

{يتناول هذا الفصل مرحلة الطفولة من رابعة ابتدائى إلى أولى إعدادى، ثم المراهقة المبكرة من ثانية إعدادى إلى ثالثة ثانوى.}

لم أكن راغبا في أكثر من أن أعبر عن استيائى مما حدث، أن أكون قادرا على رفض الكيفية التى سارت بها الأمور، كلا، لم تتح لى هذه الفرصة من قبل، ولن تتاح قبل عشر سنوات أخرى. كانت البداية حرب يونيو ٦٧، لا شئ يثير رغبة الطفل فى أن يتعرف على الآخر قدر ما تثيره الحرب، الاختباء من العدو، و الإشتراك فى المعركة! كان الاختباء فى فيلا الجد، خمس أمهات وأزواجهن وبناتهن وخدمهن بالإضافة إلى الجد والجدة! لقد تم إدخال مفهوم العائلة الموسعة فى عظامنا بسهولة بالغة، وبنفس السهولة أيضا سوف يتم سحبه فيما بعد من خلايانا لصالح قوى أخرى!.

لم نشاهد فى عيون الكبار سوى الخوف، لذا قررنا نحن الصغار - وبمزيد من الدقة : مجموعة من الصغار الأكثر ثورية وحماسة - أن نكوّن جبهة موحدة للوقوف مع الجيش المصرى ضد الأعداء بقيادة خادمة لم أعد أذكر اسمها(بعد ذلك سيتغير اسم الخادمة إلى الشغالة ثم التعديل الأخير هو مديرة منزل، لكن وقتها كان اسمها خادمة).

كنا نتابع المذياع وهو يسقط طائرات العدو بمعدلات مثيرة، لم يكن يرهقنا سوى التحفظات المكتومة من جانب الكبار عن نتيجة المعركة التى لا يمكن أن نتصور لها نهاية سوى أن ينتصر الجيش المصرى، ليس فقط النصر، ولكن أيضا أن تدخل مصر عصر الدول الكبرى. سوف نجد أنفسنا نحن الصغار و قد تم الاعتراف بنا أخيرا لندخل عالم الكبار، ويؤخذ رأينا حين تؤخذ الآراء، ألم نكوّن جبهة موحدة لمؤازرة الجيش؟ فكيف يمكن أن يتم تجاهلنا بعد ذلك؟ لم يكن يشغلنا سوى التغلب على التحفظات المكتومة.

لجأنا للقيادة كى تضع لنا خطة للمقاومة، نعم هذا يبدو حلا موفقا وقد كان بالفعل. من ناحيتها لم تعدم حلا، فسرعان ما اقترحت أن نقسم ميثاق الدم الذى سوف نسيله من أيادينا الصغيرة، هذا القسم لا يحتوي إلا على بند واحد : الانتحارالجماعي فى حالة الهزيمة. وبنفس السرعة التى تمت بها صياغة هذا البند الوحيد تمت الموافقة الجماعية.. ولكن ما الحل أمام الدماء التى ينبغى أن تسيلّها أيادينا الصغيرة، والتى سوف نبذلها طواعية؟ كانت المشكلة التى لم نجد لها حلا هو كيفية إخفاء الأمر عن السلطة المنزلية التى حتما سوف تعاقبنا أشد العقاب عندما ترى أن دماءنا تسير فى وجهة مخالفة لوجهتها، ولكى نتجنب السلطة الأبوية المعارضة للحرب فقد اكتفينا بالقسم شفاهة دون دماء.

كانت تلك هى المرة الأولى التى تفرض فيها ثقافة الطبقة السفلى نفسها فى تحد خفي للأسرة!

لم تستمر الخادمة معنا سوى ثلاثة أيام، وبعدها تأكدت الهزيمة، فانسحب الجميع فى صمت. وقتها كان الزلزال، إذ أنى تأكدت من أن هناك ما ينبغى الوفاء به : القسم. ولما تأكد الجميع من استحالة تنفيذه عرضت الموضوع على زميلة من الجبهة الموحدة التى اقترحت على استحياء أن نقوم بعملية بديلة، نقوم بجرح أيادينا الصغيرة كما كان مفترضا فى البداية، وهذا يعد بحد ذاته بديلا معقولا. يحتاج المرء فيه أن يضحى بحياته التى يبذل مجهودا خارقا للحفاظ عليها، وعلى الرغم من غرابة تلك الحقيقة الموضوعية، إلا أن الحروب تثبت دائما أن تجاهلها هو أمر غير ممكن.

على الجانب الآخر كانت هناك الحاجات الموضوعية المتعددة : المشاركة الجدية فى أمور الكبار، الاندماج فى المجتمع وتبنى قضايا المصيرية، الاطمئنان إلى سلامة توجهات السلطة الأسرية، التعرف على الآخر بدون خوف أو جزع وقبل كل ذلك الحاجة إلى البصيرة، وإذا كانت البصيرة تعني الفهم العميق فإن حاجتنا للبصيرة كانت تفوق كل الاحتياجات الأخرى. أين كانت بصيرة الأسرة فى إدراك حاجة أبنائها فى ظروف معقدة؟ بل أين كانت بصيرة شعب يدخل حربا دون أن يستعد لها؟ أين كانت بصيرة مجلس قيادة الثورة وهو يحتكر السلطة بعنف بعد القضاء على النظام الملكى؟ هل كان المجتمع وقتها واعيا بما فيه الكفاية بخطورة إنفراد العسكر بالسلطة؟

بينما كانت الثورة تزج بمعارضيها فى السجون - بل وبأصدقائها أيضا ــ و من تشم منه رائحة المعارضة، كان سجن المدرسة يفتح أبوابه

هو الآخر، لكنه هذه المرة لم يكن سجنا وطنيا خالصا، لكنه كان سجنا مصريا بإشراف فرنسي.

كانت البنات تدرس المواد كلها بالفرنسية فى مدرسة النوتردام، بينما مدرسة البنين اسمها القديس يوسف - تشرف عليها الراهبات أيضا - تدرس الفرنسية كمادة ثقيلة، أجنبية، لايمكن هضمها.بينما استفادت البنات من سيطرة الراهبات القاسية، على الأقل تعلم اللغة الفرنسية لم يكن حظ الأولاد سوى الحفظ ثم الحفظ بدون تعلم حقيقى للغة الفرنسية.

كان الأمر بالنسبة لي، وربما بالنسبة لي وحدي، يدعو للرثاء ومزيد من الإحساس بالدونية، الخضوع الصارم للسلطة دون الاستفادة من ميزاتها.

ذات يوم أخبرتنى فتاة من مدرسة البنات – كان هناك سور يفصل بين المدرستين – بأن راهبة ثارت فى وجهها عندما قالت لها" أنت قصيرة جدا" بدلا من" حضرتك قصيرة جدا"، لم تكن ثورة الراهبة على مضمون العبارة، ولكن على أنها لم تراع أن تخاطبها بالاحترام الكافى. وقتها أدركت كم هى رائعة تلك الفتاة التى تقف في وجه الراهبة-المتسلطة- وتخاطبها بمنطق ولغة وتفهم عنها. فى نفس الوقت تم الإعلان عن ميلاد شعاع الحيرة الأول، شعاع الوعي الحاد الأليم، وتم تأريخ هذا اليوم كفاتحة لتساؤلات لا إجابة لها، ولا نهاية ولا أمل.

كيف يمكن الوقوف على قدم المساواة مع سلطة تتحدث إليك بالفرنسية، وتحاول أن تفهم ما تقوله لك دون جدوى، ثم يكون الجزاء هو العقاب على ما لم تفهمه، ولم تتح لك الفرصة أن تتعلمه بينما أنت غارق من حواليك فى الفرنسية! لم تكن قليلة هى تلك المواقف التى واجهتها : سلطة تطلب منك الاحترام دون أن تؤهلك لتفهم ما تقول، دون أن تعطيك مزايا الانصياع والخضوع، المتاح فقط هو السمع والطاعة، لاحقا سوف تكون السطلة مزدوجة، المدرسة المصرية و المجتمع.

كيف يمكن أن تتصور أنك فى حصة الأشغال، تحت إشراف راهبة، أنت ترغب فى دورة المياة ولا تستطيع أن تحدثها بالفرنسية وهى لا تفهم العربية، إنها لغة الشيطان التى لا تفهم منها شيئا، تطلب الذهاب إلى دورة المياة باللغة العربية فترد عليك بالفرنسية، لا تفهم ما تقوله لك، هل هو رد بالإيجاب أم الرفض؟ تضغط عليك المثانة ولا تستطيع أن تذهب لدورة المياة بدون إذن، تبول فى سروالك فتنال صفعة فرنسية عربون لقاء الحضارات! الآن الشك لم يعد مقبولا، الفرنسية لغة الشيطان!

كانت درجاتي فى الفرنسية هى أسوأ درجات، ولم يكن الذنب ذنبي، بل ذنب "مريم" المدرسة المصرية التى تدرس لنا اللغة الفرنسية، وتشرح كل شيء بالفرنسية، ولا أحد فى المنزل يفهم الفرنسية، ما العمل؟ من حين لآخر تأتى الراهبة المشرفة، وتقف على الباب تتحدث مع مريم بالفرنسية حديثا مطولا، بالنسبة لى كان هذا الحديث ما هو إلا كلام فاضي ليس له معنى، ولكن لا، خطر لى أن المرء يستطيع أن يفهم حديثهما لو تعلم الفرنسية جيدا، ولكن كيف؟ كان هذا هو السؤال الجوهري وقتها. كانت الأمور تسوء يوميا حتى كان اليوم الموعود : كعكة فى مادة الفرنسية؟ ياللعار، على جثتي! ترتيبي الثاني دائما على الفصل فى كل المواد والآن كعكة فى مادة الشيطان؟

وعندما وصلت الأمور لتلك الدرجة قالت لى أمي" سلم على مريم وقل لها : من فضلك اهتمي بى لأن مستواي ضعيف فى الفرنسية." قالت لى ذلك بينما كانت تعطيني التبرع الذى كان هذه المرة أكبر من كل مرة. كل أربعاء من أول كل شهر كان هو يوم جمع التبرعات، ومريم هى المشرفة على جمع التبرعات للكنيسة القابعة فى مدرسة البنات.

وبالرغم من أن الغالبية العظمى كانت من المسلمين إلا أن كل تلميذ لا بد أن يتبرع على الأقل بمجموعة شموع، وإذا كان التلميذ من أسرة ثرية فينبغى عليه أن يتبرع بمواد غذائية وملابس.

انتهزت الفرصة وكطفل بائس خرجت من الديسك واتجهت نحو السبورة لملاقاة مريم، وبحت لها بما يجب علىّ أن أقوله لها. تلقت الموضوع ببرود وقالت :

-" أخبر مامتك ان الكنيسة تحتاج إلى مزيد من التبرعات للفقراء "،

قالتها بالعربية

-" oui madame حاضر"، قلتها بالفرنسية.

كم تمنيت وقتها أن أزور الكنيسة فى مدرسة البنات حتى أعرف لماذا يحتاجون إلى كل تلك الشموع؟ ولكن كيف؟ من الممنوع تماما أن يذهب الأولاد لمدرسة البنات. من الآن فصاعدا سوف تزداد الممنوعات، أيضا سوف تزداد الحاجة للشفافية، ماذا يفعلون بكل تلك الشموع؟ لا إجابة. يمر الوقت ولا تزال فرنسيتي على حالها، ولا خطوة إلى الأمام.

كان الفصل عبارة عن خمسة أرثوذوكس ونصيف وحده كاثوليك والباقى مسلمين.فى حصة الدين يأخذ المدرس الطلاب خارج الفصل، ولكن إلى أين؟ لا إجابة.

- " عارفين؟ بيخدوا نصيف لحجرة الفئران"! يقول الأولاد.

قلت لنفسى لو أني أعرف فقط إلى أين يأخذون نصيف؟ وكيف تبدو الفئران؟ هل هى كبيرة جدا؟

لا إجابة.

" إللى ها يعمل غلط منكم ها يدهن عسل ويروح أوضة الفيران ". يقول المدرسون.

" لماذا نحن مسلمون وهم مسيحيون" أسأل نفسى. لا إجابة.

" نصيف عضمة زرقا" يقول المسيحيون.

" المسيحيين كلهم عضمة زرقا" يقول المسلمون.

فى كل مرة أقابل فيها نصيف أوشك أن أطلب منه أن يكشف لنا عن عظامه الزرقاء حتى نرى كيف يكسي العظام اللون الأزق! لا أفعل وأفضل السكوت، بعد كل تلك السنين أقول لنفسي : ليتني فعلت!

" فى المرة الجاية ها قول لنصيف : من فضلك ورينا عضمتك الزرقا! بس لو رحت مرة الكنيسة! أكيد ها أشوف هناك عظمة زرقا "، أقول فى نفسى.

ولكن الدخول ممنوع لمدرسة البنات، إذن لا حل سوى المغامرة. فى الفسحة قفزت من فوق سور مدرستنا إلى مدرسة البنات، ظللت واقفا بجوار السور، ذلك حتى أضمن إذا ما أتت راهبة تضرب على ضهر اليد بسن المسطرة الحديد كما يقول الأولاد عن راهبات مدرسة البنات، وحاولت ان تمسكني أكون أسرع منها، أقفز فورا وأعود لوطني : مدرسة الأولاد! ولكن أين الكنيسة؟ تجيبنى الفتاة التى قابلتها لأول وآخر مرة بجوار السور :" الكنيسة هناك، دى بعيدة خالص، إنت عايز تروح الكنيسة ليه؟ هو انت مسيحي؟" ثم تحكي لى حكاية محادثتها مع الراهبة القصيرة جدا. ليس هناك ما هو اكثر تشويقا من ذلك! كل يوم فى الفسحة سوف أقفز السور، ولكن الفتاة لا تأتي، يوم بعد يوم والفتاة لا تأتي، أقول لنفسى لو رأيتها المرة

القادمة سوف أسالها عن اسمها حتى إذا لم تأت أذهب وأسأل عنها الراهبات "عشان يمكن تكون عيانة ".

- " ماما، هو الراهبات ها يحطونى تحت الجرس بتاع عم عبد السميع ويعلقوا كعكه الفرنساوى على ضهرى؟"
- " لا، ما تخافش، ده بس اللى بيسقط فى كل المواد أو اللى بياخد صفر "

كان من المعتاد أن يأتي ابن خالتى الكبير والذى يسكن بجوارنا بعد الضهر كى يلعب دومينو أو طاولة مع أبى، وفى يوم كانا يجلسان معا فى البلكونة، وكنا نفضل أن نتفرج على قناه ٧ لأنها كانت تعرض مسلسل باتمان يوم الثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع ضمن مسلسلات أخرى، كان التلفيزيون وقتها قناتين فقط، ٥ و٧ والقناة ٧ كنا نستقبلها على رقم ٩ أوضح.

فجأة انقطع الإرسال وبدأت القناة فى إذاعة قرآن كريم، قلبنا القناة على ٥، برضه قرآن كريم.

" بابا، بابا،تعال شوف التلفزيون عطل، قناه ٥ و ٧ جايبين قرآن على طول"!

" يبقى عبد الناصر مات"!

جلسنا جميعا أمام التلفزيون حتى ظهر أنور السادات ونعى جمال عبد الناصر، خرجنا إلى البلكونة جميعا أبى وأمى وأخى وأنا، ثم بدأنا نسمع صويت واحدة ست فقال أبى :

" اسكتي جك وجع ف بطنك "، لا أعرف لماذا كان أبى يعتبر أن وجع البطن هو أقسى عقاب يمكن أن يلحق بالمرء!

انصرف ابن خالتي، دخل بيته وهو يصيح على أبيه :

" بابا، بابا، عبد الناصر مات "

" اسكت يابن الكلب، وطى صوتك، إيه اللى انت بتقوله ده؟"

"والله، طب افتح التلفزيون ".

على كل حال تربينا جميعا على كراهية عبد الناصر، كنت صغيرا على أن أعرف لماذا، لكنى لم أنسَ أبدا الهزيمة فى حرب ٦٧، كما أن عمى معتقل إخواني، وعبد الناصر يقوم شخصيا بتعذيب المعتقلين، هكذا قيل لنا، باقى الأسباب لم أكن أعرفها ولم يهمني كثيرا أن أعرفها، لكن بعد ذلك وعندما بدأ الوعى يتسلل داخل نفسي كان من المهم جدا أن أعرف لماذا.

فى السنة الرابعة إبتدائى تم حل مشكلة اللغة الفرنسية بطريقة غير متوقعة، تم إلغاء الفرنسية واستبدالها بالإنجليزية. كما تم تعيين إدارة جديدة لمدرستنا، إدارة مصرية ذكورية، وانسحبت الراهبات إلى قواعدهن فى مدرسة البنات، حيث يتم تدريس جميع المواد بتلك اللغة الغريبة علينا نحن الأولاد. هل انتهت مشكلة اللغة الفرنسية هكذا مرة واحدة؟ نعم هذا هو ما حدث! أحيانا تنتهى مشاكل المرء من حيث لا يدري، وأيضا من حيث لا يسعى!

فى تلك السنتين - رابعة وخامسة ابتدائى - درسنا مقرر سنة أولى إعدادى فى اللغة الإنجليزية، مما أهلّنا صديقى عمرو وأنا - أن نشرح للطلبة فى السنة الأولى الإعدادية – أحيانا – بدلا من المدرس وبتشجيع منه، وياليته ما فعل، فقد أثار ذلك حفيظة الكثير من الطلبة الفلاحين، وتسببوا لى فى مشاكل عويصة وقتها، مما أدى إلى انضمام الفلاحين إلى القائمة السوداء!

لم نفترق - عمرو وأنا - طوال سنين الإبتدائى، كنا نجلس على ديسك واحد، دائما هو الأول وأنا الثانى فى الترتيب المدرسي، أول مرة ننطق فيها كلمة" ابن كلب" كانت يوم وفاة عبد الناصر، هكذا أطلقنا عليه كما كان أبوانا وأهلينا يطلقون عليه بعد موته، كانت كراهية عبد الناصر أمرا موروثا لا يمكن تغييره أبدا.

فى مرحلة الطفولة التى أتذكرمنها بوضوح وفاة عبد الناصرواللغة الفرنسية، والتى حكيت الأحداث كما وقعت، كان الهم الأكبر عندي هو اكتشاف العالم بما فيه نفسي، كان الشعور السائد عندى وقتها هو أنى على الهامش، لا أستطيع أن أحظى بمكانة الكبار، وفى نفس الوقت لا أستطيع أن أحيا حياة عادية مثل حياة زملائي فى الفصل.

من ناحية، وضع أبى المتميز فى الزقازيق فرض على الآخرين التعامل معي بطريقة مختلفة عما يتعاملون بها مع بعضهم البعض، ليس زملائي فقط ولكن أيضا المدرسين، وبقال الحتة والعربجى الذى يوصلنا كل يوم للمدرسة ويعود بنا منها. ربما يكون هذا الوضع المميز قد أفادني من ناحية أنه وفر لى حماية لم تكن متوفرة لأقراني، ومن ناحيتي كنت إنسانا مسالما أستذكر دروسى، وأحرص على ألا انسى الكراسات والكتب حتى لا أتعرض للوم أو العقاب.

لكن هذا الوضع فى نفس الوقت الذى أتاح لى حياة مستقرة بلا مصاعب تذكر، حرمنى من أن أكتسب المناعة الطبيعية ضد المجتمع، والتى كانت تتوافر بطريقة تلقائية للجميع.

كان الحل عندي هو أن أحيا حياة مزدوجة، الحياة الأولى مع الناس ومع أهلي، ومع الناس عموما، الحياة الأخرى وهى حياة سرية لا يعرف عنها أحد شيئا،وهى حياتي عندما أدخل حجرتي، وأغلق باب حجرة المكتب التى اتخذتها سكنا لى أعيش فيها حياتي الثانية الحقيقية وحدى، بعد أن هجرت الحجرة المخصصة للأولاد، واستبدلت سريرى الكبير بكنبة صغيرة أنام عليها، وإن ظللت محتفظا بدولاب ملابسى فى مكانه، لأنه لم يكن هناك مكان له فى حجرة المكتب.

حجرة المكتب كانت عبارة عن مكتب كبير، وكرسى كبير، وتلفزيون فوق هذا المكتب، وكرسى فوتيه، ولها باب دخول وأمامه مباشرة باب يفتح على البلكونة. كانت الساعات التى أقضيها وحيدا هى الساعات التى أتعرف فيها على نفسى الحقيقية بعد أن أتخلص من التشويش الذى تعرضت له طول النهار فى المدرسة.

كان هذا التشويش يتمثل فى أني أحيانا أضطر للتصرف كما ينتظر منى المدرسون وزملائي الطلبة، لا كما هي طبيعتي، وبعدها أشعر بالذنب لأنى آذيت نفسي. لم يكن الموضوع بهذه البساطة، فما من إنسان إلا واضطرته الظروف أن يتصرف وفق الآخرين لا وفق نفسه، ولكن كانت المشكلة الأعمق هى الطفل الذى يبحث عن موقفي أنا. بعد أن أرجع إلى المنزل أستعيد أحداث اليوم ثم أتبنى موقفا معينا، وأعيد الموقف من أول وجديدً فى الخيال، ثم أتصرف تصرفا مختلفا، لأرى إن كان هذا التصرف يناسبني، ويعبر عني أم لا؟ بعد فترة ينتابني إحساس أن هذا التصرف أيضا لا يناسبني فأعدله... وهكذا.

هذه الحياة لم يكن أحد يعرف عنها شيئا، لكنها هى التى كانت تعيد التوازن لنفسى.حتى اليوم يراني معظم من أعرفهم إنسان مسالم، ويفاجئون عندما يرون منى موقفا عنيفا، لكن من يعرفني على مقربة يدرك بسهولة أن خلف هذا الوجه المسلم الوديع يسكن إنسان متمرد عنيف.

السؤال الأكبر وقتها كان هو : ما الذى أحبه وما الذى أكرهه؟ أكثر من هذا ما هو الذى يجب أن أحبه، وما هو الذى يجب أن أكرهه؟ كان الحب والكره هما اللذان يحددان بشكل نهائى وقاطع سلوكي، وما يجب على أن أقوم به، لم أكن أفكر أبدا إذا ما كان ذلك السلوك هو سلوك حسن أم لا؟ ربما

ساعدني على ذلك أنني كنت أقوم بالسلوك الحسن بشكل تلقائي وبدون تفكير، لكن تبقى هناك الغرائب، أو ما كان يراه المقربون منى أننى أقوم بمواقف غريبة، ليست سيئة ولكنها غريبة، أهم شىء كان على أن أكتشفه وقتها هو أن أعرف إذا ما كان هذا الشىء الذى أحبه أو أكرهه يناسب طبيعتى أو يخالفها،ولم يكن هذا بالأمر السهل بالمرة، فقد كنت أسأل نفسى فى اليوم على الأقل عشر مرات : لماذا ينبغي أن أحب هذا ولماذ ينبغى أن أكره هذا؟ قد يبدو الأمر عاديا إذا تعلق بالمواقف، لكن أن تسأل نفسك إذا ما كنت تحب اللون الأصفر أما لا؟ وإذا أحببته لماذا يتوجب عليك أن تحبه؟ من المؤكد أن هذا ليس مألوفا، لكن كى أسهل الأمر على القارىء، أقول أنه حتى مع ذلك المثال كان هناك آراء الآخرين الذين يحبون أو يكرهون اللون الأصفر، وكنت دائما ما أقارن بينها كى أختار الرأى الأرجح.

بعد أن أستعرض كافة الأراء فى حب أو كره اللون الأصفر، أعود مرة أخرى لنفسي أسألها : ابن خالتى يحب الأصفر، وأمى تكرهه، وأبى ليس له رأى فى الألوان خصوصا الأزرق والأحمر، لأنه مصاب بعمى الألون، مما يجلعه مضطرا ليسألنا كل مرة ننزل فيها القاهرة عن لون الإشارة (وقتها لم تكن توجد إشارات فى الزقازيق)! بعد أن أنتهى من كل الأراء أعود كى أسأل : لماذا يحب ابن خالتى اللون الأصفر، وتكرهه أمى...؟ ولماذا...!

دائما ما صاحبنى فى رحلتي عقل لا يكل ولا يمل..! ولكن إذا سألت نفسى الآن : هل أحببت ذلك العقل أم كرهته؟ أعتقد أن الإبداع الشعبى قد فكر طويلا فى هذا السؤال، ثم أجاب عنه بالمثل القائل :" جابوا لشخص ميت عقل على عقله معجبوش إلا عقله" وبالرغم من عشقي للأمثال الشعبية لكن لا أوافق على هذا المثل،على الأقل بالنسبة لى كنت أتمنى أن أحوز عقل مخترع، أو مكتشف، لم أكن أرغب فى أن أكون طبيبا أو ضابطا، وحين كانوا يسألوننا فى الصغر :" عايز تطلع إيه؟" أجيب بأننى أريد أن أكون مخترعا، مما كان يثير أحيانا استغراب الكبار، لكنى وقتها لم أكن أفهم ما وجه الغرابة فى ذلك. ليس عقلى هو ما كنت أعترض عليه فقط، لكن الجسد أيضا، كنت أشعر ومازلت أننى محشور فى جسد ضيق، ومن أجمل الأحلام عندي هو أن أرى نفسي أطير فى سماء الغرفة، ثم أخرج من الشباك، وأطير فى الفضاء الواسع الرحب! من كثرة ما تكررت أحلام الطيران هذه أصبح عندي خبرة، أول ما يأتى الحلم أتولى توجيه نفسى إلى الأماكن العالية التى لا يوجد بها شىء، فراغ لكنه ليس كالفراغ، إنه من نوع آخر، أستمتع فى السماء بوحدتي إلى الحد الأقصى للرغبة، وأتمنى البقاء هناك إلى الأبد..!

حتى الآن لم أستطع أن أفسر هذا الأمر، لماذا أشعر بأننى محشور فى جسد ضيق؟.

هناك علاقة أخرى غير المدرسة لها أهميتها، وهى علاقتي بالأماكن التى نشأت فيها : منشية أباظة إذا تكوّن عند القارىء انطباع أننى كنت طفلا انعزاليا، أعود من المدرسة كى ألوذ بوحدتى فى غرفة المكتب ليس إلا، أؤكد أن ذلك غير صحيح.

يحكون لى أننى فى طفولتى كنت طفلا شقيا جدا دائم الحركة والشقلبة، من فوق الدولاب إلى السرير ومن ذلك الكرسى إلى ذلك... وعندما أخرج للعب فى الشارع يكون من الصعب جدا إرجاعى للمنزل، و عندما أطلب شيئا فأنا" زنان و نتات" بطريق لا يمكن تحملها..! كلما نزلت الشارع كى ألعب مع أقراني أعود بكمية جروح لا بأس بها فى قدمى ويدي. عندما كبرت حكت لى عمتي أنها كانت تزورنا،وبعد أن انتهيت من اللعب فى الشارع وعدت للمنزل، قالت لى :

أيمن إيه التعويرة الكبيرة دى اللى فى رجلك؟

فما كان مني إلا أن نظرت إلي "التعويرة" ثم بدأت فى البكاء...! لقد بكيت من المنظر وليس من الألم..!

لكن إذا قال القارىء لنفسه أننى كنت طفلا ساذجا فأؤكد له أن ذلك صحيح..!

نزلت الشارع كى ألعب فوجدت جمال عباس وزياد رحمهما الله، ما أن رأينا هشام يأتى من بعيد حتى قالا لى أننا سنلعب لعبة الآن، وعلينا أن نختبىء خلف كومه الرمال هناك. اختبأنا خلفها وما أن جاء هشام قريبا منا حتى أفهمانى أن اللعبة هى أن أذهب لهشام و" أديله بونيه "...!يمكن للقارىء أن يتوقع ماذا حدث بعد أن أعطيت هشام" البونيه "...! جرى والدم ينزف من أنفه وهو يبكى، وخرج جمال وزياد من وراء كومة الرمال يضحكان عليه وهو يقول لنا :

- والله لأجيب لكم خالى..!

وقفت مندهشا ولم أعرف كيف أتصرف، ألم تكن اللعبة هكذا؟ فلماذا حدث ما حدث وما دخل خاله باللعبة؟ ظللت بعدها عدة أيام لا أجرؤ على النزول للشارع خوفا من خاله، وأنظر كل يوم من سور البلكونة حتى أرى إذا كان خاله موجودا بالشارع أم لا. بعد فترة تصالحت مع هشام ونسيت مسألة خاله وعدت للشارع من جديد.

أثناء اللعب اقترح علينا طارق أخو زياد الكبير أن نساعد الفلاحين فى الغيط المجاور، ونحمل معهم الحطب. فعلا حملنا الحطب معهم وسط سعادتهم الغامرة، كان يتوجب علينا أن ندخل وسط منازلهم وحواريهم، وفجأة نظرت حولي فوجدتني وحدي وسط الفلاحين، وأحسست أنى تائه، ولا أعرف طريق العودة للشارع مرة أخرى...! بعد فترة قصيرة ظهر طارق والآخرون وعدنا للشارع. هذه الحادثة كان لها أثر في نفسي، بعدها كنت كثيرا ما أرى فى الحلم أننى تائه فى مكان غريب، ولا أستطيع العودة، وفى النهاية يظهر الطريق وأعود من حيث أتيت. ربما يكون ذلك الحلم المتكرر يعبر عن أمور أعمق، لكن هذا ما كنت أفسره لنفسى وقتها. مهم أن يجد المرء تفسيرا لما يمر به فى حياته، حتى وإن لم يكن تفسيرا كاملا أوحتى تفسيرا صحيحا.

أيضا من الأحلام المتكررة عندي فى الطفولة وما بعد الطفولة أننى أتسلق سور بلكونة منزلنا من الدور الخامس وأنزل على الرابع ثم الثالث حتى أصل للشارع. عملية النزول هذه كانت مرهقة وطويلة جدا ومخيفة جدا. فى سنة ثالثة كلية الهندسة، وأثناء مباشرتى للمنزل الذى كان يبنيه أبى كنت على السقالة وأثناء النزول منها عرفت أننى عندى" رهاب الاماكن المرتفعة ".

وصلنا لآخر سنه فى مرحلة الطفولة : أولى إعدادى.

كنت أظن أن المدرسة الفرنسية هى سجن حتى انتقلت لمدرسة حكومية فى الإعدادى لأن المدرسة الفرنسية للأولاد تنتهي عند الإبتدائى، و إذا كانت المدرسة الفرنسية سجن فالمدرسة الحكومية كانت هى الجحيم بعينة!

أول يوم كان هو يوم الصدمة الأكبرى،الديسكات مكسرة، الفصل قذر، الحوائط مهملة، الوجوه غريبة،الألفاظ البذيئة والشتائم التى لا أعرف معناها يتداولها الجميع، وجوه من كل طبقات الشعب الكادح، الفلاحون كان لهم الغلبة، كنا عمرو وأنا أشبه بنغمة غريبة شاذة وسط لحن المدرسة الحكومية،اللحن الردىء العفن، لماذ لا نجد أحدا من المدرسة الفرنسية سوانا؟ أين أصداقاؤنا من المدرسة الفرنسية؟ لماذا يتوجب على عامة الشعب أن يكون كادحا؟

دخل علينا الأستاذ "عواد" مدرس اللغة العربية والدين، فلاح أصيل، فارع الطول، ذو قوام رياضى، شعره قصير للغاية، عيناه تنطقان بالشرر بدون مناسبة، أول ما جلس على كرسى الأستاذ نظر إلينا نظرة قرف، ثم

سألنا بصوت جهوري" اللى بيصلى يرفع أصبعه واللى ما بيصليش ما يرفعش "كانت هذه أول مرة أتعرف فيها على الصلاة خارج كتاب الدين! لم يكن أهالينا يمارسون الصلاة لا أهل عمرو ولا أهلي، بالرغم من أننا كنا مسلمين لكن موضوع الصلاة لم يكن مطروحا أبدا، الصيام نعم، حتى صلاة الجمعة كان الأباء فقط هم الذين يهتمون بها، لكن الأطفال ليست لهم علاقة بها. (بعد ذلك بأقل من عشر سنوات، فجأة، وبلا مقدمات، سوف يهتم الأهل بالصلاة ويواظبون عليها، كما سيأتى لاحقا).

بدأ الأستاذ عواد يسجل فى دفتره الذين يصلّون والدورآت علينا بعدها لا محالة، ماذا ياترى هو فاعل بنا؟ حين جاء عليّ الدور رفعت إصبعى وقلت له والخوف يملؤنى" أنا لا أصلى لكني سوف أصلي من اليوم" أعجبته إجابتى فيما يبدو، لا أعرف لماذا، وقال لى أنه سوف يعطينى درجتين زيادة، وسيسألنى فى المرة القادمة إذا كنت صليت أم لا؟ أما من لا يصلون فقد تم خصم درجة واحدة منهم وقال لهم" آخر مرة ها خصم درجات، بعد كده" ها تشوفوا النجوم فى عز الظهر"!

عدت إلى البيت مضطربا كمن نجا من موت محقق، فتحت كتاب الدين كي أتذكر الخطوات العملية للوضوء، وضعت الكتاب بجانب حوض المياه، وجاءت أمى تسألني ماذا أفعل فوقعت فى حرج آخر، ماذا أقول لها؟ ولماذا أرغب فى الصلاة لأول مرة فى حياتى؟.

فى أول حصة دين تالية قال الأستاذ عواد" يالا بينا على المسجد "، أخذ الفصل كله وذهب بنا للمسجد كي نأخذ درسا عمليا فى الوضوء و صلاة الظهر، كان المسجد صغيرا بحيث أنه امتلأ عن آخره بالفصل، كانت أول مرة أعرف أن هناك مسجدا فى المدسة، وأول مرة أدخل فيها مسجدا فى حياتى، بدأنا الوضوء فى الحنفيات الخارجية للمدرسة، إذ لم تكن هناك حنفيات خاصة بالمسجد، كان الأستاذ عواد يشرف على عملية الوضوء، بعد أن انتهينا من الوضوء ودخلنا مسجد المدرسة (الزاواية الصغيرة بمعنى أصح)، فوجئنا بالأخ أحمد محمود فى ثالثة إعدادى يعطي درسا من كتاب فقة السنة لسيد سابق لاثنين من الطلبة، رحب بنا وبالأستاذ عواد ثم اصطففنا، وصلى بنا الأستاذ عواد، وما أن انتهينا حتى كان وقت الحصة قد انتهى فخرجنا للفسحة وما زالت رائحة الأقدام من أثر الوضوء وسجاد الزاوية فى أنفى.

رجعت البيت وأنا لا أصدق نفسى! ماذا حدث وكيف نسيت تماما الفروق الطبقية والثقافية بيني وبين باقى الفصل فى تلك اللحظات السماوية، ولماذا؟ فى اليوم التالي وفى الفسحة، ذهبت أتجسس على زاوية المدرسة،

وجدت ألأخ أحمد ونفس الشخصين معه يستعدون للصلاة، شجعنى بابتسامة عريضة هادئة، هذا التلميذ واثق جدا من نفسه، وجهه يشع منه الاطمئنان والسكينة، توضأت وصليت معهم، بعدها بدأ فى درسه من نفس الكتاب، كان فقه السنة وقتها عبارة عن أجزاء صغيرة، والكتاب كله ربما كان فى عشرين أو ثلاثين جزءاً أو نحو ذلك، بعد انتهاء الدرس بدأ الأخ أحمد يحدثنى عن نفسه، وعن الاجتماع الدوري الذى يعقدونه فى الفسحة، وأنهم يمثلون الجماعة الدينية فى المدرسة، عرض علي الأنضام لهم فوافقت على الفور، وهكذا أصبحت عضوا فى الجماعة الدينية (هكذا كان اسمها فى ذلك الوقت).

كانت الجماعة الدينية هى شعاع الأمل الوحيد الذى ينتشلني من يأس الفوارق التى لا حدود لها بينى وبين زملائى فى الفصل، الذين لم أختلط بهم ولا أجرؤ، إنهم يتحدثون لغة مختلفة لا أعرفها، لهم أصوات مرتفعة صاخبة، رائحتهم نفاذة على الدوام، الفلاحون منهم يختلفون تماما عن الفلاحين الذين ألتقى بهم فى العزبة الصغيرة التى اشتراها والدى مؤخرا، والتى نذهب لها مرة كل أسبوع أو مرة كل اسبوعين، كان يوما سعيدا جدا، بعكس المدرسة.

كانت العزبة الصغيرة، يربي فيها والدى بعض البقر والجاموس والبط البكينى الذى كان "موضة" وقتها. بعد أن ننهي الدراسة يأخذنا أبى فى السيارة الفولكس السوادء أنا وأخى وجارنا مدحت ونمرح طوال اليوم،نلقي بأنفسنا من فوق الزريبة على قش الأرز، نحلب الجاموسة ونعود باللبن آخر اليوم لنبدأ عملية فرزنة القشطة بالمفرزة اليدوية.

لا أعرف كيف استطاع صديقي الوحيد وزميل "التختة "، عمرو، الأندماج مع هذا العالم الغريب المتوحش؟ كان يمتلك" رستا" قويا يستطيع أن يتفوق به على الفلاحين، لذا فكانوا يخشونه، بينما كنت أنا ضعيف البنية ومسالم، لذا فقد أصبحت هدفا سهلا لسخريتهم و ألفاظهم البذيئة. من ناحيني لم أكن أملك سوى أن" أبعد عن الشر وأغنى له "، لم أكن قد اكتشفت مصدر قوتي بعد.

لا يمكن أن أشتكي الفلاحين وسخافتهم لأساتذة فلاحين أسخف منهم، أما المنزل فكانت والدتي مريضة غالبا ووالدي مشغولا بالجامعة والمستشفى فى الصباح والعيادة فى المساء. لذا فقد وجدت فى الدين والجماعة الدينية التى تتكون من زميلنا المعلم :أحمد، ونحن الثلاثة، ملاذا، بعدها بفترة انضم إلينا من الفصل عبد الرءوف من العريش ولا أعرف لماذا يدرس ويقيم فى الزقازيق،كان شابا طويلا ذا بشرة بيضاء، أحيانا تبدو لى بشرته مشوبة

بالحمرة، ربما من الخجل، المهم أنه قد أصبح لى صديقا لأول مرة من الفصل الجديد.

سألت أحمد يوما من أين اشتري الكتاب، فأجابنى من شارع المكاتب، مكتبة عبادة، بخمسة وعشرين قرشا، نزلت إلى هناك واشتريت الكتاب ووضعته فى درج المكتب، ووضعت فوقه كتب المدرسة حتى يكون فى مأمن ولا يراه أحد، لا بد وأنها كانت فكرة غريبة جدا لوالدى أن اشتري كتابا دينيا، هكذا تصورت وسوف تثبت الأيام أنه كان تصورا خاطئا، فى الليل وبعد أن ينام الجميع أفتح الدرج وأقرأ فى كتاب" فقه السنة" الجزء الأول للشيخ سيد سابق. كان الكتاب عونا كبيرا لى، خصوصا بعد أن بلغت مرحلة المراهقة، ولا أعرف ما هذا الذى يتدفق بالليل فى المنام، كان الكتاب وأحمد هما الصديقان الصدوقان فى تلك المرحلة الحرجة. قرأت وقتها عن الاحتلام وأحكامه، وعن المنى والمذى والفرق بينهما، وعن شروط الطهارة، كان بالنسبة لى وقتها كتابا مقدسا.

حيرني لبعض الوقت اختلاف الرأى، رأى الصحابة والأئمة، ولكن قلت لنفسي إنهم وجدوا أحاديث الرسول هكذا، وكل منهم يحاول أن يفسرها بطريقته، لا ضير. لم أنزعج كثيرا وتعودت على تلك الاختلافات الغريبة وقتها أن كل معرفتي عن الدين لم تتضمن من القرآن سوى ما هو مقرر فى كتاب المدرسة، بدا القرآن بالنسبة لى وقتها غامضا، لا تفسير له تقريبا، لذا وجب تفسيره بالأحاديث وأقوال الأئمة التى تتناول الأحكام الشرعية. غياب القرآن هذا ربما كان من ضمن الأسباب التى جعلتني أبتعد عن الدين فى السنة التالية - أى تانية إعدادي -حتى وصلت لأنكاره تماما من نهاية أولى ثانوى وحتى أولى جامعة، وأيضا سوف يكون القرآن هو سبب عودتي للإيمان مرة أخرى.

كانت علاقة الصداقة بينى وبين عمروعلاقة متينة، كنت أذهب لبيته فى الإجازة ونلعب سويا ونتبادل مجلات ومجلدات ميكي وسوبرمان و غيرها. كان عندهم بيك أب اسطوانات من الحجم الكبير، فكنت أسمع عنده أغاني ساحرة مثل ..Take my heart & Love Story& ثم بدأت أهتم بالموسيقى الغربية بعد أن أصبح لى راديو خاص بى، بل وكاسيت صغير أحضره لى والدى من لبنان عام ٦٩ حيث كان ثورة فى عالم الكاسيت. بدأت أتابع وأسجل كل يوم ربع ساعة من برنامج إذاعي فى الشرق الأوسط - ربما كان يقدمه أحمد فوزى إن لم تخنى الذاكرة- أما أكثر أغنياتى

الأثيرة فقد كانت Sympathy بالعربية" التعاطف" وكلماتها باللغة العربية على نحو تقريبى هى كالآتى :

عندما تأوى لفراشك بالليل

عندما تغلق عليك بابك

فقط، فكر فى أولئك الذين هم فى البرد والظلام بلا منزل

لأنه ليس هناك كثير من المحبة فى العالم

فالتعاطف هو ما نحتاجه يا أصدقائي

الأن، نصف العالم يكره النصف الآخر

الأن، نصف العالم عنده كل الغذاء

الأن، نصف العالم يجلس مسترخيا

ولأنه ليس هناك من المحبة الكثير فى هذا العالم

فالتعاطف هو ما نحتاجه يا أصدقائي

كانت الأغنية السابقة لفريق شبابي أوروبي يسمى الطائر النادر Rare bird، وهى من نتاج ثورة الطلبة فى أوروبا عام ١٩٦٨.

فى إجازة السنة الأولى إعدادى، حجز لنا والدي فى رحلة خارج البلاد، إلى ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا، كنا أحيانا نأخذ تصريحا ونقضى اليوم فى برلين الغربية، ونعود للبيات فى الفندق فى ألمانيا الشرقية. كانت هذه الرحلة لها أكبر الأثر فى المقارنة بينهم وبيننا، الطبيعة خصوصا الطبيعة الساحرة فى كارلو فيفارى فى تشيكوسلوفاكيا، الحرية بين البنات والأولاد فى الشارع، العاملون من الشباب فى المطاعم حيث بعد أن تنتهى الوردية يتبخترون فى الشارع فى أحسن حلة، وفى نضارة واعتزاز بالذات، الموسيقى التى سمعتها "لايف" لأول مرة فى حياتى أسمع موسيقى "لايف" من آلات موسيقية وجها لوجه، كانت تجربة آسرة لا يمكن وصفها بالكلمات كانت الموسيقى تصب ذاتها فى نفسي صبا، تصعد بى إلى السماء حيث البعيد البعيد، الكمنجات والآلات النحاسية شيء لا يصدق، كانت أيام لا تنسى.

عدنا لمصر و تلك المقارنات لا تبارح خيالى، لماذا هم متقدمون ونحن متخلفون؟ لماذا العمال ملابسهم نظيفة، والطلبة فى المدرسة عندنا ليسوا كذلك؟ ثم حدثت واقعة كانت بمثابة المفرق الذى جعلنى أبتعد عن الدين وإن لم أنكره، وأبتعد عن الصلاة وإن ظلت فى ذاكرتى ذكرى جميلة لا تغيب.

الواقعة هى أن بعض الطلبة الفلاحين من تل حوين قرروا بلا سبب أن يجعلوني مادة مفضلة للاستهزاء والسخرية والألفاظ القبيحة، ثم التهديد بالضرب خارج المدرسة. وجدت الحل فى الاشتراك فى لعبة غير مشهورة اسمها" بلطج "، وأيضا فى كرة القدم الشراب فى المدرسة، أى باختصار أصبحت فردا عاديا منضما لشلتين، شلة بلطج وشلة كرة القدم، وبذلك توفرت لى حماية مزدوجة منعتهم من مهاجمتي وألزمتهم جحورهم، من المؤكد لو أنه كان أيامنا" ألتراس" لكنت واحدا منهم بلا تردد.

عندما شاهدت منذ سنوات فيلم **Fight Club** لأول مرة تذكرت على الفور لعبة "بلطج". اللعبة باختصار هى أن نرسم حلبة صراع من الطباشير أوخلافه (وقتها كانت حدودالحلبة فى فناء المدرسة حدودا طبيعية، المستطيل غائر قليلا فى الأرض ومحاط بحواف من البلاط البارز) ثم ننقسم إلى فريقين، الفريق الأول ينزل إلى الحلبة والفريق الثانى يقف على الحدود، ثم واحد من الفريق الثانى الذى يقف على الحدود ينزل الحلبة، ويبدأ الفريق الأول "يضرب فيه وهو يضرب فيهم"، يعنى واحد ضد الفريق بالكامل، يحاول الفرد الذى نزل وحده أن يلمس أيدى أى واحد من فريقه الذى يقف خارج الحدود، والفريق المنافس يمنعه من ذلك ويضربه. إذا نجح فى لمس واحد يتم اخراج واحد من الفريق الثانى وتستمر اللعبة، ويمكن له أن يخرج ليرتاح ويدخل واحد آخرمكانه،أما إذا فشل و ثقل عليه الضرب فيقول كلمة" بلطج" فيكف الفريق المنافس عن ضربه، ويخرج خارج اللعبة تماما، ويلعب فريقة ينقصه واحد..... وهكذا حتى ينتصر فريق على الآخر : يخرج الجميع إلا واحدا فقط من الفريق الأول وواحدا آخر من الفريق المنافس وتكون مجزرة حتى ينطق أحدهما بكلمة الخلاص "بلطج"!

أبليت فى تلك اللعبة بلاء حسنا، لأننى كنت أعد نفسى لخناقة موت بعد انتهاء المدرسة كما هددنى أولئك الأجلاف. ما إن سمعوا عن شجاعتي فى تلك اللعبة حتى هدأوا. أيضا كنا بعد المدرسة" نجمع من بعض" عشرة قروش ونعطيها للفراشين نظير أن يفتحوا لنا المدرسة ونلعب كرة قدم شراب، أحيانا كنا نلعب فى الخلاء بعيدا عن المدينة فى أرض كانت أرضا زراعية، ولكن تم تبويرها، لا أعرف لماذا أحيانا كان المخبرون يأتون من بعيد، يجرون وراءنا فنأخذ شنطنا ونطلق سيقاننا للريح! لم أجد وقتها – وحتى الآن الآن – إجابة لسؤال : ماذا يضير النظام أن يلعب فتية صغار كرة قدم شراب فى مكان بعيد عن المدينة؟. كلتا اللعبتين كان لهما أكبر الأثر فى إنهاء التهديد الفلاحي وقتها، أدركت مباشرة أن الدين ليس له علاقة

بالحماية، وأن الحماية مسؤلية المرء نفسه، وعليه أن يبحث عن الوسائل الكفيلة بحمايته بنفسه، وليس باللجوء إلى الدين الذى كان عندي وقتها هو كتاب فقه السنة!

بعد ذلك تجرأت واشتركت فى الإذاعة المدرسية، أجمع الأخبار كل صباح من جريدة الأهرام وألقيها فى طابور الصباح، فما كان من الفلاحين بعدها إلا أن ينظروا لى نظرة احترام وتقدير، بل وكانوا يتحاشون أن تأتى عينى فى أعينهم وكأنى أنا الذى أهددهم بالضرب والشتائم القذرة، بينما فى داخلي كنت ما زلت أخشاهم وأتقي فظاظتهم لأنى لا أستيطع ان أبادلهم السباب!

إذن فقد انتهت ماساة أولى إعدادي وبدأت أنتقل إلى العالم الحقيقى، عالم لا توجد فيه راهبات ولا ملابس نظيفة، عالم لا يكون التفوق فيه يعني التفوق المدرسي، والترتيب على الفصل، بل عالم "بلطج"!

فى أجازة ثانية إعدادى اشتركت فى دار الكتب وقرأت أعمالا أدبية لنجيب محفوظ ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس، مما كان يعني أن عصر فقه السنة قد انتهى، المشكلة كانت ماذا أفعل عندما يسألنى عبد الرءوف لماذا لا أحضر صلاة الظهر فى مسجد المدرسة؟ فى الحقيقة لا أتذكر كيف كنت أرد عليه، لكنه كان موقفا محرجا للغاية، كنت لا أملك ردا، لم أكن معاديا للدين وقتها، لكن كنت أشعر أن وقته قد انتهى وعالما آخر قد بدأ،عالما لا يعتمد المرء في حماية نفسه على الدين ولكن على نفسه.

انتهت ثانية إعدادى بمأساة جميلة، إذ أنه ونتيجة لاكتشاف العالم الجديد فقد أهملت الدراسة واعتبرتها مضيعة للوقت! وركزت اهتماماتى كلها فى العالم الجديد، كان فريق المصري البورسعيدي لكرة القدم وقتها يلعب مباراياته عندنا فى استاد الزقازيق نظرا لظروف التهجير، فكنت أتابع مبارياته من مدرج الدرجة الثالثة، كانت أيام " مسعد نور" و" شاهين" بصلعته التى تلمع. تعلمت أن أشترك فى التشجيع الجنوني المشترك من جماهير الشرقية تضامنا مع جماهير بورسعيد الزاحفة وراء ناديهم المفضل، ووراء نجومهم الكبار، وخصوصا عندما ينط "شاهين" إلى أعلى ويضرب الكرة بصلعته المميزة، فتهتف الجماهير بشغف" آه ياشاهين"!

تعلمت كيف أجلس فى مدرجات الدرجة الثالثة، وانتظر بالساعات حتى تبدأ المباراة، وتعلمت كيف أحادث جاري فى المدرج، وأنا لا أعرفه ولا يعرفنى. أما أغرب ما حدث عندما سمعت الجماهير تزأر" ياخويا روح أمك اصطلحت"، ماذا يعنى هذا الكلام؟

فى اليوم التالي، أخذت أسأل الخبراء فى المدرسة عن معنى تلك العبارة، وعندما قالوا لى أمه كانت غضبانة واتصالحت مع أبيه، زاد الأمر تعقيدا،يعنى إيه غضبانة، وعندما شرحوا لي معناها سألتهم :

طب وهو ماله بالكلام ده كله، ويروح على فين، هو كان فين أصلا؟

ضحكوا وقالوا لي :" أهو كلمة بيقولوها وخلاص"!

بالمناسبة بعد ذلك، وعندما قرأت التاريخ الإسلامي وجدت أنها كلمة" اصطلح" هى كلمة عربية أصيلة، قالها البعض حين حاول إنهاءالخلاف بين علي من ناحية وبين عائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى،" اصطلحوا" أى تصالحوا بعد خصام أو توافقوا بعد اختلاف.

كان فريق الشرقية لكرة القدم من الفرق التى تحظى بتشجيع جماهيري لا حدود له، كانت أيام عادل زنجة وسيد رشاد ولوفة.... وحين صعدوا للدوري الممتاز نسى "شعب الشرقية" انتماءاتهم الأصلية للأهلي أو الزمالك، وأصبح الخائن وقتها هو الشرقاوي الذى لا يشجع فريق الشرقية! لم يمكث فريق الشرقية لكرة القدم وقتها سوى عام واحد، وهبط مرة أخرى لدوري الدرجة الأولى، بعد ذلك بسنوات عديدة سوف يصعد مرة أخرى ويكون المدرب هو حسن شحاتة ومساعده أحمد عبد الحليم، وقتها تمت أول عملية" شبه خصخصه" للفريق على يد رجل الأعمال عبده نصر، كان تشجيع الفريق جنونيا بكل ما تحملة الكلمة من معنى، كانت الجماهير الشرقاوية تزحف" بالخمسين ألف" مشجع وراء فريقها أينما ذهب ليلاقى فريقا آخر خارج أرضه! ولكن يبدو أن الفريق لم يرتح لدوري الأضواء وعاد للدرجة الأولى!

ليست فقط كرة القدم هى العجيبة فى الشرقية، ولكن أيضا من الغرائب أن فريق الشرقية للهوكي حصل على بطولة إفريقيا أكثر من عشرين مرة، وهو الفريق الأول لتلك اللعبة فى مصر، لكنه إلى الآن يظل فريقا مغمورا، وشهرته خارج مصرأكبر بكثير من شهرته بداخلها. صدق الشاعر حين قال :

و كم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا!

ظهرت النتيجة وكانت درجاتي فيها لاتشرّف، لكني كنت سعيدا لذلك، إذ كان المثل الأعلى قد تحول عندي من المركز الثاني الذى يحصل عليه طالب انعزالي، لا يفهم شيئا، ولا يستطيع حماية نفسه، إلى :" طالب مهمل،

لا مبالي، يحمي نفسه" بدراعه"، يحترم نفسه ويحترمه زملاؤه "الجرابيع" فى الفصل، ولم يكن هذا بالمكسب الهين.

كالعادة حصل عمرو، رفيق الطفولة، على الدرجات الأعلى، وذهب إلى فصل المتفوقين فى ثالثة إعدادي، وبقيت أنا وحدي فى مواجهة الشراسة والسفالة والفلاحين، لكني كنت سعيدا لذلك بالرغم من أننى جلست معه على" تختته" واحدة من حضانة حتى تانية إعدادى،خلاص لا أحد سوف يذكرّنى بمدرسة الراهبات،لا أحد يذكرّني بالمركز الثاني الضائع إلى غير رجعة!

عندما كنت أذهب لعيادة أبى، أجدها "مرصوصة" فلاحين، قلت له مرة :

-هو مش ممكن تشوف عيانين تانيين تكشف عليهم غير الفلاحين؟

-الفلاحين دول هم اللى ربنا جعلهم مصدر رزقنا.

-أنا عمرى ما هادخل كلية الطب.

(من سخريات القدر أننى سوف أحب الفلاحين وأجد راحتي فى الريف، وسط منازلهم الفقيرة وروائحهم النفاذة، بعد ذلك سوف أدرك كم هم مظلومون من المجتمع، بالرغم من أنهم هم مصدر نشأة وخير مصر. الأغرب أنهم سوف يصبحون مصدر رزق لى أنا أيضا!)

كان أخي الأصغر يتحسس من البراغيث أكثر مني، فكان يقول دائما:

عندنا مصدران للبراغيث فى المنزل، بابا، وفهيمة (الشغالة)!

فى سنة ثالثة إعدادي انتميت لهذا الوطن للمرة الأولى من خلال حرب اكتوبر المجيدة عام ٧٣ كان انتماء عاطفيا من خلال أغاني الحرب، ومن خلال خطب السادات عن الحرب، وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ وعدينا وغنينا – الحلوة بلادى – عاش اللى قال – رايحين ف ايدنا سلاح...إلخ

بعد أن انتهت الحرب عاد كل شيء لمجراه، وأطلت الفردية برأسها من جديد.

كعادة معظم من كان فى سنى، حفظنا أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وعبد الحليم ووردة ونجاه وفايزة، وكل ما يجود به الراديو علينا، وخصوصا إذاعة أم كلثوم، دوما كانت الموسيقى تعني عندي شيئا مميزا وخاصا للغاية. لم أكن أستطيع أن أصرح بما أفضله وقتها، لأني كنت أظن أن

لـى ذوقـا موسيقيا خاصـا، أقل من أذواق الآخرين، كنـت وقتهـا مقتنعـا بـذلك جدا، وهو ما سيثبت عكسه بعد ذلك!

ذات يوم كنت فى منزل ابن خالتى الذى يكبرنـي بثلاث سنوات، كـان معه رفيقه ع. عبد الغنـى الذى كـان يتذوق الموسيقى، ثم بعد عدة سنوات سوف يلتزم إسلاميا، ويقلل من استماعه للموسيقى والغناء بصعوبة، ثم يتوقف عن السماع نهائيا، كنت فى ثانية ثانوى أو ثانوية عامة عندما سألته لماذا توقفت عن سماع الموسيقى؟ فأجابنى :

- لأنها تقسي القلب
- كيف ذلك؟ إنها بالعكس ترقق المشاعر!
- كل ما يلهي عن ذكر الله فهو يقسي القلب!
- ....!

كانت دهشي لا توصف، لم أفهم ذلك أبدا وقتها، لكن لم أجادله كثيرا، لم أكن أهتم بأمر الدين وقتها، كانت لى اهتمامات مختلفة تماما، ولكن بما أن الدين يحرم الموسيقى فهذا يعد سببا مهمـا للابتعاد عنـه، لـم تكـن الموسيقى للمتعة فقط، بل كانت "تقوينى" من الداخل، وتجعلنى واثقا من الأنتصار على الصعوبات.

فـى مـرة قبل أن يعتزل السماع، سـألنى ع.عبد الغنـى، أيهمـا أفضل أغنية إنت عمرى أم أمل حياتى؟ سكت فترة لأنـى بالفعل كنت قد بدأت أمل أغانى أم كلثوم العاطفيـة، وكنـت أفضـل عليهـا فيـروز، وأيضـا أفضل بعض الأغانى الوطنيـة، مثل أصبح عندى الآن الآن بندقيـة، أو صـوت الجمـاهير، ولم يكن هذا بسبب من الوطنية بل من أجل ما تحتويه من توزيع موسيقى.

الأغـانى التـى فيها توزيـع موسيقى هـى التـى كانـت تلفت اهتمـامى، بالرغم من أنى كنت وقتهـا لا أعرف مـا هو التوزيع الموسيقى، ولـم أسمع عنه من قبل، لكن بالفطرة كنت منجذبا له. فى الحقيقة لم تكن الكلمات تعني عندى الكثير، بالرغم من حفظي لها بتكرار الأغانى، لكن اللحن والتوزيع كان هو الأهم. حينما كنت أريد أن أغنـى فيكفينـى الدندنـة باللحن، أو حينمـا كانـت تعز الكلمات الأصلية كنت أرتجل للحن كلمات من عندي، عرفت بعد ذلك بسنوات أن عندي أيضا موهبة شعرية.

كان هناك كلمات أغاني مؤثرة دون أن أعرف وقتها سر هذا التأثير:

أريد أن أعيش أو أموت كالرجال..

فى أغنية أصبح عندى الآن الآن بندقية لأم كلثوم، سوف أفهم موضع التأثير بعد سنوات. استمرت الأمور على ذلك المنوال حتى أولى ثانوي، حيث المدرسة العسكرية والضبط والربط والملابس العسكرية الواسعة جدا، التى يوزعونها علينا أول العام، علينا أن" نقيفها" على مقاساتنا، "الجزمة الميرى والقايش و الجتر" وطابور الصباح، صفا وانتباه، وتدريبات على السلاح وتدريبات على القفز. (فى الأصل هى مدرسة مدنية تم إضافة العسكرية لها بعد حرب ٦٧).

تزامنت المدرسة العسكرية مع بداية المراهقة الحقيقة حيث كنا نشاهد زملاءنا يقفزون السور و يدخنون السجائر وراء التبة، وطلبة يضربون المدرسين، وطلبة يرفدون من المدرسة، كان الوقت وقت صياعة! أخذت نصيبى منها بالطبع لكن لم أبالغ، إذ كنت مشغولا بالكتب. بدأت أقرا عن المذاهب الفلسفية التى تفسر العالم، لم أقتنع سوى بالوجودية، قرأت الغريب لكامى وأسطورة سيزيف وغيره، لم أفهمها تماما إلا من خلال الشرح والتعليق عليها.

لم أكن وجوديا بمعنى الكلمة لكن كنت أسعى للاستمتاع بالحياة بعيدا عن الضبط والربط فى المدرسة، وضوابط المجتمع الصارمة بشأن العلاقة بين الجنسين، وبشأن تحكم الأسرة فى الفرد، وانعدام الفرصة لبناء حياة مستقلة بعيدا عن الأسرة، و كما شاهدت ذلك سابقا فى رحلة المانيا وتشيكوسلوفاكيا.

مرة كنت أتناقش مع وائل البرمبلى (سيصبح أستاذ أمراض نساء وتوليد فيما بعد،أما أبوه اللواء البرمبلى فسوف يأتى ذكره فى الفصل القادم)، وسألني عن معنى الوجودية، ولا أعرف من أين عرف أننى أقرأ عنها، قلت له إن منها مذاهب مؤمنة، ومنها مذاهب لا تؤمن بالله، امتقع وجهه، ونصحنى ألا اقول ذلك لأحد. فى الحقيقة لم أكن صاحب مذهب يريد نشره، لكن كل اهتمامي كان بنفسي، وكيف أجد لى طريقا فى الحياة، لم تكن تشغلنى أمور المجتمع البتة، فقد حكمت عليه بأنه مجتمع متخلف، ولا يمكن أن تربطني به صلة من حيث الأفكار، ولا الثقافة سوى أننى مجبر علي العيش فيه، كنت قد بدأت أعجب بالثقافة الغربية، ونمط الحياة الغربى، وفى السنة الثانية ثانوى قررت أن أنهي دراستي الجامعية وأهاجر لأوروبا، كنت أكره أمريكا لأنى أكره أفلام الكاوبوى، وأفلام الأكشن الأمريكاني، ألا يبدو هذا سببا كافيا؟ ثم أني وقتها لم أكن قد تعرفت بعد على موسيقى الجاز، فأين هم عباقرة الموسيقى الأمريكان؟

لم يكن معنى اهتمامي بالكتب أنني أصبحت طالبا منعزلا، بالعكس، كنت أتعلم بنج بونج فى الإستاد وبعدها تعلمت التنس، وفى نادي الشرقية كنت أمارس الكوروكيه، كنت أشترك فى فريق كرةالقدم بالمدرسة،كما أنه فى الفصل تعرفنا بعضنا على بعض، وكوّنا شلة رباعية، حسين الكنج وأحمد السيد وضياء وأنا.كنا نجلس فى الصف الأخير ولا نبالى كثيرا بشرح الأساتذة، خصوصا عندما يكونون من النوع المتواضع! لم يكن حسين الكنج هذا هو اسمه الحقيقى، لكن نحن الذين كنا نطلق عليه هذا اللقب لأنه كان (يبجح) مع أى أستاذ، وهو الذى اخترع الجملة الشهيرة التى كان يواجه بها المدرسين :

-أنا مش فاهم الحتة دي يا فندي، عدها تانى!

أيضا نصّبنا نفسنا مسئولين عن التغذية، كانت المدرسة العسكرية توزع تغذية على الفصل، لذا فكان من الضرورى قبل الفسحة بقليل أن يذهب أربعة ليحضروا الطعام فى سبتين، كل اثنين يحملان سبت تغذية ويعودوا للفصل كى يوزعوه. ما أن تبدأ الحصة التى قبل الفسحة مباشرة حتى نخرج نحن الأربعة بربطة المعلم بدون استئذان وكأن الأستاذ غير موجوده كنا نتفق أن نمثل الموضوع بمنتهى الجدية ولا ينظر أحدنا له، ما أن يرانا المدرس إلا ويصاب بالدهشة ويقول لنا :

- لسه بدرى على وقت التعيين

فيرد حسين (بتجرمة) :

- التعيين ها يخلص يافندى، العالم دى جعانه وعايزه تاكل!

ما أن نخرج خارج الفصل إلا ونغرق فى الضحك ونقول له : ياحسين يا كنج! أما فى أثناء توزيع التغذية فأول شىء كان يقوم به الكنج أن يقطع نصف الجبنة الرومى الجديدة ويوجه كلامه للفصل وهو يشير لهم بسكين التقطيع :

- دى لينا ودى ليكم واللى مش عاجبه ييجى لى هنا ويورينى نفسه!

أحيانا كان بعض الفلاحين يعترضون على تلك القسمة على استحياء، فما كان من حسين الكنج إلا أن (يشخط فيهم) ويذكرهم أنه لولا أننا نقف بوجه الأساتذة، ونخرج من الفصل بدرى لكانت التغذية قد انتهت! طبعا لم نكن نأكل كل تلك الجبنة، ولكن كان الكنج يوزعها عليهم بعد ذلك ولكن

بمزاجه! كان التعيين عبارة عن قرص جبنة رومى، ورغيفين عيش، واحد للجبنة وآخر للمربة، وأحيانا بيض مسلوق وأحيانا برتقال! هذا ما أتذكره..بعد ذلك سوف يلتحق حسين بكلية الهندسة قسم البترول وتنقطع علاقتى به، أما أحمد السيد فسيدخل تجارة انجليزى وأيضا تنقطع علاقتى به، ويبقى من الشلة الرباعية، ضياء وأنا وستستمر صداقتنا ليومنا هذا.

أما تدخين السجائر فقد بدأ فى رحلة الأقصر وأسوان فى أولى ثانوى. كانت تكلفة الرحلة كلها ستون قرشا! تذكرة القطار والفندق والأكل والمزارات. طبعا كانت مدعمة.

كان جارنا مدحت يسبقنا بسنة وكان (عامل) نفسه وصى علينا :

- اللى ها شوفه منكم بيشرب سجاير ها قول لأهله!

بينما نحن نائمون إذا بابراهيم الصاوى يوقظنا :

- قوموا، تعالوا، شوفوا مدحت رياض اللى عامل علينا رقيب!

ذهبنا معه فإذا بمدحت جالس وسط شلة (سجارتيه) و مادد رجليه إلى الأمام، ورأسه إلى أعلى وينفخ دخان السجائر فى سقف القطر بعنطزة!

لن أحكي عن واذا فعلنا به بعد أن رأيناه فى هذا الوضع (المتسلطن) فيمكن للقارىء أن يتخيل كل أنواع الضرب والسباب والتريقة!

بدأنا بعدها نتعلم (شرب السجاير)!

هذه كانت نوعية أعمال الشغب أو المراهقة التى كنت أشترك فيها، أما الأكثر من ذلك فقد كنت أنأى بنفسى عنها، حتى وأنا أصاحب من يقومون بها من أهل (المنطقة).

كنت ألعب معهم ونخرج رحلات، لكن عند (سلف)السيارات بدون إذن من الجراج من أجل الفسحة بها ثم إرجاعها مرة أخرى، لم أكن أشترك معهم. السيارات التى كانوا يستلفونها هى سيارات أهاليهم وجيرانهم! كان الموضوع فى بيته! وهم على أية حال لم يكونوا يسرقونها.

لكن الموضوع لم يكن فى بيته وكان سرقة حقيقية يوم أن تعودوا على سرقة البط والفراخ من أسطح العمارات، لم يكونوا محرومين، بالعكس، كلهم كانوا ولاد ناس، لكنها شقاوة مراهقة.

فى يوم وقعت الكارثة إذ أصر صاحب المسروقات أن (يبيتهم) فى القسم حتى يتأدبوا! ويبدو أنه كان عنده حق لأنهم تابوا بعدها عن تلك الأفعال المشينة!

بعدها ظلوا ماكثين فى منازلهم خجلا لا يستطيعون أن يخرجوا للشارع (ويوروا وشهم للحته)، ثم كان أن تفتق ذهنهم عن حيلة كى يذهبوا بهاعن أنفسهم الخجل، ويعودوا مرة أخرى للمجتمع.

جمعوا بعضهم برابطة المعلم، وساروا يطوفون أرجاء الحته وهم يصفقون، ويهتفون بأعلى صوت ممكن :" البطة، البطة! ". وبهذه الحيلة عادوا مرة أخرى للشارع والحته! طبعا هنا لا يمكن أن أصرح أو أكنّى بأسماء لأنهم كلهم الآن الآن أصبحوا فى وظائف محترمة وأرباب عائلات ومنهم من زوج أبناءه أو بناته ومنهم من يستعد!

تصادقت مع ضياء، جارى فى السكن كما فى المدرسة، تعرفت عليه فى الإعدادى، ولكن تعمقت معرفتى به فى أولى ثانوى حيث جمعنا فصل واحد (سوف يهاجر لأمريكا بعد أن ينهى الماجيستيرفى علوم الحاسب فى مصر، بعد أن يدخل قسم كمبيوتر بدلا من هندسة نووية كما كان مخططا) و اكتشفت أنه يحب الموسيقى مثلى تماما، حصة الموسيقى كانت حصة لعب فى الحوش! فقط من عنده موهبة ويعزف آله موسيقية هو الذى ينال اهتمام الأستاذ "مختار"، أما الباقى فحصة الموسيقى تعنى لهم اللعب فى الحوش. لم أكن أعزف ولكن ضياء كان يعزف شيئا ما على الماندولين، كان يستعيره من المدرسة، وفى المنزل يعلمنى كيف أضع يدى على الأوتار والخانات والريشة فى اليد الأخرى، كنت أنظر للماندولين وقتها على أنه آله جبارة!

حدث الأنفجار فى منتصف أولى ثانوى، سجل ضياء شريط كاسيت عليه "افتتاحيه إجموند لبيتهوفن وقال لى:

- خد الشريط ده اسمعه.

لم يزد على ذلك ولم أسأل ماذا يحتوى، توقعت أنه كالعادة بعض أغانى فيروزأو شيئا مشابها، وضعت الشريط فى الكاسيت وما أن بدأت أسمع حتى ذهبت فى عالم آخرً! ما هذه القوة.؟ ماهذا التعبير الموسيقى الذى لم أسمعه من قبل؟ ماهذه الأصوات التى تتداخل، ثم تنسحب، ثم تتعالى، ثم تنخفض، ثم تصدح كلها فى وقت واحد...

كانت هذه أول مرة شعر رأسى يقف من هول ما أسمعه!

قلت لضياء ما حدث فأخذ يضحك، لأنه كان حدث له ذلك ولكنه خشى أن يخبرنى حتى لا أظن به الظنون. وعندما غادرنا المدرسة إلى المنزل أعطانى شريطا آخر، سجل عليه سوناته للبيانو اسمها "Pathetique" لبيتهوفن أيضا، بدأنا فى التسجيل من البرنامج الموسيقى وتبادل الشرائط، لم

نكن نسجل كثيرا، لأننا كنا نسمع المقطوعة الواحدة عشرات المرات، ثم نأخذ فى تقليد بعض التيمات بأصواتنا البشرية، ثم بعد ذلك تطور الموضوع بحيث أننى كنت أقلد صوتا وهو يقلد صوتا آخر مصاحبا له، مثلا كنت أقلد صوت الكمنجات (بريما) وهو يقلد صوت الكمنجات (سكوندو) أو الشيللوهات أو ألات النفخ حسب المقطوعة.

وقتها لم تكن عندنا أدنى ثقافه موسيقية، لا نعرف ماذا يعنى التوزيع، فأطلقنا عليه من عندنا اسم" ورا "، أى الخلف أو الخلفية، وكنا نحاول أن نميز أسماء الآلات التى فى الخلفية، وماذا تقوله بالضبط، أضحت الموسيقى وقتها بالنسبة لنا عالما شفافا طاهرا لدرجة أننا نسينا مشاعرنا الجنسية تماما لفقرة طويلة، وكما هى العادة صارح أحدنا الآخر بالحقيقة الغريبة فاكتشف أن نفس الموقف عند الثانى. بعد فترة وبعد أن عادت لنا رغباتنا الجنسية ما كان منا نحن الاثنان إلا أن ذهبنا للعطار، واشترينا مهدئا للرغبة الجنسية مثل تلك التى يضعونها للجنود فى الطعام!

لم نكن نرغب بأن يشغلنا شىء عن الموسيقى!

أيضا بدأنا نتعرف كيف يؤلف الرحبانية موسيقاهما،وبدأنا مقارنتها بالموسيقى الكلاسيكية حتى تأكد لنا تماما أنهما ينهلأن منها، ولكن بطريقتهما. حتى الأغانى التى لحنها عبد الوهاب لفيروز كنا ندرك تماما التوزيع الرحبانى وفى أية أجزاء جاء التوزيع. مرة أخرى أود أن أوضح أن الموسيقى لم تكن للمتعة فقط، بل لحماية الذات من مجتمع تقليدى، ومن ناحية أخرى كانت تملأ الفراغ الروحى الذى كنت قد بدأت أعانى منه تجاه الحياة بصفة عامة وليس فقط المجتمع.

فى مرة جاء لنا صديقنا هشام وقال أنه يستمع بالساعات إلى الموسيقى الكلاسيكية ولا يفهم شيئا منها، ويرغب أن نفهمه كيف يمكن للمرء أن يسمعها ويتأثر بها؟ نظرنا لبعض، ثم قلنا له أنه فى الحقيقة لم يعلّمنا أحد، ونصحناه إن لم يشعر بها أن لا يشغل باله بها، لأن التذوق يأتى قبل الفهم فى الموسيقى، وربما ليس كل الناس عندها نفس الدرجة فى تذوق الموسيقى، ويمكنه أن يكتفى بأغانى أم كلثوم والأغانى الشائعة.

إلى الآن الآن لا أعرف إن كان ذلك صحيحا أم لا، وما هى الأعضاء المسؤلة عن التذوق الموسيقى؟ وما هو الفرق فيها عند من يتذوق الموسيقى وعند من لا يتذوقها؟! ولماذا يتذوق البعض ولا "يطيق" البعض الآخرالموسيقى الكلاسيكية الرفيعة؟ بدأت المقارنة بين الموسيقى الكلاسيك والموسيقى الشرقية أو بالأحرى الموسيقى فى الأغانى الشرقية، وطبعا

انتهت المقارنة لصالح الموسيقى الكلاسيك..كانت الهوة بينى وبين المجتمع تتسع يوما بعد يوم.

عندما أرغب بالتأخر خارج البيت فى الأجازات أو يوم الخميس مثل كل أصدقائى، يثور الجدال بينى وبين أمى :

- ليه لازم آجى البيت بدرى؟
- عشان لازم تسمع كلامنا
- مين اللى خلاها لازم؟
- ربنا
- واللى ما لوش دعوة بربنا؟
- يبقى كافر وحا يروح النار
- واذ ما كانش فيه نار، هايروح فين؟

فى مرة تأخرت وضربت بالأوامر عرض الحائط، فما كان منها إلا أن أغلقت الباب بالترباس وبالتالى أصبح المفتاح فى جيبى بلا فائدة، ضربت الجرس فأخذت تجادلنى من وراء الباب وتقول أنها لن تسمح لى بدخول المنزل، وأن علّى أن أبيت الليلة فى الخارج..! فى الحقيقة وجدت أنها فكرة مثيرة، ومشيت خطوات نازلا السلالم وأنا أفكر فى المكان الذى سأقضى فيه الليلة، فتحت الباب ونادتنى فرجعت ودخلت وبدأت حنفية النصائح واللوم فى ضخها المعتاد. هذا المثال - وإن بدا لطيفا - لم يكن خاصا بى فقط، فجيلى كله تربى على القهر والإجبار على الأنصياع، وغياب الحوار العقلانى، سواء فى البيت أو المدرسة أو السياسة أو الدين. يمكنك أن تجبر المرء على أن يسلك سلوكا هو غير مقتنع به، لكن لا يمكنك أن تنفذ إلى عقله، ووجدانه كى تعرف ماذا يضمره لك هذا الإنسان؟ وكيف ينظر إليك؟، وما هى خططه المستقبلية للتخلص من ذلك القهر إن لم يكن منك أنت شخصيا.؟

كثراً مانقرأ فى كتب السيرة أن شخصا أتى للنبى محمد وهو يضمر، له السوء وما أن تحدث معه الرسول حديثا عقلانيا منطقيا حتى انقلب الرجل فى ثانية، ودخل فى الإسلام، وأصبح يتمنى أن يفدى نبى الإسلام بنفسه وماله... لم يدخل أحد الإسلام وهو مكره، وإذا حكينا عن حكمته - صلى الله عليه وسلم - ومواقفه التى كانت الرحمة والتبشير بها يسبقان التخويف والحديث عن العقاب، سنجد نفس الأمثلة تتكرر فى المسيحية والبوذية، وكل الديانات الكبرى سواء سماوية أو أرضية، تلك الديانات التى آمن بها الإنسان من قلبه، وصدقها عقله قبل تحريف مبادئها، وتحويلها لسلطة قهر

وتخويف، واتباع أعمى من أجل إحساس مزيف بالأمان والانتماء للقطيع. لم يزدنى القهر والتخويف يوما إلا إيمانا بسلامة موقفى الباحث عن الحقيقة وسط الضباب والغيم، ضربت عرض الحائط بكل قيم المجتمع ومثالياته، ولم أكن لأقايض عقلى يوما بأمان زائف.

عندما يتحدث أبى معى وأخبره أننى سأنتهى من دراستى وأهاجر خارج مصر وأعيش خارجها حتى أموت..

- وها تتجوز واحدة أجنبية؟
- أنا مش ها تجوز خالص
- يعنى حا تعيش بوهيمى؟
- وليه لأ؟

كانت فكرة الأسرة و الأولاد بالنسبة لى أمرا سخيفا.. شىء ممل للغاية! كنت أتصور أننى يوما سوف أقابل حبيبتى، وأعيش معها دون زواج، ربما مثل سارتر وسيمون دى بوفوار! أن أهب نفسى لأطفال وأسرة لم يكن هذا أبدا من ضمن قناعاتى! (من سخريات القدر أن ما كنت أرفضه تماما هو ما سوف يحدث بالضبط بعد ذلك!)

فى صيف اسكندرية وعلى شاطىء سيدى بشر، كان عمرو يتردد على ديسكو هناك، حيث يتقابل البنات والأولاد، يتعارفون ويرقصون، كان يحكى لى كيف أنه قطع الشبشب لواحدة كان يراقصها، ويصف لى كيفية التعرف على البنات، ولكنى لم أجد فى نفسى رغبة أبدا لمرافقته، لم أذهب ولا مرة لسبب بسيط، أنا أنتظر حبيبتى ولا يمكن أن أقابل حبيبتى فى ديسكو! كنا نقضى فترة الصيف، ثلاثة أشهر الأجازة المدرسية فى الإسكندرية، فى فيلا جدى لوالدتى، كل بناته الخمسة وأولادهم و" شغالينهم "، يتجمعون فى فيلا المندرة. كان البرنامج واضحا ومتكررا لكنه أبعد شىء عن الملل.فى الصباح الذهاب إلى الكابينة ونزول البحر، كلنا كنا ننزل البحر، قبل انتشار الحجاب والتدين كان الكل ينزل البحر، أباء وأمهات، نساء ورجال، أطفال و شباب وشابات : الكل سواسية! لم يكن هناك من ينظر للأمر على أنه مضاد للدين، بل وأيضا كثيرا ما كنا نرى الطبقات الشعبية ونسائهن ينزلن البحر بالمايوهات دون استنكار أو خجل.

كنت انتظر دائما أن أقابل حبيبتى فى البحر، او على الشاطىء فى الليل ساعة التمشية و تناول العشاء من جاد فى سيدى بشر، أو الأمور فى جليم، أو دخول سينما صيفى حيث نتفرج على فيليمن أجنبى وفيلم عربى (إن

وافقت الأمهات على البقاء لمشاهدة الفيلم العربى بعد الساعة ١٢) مع آبائنا حين ينتهون من أعمالهم ويقضون معنا نصف يوم الأربعاء والخميس والجمعة، ثم نأكل جيلاتى أو جرانيتا بعد الخروج، بعد العصر لعب الراكت وكرة القدم، أو نزول البحر مرة أخرى، صيد السمك مع شروق الشمس، أو الغوص عند صخرة المندرة واصطياد الرتسة، حياة مرفهة، نعم، لكنى كنت أتطلع لحياة أخرى، حياه أقابل فيها حبيبتى، ونتعلم عزف الموسيقى الكلاسيك ونستمع لها فى الأوبرا ولا بد أن تكون أذواقنا متشابهة (لم أكن أطمع فى التأليف الموسيقى لأن ذلك أكبر من تصورى وقتها عن موهبتى الموسيقية)، نستمتع بمنظر البحر فى هدوء، ونتبادل قبلات الغرام فى عرض الشارع، نزهد فى "خلفة الأولاد"، نحيا ونموت من أجل أنفسنا فقط، ليس لنا فى هذه الدنيا مطمع، وليس لنا غرض، ثم تنتهى حياتنا فى صمت كما بدأت فى صمت، نموت دون أن نعرف سر الحياة! هكذا كنت أخطط أن تسير حياتى وقتها!

بعد أن انتشر الحجاب والتدين فى السنوات التالية امتنعت النساء والشابات عن نزول البحر وتم إغلاق الديسكو، و هدم الكابينة التى كانت على البحر، وتم بناء أبنية للشواطىء الخاصة التى لا بد فيها أن يدفع المرء من أجل أن يستطيع النزول للماء، أو أن تلامس أقدامه الرمال، ولا يمكنك أن تصطحب معك كرسيا أو شمسية، لا بد ان تؤجرهم من على الشط، تمت خصصة البحر بالتزامن مع انتشار التدين!

ذات يوم قرأت كتابا اسمه" مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن "، فبدأت أخطط للسفر، بعد انتهاء الدراسة، أعطيت الكتاب لضياء ليقرأه فأعجب به جدا، وقال لى أن مشوار الطب طويل،وكان وقتها أول مرة فى ثانية ثانوى يختار فيها المرء علمى أو رياضة. اتفقنا على أننا سندخل رياضة "عشان نخلص بدرى بدرى" وقال لى أنه سيدخل هندسة نووية لأنه قرأ فى الجرائد أن ذلك القسم ليس له عمل هنا، وأنه معمل تفريخ لأمريكا، قلت له لكن أنا أحب أوروبا وأكره أمريكا، قال لى :

- برضه ها تلاقى شغل نووى فى أوروبا!

مرة رأيت عصام فوزى الشيوعى الذى قرر أن يترك المدرسة - على ما أتذكر كان فى مدرسة المتفوقين بالقاهرة - جالسا على السور المواجه للمدرسة، كان يضم رجليه لبطنه ويدخن سيجارة، لم أتمالك نفسى إلا وأعجبت بشجاعته على أنه واجه المجتمع بما يريده، ولكن لم اقتنع يوما بالماركسية، لأننى لا أقبل أن يحد مذهب أو فكرة من حريتى فى التفكيرلا

وفى السلوك، لذلك لم أحاول أن أتعرف عليها خصوصا أن الأخ الأكبر لصديقى خالد النمر وأصدقاؤه الأكبر منا بثلاث أو أربع سنوات كان منهم شيوعيون، ومنهم متعاطفون مع الشيوعية،جادلتهم أكثرمن مرة ولم أقتنع بكلمة مما يقولون : المادية الجدلية والإقتصاد هو المسئول الأول والأخير عن كل الظواهر الموجودة فى العالم، والمادية الجدلية هى التى تفسر كل الظواهر...

- يعنى حبى للموسيقى راجع لأسباب اقتصادية؟
- طبعا،وضعك العائلى الاقتصادى الجيد هو الذى أمكنك من امتلاك كاسيت ووقت فراغ وآلات موسيقية.
- واللى عنده ده كله ولا يحب الموسيقى كما أحبها؟

(كنت قد اشتريت عودا وكمان وقتها وبدأت العزف تلقائيا دون أية مساعدة من أحد! فى مجال العزف الموسيقى كل من عنده موهبة حقيقية يمكنه أن يعلم نفسه بنفسه،لكن العزف المضبوط يحتاج لتعلم ودراسة)، ثم أنه كان عندى مبدأ من زمان وربما استمر معى حتى الآن الآن ،هذا المبدأ اسمه"مش عاوز وجع دماغ"، وبعدين أنا مالى ومال المجتمع والتاريخ؟ أنا أبحث عن نفسى، ونفسى هى التى بين جنبى، وهى ليست لها علاقة بالبروليتاريا الروسية ولا برأس المال! لكن الذى استفدته منهم هو سماعي لأغنيات نجم إمام لأول مرة، وايضا الليبى ناصر المزداوى فى ألبوم "شنطة سفر" وهو ما كان انجازا موسيقيا فيما يتعلق بالأغانى العربية وقتها.

فى مرة من المرات كنت أتناقش مع حسام النمر، رحمه الله،فأخذ فى التريقة والاستهزاء :

- يعنى ربنا فى الآخرة ها ييجى يقعد ومحمد على يمينه وعيسى على شماله ويقول ياالله بأه نبدأ الحساب!.....وهكذا. لم تعجبني لهجة الاستهزاء بالرغم من أنى لم أكن أؤمن بالدين أيضا، لكنى وجدت نفسى أقول له بجدية لأننى وقتها ودعت الإلحاد وقررت أننى سأعيش لا "أدرى"، قلت له :

- وافرض بأه رحت الآخرة ولقيت ربنا هناك،افرض جدلا أنه كان موجودا، ماذا ستقول له، و ما هو الدليل الذى استندت إليه فى إنكار وجوده؟

أنكرت وجود الله وعشت فترة ثانية ثانوى ملحدا تماما، أنكروأؤكد لنفسى ولبعض المقربين من أصدقائى عدم وجوده وأن وجوده هو وهم اخترعه الناس ليس إلا، بعد الحوار السابق وعندما عدت للمنزل قلت لنفسى

أنت لست ملحدا كما تقول، أنت لست متأكدا من وجوده أو عدمه فأنت لا "أدرى" ولست ملحدا. قد لا يدرك القارئ تماما الفرق بين الإلحاد والـ "لاأدرية". الإلحاد هو أن يؤكد المرء لأسباب عنده أنه لا يوجد إله لهذا الكون، أما الـ "لاأدرية" فهى أن الإنسان ليست عنده أدلة تؤكد وجود الله، وليست عنده أدلة تؤكد عدم جوده، وبالتالى فهو لا يدرى إن كان موجودا أم لا. على كل حال رفضت الإيمان بشىء مجهول، كان الله وقتها بالنسبة لى مجهولا، وأنا لا أستطيع أن أؤمن بالمجهول. قلت لنفسى وقتها أن الدين،أي دين سواء إسلامى أو مسيحى هو أمر لا يعجبنى، وبالتالى سوف أسقطه من حساباتى، لا يعجبنى أى مبدأ يحد من حريتى فى التفكير أو السلوك دون أن يكون هذا الحد نابعا من داخلى، وموافقا لشخصيتى، ولكن إذا كان الإله موجودا وقابلته فى الآخرة سوف أقول له أنه لم يبعث لى دلالة على أنه موجود، وعلى هذا لا يمكن أن يحاسبنى على أمر لا يوجد عليه دليل عندى، أما إذا أراد أن يحاسبنى على الخيروالشر، أنا لا اصنع الشر ولا الخير، أى محايد، إذا صح التعبير!

هل الله موجود؟ أو غير موجود؟ المشكلة أن كل ما يقال عن الله وتسلطه وتعذيبه للمخالفين، والحكمة من خلق الحياة، كلها أشياء لم يكن من الممكن أن أؤمن بها، أليس الإيمان أساسه الاقتناع؟ إذن لماذا يخلق الله العادل إنسانا ثم يعذبه لأنه لم يستطع أن يقنع عقله بالإيمان به؟ لا يوجد منطق فى ذلك. كنت أنظر لموضوع إيمان المجتمع بالله على أنه شىء أشبه بالإيمان بالعفاريت، هل رأى أحد عفريتا يوما؟ على الأقل لم أره أنا شخصيا، لذا لم يكن ممكنا أن أؤمن بالعفاريت..!

اشترى الأستاذ سعد حسن منزلاً قديما عبارة عن عدة طوابق، وعمل حفلة، ربما كانت عيد ميلاد أحد أبنائه، أصدقاؤنا، جمال وصلاح الأكبر منى وعلاء، صديقى وزميلى فى الفصل، تركنا نحن الأصدقاء الحفلة وصعدنا إلى السطح، كانت هناك حجرة مهجورة أبدى الجميع خوفهم منها لما سمعوه عنها من قبل أن بها عفاريت. لم يعجبن هذا الخوف، فما كنت أخاف من الله ولا من العفاريت ولا من المجتمع، وبعد دخولى فى الإسلام، ولولا أن الله ذكرها فى القرآن لما كنت آمنت بوجودها أبدا.

دخلت حجرة العفاريت الغارقة فى الظلام وسط تحذيرات أصدقائى، وغبت فيها فترة من الزمن ثم خرجت أمثل دور" المتعرفت "، أبرقت عيناى وأطلقت صيحات هى أقرب لشخص يزوم، بعث ذلك الرعب فى نفوسهم،

وعندما رأيت أن الأمر زاد عن حده ضحكت وقلت لهم أننى أمثل..! بعضهم لم يصدق هذا، وأكد لى مرارا فيما بعد أننى كنت" ملبوساً "...!

ومادامت العفاريت قد حضرت فلا أنسى يوم كنا فى رحلة المانيا وتشيكوسلوفاكيا التى حكيت عنها سابقا، كنا فى تشيكوسلوفاكيا فى بلدة ربما كانت كارلوفيافارى، وربما غيرها، ما أتذكره أنها كانت محاطة بالجبال، وفوق الجبال الدبابات السوفيتية، وعرفت وقتها أنها سوفيتية لأن أبى لفت نظرنا لذلك. فى الليل كانت هناك بعض الأنوار تضىء من فوق الجبل، أعجبنى المنظر، وقلت لأخى هانى إن تلك الأنوار ما هى إلا عيون العفاريت! كنت أمزح وأسخر من موضوع العفاريت المنتشر وقتها، ولم أكن أتصورأن الموضوع مخيف لهذه الدرجة إلا بعد أن أخبرنى بعدما كبرنا بالحادثة وكيف أننى أخفته!

فى يوم كنا ذاهبين للمدرسة الإبتدائى على أرجلنا لأن عم على العربجى لم يأت، ونحن نسير كانت هناك كلاب تنبح علينا مما أثار خوف أخى، ولكى أطمئنه قلت له أننى أعرف كيف أتحكم فى الكلاب..! قربت منها وأمرتها بأن ترفع ذيلها فرفعتة ثم أمرتها أن تخفضه فأخفضته، أو هكذا تهيأ لنا، قلت لأخى أرأيت كيف أن الكلاب" تسمع كلامى"؟ وعلى هذا المنوال سرنا طوال السكة وهو مقتنع تماما بأن الكلاب تسمع كلامى..! بعد أن رجعنا للمنزل حكى هانى لأمى التى حاولت أن تقنعه أنه لابد للكلب أن يهز ديله ويرفعه مرة وينزله مرة أخرى، ولكن دون جدوى فهو قد اقتنع تماما بأن الكلاب تسمع كلامى.

كما لم أكن أخاف من الله، ولا من العفاريت، لم أكن أخاف من الكلاب، فى مرحلة الإعدادى سوف يشترى أولاد خالتى كلابا بوليسية، كنت أنتهى من المدرسة و"أطير" لها كى أدربها على الجلوس والقيام والسلام، وإحضار الكرة بعد رميها، ووضع الطعام أمامها وهى جائعة، ثم آمرها آلا تأكل إلا بعد أن أعطيها الإذن بذلك وأمور أخرى كثيرة... كانت أياما لذيذة!

الذى أقصده هو أن الوهم يلعب دورا كبيرا فى حياة الإنسان، وقد اكتشفت ذلك مبكرا مما كان له الأثر فى أن أشك فى أى مبدأ يسير عليه المجتمع الذى كنت أعتقد وقتها جازما بأنه يسير وراء الخرافات، خصوصا أننى لم أقابل أحدا يستطيع أن يقنعنى - من الناحية العقلية وليس من خلال التخويف العاطفى بأن الله موجود وبأن الدين حقيقى وليس اختراعاً.

تعرفت وقتها على صديقى الأنتيم إسحق فى المدرسة (دائما ما كان لى أكثر من صديق أنتيم فى نفس الوقت) فأصبح ضياء للموسيقى والجد

لأننا كنا نأخذ الموسيقى بجدية بالغة، واسحق للضحك والفرفشة، بعد فترة أدرك ضياء مزايا عالم الفرفشة فشارك فيه بمرح، كنا لا نكف عن التريقة والضحك على أنفسنا، حينما حلق لنا العسكر (الذين يديرون المدرسة التجريبية التى تحولت بعد حرب ٦٧ لمدرسة عسكرية) شعرنا الطويل من وجهة نظرهم، أو بالأصح عملوا لنا "نقر ومطبات" فى شعرنا حتى نحلقه، أو نسير فى الطريق بهذا الشكل الغريب، أو على المدرسين الذين يظنون أنهم يفهمون المواد الدارسية التى يدرسونها لنا!

كل فترة تسيطر علينا" تيمة" معينة، نظل نرددها ونضحك من خلالها ضحكا هيستيريا وبلا سبب،سواء كنا وحدنا أو فى وسط درس، أو مع الآباء وهم ينصحوننا أن نلتفت لدراستنا، مرة سيطرت علينا أغنية "البت بيضة وانا أعمل ايه؟"، كنا بمناسبة وبدون مناسبة نكررها كأنها أيقونة، رفعت سماعة التليفون كى أطلب إسحق، ما إن رفعها وبدون انتظارحتى انطلقت أغنية "البت بيضة "إلى أن انتهيت، سمعت الطرف الآخر على السماعة يقول لى :

- -حاضر يا أيمن، هانده لك اسحق...! لم يكن اسحق على السماعة بل والده...!

كان اسحق لا يؤمن بالاعتراف الكنسى، وصرح لى بأنه لم يعترف ولا مرة واحدة فى عمره ولا ينوى ذلك أبدا، لكنه رجانى أن أكتم ذلك (لا أعرف إذا كان ما زال ملتزما بذلك أم لا)! تعرفت منه على بضعة مبادىء فى المسيحية، وأيضا لم أقتنع بها، لكنه كان مؤمنا بالمسيحية، اتفقنا أننا لن نتناقش كثيرا فى الدين حتى تستمر صداقتنا.

فى يوم من الأيام قال لى أحمد عطية (كان ترتيبه الأول على الفصل)، أنه يود لو أن اسحق يستسلم (يقصد يدخل فى الإسلام)، وأنه يرانى أصادقه، لذا فإنه يطلب منى أن أعرض عليه الإسلام لأنه طيب خالص وهو "يستخسره" فى المسيحية!

- وبالذات أنا!
- ليه لأ؟
- أظن أن كل واحد حر يختار الدين اللى يريحه
- ....!

لا أعرف إذا كان يعرف أننى لا أؤمن أم لا، بعدها بأيام فوجئت باسحق يخبرنى أن أحمد عطية حضر له فى المنزل ليلعب معه الشطرنج! بعدها بعدة أيام دعاه للإسلام وطبعا رفض برفق كما قال لى.

بعد ذلك بشهور، قال لى ضياء وهو يبدو عليه القلق :

- تعالى فى "حته بعيدة عايز أكلمك فى موضوع "

كان الوقت شتاء والجو بارداً، لكننا كنا معتادين على ذلك - ونحب - المشى بالليل فى البرد.

- أحمد عطية جاءنى وقال لى أن أمن الدولة تطارده، ويحتاج مأوى لعدة أيام .
- وماذا فعلت؟
- قلت له استنى ها طلع آخد رأى والدى، وبعدها نزلت و قلت له انه رفض .
- وقلت لوالدك بجد؟
- طبعا لأ!

قبل تلك الحادثة بشهر تقريبا ونحن نتمشى قابلنا زميلنا "عبد السلام حلاوة "، الذى كان قد انقطع عن المدرسة بلا سبب، سلمنا عليه ثم سألناه عن أخباره، عرفنا منه أنه يقيم فى الصحراء، واخذ يقول لنا أشياء غريبة جدا، مثلا لماذا نرصف الشوارع فى حين أن الله لو أراد لخلقها مرصوفة، وأننا يجب أن ندع كل شىء خلقه الله فى حالة، وأن السجائر التى ندخنها حرام، وأن الموسيقى حرام، وأن المعصية كفر! وأن سيدنا آدم قد كفر لأنه عصى ربه!

تركناه والدهشة تعلو وجوهنا، بعدها بعدة أشهر شاهدنا صورته فى الجرائد، وتحتها اسمه مقبوضا عليه فيما عرف فيما بعد باسم قضية "التكفير والهجرة" الذين قاموا بخطف العالم الأزهرى الشيخ الذهبى، وقتلوه لأنه يخالف مذهبهم المتشدد، وكتب أكثر من مرة يكشف زيف أفكارهم! بعدها بفترة بسيطة عاد "أحمد عطية" للمدرسة، لم نفتح معه الموضوع لكننا كنا فى غاية العجب، أما عبد السلام لم نسمع عنه بعد ذلك! عموما لم أهتم لأنه سواء دين أو تطرف، الأمر خارج الدائرة التى أهتم بها.

كنت أرغب فى مبدأ إنسانى، يحدثنى عن نفسى وعما يحدث لى أولا، وما يحدث حولى، لا مبدأ دينى يرشدنى إلى ما يجب عمله وما يجب تجنبه، كنت قادراعلى إرشاد نفسى، ولا أحتاج لمبدأ من الخارج، أو على الأقل لا

أقبل مبدأ يفرض متطلباته قبل أن يفهم ما بداخلى، ثانيا، لا أحب المذهب الذى يفرض علىّ ما يجب أن أفعله وما يجب أن أتجنبه، أنا الذى أضع لنفسى حدود ما أفعله وما أتجنبه لأن لا أحد يفهمنى، لذا وبطريقة هندسية : بما إنه لا أحد يفهمنى وأنا أفهم نفسى، إذن أنا الذى أضع الحدود.

كان الأمر بسيطا للغاية وقتها، وبعيدا عن الفلسفة وعن الاعتراضات الوجودية الملحدة وبعيدا عن عبثية سيزيف، وعن عدمية مورسو، لقد كان كل ذلك بمثابة الأرضية التى انطلقت منها أكثر من كونها مبدأ أسير عليه، الموضوع هو أنه لا يوجد عندى دليل على وجود الله، لذا فلن أؤمن بإله وبالتالى لن أؤمن بدين، لن أؤمن إلا بما أشعر به داخل نفسى ويقتنع به عقلى، "بس خلاص".

فى حوار مع م. عبد الغنى الذى كنت أحترمه كثيرا لأنه فى العام ٧٤-٧٥ لم يكن هناك من يطلق لحيته ويعلن التزامه أمام الناس كما فعل هو، بالرغم من اختلافاتنا كنت أحترم دائما من يأخذ قراره من" دماغه" بغض النظر عن رأى المجتمع فيه، قال لى :

- مشكلتك إنك مش قادر على نفسك...!

مقياس القدرة على النفس عند عبد الغنى هو أن تفعل أمورا تكرهها من أجل الوفاء بمتطلبات المثل الأعلى، وهو احترام الكبار واحترام التعاليم بغض النظر عن معقوليتها. لقد كان يعرف جيدا أننى غير مؤمن بدين، ولا بإله، ولكنه أصر على أن يحدثنى عن فلان الذى ينكر حديث الذبابة وهو وارد فى البخارى، وحديث كذا وحديث كذا وكذا، وهو يجد احترامه لنفسه فى أنه يؤمن بكل ذلك بدون تفكير ولا نقد، بل وينتقد فلاناً وفلاناً الذين يرجعون تلك الأحاديث ويراجعون نسبتها للرسول محمد - صلى الله عليه وسلم -.

حديث الذبابة هو أن هناك قول منسوب للنبى - محمد صلى الله عليه وسلم - فيما معناه أنه إذا وقعت ذبابة فى طعام المرء فلا يقوم برمى ذلك الطعام، بل يغمس الذبابة بكاملها فى الطعام لأن فى أحد جناحيها داء وفى الآخر شفاء. من المؤكد أن هذه ليست هذه هى الطريقة المناسبة للحديث مع شخص لا يؤمن بالله، ولكن هكذا جرى الحديث، لم أنزعج ولم أعارضه سوى بقولى أننى لا أؤمن بالله ولا بدين، فضلا عن أنني أؤمن بالبخارى والأحاديث الواردة فيه، لكن أعتقد أنه كان يحدثنى عن نفسه وعن إيمانه أكثر من رغبته فى إجراء حوار معى من أجل هدايتى، فأنا فى نظره" مش قادرعلى نفسى" وبس. لماذا لا أقدر على نفسى من وجهة نظره؟ لأننى

أدخن السجائر، وأعزف الموسيقى، وأقول أن الكبار معقدين ولا يقولون سوى السخافات، أما إنكار الدين والله فقد أتيت - من وجهة نظره أمرا إدًا..!

مرة دخل على فى حجرتى وأمسك العود وتفحصه ثم قال لى باشمئزاز : ما الذى تستفيده من الموسيقى؟ فى الحقيقة لم أستطع أن أرد لأنى لم أتخيل أن فى العالم سؤالا كهذا...!!

كل المتدينين الذين كنت أتحدث معهم كان الحوارمعهم هو "حوارالطرشان" ؛ هم فى واد وأنا فى واد، فرجعت لقاعدتى الذهبية" مش عاوز وجع دماغ "، وتوقفت عن أى مناقشة فى الدين، أو عن إثبات وجود الله، إذا كان موجودا فماذا ينتظر؟ لماذا لا يعلن عن نفسه لى بطريقة أستطيع أن أفهمها؟ هكذا كنت أقول لنفسى وقتها.

فى الحقيقة كنت مستريحا جدا، لطريقتى فى الحياة، لا أطلب مساعدة من الله أو من الدين، ولا من الأهل، ولامن أحد مطلقا، لا أنتظر ثوابا ولا عقابا، لكن للحقيقة كنت أشعر أحيانا بفراغ رهيب، وأن هذا العالم لا معنى له، خصوصا عندما توفيت "حنان البنان" رحمة الله عيلها وكانت تأخذ معنا درسا فى الثانوية العامة. أيضا كانت تاخذ معنا درسا زميله أخرى لن أذكر اسمها، كانت معجبه بشخصى المتواضع، وقد لمحت بذلك لى مرارا، وفهمت الأمر لكن تصرفت وكأنى لا أفهم، وفى مرة لفت نظرى زميل لنا فى الدرس لذلك الموضوع فأخبرته أنه واهم وأن هذا غير حقيقى، فكان بعد كل حصة يصر على أن يسترجع معى أفعالها التى تؤيد وجهة نظره، ولما لم أجد فائدة قلت له أننى أراها مثل أختى ولا توجد عندى لها عاطفة سوى الزمالة فى الدرس فقط.

لم تكن فكرة أن" أمشى" مع بنت هى الفكرة التى تثير اهتمامى بالمرة، لذا كنت أنظر لأصدقائى الذين يفعلون ذلك باستغراب جدا، إلى الدرجة التى أطلق على البعض منهم" نونه المجنونة" وهى شخصية ساحرة مجنونة فى قصص ميكى التى قرأناها فى طفولتنا، لم يكن وجه الاستغراب عندى هو مبدأ المشى مع البنات، ولكن مبدأ كيف يمشى مع واحدة وهو لا يحبها، ماذا يستفيد من ذلك؟! كان المهم عندى هو أن أجد حبيبتى والتى لا أراها بناظرى، لكن أسمعها فى موسيقى إلياس الرحبانى فى مقدمه فيلم حبيبتى، كان الحب هو الشىء الوحيد القادر على أن يعطى لى معنى للحياه ولكنه كان غائبا، لذا فكان الله أيضا غائبا، ليس الحب قاصرا على الحبيبة الأنثى فقط، بل حب المجتمع وحب الأهل وحب المدرسين.. حب كل ذلك لك وحبك لهم،هذا هو الحب الذى انتظرته طويلا.. يمكن أن أقول أننى أحببت

عالما خياليا لم يكن موجودا وقتها. للحق ليس وقتها فقط، فلم يحدث فى التاريخ البشرى سوى فترات قليلة أن تجمعت تلك العناصر كلها معاً، وعزفت معا سيمفونية الحياة، أما فى معظم الفترات فكان العالم يدق طبول الحرب، ويعزف موسيقى الموت والقهر و الاستبداد.

لم يكن معنى ذلك أننى لم أتأثر بالمراهقة وبأصدقائى، ولكن تأثرى بهم لم يتعد سوى مرة واحدة قمت فيها بعمل حديث مع بنت من بنات الجيران، وبعدها وجدت فى نفسى عزوفا تاما على الحديث معها مرة أخرى. كان زملائى فى المدرسة وأصدقائى يتبادولون خطابات الغرام مع الفتيات، ويكتبون أشعار الغرام لهن، وحاولوا أكثر من مرة أن يلفتوا نظرى لأهمية أن يكون لى مغامرات مثلهم، كنت أستمع لهم بإنصات ولكن لم أكن أنا الشخص المناسب للقيام بذلك، عندما أحاول أن أفسر ذلك الآن الآن وأسترجع مشاعرى وعقلي وقتها أجد أننى كنت مشغولا جدا..!وهذه الأمور تتطلب "فراغ بال وشخصاً رايقاً"، ولم أكن أنا ذلك الشخص. دائما فى حياتى وأنا شخص مشغول جدا، حتى فى أوقات فراغى، لم أتمتع يوما بذلك "الروقان" الذى كنت وما زلت أحسد عليه الكثيرين. كانت الحياة والموت والحب والموسيقى هى التى تسيطر على تفكيرى ومشاعرى وقتها، لذا فعندما حكى لى صديقى الأنتيم أيمن مصطفى فى إعدادى إسكندرية عن صديقه أمل الذى توفى، كان منظره وهو يحكى مؤثرا وكلامه حقيقى يوجع القلب مما جعلنى أشعر بتفاهة الحياة، وأشعر بالفراغ الروحى مرة أخرى، كنت متسقا مع عقلى ومشاعرى فى رفض الدين والله والمجتمع، ولكن ما هو معنى الحياة والموت إذا كان الدين باطلا والله ليس موجودا؟ من هو صاحب هذا السيرك؟ دائما يذكرنى أيمن مصطفى بألبير كامى، لكنه يتميز عنه بأنه وقتها كان يجمع النقيضين مؤمنا بالله وعدميا فى نفس الوقت، كان دائما يردد عنوان قصة إحسان عبد القدوس" لا شىء يهم" لذا فقد تآلفنا سريعا وما زلنا حتى اليوم.

سوف يتخرج أيمن مصطفى مهندس ميكانيكا ويعمل بشركة حكومية.. فى يوم من الأيام اتصل بى وأخبرنى أنه يريد أن يقضى عندى يوما فى الزقازيق، طبعا رحبت، لم أكن أتوقع أن تكون عنده مشكلة :

-يريدون منّى أن أمضى لهم على تقرير أن ماكينة عملاقة تحتاج للتكهين، وأن الشركة تحتاج لشراء ماكينة أخرى جديدة ثمنها ٤٥ مليون جنيه،ومن الناحية الهندسية الماكينة القديمة تعمل بكفاءة ولا نحتاج لأخرى

جديدة...لا أستطيع أن أخالف ضميرى،.....يعرضون علىّ رشوة قدرها مائة ألف جنيه حتى أمضى التقرير، وإلا فالنقل إلى مكان ناء!

كانت مشكلة عنيفة حيث لا بد للمرء أن يختار وما أقسى الاختيار! بعدها أخذ أجازة بدون مرتب وبحث عن عمل، تعثر فى أول الأمر وبعد فترة وجد وظيفة فى شركة قطاع خاص ومازال حتى الآن الآن يجدد أجازته السنوية من عمله الحكومى.

فى المذاكرة كانت طريقتى غريبة نوعا ما وأعترف بذلك، أحيانا كنت لا أفهم شيئا من المقرر الدراسى، لايمكن أبدا أن أسأل مدرس أو صديق، هناك حل واحد فقط لتلك المشكلة، أن أقرأ الشيء الذى لا أفهمه ولو عشرة أو عشرين مرة مع نفسى فى المنزل، وإذا لم أفهم الحل بسيط، أحفظه، أما أن استعين بصديق أو مدرس فهذا ما لم يكن يخطر على بالى! بعد ذلك سوف أكتشف أن الخطأ لم يكن راجعا لى بقدر ما هو راجع لنظام تعليمى متخلف، يقوم على تدريسة أساتذة لا يفهمون من العلم الذى يدرسونه سوى القشور، هذا ما قابلته فى جميع مراحل الدراسة باستثناءات معدودة منها أستاذ التاريخ فى أولى ثانوى، الأستاذ عبد المطلب الذى كانت حصته ينصت لها الجميع وكأن على رءوسهم الطير! ما كنت أرغب وقتها أن أستفسر عنه ليس الأشياء المفهومة والبديهية ولكن كنت أريد أن استفسر عن : لماذا وكيف أصبحت مفهومة وبديهية؟ فى الثانوية العامة وأثناء درس الرياضة سألت الأستاذ إيميل : لماذا نستخدم هذه المعادلة الرياضية فى حل المسألة؟فقال لى لأن هذه المسألة لا بد أن تحل بعلم التفاضل، وهذه المعادلة هى معادلة تفاضلية، ما كان منى إلا أن بادرته على الفور وسألته : ولكن ماذا يعنى التفاضل؟ أسقط فى يده وسكت، ثم قال لى بهدوء وبنغمة (تون) الشخص المحنك ذو الخبرة : "ذاكرها كده عشان تنجح"...!

" بعد أن ظهرت نتيجه الثانوية العامة سألنى أبى عن الكلية التى سألتحق بها، قلت له أننى أرغب بدراسة الموسيقى، رفض رفضا قاطعا وقال:

عشان تسهر كل يوم وتشتغل مع الرقاصات وتييجى البيت آخر الليل سكران...!

عبثا حاولت أن أفهمه أن الموسيقى الكلاسيكية هى التى تهمنى، وأن هناك مجال عمل فى الأوركسترا السيمفونى، فأجابنى :

- -الكلام ده بره، مش هنا..! اختارحاجة تليق بابن أستاذ جامعة، وخلى الموسيقى هواية

عندما أفكر فى الحديث الذى دار بيننا وقتها أمام البحر فى كابينة المندرة، أقول أن كلامه من الناحية المنطقية والواقعية والمجتمعية هو كلام لا غبار عليه، ولكن من الناحية الإنسانية ليس كذلك..!

لابد أولا من مقدمة حول أبى ثم بعد ذلك أشرح لماذا كان هذا الكلام خطأ من الناحية الإنسانية.

لم يكن أبى متسلطا فهوالذى اشترى لى الكمان والعود، ولكن الذى كان متسلطا هو المجتمع الذى وضع الموسيقى فى درجة سفلى، ونظر للفن عموما نظرة سلبية. لم يكن أبى سوى منتج من منتجات هذا المجتمع المتسلط، بالرغم من انفتاحه العقلى وتأثره بأفكار الحرية والديمقراطية التى شاهدها فى جولاته الكثيرة حول العالم. مرة حكى لى أنه كان مع عميد كلية من كليات الطب فى أمريكا، دعاه الرجل لمنزله للعشاء وأخذه بسيارته هو وأمى، وفى أثناء الحديث عرف أبى منه أن السائق هو ابنه، وأنه يدرس الطب فى نفس الكلية التى هو عميدها، وأنه يعمل عنده فى تلك الساعات كموظف Part time وهو عمل توفره الجامعة لطلابها فى الأجازات. دخل الجميع المنزل، وظل الابن فى السيارة ينتظر خروج أبى وأمى، كى يعود بهما للفندق مرة أخرى. أثناء العشاء حاول أبى مرارا أن يقنعه أن يدخل ابنه المنزل، ولكنه رفض تماما، وأصر على أن الوظيفة تقتضى بأن يبقى بالسيارة، تعاطفت زوجته مع أبى وقالت له إنهما ليس لهما سوى هذا الشاب، ورجته أن يحاول مع زوجها أن يكون أكثر لطفا مع ابنهما، كل ما نجح فيه أبى هوأن يقنعه بأن يبعث له طبقا به طعام ليأكله وهو فى السيارة..!

هذا التناقض كنت ألمسه دوما فى إعجابه بأفكار الحرية والديمقراطية وفى نفس الوقت ألمس اصطدام تلك الأفكار التى أعجب أنا بها أيضا مع قيم وعادات المجتمع المصرى، لذا كنت اقول له دائما أننى لست مستعدا أن أعيش وفقا لمتطلبات المجتمع، وأننى سأحيا وفقا لمتطلبات نفسى فقط،كان لا يرد سوى بأكليشيه محفوظ :" لما نشوف "..!!.

والآن الآن نعود للسؤال السابق، لماذا كان كلامه صحيحا وخطأ فى نفس الوقت؟ أولا ومن الناحية الواقعية السكر والسهر مع" الرقاصات" ليس أمرا قاصرا على الموسيقى ولا الفن، فكثيرا من الرجال المحترمين فى نظر المجتمع يمارسون كل ذلك، ولكن فى السر، وكل الأوساط المحيطة بهم

تعرف ذلك، ولكن لا تعترض طالما بقى الأمر فى السر، تبدأ الاعتراضات بشدة حين يخرج الأمر للعلن، يحدث هذا سواء فى مصر أو خارج مصر، وليست الفضيلة أمرا خاصا ببلاد بره. كل ما فى الأمر هو أن المجتمع لا ينظر هناك للفن نظرة سلبية مثلنا و فضيلته التى لابد أن ننظرلها بإعجاب هى الصراحة مع النفس، كان أبى يريد أن يريحنى ويريح نفسه من انتقاد المجتمع، وهذا أمر خاطىء تماما، وقطعا ولا يوجد منطق وراءه سوى أن يحيا المرء عبدا للمجتمع، لكن فى نفس الوقت لم يكن أبى مخطئاً تماما إذ أنه اقترح حلا بديلا وهو أن أمارس الموسيقى كهواية، وهو حل وسط، ولكنه حل وسط يناسبه ويناسب مكانته الإجتماعية والعلمية ولا يناسبنى أنا كمراهق وشاب يريد الاستقلال بحياته، ويرغب فى ممارسة ما هومؤهل للتفوق فيه بشكل فطرى... سنرى بعد ذلك كيف أن هذا الحل الوسط لم يكن مناسبا، عموما أنا لست ضد الحلول الوسط، فالحلول الوسط هى دلالة على النضج، ولكن بشرط ألا تكون مبنية على الخداع والمقدمات الخاطئة، وألا تكون فى مصلحة طرف دون طرف.

رتب لى أبى إستمارة الرغبات بعد أن أقنعت نفسى بالعافية برأيه، لأننى على كل حال وبعد أن أحصل على الشهادة الجامعية سوف أغادر مصر للأبد، لن تفرق خمس سنوات أضافية، هكذا قلت لنفسى، لكنى كنت أيضا مخطئاً كما سنرى.

دخلت الهندسة وقلبى وروحى مع الموسيقى، فى الأيام الأولى وفى المدينة الجامعية بمنطقة سموحة بالأسكندرية نزلت من غرفتى لصالة الطعام كى أتناول الغداء، كان يحتوى على علبة سلمون ضمن أشياء أخرى لا أتذكرها، جلست قبالة شخص لا أعرفه، وحاولت مرارا أن أفتح علبة السالمون بالفتاحة الصغيرة المرفقة فلم أستطع، مد أحمد عمر يده فناولته العلبة فقام بفتحها وعرفت منه أنه فى أولى كهرباء، ومن بعدها صارت بيننا صداقة.

كان أحمد عمر من القاهرة ويجيد السباحة وربما كان حاصلا على بطولات إذا كانت ذاكرتى صحيحة، كان أحمد ينتمى لشلة لذيذة عرفنى عليها، فوجدت نوعا من التنفيس فى العلاقات السهلة التى كانت بينهم، فالشلة فيها الفتيان والفتيات والتعامل يتم بدون هذا" الهبل" الذى كنا نعيش فيه فى الزقازيق والذى يتلخص فى السرية وخطابات الغرام، والحب المزيف بين الفتيان والفتيات، والذى رفضت أن أشارك فيه تماما. أحب أحمد عمر زميلة، له اسمها جيهان، وظلا على حبهما حتى تزوجا بعد التخرج.

من النوادر التى حكاها لى أحمد عمر أنه أثناء مظاهرات ١٨،١٧ يناير والتى أطلق عليها السادات زورا وبهتانا" انتفاضة حرامية "، كان يسير فى الشارع وقامت المظاهرات وفى أثناء عودته للمنزل وقفت سيارة بوكس ونط منها اتنين مخبرين ومسكوه ووضعوه فى السيارة..! سألته بشغف :

- وعملت إيه؟

هدأت السيارة من سرعتها عشان كان فيه ملف، قمت وعملت نفسى كأنى بعدل الحزام واديت العسكرى اللى واقف جابنى بالبوكس ونطيت من العربية وجريت جرى مجراهوش حمار فى مطلع ورجعت البيت...

جدع والله، بس احنا كده عايشين فى بلد بتهرج..!

لا.. دى بلد بايظة..!

كنت مع أيمن مصطفى الذى حكيت عنه سابقا فى سكشن واحد فتصادقنا، قال لى أيمن بعد أن توطدت بيننا الصداقة أنه أول ما رآنى قال فى نفسه لابد أن أصاحب البنى آدم ده، وهذا ما كان، ببساطة عرفنى بنفسه وصرنا بعدها صديقين حميمين. تعرفنا فى السكشن على بسمة وبسمة،فتاتان ظريفتان لهما روح مرحة،كان التعامل بيننا بسيطا ومريحا، فى مرة خرجنا سويا من الكلية ومشينا و" سرحنا" فى الحديث حتى أوصلناهما للمنزل، وكان أخو واحدة فيهما ينظر من الشباك، سلمنا عليه واحنا تحت البيت، فعزم علينا أن نطلع ونشرب حاجه، ولكن شكرناه وانصرفنا.

هذه العلاقات السهلة البسيطة كان لها أكبر الأثر فى أن أقتنع أكثر وأكثر بأننى لم أقابل حبيبتى بعد، لم أكن شابا منعزلا عن الحياة وعن الفتيات، وأخترع لنفسى خيال وأوهام عن حبيبتى، وأحيا به الليالى الطوال، وأكتب به الأشعار،كنت إنساناً رومانسياً نعم، لكن لم أكن هذا الشخص الذى كان عليه البعض ممن عرفتهم، ولم أكن" أبحلق" فى كل فتاة عرفتها كى أرى إذا ما كانت حبيبتى أم لا! كنت صبورا جدا وبسيطا جدا، عندما أرى حبيبتى سأعرفها دون مجهود، ودون فذلكة وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك بسنين..!

فى يوم كنت أحمل فيه المسطرة حرف T وبدلا من أن أستقل الأوتوبيس ذهبت للكلية مشيا على الأقدام، وفى طريق الحرية (جمال عبد الناصرسابقا) شاهدت بنتاً "ماشيه تدّلع وده يعاكسها وده يقول لها كلمتين وهى ماشيه تبتسم، قلت أجرب حظى..!" عاكستها بكلمتين فاستجابت، بعد

أن تعرفت عليها وعرفتها بنفسى لم أجد كلاما أقوله، أكثر من هذا لم أقتنع لماذا فعلت ذلك أصلا، وبدون سلام ولا كلام ولا استئذان تركتها و عديت الناحية الأخرى لشرب خروب من محل مشهور وهى تتابعنى بنظرات الذهول..! لم أكن أنتظر من معاكستي لها أنها سوف تستجيب، وحين استجابت لم أعرف ما يتوجب على أن أقوم به بعد ذلك وكانت هذه أول وآخر مرة أعاكس فيها فتاة فى حياتي (حتى الآن الآن ولكن من يضمن المستقبل!)، كنت أرغب فقط فى تجربة ما يقوم به الناس ليس أكثر. كنت فى مرحلة المراهقة، و أعتقد أن من حق المراهق أن يقوم بالتجربة ولو مرة واحدة فى حياته...! سوف تكون هناك تجربة أخرى ولمرة واحدة أيضا، وأيضا تمت من باب التجربة ليس إلا، سوف أحكى عنها فى الفصل القادم.

نعود للموسيقى والكمان الذى كان يرقد تحت السرير، التحقت بمعهد إبراهيم عبد الله للهواه بجوار المنشية كى أوفق بين دراسة الهندسة ودراسة الموسيقى. لم أستمر بالمعهد سوى شهر واحد، تركته وأنا أشعر بإحساس فظيع..! لقد خدعت..! كان المدرس الذى يدرس لى الكمان هو أصلا مدرس عود، وكان مستواى وأنا أعزف سماعى وارتجالى أفضل منه. تركت المعهد وأنا موقن أنه لا سبيل لإتقان العزف سوى كلية أو معهد متخصص مثل الكونسيرفتوار أو تربية موسيقية. كرهت الكلية وكرهت نفسى وشعرت أن الحل الوسط ما هو إلا وهم.

حين أتذكر ذلك الأن، أقول أنه ربما كانت هناك فرصة لنجاح الحل الوسط - دراسة الموسيقى والهندسة فى نفس الوقت - إذا كانت النوايا صادقة، ربما لوكان أبى أكثر تفاهما لبحثت معه طريقة للإتحاق بمعهد ذي مستوى مرتفع للهواة مثل الكونسرفتوار، أو ربما كان يمكن أن أبدأ دراسة الموسيقى "بجد" مع مدرس خاص حاصل على شهادة و درجة حقيقية فى الموسيقى، ولكن كانت هناك القطيعة بينى وبين أسرتى فى ذلك الوقت وهذا هو الخطأ الأكبر، لا أعفى نفسى من المسؤولية لكن مراهق ذو سبعة عشر عاما لا يمكن أن يتحمل نفس مسئولية الآباء والأمهات. على كل حال سوف ينجح الحل الوسط ولكن بعد تجارب وتضحيات عديدة، سوف تقتنع الأسرة وأقتنع أنا أنه لا توجد مصلحة لأحد فى فرض رأيه على الطرف الآخر، وأن المستفيد الوحيد سوف يكون غائبا دائما، ولن يستفيد شيئا فى الحقيقة، أقصد أراء وأفكار المجتمع، هذا التحول سوف يستلزم وقتا وتجاربا وحكمة.

الذى حدث فى هذه السنة هو أمر مريع، مازلت أعانى من آثاره حتى اليوم فى المنام وفى الندم الذى هو أمر غير مجد بالأساس، الذى حدث هو

أننى كرهت الهندسة وكرهت الكلية وكرهت نفسى، سألت نفسى إلى اين أنت ذاهب؟ سوف تتخرج من الكلية وتهاجر لأوروبا وتنخرط فى العمل كالحمار.. أما الموسيقى فستبقى ذكرى جميلة معك إلى يوم الممات..! هذا هو الحل الوسط وهذا هو الجمع بين الهندسة والموسيقى..!

أحسست باغتراب عن نفسى لم أشعر به من قبل، كان من نتيجته أن حضورى فى الكلية أصبح نادرا، ومذاكرتى أصبحت منعدمة، كنت أخرج من المدينة الجامعية كى أجلس أمام البحر بالساعات ثم أعود للغداء ثم بالليل أخرج مرة أخرى لأى مكان، سواء وحدى أو مع بعض الأصدقاء، ثم أعود بالليل كى أنام، وحتى حين أذاكر لم تكن المعلومات تدخل فى دماغى. كان الرسوب أمرا حتميا، و كانت أول مرة وآخر مرة أرسب فيها فى حياتى، كنت أظنها سوف تكون تجربة فظيعة، لكنها لم تكن كذلك، لقد تقبلتها ببساطة، لكن بعد أن تخرجت وتزوجت ما زالت ذكرى تلك الأيام محفورة فى عقلى الباطن، وتظهر فى المنام وتعذبنى بلا سبب واضح. لقد أخطأت وأعترفت أمام نفسى، ولكن ربما لأنى لم أعترف أمام أبى وأمى؟ ربما لشعورى بالذنب لأننى لم أكبح جماح حزنى وغضبى بما يكفى، فكانت النتيجة هى الرسوب؟ ربما يكون السبب هو أنه لم يكن ينبغى أن أتقبل السقوط بالبساطة التى تقبلته بها، وعلى هذا تأتى لتنبهنى بأننى لا ينبغى أن أتقبله مرة أخرى ببساطة مماثلة، وربما يكون السقوط هنا رمزاً، والمنام يستعير الرمز على طريقة الأحلام ويعيد ما حدث مرة أخرى بطريقة رمزية ليس المقصود منها الماضى بل الحاضر والمستقبل؟ لا أدرى.

قبل أن أختم هذا الفصل أتذكر حادثة مروعة أخرى ولكن من نمط مختلف. كان يدرس الطب ويسكن فى آخر الصف الذى فيه حجرتى فى المدينة الجامعية، كان لطيفا ولا تبدو عليه إمارات العدوان، أحيانا كان يأتى لغرفتى وأحيانا أذهب لغرفته، نتبادل الأحاديث العادية والسجائر السوبر، وفى يوم غاب عن المدينة الجامعية وسألنا عنه دون جدوى، بعد فترة شاهدنا صورته فى الجرائد وتحت الصورة قصته المأساويه : كان "برهامى" له قريب عائد من العمل بالخارج، ظن هو وقريب آخر له أن قريبهم هذا عاد محملا بالنقود، ويحملها معه فى شنطته السامسونيت التى لا تفارقه. اتفقا معه على ميعاد يزورانه فيه بعد أن علما أنه فى ذلك الميعاد سيكون وحيدا، بعد أن شربا معه الشاى قتلاه، وفتحا الشنطة السامسونيت فلم يجدا فيها سوى ستين جنيها مصريا فقط لاغير..! تم الحكم عليهما بالإعدام، وعرفنا بعد ذلك من الجرائد أيضا أنه تم تنفيذ الحكم فيهما.

٢- فرنسا

" سافر تجد عوضا عمن تفارقه
وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب "
الإمام الشافعى

هذه السفرية كانت حجر زاوية فى حياتى، ولكن من الضرورى توضيح للقارىء الكريم معنى" انصَبْ" فى الأبيات السابقة، النصب (بفتح النون والصاد وتسكين الباء) فى اللغة الفصحى هو التعب والمشقة، والمقصود بلذيذ العيش فى النصب هو أن الحياة تحلو مع الاجتهاد، والاجتهاد لابد وأن يصاحبه مشقة، لكن مشقته فى النهاية لذيذة، خصوصا حين تتوج بالنجاح. ومن المعلوم أن الإمام الشافعى قد ارتحل من العراق لمصر، ونشر فيها مذهبه، لذا فهذه الأبيات هى خلاصة تجربته مع السفر، وبقية الأبيات جميلة ومؤثرة وسهلة الفهم لمن أراد الإطلاع عليها فى النت أو فى كتب التراث.

فى الأجازة الصيفية بعد إعدادى هندسة اسكندرية فى العام ٧٨، كان لابد أن أخرج من هذا الجو الكئيب، كى أختلى بنفسى بعيدا عن الجميع، عن الكلية والأسرة وأصدقائى وكل من أعرفهم، سافرت لفرنسا لسبب بسيط وهو أنه كانت الفيزة المتوفرة وقتها هى لفرنسا، والمفارقة هنا هى أنى كنت أكره اللغة الفرنسية فكان سفرى لفرنسا بمثابة إعادة مرة أخرى لعلاقتى بتلك اللغة، ومحاولة تقبلها ومحاولة لتطبيق المثل "مامحبة إلا من بعد عداوة "، وهذا ما كنت أرغب فيه فعلا، أن أفتح صفحة جديدة مع اللغة الفرنسية، ولكن الذى حدث هو أن مثلا آخر هو الذى تحقق وهو :" تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن "! وبما أنى لم أشعر يوما بالرغبة فى إجادة اللغة الإنجليزية، بالرغم من أن دراستى الهندسية كلها كانت بتلك اللغة، وها هى محاولاتى مع اللغة الفرنسية تبوء بالفشل مرة أخرى، سوف ألجأ للغة الألمانية فى المستقبل.

كانت تذكرة الطائرة وقتها بمبلغ ١٦٥ جنيها، وكان الفرنك الفرنسى يساوى خمسة عشر قرشا دفعها لى والدى، بالإضافة إلى أربعمائة جنيه

مصرى مصاريف جيب، كانت هذه ثروة وقتها! كم يساوى الفرنك الفرنسى الآن الآن ؟ ومن هو المسؤل؟

ركبت طائرة *ALITALIA* إلى إيطاليا، ترانزيت ومنها بدلت الطائرة بأخرى متجهة إلى مرسيليا، لم تكن هناك طائرة متاحة لباريس إلا بعد بضعة أسابيع، ولم أكن أرغب بالانتظار، بعد أن شارفت الطائرة على الهبوط فكرت فى سؤال لم أفكر فيه من قبل، أين سأقضى ليلتى الأولى؟ لم أسافركما يسافر الطلبة وقتها، كانوا يرتبون أمورهم أنهم سوف ينزلون "ضيوفا" على بعض أصدقائهم القدامى، أو على الأقل يحملون فى جيوبهم بعض العناوين لبعض المعارف، أو الأقارب لم أفعل ذلك وفضلت السفر وحيدا.

جاء الفرج سريعا وبشكل غير متوقع، تعرفت على فتاة بجانبى من قبرص، ذاهبة لمريسليا إلى عمها الذى يقيم هناك، تتكلم الفرنسية والإنجليزية، وتصيف كل سنة فى مرسيليا، شرحت لها موقفى، فتطوعت أنها سوف تساعدنى فى الحصول على مبيت بسعر مناسب. بعد أن انتهينا من الجوازات أظن أننا ركبنا أتوبيس إلى وسط مدينة مرسيليا، قالت لى أن عمها ينتظرها فلابد أن نذهب إليه أولا، وهذا هو ما حدث، كان ينتظرها بسيارته، بعد أن سلمنا عليه وضعت شنطة السفر فى سيارة عمها، قالت له أننى غريب وأول مرة أزور فيها مرسيليا، لذا فهى ترجوه أن ينتظرها قليلا حتى تجد لى مكانا مناسبا للمبيت، وافق الرجل برحابة نفس، وبدأنا رحلة البحث عن فندق مناسب.

أقل سعر وجدناه وقتها هو ٨٠ فرنكاً فى الليلة، كان هذا مبلغا كبيرا، اقترحت على أن أنزل فى بيت من بيوت الشباب حيث الأسعار معقولة، وافقت، فدخلت محل واشترت لى كتيباً به أماكن بيوت الشباب بمرسيليا، وسارت معى للأوتوبيس وطلبت من السائق أن ينزلنى فى العنوان الموجود فى الكتيب وهو أقرب بيت شباب. ودعتها وشكرتها بعمق وبدأت رحلتى مع فرنسا. كانت هذه آخر مرة يساعدنى فيها أحد فى موضوع اللغة إذ إننا كنا نتحدث بالإنجليزية، بعدها سوف يكون علىّ أن أتذكر ما تعلمتة من الفرنسية فى المدرسة الإبتدائى، وأيضا فى الثانوى كلغة ثانية.

كانت الليلة فى بيت الشباب تكلف عشرة فرنكات فرنسية، ووجدت ذلك سعرا مناسبا خصوصا أن السعر يشمل استخدام الثلاجة والمطبخ،حيث يمكن للمرء أن يشترى ما يلزم من مأكولات ويحفظها فى الثلاجة، لم يكن هناك حاجة إلى أن يكتب المرء اسمه على طعامه، كل واحد يعرف طعامه ولا

يتعدى على طعام الآخرين، أيضا بالنسبة للمطبخ، كان من الضرورى بعد أن يستخدم المرء أدوات المطبخ من حلل وشوك وسكاكين وخلافه، أن ينظف ما استخدمه ويضعه فى مكانه مرة أخرى. لم يكن هناك من يراقب ذلك، فكل من فى بيت الشباب بدوا لى وكأنهم مبرمجين بصورة تلقائية على تلك الأفعال، وبصورة تلقائية دخلت أنا أيضا معهم فى تلك البرمجة الثقافية الحضارية، لم أستغرب ولم أقارن ما يحدث بمصر، لأنى اعتبرت أن هذا هو الوسط الطبيعى الذى ينبغى أن يعيش فيه البشر عيشة مشتركة، لقد كنت مؤهلا بصورة فطرية لذلك النظام، سوف يحتل النظام عندى بعد ذلك أهمية قصوى!

كان الموجودون ببيت الشباب كلهم من الأجانب عدا فردين، طالب طب تونسى يتحدث الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والعبد لله. فى الأمسيات كان هذا الفرنسى يترجم ما يقوله كل منا إلى الآخر، أحيانا كان" يتخلبط" ويترجم للإيطالى بالأنجليزى، فيذكره الإيطالى بلطف أن يستخدم اللغة الإيطالية، أو يترجم لى بالإيطالى فأقول له :" النبى عربى"!.

كان هناك عنبر للشباب وآخر للشابات، وأيضا فى الحديقة يمكن للمرء أن ينصب خيمة للمبيت نظير خمسة فرنكات، ولكنى فضلت أن أدفع عشرة فرنكات وأبيت فى العنبر.

طيلة خمسة عشر يوما كان نظامى ثابت لا يتغير، فى الصباح أستقل الأوتوبيس، وأنزل وسط المدينة للتعرف على معالمها الرئيسية، مارسيليا مدينة خلابة تقع على البحر الأبيض المتوسط، وعند العصر أرجع لبيت الشباب أتناول طعام الغداء، وأستريح قليلا، وفى المساء تبدأ حلقات التعارف بين الموجودين فى البيت.

بعد حوالى أسبوعين وقعت مفاجأة غير سارة، بينما كنت أجلس تحت نافورة أستمتع بالشمس الفرنسية، وأتأمل الحمام و السياح من شتى أجناس الأرض، إذ جاء شاب وجلس بجوارى، وسألنى إذا ما كنت مصريا، فرددت عليه بالإيجاب، فبدأ يحدثنى أنه مقيم منذ ثلاث سنوات بدون فيزة، ويعمل أعمالا متقطعة حسب الظروف، وبدأ يسدى لى النصائح فى كيفية البحث عن العمل. كان مكتئبا لكنه مجبر على البقاء بفرنسا لأن مصر ليس له فيها مكان، على حد قوله. ثم فجأه اقترح على أن نزور مكتبة قريبة. لم أكن أجيد القراءة باللغة الفرنسية، ولكنى وافقت على أساس أنه من الممكن أن يشترى المرء خريطة أو معالم مرسيليا أو ما شابه.

الصدمة جاءتنى أن المحل كان يبيع مجلات جنسية! لم أتحمل المناظر التى رأيتها على الأغلفة فقلت له أننى سوف أنتظره فى الركن

المقابل، خمنت أنه فى الركن المقابل سوف يكون هناك ما هو أفضل، ذهبت إلى الركن المقابل فإذا بى كمن يخرج من" نقرة ليقع فى دحديرة"!

فى الجهة المقابلة كانت مجلات الشذوذ الجنسى، وجاء لى رجل عجوز أخذ يتكلم معى ويفتح مجلة ويشير بيده إلى ما تحتويه ويضحك ضحكات غريبة!ما كان منى سوى أن تركت المحل وغادرت بلا رجعة، ونسيت أمر صديقى المصرى الذى تعرفت عليه لمدة نصف ساعة ورجعت بسرعة إلى بيت الشباب! ما هذا القرف يا فرنسا؟ لقد أصابتنى بالغثيان وكدت أتقيأ!

نسيت تلك الواقعة، ورجعت للروتين اليومى وأنا أخطط أن أترك مرسيليا إلى باريس. يوما بعد يوم استعدت لغتى الفرنسية فى التعامل اليومى، وبدأت أفكر أن الحياة هنا جميلة، فلماذا الأنتظار حتى انتهى من الجامعة كى أهاجر؟ و لماذا يجب على أن أكمل دراستى فى الهندسة، لماذا لا أبدأ فى دراسة الموسيقى بدلا من الهندسة؟ لن يكون أبى موجودا هنا حتى يسأل إذا ما كنت قد عزفت وراء الراقصات وعدت للبيت آخر الليل سكرانا أم لا..لن يكون هنا المجتمع المصرى ولا قيمة ولا مبادئه.. أنا هنا مستقل وحر.

سألت صديقى التونسى عن شروط الالتحاق بالجامعة الفرنسية، فأمدنى ببعض المعلومات، وأعطانى عنوان الجامعة كى أذهب وأسأل بنفسى، اختمرت الفكرة برأسى فبعثت بخطاب لأسرتى أخبرهم فيها بخطتى الجديدة.

بدلا من أن أذهب للجامعة بدأت رحلة البحث عن عمل بعد أن سرقت نقودى..! بحثت عن عمل حتى أستطيع أن" أحوش" مصاريف الإقامة والدراسة، وقبل ذلك حتى أستطيع أن أحصل على الطعام... عملت بمزارع العنب مع مجموعة من المصريين لفترة، ثم أنهينا جميعا عملنا مع الباطرون (صاحب المزرعة) نظرا لقسوته وفظاظته، وهكذا التحقت بركب الطلبة المصريين الباحثين عن العمل ونسيت بيت الشباب.

لاحظت أنه فى مناطق مزارع العنب فى جنوب فرنسا وما حولها الناس محافظون نساء ورجال ويشبهوننا فى تحفظهم.

عودة الإيمان

فى فرنسا عاد لى إيمانى من جديد بعد طول غياب، أو على الأصح بدأ العودة على دفعات. على ضفة نهر فى مارسيليا لم أعد أذكر اسمه وبعد أن سكرت من خمر مسروقة، سرقها رفاقى المصريون فى فرنسا من سوبر ماركت، كانت أول وآخر مرة أذوق فيه الشمبانيا (لوقدرلى أن أدخل الجنة

سوف أطلب شمبانيا!)، كانت لذيذة بخلاف البيرة التى لم أستسغها مطلقا، بعد ان سكرت و خرفت فى الكلام وقلت كلاما لم أكن أتوقع أبدا أن أقوله.

كنا حوالى ثلاثين أو أربعين مصريا نقيم على ضفة نهر فى مارسيليا، كل منا له Sleepin bag وهو عبارة عن شنطة قماش مضاد للمطر "يدوب" على مقاس الإنسان، ولها سوستة، يدخل فيها المرء ويشد السوستة وإذا أمطرت السماء يختبأ الواحد منا فى" الزنط" الملحق بها ويشد السوستة! كانت فعالة جدا فى مواجهة المطر.كنا نحيا حياة تعاونية، بمعنى أن نتقاسم الطعام وهو أساس الحياة، ربما وجد شخص عملا لمدة يوم أو اثنين، يعود بالنقود التى اكتسبها لنا، يشترى طعاما ويوزعة على المجموعة. فى أحوال قليلة كان هناك من يجد عملا دائما، فيعود لنا ومعه كمية كبيرة من، الطعام ويوزعها علينا، لم يكن النظام التعاونى مجانيا، بل على النوتة، والحساب هنا ليس نقود، بل الحساب بالساندوتش! من يقرضك ساندوتش مربة يكتب فى النوتة عنده أنه أقرضك ثلث أو نصف رغيف مربة فى اليوم الفلانى، ويصبح دين عليك يجب أن ترده" لما تفرج "...!

كان معنا طالب مغربى ذو صوت حسن، و كنا فى المساء نسلي أنفسنا بالغناء، فيقوم كل فرد بغناء أغنية للمجموعة، وكان يختار دائما أم كلثوم، ومما كان يزيد الأمر جمالا ومتعة أنه يغنى الكلمات بلهجة مصرية ممزوجة باللهجة المغربية، فيعطى الكلمات لونا جديدا.

مرة وجد هذا المغربى عملا لمدة يوم، كسب منه مائة فرنك، أنفق نصفها فى دكان حلاقة مما جعل المصريين يتهمونه بالجنون، النصف الآخر اشترى بها طعاماً من السوبر ماركت عبارة عن خبز و شيكولاته "سايحة" فى برطمان زجاج، ونسكافية ضمن أشياء أخرى وأعطاه لأمين مخزن الطعام، الذى ما إن رأى الشيكولاته حتى قال له يؤنبه :

-هو احنا لا قيين ناكل لما تجيب لنا شيكولاته ونسكافيه..!

على كل حال كان يعملها لنا ساندوتشات ويعطى كل واحد نصيبه إلى أن نفدت الشيكولاته، فكنا نأخذها مادة للهزار، ونوصى بعضنا بعضا أن من يعمل ويكسب لا بد أن يأتى لنا بشيكولاته...!

فى يوم غاب صديقنا المغربى ثم جاء فى المساء يحكى لنا مغامرته الليلية مع رجل قام بتعديل نفسه بحيث أصبح كالمرأة، ويلبس سوتيان وملابس داخلية ويتزين كالمرأة تماما..! علل ذلك بأنه منذ ثلاثة أشهر لم

يمارس الجنس مع امرأة، ولما لم يجد سوى هذا المخنث قال لنفسه" أحسن من مفيش "..!

كانت تلك الحكاية بالنسبة لنا حكاية مروّعة..! والذى زاد الأمر غرابة هو أنه كان إنسانا مهذبا ومتعاونا معنا، وكان يتعجب منا أننا استنكرنا سلوكه!

من المفاجآت التى أسعدتنى فى هذا المعسكر المفتوح أننى قابلت علاء، وعندما أخبرته بأغنية فيروز" الأوضة المنسية "، قال لى أنه يعرفها وأخذنا نغنيها سويا..! هذه الأغنيه كنت أفضلها كثيرا، ولكن لسنوات لم أكن أجد فى مصر من يعرفها..

أيضا كان معنا سيد وكل من هو سيد فهو أيضا" عرب "، كان من المحلة وإنسان جدع جدا، ما يميزه أنه صاحب روسية لا مثيل لها فى المعسكر..! عندما يتخانق فالكل يعمل ألف حساب لرأسه...!

مرة دخل علينا المعسكر ناس أغراب، ليسوا مصريين ولا فرنسيين، معهم موتسيكلات ومطاوى، وقامت خناقة دافعنا فيها عن أنفسنا وقام" عرب" بالواجب.. اللى يمسكه ما كانش يستحمل فى إيده غير روسية واحدة...! كان واحد منهم طويل جدا، ما كان من" سيد" إلا أن نط لفوق كما ينط لاعب الكرة، ولكن الهدف هنا لم تكن الكرة، بل رأس المعتدى، وهوب، جابه الأرض بروسية واحدة..!

ما أن رأى المعتدون ذلك حتى انسحبوا، وعاد السلام لمعسكرنا المفتوح...!

بعد ذلك تسمع التريقة المصرية اللى على أصولها :

- إيش تاخد الريح م البلاط...!
- دول كانوا فاكرين تحت القبة شيخ...!
- كانوا داخلين على طمع..! بس لو فتشوا المعسكر كله مش ها يلاقوا مائة فرنك ماسكة نفسها...!
- ده لو استنوا شوية كنا قطعناهم، وخرطناهم مع البطاطس فى الصفيحة...!

لم يكن معنا حلل، فكنا نطبخ البطاطس فى صفيحة..!

كلما تذكرنا النصر وحكينا عنه فى الأمسيات، تذكرنا معه روسية" عرب"...!

مرة جاء لنا زميل نافش ريشه ومعه شابة فرنسية، سألناه عمن تكون فأجاب بفخر وثقة :

- دى صاحبتى وها تقعد معانا فى المعسكر بتاعنا...!

لم يكد ينتهى اليوم إلا و اكتشف زميلنا أن صديقته الفرنسية فاقدة الذاكرة، وعقلها ليس سليما تماما...! فى الصباح التالى قام هو بإعداد المائدة وزودها حبتين من مخزونه عشان خاطر "المزمازيل" الفرنسية، ما أن بدأنا فى تناول الإفطار حتى صاح :

- دى بتاكل حاف، من غير عيش...!

حاول أن" يسربها" لكنها صعبت علينا، وقال له البعض :

- دى مش عارفة هى مين ولا ها تروح فين، سيبها ورزقها ورزقنا على الله، وحاول تعودها تاكل عيش...!

لم يكن معنى أننا بلا عمل أننا ننتظر من يأتى لنا بالطعام ممن نجحوا فى الالتحاق بعمل ما، وهم كانوا قلائل على كل حال، بل تشكلت "فرق" لذلك متخصصة فى إحضار الطعام، كانت هذه الفرق قليلة العدد لأن معظم من كان بالمعسكر كان يرفض أن ينضم لها، ويعتبروها "شحاته"، لكن ساعة الأكل "ما يتوصوش"...!

لم أتحمل فكرة أن أنتظر كى آكل على الجاهز، فانضممت لفرقة إحضار البطاطس والطماطم والخيار من المزارع، كى يقوم آخرون بطبخها بعد أن نعود. كنا حوالى خمسة أو ستة، مشينا فترة لا بأس بها حتى وصلنا لمنطقة المزارع، كانت الفكرة أننا نطلب أو "نشحت" كما تسميها من أصحاب المزارع بعض الطماطم والخيار والبطاطس لأننا جوعى، ونريد أن نأكل، كان المعتاد أن يعطى صاحب المزرعة لنا بعضا من ذلك، لسوء حظنا فى ذلك اليوم رفض أصحاب المزارع إعطاءنا شيئا.

لم تكن الفكرة غريبة أو مستهجنة، إذ أنه وقتها كنت تستطيع أن توقف أى شخص فى الشارع لا تعرفة ولا يعرفك وتطلب منه سيجارة. وهذا كان يحدث معنا أيضا، أى شخص يدخن فى الشارع معرض لأن يطلب منه الآخرون سيجارة، وليس معنى هذا أن هذا الآخر "يشحت". لم يكن هذا يحدث من العرب فقط، لكن أيضا الفرنسيون كانوا يطلبون منا حين يكون معنا سجائر، و كان هذا هو الحال أيضا مع أصحاب المزارع.

وصلنا لمزرعة بها سور من السلك، ولم يكن هناك أحد، دخلنا من الباب المفتوح وأخذنا نقطع من الطماطم والخيار ما يكفى لحياة

المعسكراليومية، فلم يكن معنا سوى شيكارة صغيرة. لم تكن فكرة السرقة تدور فى ذهننا وإلا لكنا انطلقنا وجرينا من أول لحظة رأينا فيها السيارة، لكن كنا ننتظر أن يأتى لنا فنشرح له الموضوع، وكان معنا قليل من النقود، تشاورنا ما بيننا وتوصلنا إلى أننا ربما نعطيها له جزاء ما قطعناه من مزرعته، أو على أسوء الفروض نترك له ما قطعناه...!

انتظرنا حتى نحاول أن نفهمه أننا لسنا لصوصا لكننا نرغب ببعض الطعام، لكن صاحب المزرعة لم ينتظر حتى يأتى إلينا بل أطلق علينا كلبا بوليسيا من السيارة، هذا الكلب البوليسي جرى بسرعة الريح، وسبق السيارة فوجدنا أنفسنا وجها لوجه معه..!

بطريقة غريزية وبدون اتفاق، جرى البعض فى اتجاه فجرى الكلب وراءهم، فجرينا فى اتجاه آخر ولفتنا نظر الكلب إلينا فترك الكلب الفريق الأول وجرى وراءنا، فقام الفريق الأول بالمناداة على الكلب فعاد إليهم مرة أخرى، كل ذلك شتت الكلب ومكننا من أن نجرى ونخرج خارج المزرعة من الباب المفتوح...!

بقى واحد منا داخل السور، كان مشاركا معنا فى لعبة التشتيت، لكن تأخر، فحاصره الكلب وهجم عليه فما كان منه إلا أن نط السور المرتفع وانضم لنا، وحتى هذه اللحظة لا أعرف كيف تمكن من ذلك فقد كان السور السلك مرتفعا بحق..! أخذنا فى الجرى واختبأنا فى بيت مهجور، وأخذ صاحب المزرعة يبحث عنا بلا جدوى، فعاد لمزرعته، وعدنا لمعسكرنا بلا طماطم ولا خيار ولا بطاطس...!

عندما عدنا وجدنا الفرقة المتخصصة فى سرقة الطعام من السوبر ماركت قد عادت، ولكن هذه المرة لم يكونوا محملين بالطعام فقط، بل أيضا بشمبانيا..!

أكلنا وشربنا شمبانيا ثم حدثت الحادثة الأهم. وهى السكر، ثم قراءة القرآن بعد الإفاقة ثم بدأ التفكير فى الإيمان وفى الله.

بعد أن أفقت من سكرى، وكانت هذه أول مرة أسكر فيها، احتقرت نفسى، ما الذى جعلنى أهذى هكذا؟ وخمرة مسروقة، وأكل مسروق كمان!؟ فقدت وقتها احترامى لنفسى، كان ذلك وقتها شيئا مهما جدا.

وجدت بجوارى مصحفا، لا أعرف كيف جاء، ربما كان لواحد من المصريين حيث كنا كما قلت من قبل حوالى أربعين مصريا" نايمين أكلين شاربين" على ضفاف ذلك النهر، ولابد أن كثيرا منهم كان معهم مصحف.

فتحت المصحف، ربما من باب فعل شيء مختلف، ربما لسبب آخر، لا أعرف بالضبط ما الذى دفعنى لذلك، بدأت فى قراءة سورة البقرة حتى وصلت لمقطع وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا (قلت فى نفسى : طبعا أنا فى ريب) فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، وفإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها النار والحجارة أعدت للكافرين ".

ما شعرت به وقتها أن الله نفسه يكلمنى شخصيا بهذه الآيات. لقد أعلن عن نفسه لى أخيرا. إنها تناسب عقلى الشكاك الذى يحتاج دوما لدليل واضح، دليل منطقى يستبعد القناعات المسبقة. إن كنتم فى ريب...فأتوا...

هذا هو ما صدمنى بشدة لدرجة الإعجاز. قالو "الجمل بينط المدنة، آدى الجمل وآدى المدنة"، "فأتوا". لا بد أن أحدد موقفى من هذا الطارئ الغريب، لا يمكن أن أتجاهله، فى الحقيقة لم أؤمن وأخضع مباشرة، لكن قلت لنفسى أن الموضع أصبح" جد "، و أخذت قرارا : لابد أن أبحث فى القرآن. ربما كان هذا هو أهم قرار فى حياتى. سارت الأمور بعد ذلك سيرا عجيبا جعلنى أمتلك الفرصة والفراغ والتهيئة النفسية والكتب كى أدرس القرآن حتى أحدد موقفى منه، هل هو كلام الله أم هو تأثير الشمبانيا التى أسكرتنى؟

ما صفعنى أكثر هو أننى كنت أحب الشعر حبا جما، فى المدرسة كان هناك نصوصاً للحفظ ونصوصاً للاطلاع، فى الشعر الجاهلى وما شابه كنت أحفظ الاثنين،بالرغم من أن شعر المطالعة كان ليس مقررا، و العلاقة بين الشعر و الموسيقى علاقة وثيقة جدا! فى الحقيقة كنت مفتونا بالشعر القديم وبالذات الجاهلى، لم أكن أهتم بالقواعد والنحو الموجود بالشعر، بقدر اهتمامى بهذه الدفقات الشعورية التى تعبر عما بداخل الشعراء.

لذا، الأمر الأول الذى خطر بذهنى أن هذا تحدى شخصى لى، وأن الله يتحدث لى أنا شخصيا، الأمر الثانى الذى خطر لى بعد ذلك هو أن هذا ليس شعرا، ولا يشبه الشعر، وليس كلاما عاديا، أنا أستطيع أن أقرر أن هذا ليس كلام البشر....!

بعد أن واجهت فرنسا ونظرت فى عينها على طريقة الكابتن إيهاب فى فيلم موبى ديك عاد لى إيمانى، لكن ليس ذلك الإيمان الصافى لطفل ذى أحد عشر عاما فى سنة أولى إعدادى، وليس إيمان التسليم المطلق كما قرأت عنه فى أدبيات وكتابات و أشعار المتصوفة بعد ذلك، ولكن إيمان الباحث الذى صدمته الحقيقة، بدأت رحلة البحث عن الله وعن الدين دون أن أتخلى عن عقلى، كان الذى تخليت عنه هو دفاعاتى التقليدية ضد الدين، وضد الله،

واقتنعت تماما بأن هذا الذى قرأته هو كلام إله، وليس كلام محمد، ولكن كيف توصل محمد لهذا الكلام الإلهى؟ هذا ما كان يتوجب على أن أبحثه.

بعد أن وقعت "واقعة الويسكى" وقراءة القرآن، وبداية التعرف على الدين من خلال القرآن، بعدها لم أتحمل الحياة وسط المصريين فى هذا المعسكر البائس، فانطلقت وحدى، هائما على وجهى لا أعرف إلى أين أذهب..! لا أتذكر أين قضيت ليلتى، ربما على رصيف القطار، ربما فى مكان آخر، بعد الظهر ظللت أمشى بلا هوادة حتى المغرب، وجدت كنيسة تقدم الطعام مجانا للمشردين والعجزة، دخلت وشربت شوربة ساخنة، وأكلت حتى شبعت، وانطلقت للشارع مرة أخرى.

غريب فى بلاد الله خلق الله لا أعرف لى هدفا سوى أننى فى اليوم التالى ركبت أتوستوب مع شاب وفتاة ألمانيين، تحدثنا بالإنجليزية ففهمت منهما أنهما فى أجازة، ويقضياناها هنا فى فرنسا،أخبرتهما أن هدفى هو بلدة "أفنيون" حيث أننى قد سمعت أن بها عملا. بعد أن أوصلانى لأقرب نقطة نزلت فى الطريق السريع حتى أشاور لسيارة أتوستوب أخرى، لكن فجأة وعلى الأوتستراد الفرنسى أحسست بجوع شديد، فنزلت من على الأسفلت على منحدر ترابى نحو تفاحة معطوبة كى أسد بها جوعى، وجدت النمل يأكل من التفاحة فصارعته ولما لم أجد فائدة أكلتها بنملها! على كل حال أفضل من الطعام المسروق من السوبر ماركت.

المهم أنى وجدت عملا أخيرا، فعملت لفترة فى مزرعة عنب، ثم قلت لنفسى لا بد أن أذهب للجامعة فى مارسيليا لأن العام الدراسى كان على الأبواب، فى مارسيليا كانت المفاجأة أننى وجدت خطابا من عائلتى يخبروننى فيه أنهم يقبلون أن أحول من الهندسة إلى الموسيقى إذا رغبت فى الرجوع لمصر!

سوف أقفز قليلا لما بعد فرنسا : بعد ذلك سوف أتعرف على مبدأ اسمه" القدر" فى الإسلام من خلال قصة نبى الله موسى بن عمران وفتاة، الذى تقول بعض المراجع إنه يوشع بن نون، وأيضا من خلال الآيه الكريمة التى تقول" وجئتك على قدر يا موسى "، حين كلمه الله جهرا فى جبل الطور، سوف أعتبر أن الله كلمنى شخصيا، ولكن من خلال القرآن،وذلك فى" موقعة الشمبانيا "...!

بدأت أفكر مرة أخرى، وانتهيت إلى أن الرجوع لمصر أفضل خصوصا بعد أن أدركت صعوبة الحياة وصعوبة العمل بدون تصريح، خصوصا أننى سأحول من هندسة للموسيقى كما أرغب.كان هناك الحل الذى

لجأ إليه البعض وهو الزواج من فرنسية من أجل الحصول على الجنسية وعلى تصريح عمل، طبعا رفضت هذا الحل رفضا باتا.

.. كان حسام خريج لغات وترجمة الأزهر هو واحد ممن تعرفت عليهم في فرنسا وكنا نتبادل السندوتشات فى المعسكر وأيضا الآراء، سألته عن الدين ولماذا هو مهتم جدا به لهذه الدرجة، ولماذا هو يحب مصر إلى هذه الدرجة،كان نقاشا موضوعيا لكن كان همنا الأكبر هو البحث عن العمل، لكن على الأقل وجدت من أتحدث معه فى أمور ما كنت أستطيع أن أتحدث فيها مع أحد فى المعسكر.

بعد عودتى لمصر بحوالى ثلاث سنوات سوف يزورنى فى الزقازيق، ولكن العائلة كلها كنا مسافرين، فترك تليفونه وعنوانه عند الجيران، وعندما عدت وأخبرونى سافرت له فى شبرا الخيمة كى أزوره فى منزله، وعرفنى بزوجته الفرنسية، عرفت منه أنه تزوج فرنسية ويعيش هناك وأنه نازل مصر أجازة وراجع تانى، قال لى أثناء الزيارة:

أنت اتغيرت كتير، اتغيرت للأحسن..!

لم يكن يعرف أننى آمنت بالله والتزمت بالإسلام، وعندما أخبرته أنه ربما يكون ذلك هو السبب فرح كثيرا. كانت زيارة موفقة لكن كالعادة، يقابل المرء كثيرين فى الحياة ثم ينساهم و ينسونه وتمر الأيام، بعد فترة يتمنى أن يقابلهم مرة أخرى، وربما يتمنون هم أيضا ذلك، ولا يوجد حل سوى الأنتظار، انتظار المصادفة أو القدرأو كما شئت أن تطلق عليها من أسماء...!

حجزت للعودة لمصر وفى فترة الأنتظار هذه، بين الشك واليقين، بين الشك فى سلامة قرار العودة لمصر، وبين اليقين من استحالة الاستمرارفى العمل بدون تصريح، وقعت حادثة الفتاة اللعوب التى سيأتى ذكرها بعد ذلك.

عدت لمصر وما أن وطئت قدماى خارج أرض المطار "وتشعبطت" فى أتوبيس عام قلت فى نفسى :" أنا إيه اللى رجعنى للبلد دى تانى؟"، كان الفرق كبيرا جدا.

هنا لا بد أن أوضح قليلا الحالة التى كنت عليها، كنت ساخطا جدا على مصر وأنا فى فرنسا، فعندما كنت مع المصريين ونسمع مثلا أغنية صباح" سلموا لى على مصر سلموا لى" كان الجميع يتأثر جدا، بل والبعض منهم يبكى، أنا للحقيقة لم أكن أشعر سوى بالامتعاض فى كل مرة كنت أقارن الحياة فى فرنسا والحياة فى مصر كانت النتيجة لصالح فرنسا.

هناك حادثة نسيت أن أذكرها، بعد أن حجزت تذكرة الطيران كان لا بد أن انتظر عدة أيام حتى يأتى ميعاد السفر، فى تلك الأثناء كنت مقيما فى فندق رخيص فى مرسيليا يوجد به بعض المصريين والجزائريين وجنسيات أخرى كثيرة. فى يوم جاء لى شخص مصرى وقال لى إن صاحب المطعم الذى يعمل عنده يطلب منه عمالة إضافية، سألته عن طبيعة العمل فقال لى أنه اشترى فيلا جديدة ويريد "توضيبها".

فى الصباح ذهبت معه وانتظرنا فأتت سيارة تقودها زوجته وأقلتنا إلى الفيلا. مكان ساحرعلى مرتفعات مرسيليا، تطل على البحرفى منظر بديع،" الفيو" واسع جدا خصوصا والجبل يبدو متدرجا من تحتنا، يحتضن الفيلات فى حنو ووداعة.

أخبرنا صاحب العمل أن هناك صخرة كبيرة والمطلوب مننا هو أن نعمل معا لتكسيرها أولا، ثم حملها والصعود بها إلى سطح البوابة الرئيسية لأن الفيلا تحت سطح الأسفلت، ثم أخيرا الذهاب معه إلى مكان التخلص من الحجارة وإلقائها هناك.

بدأ صاحب الفيلا فى تكسير الحجر بنفسه عن طريق مثقاب تكسير حديث، وبدأنا نحن نحمل الحجارة التى يكسرها، ونصعد بها للسيارة الفان، حتى إذا امتلأت اختار واحداً منا يذهب معه كى يلقى بالحمولة فى المكان المخصص لذلك. آخر اليوم كانت الصخرة قد تم تكسيرها وتحميلها وانتهى عملنا.

فى العصر أخذنا استراحة فإذا بالسفرة مرصوصة فى الشرفة التى تطل على المنظر البديع السابق ذكرة ثم جلسنا جميعا، نحن وصاحب العمل وزوجتة وأبناؤه، وأناس آخرون لا أعرف إن كانوا أقاربه أم ضيوفا؟ صبت لنا زوجتة كئوس النبيذ المعتق اللذيذ والذى كان ألذ من نبيذ المزرعة الطازج، وأكلنا الأكل الفرنسى الأصلى بعد أن أخبرها زملائى أننا مسلمون، ولا نأكل لحم الخنزير، وعلى هذ لم يقدموه لنا، طبعا لم أقل لهم أننى غير مسلم وفى نفس الوقت لم أجد فى نفسى أية رغبة فى أكل الخنزير، لا فى تلك المرة ولا فى أية مرة أخرى، فالموضوع لم يكن عنادا مع الإسلام. وفى آخر النهار ركبنا معها السيارة ووصلتنا إلى المكان الذى أخذتنا منه.

كان اليوم كله جميلا ولافتا للنظر، لكن الذى لفت نظرى حقا هو أنه كانت هناك كتابة – بالفرنسية طبعا – على مدخل الفيلا مكتوب فيها :"

عفوا!على الزوار الذين يحضرون بعد الساعة التاسعة مساء أن يخففوا زمن الزيارة! ".

بعد أن تزوجت وكلما اضطررت لإستقبال ضيوف بدون موعد سابق بعد الساعة التاسعة، كنت أقول لنفسى ماذا سيحدث إذا كتبت يافطة مثل السابقة على باب شقتى؟ حتى الآن لم أجرؤ... هل أجرؤ يوما؟ لا أعرف!

٣- عودة الأيمان

" ومن أحسن دينا من أسلم وجهه لله "

قرآن كريم

عدت من فرنسا، واستقبلني أهلي استقبالا حافلا، مما جعلني أستغرب جدا، من المفترض أنني أعلنت عن رغبتي في الأنفصال عنهم، والحيا حياة مستقلة، وأيضا لأنني كنت أسبب لهم المتاعب بتصرفاتي غير المفهومة أو الغريبة، فلماذا إذن يرحبون بي؟

توجهت بصحبة أبي لكلية التربية الموسيقية بالزمالك وبعد أن اجتزت الاختبارات لم يتبق سوى أن أنتظم في العام الدراسي الذي لم يتبق عليه سوى أيام معدودة، لأني كنت قد أخذت استثناء من عميد الكلية أن أؤدي الاختبارات بعد انتهاء موعدها، خصوصا عندما علم أنني قادم من كلية الهندسة، بعد أن اجتزت الاختبارات قال العميد لأبي :" ابنك موهوب موسيقيا وسيكون له مستقبل معنا ". هذه النبوءة لم تتحقق مع الأسف.

عدت للمنزل وأنا كلي دهشة واستغراب، كيف يتحقق لي ما جاهدت من أجله في فرنسا ولم أحقق منه شيئا، كيف يتحقق هكذا ببساطة وسهولة؟ ماذا إذا لم أكن قد عدت لمارسيليا وبالتالي ما كنت سوف أعلم بالخطاب، وقتها لم تكن هناك موبايلات، وأنا لم أكن مهتما بالاتصال بأهلي تليفونيا لأني كنت أعتبر أني انفصلت عنهم فعليا، وما خطابي الذي بعثته لهم إلا كي أخلص ضميري، أو بالأحرى، إعلان الأنفصال الرسمي!

قضيت الأيام المتبقية على موعد بدء الدراسة وأنا في حالة تأمل لما حدث، وفجأة وجدت نفسي مريضا، لا أستيطع أن آكل ولا أستطيع أن أدخن، لقد أصبت بالصفراء! بدأت الدراسة ولم أتمكن من الحضور وربما كان هذا خيرا.

فتحت مكتبة المنزل فوجدت كتاب" في ظلال القرآن" لسيد قطب، استغربت جدا عندما وجدت والدي ووالدتي يواظبون على الصلاة، لم أكن أعهد فيهما ذلك من قبل! لم أكن قد أخذت قرارا حاسما بأن أتحول إلى الإسلام، ولكن قراري وقتها كان أن أبحث عن الله في هذا الدين وهو

الإسلام، وعليه اعتبرت نفسى "باحث عن الله فى الإسلام". هذا هو توصيفى لنفسى وقتها، بعد ذلك سوف أبحث عنه فى ديانات متعددة، ولكن هذا يخرج عن موضوع الذكريات.

فى خلال الأسابيع الثلاثة التى انقضت حتى تم لى الشفاء كنت قد قرأت أجزاء لا بأس بها من تفسير الظلال. على الأقل تعرفت على مبررات واقعية للأوامر والنواهى، وشيئا من فلسفة الإسلام ونظرته للكون والحياة، كان هذا بالنسبة لى مهما جدا حتى أستطيع أن أقترب من الله.

بدأت أنتظم فى الدراسة فى إعدادى تربية موسيقية، تصادفت مع سامى جمعه - الآن الآن هو أستاذ الكمان و رئيس قسم الوتريات بالكلية - وأخذ يشرح لى ما فاتانى، كان من الصعب جدا أن أتابع لولا مجهوداته القيمة التى بذلها معى برحابة نفس، أيضا لم يكن أى من الزملاء يتأخر عن أي سؤال كنت أوجهه لهم بشأن المقررات الدراسية التى فاتتنى.

تعرفت على صديقى عازف التشيللو أحمد، كان فى السنة الثانية، وفى مرة كنت فى مسرح البالون بصحبة أبى وأمى وفوجئت به يمر من أمامنا، ويلقى علينا التحية ثم ينضم للعازفين. قال لى أبى" صاحبك بيعزف مع الفرقة، ما تجيب الكمنجة وتعزف معاهم انت كمان!". طبعا لم يكن هذا ممكنا إذا لم يكن قد مر على فى الكلية سوى بضعة أشهر، بعد أن قابلت أحمد فى الكلية فى اليوم التالى سألته كيف يعزف مع الفرقة وهو ما زال طالبا فى الكلية؟ أخذ يفهمنى أن المهم هو المستوى، وأن الطالب المجتهد من الممكن أن يبدأ العزف مع فرق المحترفين فى السنة الثانية ويكسب مبالغ" كويسة". (كلية التربية الموسيقية خمس سنوات، إعدادى وأربع سنوات).

تأقلمت على الوضع سريعا ولحقت زملائى بعد أن استذكرت كل ما فاتنى، وبدت الأيام تسير الهوينى وكأن كل أحلامى قد تحققت، خصوصا أنه وفى الزمالك تنفست بعضا من الحرية التى كنت افتقدها فى الزقازيق، فالعلاقة بين الشباب والشابات علاقة عادية ليس فيها أثر للتكلف أو التحفظ الذى كان يضايقنى كثيرا، وأيضا يمكن للمرء أن يرتدى ما يريده دون نقد أو استهجان، بالنسبة للشباب الأزياء ليست مسألة ثانوية ولكنها تعبر عن الاستقلال وتكوين الشخصية.

أيضا ها أنا ذا أتنفس الموسيقى بكل جوارحى فماذا ينقصنى؟ الذى كان ينقصنى فعلا هو أن أحدد موقفى من الإسلام، هل سوف أسلم أم أظل أبحث؟

المشكلة هى أننى لا يمكن أن أناقش ذلك الموضوع مع أحد، لذا فقد كان لابد أن أناقش نفسى وأرد على نفسى، كنت وقتها أقيم مع جدى وجدتى فى فيلا بمكان معزول (سابقا!) يسمى الصحفيين، بعد ذلك أطلق عليه ميدان لبنان.

كان جدى وجدتى - رحمهما الله - لا يعرفان من الحياة شيئاً سوى الوضوء أولا، ثم الصلاة ثانيا، ثم الإستعداد للصلاة القادمة، وسماع إذاعة القرآن الكريم وهكذا كل يوم.كانا بالنسبة لى أقرب لملاكين، لكن الإنسان بالطبع لا يستطيع التعامل مع الملائكة!. كان عندهما تلفزيون من آثار الماضى، أيام كان عندهما أبناء، لكنى لم أشاهدهما ولو لمرة واحدة يفتحان هذا التلفزيون، أيضا من ناحيتى لم أكن أهتم به فلم أفكر ولو لمرة أيضا أن أفتحه! لم يكن يدور بيننا سوى بضعة كلمات بسيطة كل يوم، كنت أعشق حياتى : الوحدة والتأمل والمذاكرة بشكل منتظم ولا شى ء سوى ذلك! لم يكن لى أصدقاء كى أخرج معهم ولم أسعَ لذلك بالرغم من أنى كنت دائما إنسان اجتماعى، لم أكن منعزلا فى يوم من الأيام، لكن هذه الفترة بالذات كنت أحتاج للعزلة بشدة، ما أن انتهى من الكلية حتى أجلس فى حجرتى، وحدى، أذاكر، استمع للموسيقى وأقرأ كتبا إسلامية من مكتبة جدى العامرة.

كان الكتاب الثانى بعد ظلال القرآن هو كتاب أبو حامد الغزالى" إحياء علوم الدين" الموجود بمكتبة جدى - رحمه الله عليه - (من المهم جدا أن تكون هناك مكتبة فى كل بيت مصرى). كان الغزالى بالنسبة لى رجلا عبقريا حقا، لكنه كان من الماضى، تفهمت ذلك وسعدت بأن أحيا فى الماضى ولو سويعات، فالحاضر ينتظرنى غدا فى الكلية. تعرفت من خلاله على الصوفية وذوقهم فى الغناء و الألحان ويسمون ذلك" السماع" (أيضا فى الماضى كان هناك سلفيون متشددون يصبون جام غضبهم على ذلك السماع!) وفن الاستغراق فى داخل النفس من خلال رؤية رحبة للإسلام يندمج فيها الفقه مع الذوق مع الوجدان مع التصوف. لم أقرأه كله لكن قرأت منه مقتطفات لا بأس بها تركت فى نفسى أثرا طيبا ومهما.

إذن فقد دخلت فى الإسلام مع بداية العام الدراسى فى إعدادى كلية التربية الموسيقية، وانقضى ذلك العام الدارسى كله فى التعرف على الإسلام نفسه، من غير أن أنتمى لمذهب معين، وهو أمر طبيعى لمن يدخل فى عقيدة جديدة سواء كانت عقيدة إسلامية أو ماركسية أو غيرها.

فى السنة الأولى يحاول المرء أن يتلمس طريقة لفهم هذه العقيدة الجديدة، تاريخها، رموزها وتفضيلاتها، أصدقاؤها وأعداؤها، ومن الطبيعى

أيضـا أن يبـدأ المـرء بالكليـات والعموميات و يؤجل التفصيلات إلـى مرحلـة لاحقة، وهذا هو ما حدث معى.

فـى تلـك المرحلـة كـان المهـم هـو محاولـة التوفيـق بـين الأفكـار والتصورات السابقة عن الحياة والتصورات الجديدة، كانت المسألة الأساسية وقتها هى الإجابة عن بعض الأسئلة الحرجة التى سبقت الدخول فـى الإسـلام مثل : لماذا يضـع الله المـرء بين اختيـارين" إمـا أن تعبـدنى أو أعـذبك ""؟ :" لمـاذا لا يستطيع المرء أن يشبع احتياجاتـه الجنسية إلا عن طريـق الـزواج وتكوين عائلة"،"لمـاذا يفرض القرآن الحجـاب علـى المرأة ولمـاذا لا يدعها تختـار مـا هو منـاسب لها ".

هـذا السـؤال الأخيـر لـم يكـن يتعلـق بـى بـالطبع، لكنـى مـن الناحيـة المبدئية كنت ضد فرض أية قيود من أي نوع فى مسألة الحريات الشخصية، لذا فقد احتجت وقتا مع نفسى، خصوصا أن تلك الأسئلة لا يمكن مناقشها مـع أحـد، إذ أنـه بالنسـبة لمسـلم تربـى علـى قيـم الإسـلام - وهـذا هـو حـال جميـع أصدقائى وقتها - تعتبر أوامر الله بحد ذاتها أمـرا كافيـا ولا تحتـاج لبحـث عن معنى أو توافقات بينها وبين الواقع..

لقد مرت على أوقـات كنـت أظن فيهـا أننـى المسلم الوحيـد فـى العـالم الذى يطرح على نفسه تلك الأسئلة! ما هو المعنى من الأمر؟ مـا هـو التوافـق بينه وبين حقائق الحياة المعاصرة؟ إلى أى مدى يمكن تطبيق تلك الأوامر فى بيئـة مختلفة؟

بمرور الأيـام توصـلت لحل وسط، سوف أسـتمر فـى دراسـة القـرآن والصلاة من ناحية، ومن ناحية أخرى سوف أستمر فى رفض مـا لا أستطيع أن أدرك مغزاه! لقد كـان موقفـا معقـدا، لا يمكـن أن أتنـازل عـن عقلـى، ولا يمكن أن أنكر أن القرآن هو كلام الله الذى هو بكل شىء عليم، ولكـن لمـاذا لا يطلعنى على حكمته؟ لقد أسلمت وتركت حيـاتى السـابقة، فمن حقـى أن أفهـم حتى أستطيع أن أواصل الطريق.

مثل تلك الأسئلة قد تبدو غريبة على المسلم الذى نشـأ علـى الإسلام واستمرعليه دون أن تعترض حياتـه عواصـف فكريـة وجوديـة، لكـن بالنسـبة لـى كانـت تلك الأسـئلة الحرجـة هـى شـغلى، الشـاغل و لـم يكـن مـن الممكـن الاستمرار فى الطريق الجديد إلا بعد تصفية مثل تلك الاعتراضات.

حادثتـان همـا اللتان لهمـا الفضل فى تنحية تلك الأسئلة جانبا والمضـى فى الطريق.

قبل أن أذكر الحادثتين أود أن أقول أن كلمة" الطريق" سوف يكون لها معنى خاص عندى، وأنى أستقبل الأغانى التى تتحدث عن الطريق استقبالا حسنا، مثل أغنية" هو الطريق هواه" لعفاف راضى والتى لا أعرف حتى الآن الآن من قام بتلحينها ايضاً أنا بعشق الطريق" لنجاة الصغيرة والتى لحنها هانى شنودة وغير ذلك، طبعا الكلمات رائعة وسعيت كى أعرف من قام بكتابة الأغنيتان دون جدوى.

الحادثة الأولى : فى يوم من الأيام سجلت من إذاعة القرآن الكريم للشيخ محمود خليل الحصرى (والد المغنية إفراج الحصرى التى بدأت بالغناء الدينى ثم تحولت إلى اسم ياسمين الخيام وخلعت الحجاب لفترة وغنت أغان دنيوية ثم ارتدتة مرة أخرى ومازالت تعيش تحت اسم ياسمين وتمارس أعمال البر والتقوى.)

بالرغم من أن طريقة أداء الشيخ الحصرى للقرآن هى طريقة مدرسية بالأساس إلا أنه سحرنى بقرآته وصوته الرخيم الآتى من أعماق التاريخ، أعماق زمن لم يعش فيه أحد منا نحن الأحياء، خصوصا عندما يتلو القرآن من مقامى الرست أو الحجاز! هكذا تصورت وقتها حين سجلت له قصة الخلق بين الله والملائكة وإبليس فى أواخر سورة ص.

ربما كان هذه أول مرة أستمع فيها للقرآن بتأمل وإنصات، لذا لم أجاوز تلك الآيات لغيرها لأن قراءة الحصرى لها كانت فى غاية الروعة لدرجة أنى قررت بعدها أنى سوف أصبح مسلما!

ما بين الرباعى الوترى لشوبرت" الفتاة والموت"،وصوت الشيخ الحصرى، كنت أحيا أياما بعيدة عن العالم، أياما كنت فيها معلقا بين السماء والأرض، لا أنتمى لذلك ولا لذاك. أوشك أن ألمس حقيقة الحياة بيدى المجردة، وأوشك أن يعصف الشك بكل يقينى! كانت فكرة غريبة جدا أن أهتم بأن أعرف حقيقة الحياة والموت والوجود والماضى والمستقبل، كل هذا كان يمثلة لى الرباعى الوترى" الفتاة والموت" الذى كنت قد سجلته للتو من البرنامج الموسيقى، كنت أظن أن شوبرت قد أدرك حقيقة الحياة وهى لاشىء سوى الموت، كنت أسمع نفس الحقائق فى نبرات الشيخ الحصرى.. شىء عجيب جدا أنه حين يقرأ القرآن قارىء ذو صوت حسن وبخشوع وتماهى مع آياته الكريمة، يستطيع أن ينقلك مباشرة لجوهر الحياة.. وهذا هو ما حدث معى، لدرجة أننى ظننت أننى سوف يصيبنى مس من الجنون قريبا ان استمررت على تلك الحالة، لذا وبعد فترة توقفت عن سماع كليهما : صوت الحصرى وصوت الرباعى الوترى!

ما الذى يستفيده المرء من ملامسة جوهر الحياة؟ أنا شخصيا لا أعرف إن كان ذلك مهما جدا، لكن الذى أعرفة جيدا أن المرء إن استمر على تلك الحالة فترة طويلة سوف تكون معيشته فى تلك الحياة أمرا صعبا جدا، أعتقد أن هذا ما حدث معى فى تلك الفترة، كما أعتقد أن هذا هوما حدث لكبار المتصوفة، لذا يسمع منهم المرء ما هو ظاهره خروج عن الدين والعرف، لكن فى جوهره هو ملامسة للحقيقة المطلقة، أخيرا عندما قرأت الحديث الشريف الذى فيما معناه :" لو تعرفون ما أعرف لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا، ولخرجتم إلى الصعداء تأجرون!" عرفت السبب فى أننى توقفت عن سماع صوت الحصرى في تلك الأيات، وصوت الرباعى الوترى لشوبرت، لو لم أتوقف لما استطعت أن أواصل حياتى المعتادة.

الذى خرجت به من تلك التجربة أننى أسلمت وجهى لله، وأصبحت مسلما قولا وعملا. أول ما صارحت نفسى به هو التدخين، لم أكن أعرف ولم يخطر ببالى أن أسأل إن كان حراما أم حلالا لكن كل ما أتذكره أننى فى يوم كنت واقفا فى حديقة كلية التربية الموسيقية، أخرجت علبة السجائرالفرنسية ماركة" جلواز "، مزقتها ورميت بها فى الزبالة وقلت لنفسى :" أنا ممتنع عن التدخين"! (سوف أعود للتدخين مع الأسف مرة أخرى ثم سأمتنع عنها وإلى الأبد حينما أدرك مخاطره الجسيمة على الصحة).

الحادثة الثانية : صديق لى كان يدعى شحاته كان فى العام الأخير فى تربية موسيقية، كان من الصعيد ويقطن المدينة الجامعية فى امبابة، صحبنى إلى المدينة الجامعية، وصليت معه المغرب وكان الإمام من الطلبة، لكنه كان ذا صوت رائع ويقرأ بإحساس عالٍ.

قرأ قصة رحلة سيدنا موسى وفتاة لمقابلة الخضر. أثناء الصلاة بدت لى الأيات وكأنها موجهة لى شخصيا كى تجيب عما لم أستطع أن أجيب عليه بعقلى المجرد. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالعقل لكن أيضا بالوجدان، ومثلى لا يمكن النفاذ إلى وجدانه إلا من خلال صوت جميل وإحساس صادق!

ما إن انتهت الصلاة حتى ودعت صديقى الصعيدى شحاته ورجعت للمنزل، فقد كنت فى مسيس الحاجة للاختلاء بنفسى. هاهو نبى مرسل يكلم الله ويكلمه الله مباشرة، هاهو يمر بنفس ما أمر به! عقله لا يستطيع الاستمرار فى الرحلة إلا أن يفهم! أيضا يوجد القدر، ويجب على المرء الأنتظار حتى يتضح له القدر، فقد سار موسى مع فتاة وهو لا يعلم متى يتوقف عن المسير، حتى تحدث حادثة السمكة (الحوت بالتعبير القرآنى).

قال موسى لفتاه أنه سوف يسير حتى يبلغ مجمع البحرين أو يمضى زمنا طويلا ويقطع مسافات طويلة، بعد فترة قال موسى لفتاه أن يأتى لهما بالغداء، فقال له فتاه أنه نسى الحوت (السمكة) عند الصخرة،ورجا موسى أن ينتظره حتى يذهب ويأتى بها. عاد الفتى لموسى وعلى وجهه علامات العجب والخوف، فقد رأى السمكة (المشوية) تعود للحياة مرة أخرى وتقفز من الطبق وتزحف على الرمال حتى تدرك البحر فتلقى نفسها فيه!

طمأنه موسى وأخبره أن هذه هى العلامة المنتظرة والتى سوف يقابل بعدها رجل الله : الخضر عليه السلام. إذن فقد قاد القدر خطى موسى وفتاه كى تبدأ الرحلة، وعلى موسى أن يطيع القدر، ولكن هل يستطيع أن يظل صامتا للنهاية، ويرقب القدر وهو يتصرف بما لا يفهمه عقله؟ تقول الحكاية إن الخضر اشترط على موسى ألا يسأله عن شىء مهما بدا له كأنه لغز، أو شىء مخالف للعقل.

بدأت الرحلة فى السفينة، وفجأة وبلا انتظار يخرق الخضر السفينة، فلا يتمالك موسى نفسه، وينسى وعده السابق، ويسأل الخضر عن السبب. هنا يذكره الخضر بأن على المرء ألا يتعجل فهم القدر، يأسف موسى ويعزم على ألا يسأل عن معنى القدر مرة أخرى.

غادرا السفينة، فإذا بالخضر يرتكب واقعة هى أبعد ما تكون عن العقل، بل وحتى الرحمة الإنسانية إنه يقتل طفلا قابلاه فى الطريق! ينسى موسى وعده مرة أخرى ويعترض، بل ويتهم الخضر بأنه أتى" شيئاً نكراً" أى شيئا فظيعا!

يذكره الخضر مرة أخرى بوعده ألا يسأل عن المعنى، فيأسف موسى. ولكن... لا يمكن أن تظل الأمور تسير هكذا للأبد، لن يتحمل عقله ذلك، فيضع موسى الشرط على نفسه : لو سألتك عن شىء بعد ذلك فيحق لك أن تقول وداعا.

يصلان لقرية ويسألان أهلها حق الضيافة (وهو حق ينتمى للزمن الماضى)، فيرفض أهل القرية أن يعطيانهما إياه، فينصرفان ويجدا جدارا يوشك على التداعى، فيسارع الخضر ويصلحه، فيتعجب موسى للمرة الأخيرة ثم يكون الفراق، لكن قبل أن تنتهي الرحلة العجيبة، يشرح الرجل لموسى ما لم يفهمه :

السفينة كانت لمساكين فأراد الخضر أن يحدث بها عيبا حتى لا يأخذها الملك الظالم، لم تغرق السفينة، لكنها بهذا العيب البسيط نجت من قبضة الملك القرصان.

أما الطفل فقد اطلع الله الخضر على الغيب، فوجد أنه سوف يختار عندما يكبر طريق عقوق الوالدين، و الكفر، والفساد فى الأرض، ويرهق أبواه الصالحين، فأراد الله أن يعفى الأبوين من ذلك الابتلاء بأن يجعلهما يحزنان قليلا، ثم لا يلبس أن يعوضهما عنه بابن آخر بار بهما.

أما الجدار فكان ليتيمين، وكان أبوهما صالحا، وكان قد دفن لهما كنزا، فلو ترك الخضر الجدار كى يتداعى لاكتشف أهل المدينة غلاظ القلوب ذلك، ولسلبوهما ما هو حق لهما. وبدلا من ذلك أقام الخضر الجدار مرة أخرى، وعندما يكبر الطفلان ويصبحان قادرين على حماية نفسيهما، سوف يعرفهما مكان الكنز فيستخرجانه ويعيشان به سعداء بقية حياتهما.

هذه باختصار الحادثة الثانية التى أثارت فى نفسى شيئا لا يمكن وصفه بالكلمات. أن تخرج خارج الصندوق وتفكر ليس فقط فى نفسك وليس فقط فى زمانك، بل فى القدر نفسه وحكمته، لهو شىء طالما بحثت عنه، حتى وإن لم أكن أعرف أننى أبحث عنه!

كما قطع موسى الرحلة الشاقة فى صحراء العقل وحده، يجب أن أقطع أنا أيضا رحلتى : وحدى. هكذا كان تفكيرى وقتها.

المرحلة السلفية

بدأت أنتظم فى الصلاة، واشتريت كتاب مدارج السالكين لابن القيم، وهنا وقعت الواقعة! الموسيقى حرام! الصحابى الجليل ابن مسعود يقول أنها تنبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل! صحابى آخر وربما كان هو نفسه - لا أتذكر - يفسر آيه" من يشترى لهوالحديث" بأنها الموسيقى والغناء. هكذا يقول ابن القيم فى كتابه.

تزامنت تلك الواقعة مع تعرفى على المتدينين فى الكلية الذين كنت ألتقيهم فى مسجد الكلية الصغير، تعرفنا على بعض وتناقلنا خبراتنا الدينية، حتى بدأ يظهر صوت على استحياء يقول إن الموسيقى حرام وأننا لا بد وأن نترك كلية التربية الموسيقية إن أردنا أن نرضى ربنا!

رويدا رويدا بدأت الأصوات الخافته ترتفع، وبد الأمر لى محيرا للغاية، صليت المغرب أو العشاء مع الشيخ ابراهيم عزت مؤسس جماعة

التبليغ والدعوة فى مصر رحمه الله بمسجد أنس بن مالك، بعد أن انتهت الصلاة سألته : هل الموسيقى حرام؟ نظر للبعيد دون أن ينظر لى وقال "الكون كله موسيقى". إذن فالشيخ صاحب التبليغ والدعوة يقول أن الموسيقى حلال، ألا يكفى هذا؟ يبدو أنه لم يكن يكفى!

فى يوم من الأيام فوجئت بصاحبى أحمد -عازف التشيللو الذى قابلته فى مسرح البالون – يتخذ قرارا بأنه سوف يترك الكلية، وفعلا نفذ قراره! صديقى حسين وكان فى السنة النهائية، يخبرنى أنه لن يترك الكلية لكنه سوف يحول مساره إلى الدراسات التربوية فى كلية التربية العادية إذا ما تم تعيينه معيدا، لأن ترتيبه كان الثانى على الدفعة دائما، (هذا ما حدث فعلا بعد ذلك).

أخذت أقرأ كل ما يتعلق بتحريم الموسيقى، فى الحقيقة وجدت أدلة التحريم ليست بالقوة التى تساق بها، فالمرويات فى هذا الموضوع ضعيفة وغير مؤكدة، هذا ما وجدته حتى وأنا سلفى.

أيضاً هذا ما قاله ابن حزم وغيره من الأئمة.

المشكلة الرئيسية عندى كانت هى أقوال الصحابة، هؤلاء كنا جميعاً نعتبرهم أكثر فهما للدين وأكثر حرصاً عليه من أى أحد. هذا هو مربط الفرس. لهذا السبب سوف أترك كلية التربية الموسيقية بعد السنة الإعدادى بتقدير جيد جداً، بالرغم من أنى لم أستذكرالمواد النظرية مثل تاريخ الموسيقى، والعروض الشعرية وغير ذلك سوى أيام الامتحان.

فى كلية التربية الموسيقية يتم تدريس الآلات الموسيقية بطريقة فردية، أى أن كل طالب له معيد مسئول عنه يدرس له، هذا خلاف المواد الدراسية التى ندرسها بعضنا مع بعض، مثل أى كلية عادية.قبل امتحان آلة الكمان كنت أراجع المقرر مع المعيد المسؤول عنى.. نزلت على الصاعقة حين قال لى وهو يقلب صفحات الكتاب المقرر الذى سأمتحن فيه بعد أيام :

- إيه ده؟ احنا ما خدناش دى...ولا دى.. ولادى...إلخ

دى ولادى، كانت تعنى ربع المنهج..!

كنت أتوقع أن أحصل على تقدير امتياز فى آلة الكمان التى أعشقها، لكن بما أننى ذاكرت ربع المنهج فى يومين فقد حصلت على تقدير جيد جداً فقط.

لم أترك الكلية لا لأننى تأكدت أن الموسيقى حرام، ولكن لأن هناك شبهة، والمفروض على المسلم المخلص أن يتقي الشبهات حسب المبادىء

السلفية التي تعرّف الشبهات تعريفا غاية فى التشدد، وبالرغم من أن هناك حديثاً شريفاً يقول استفت قلبك ولو أفتوك، أو كما قال، إلا أن القوم لهم فهم خاص كالعادة بالنسبة لهذا الحديث و للدين عموما، و لا يمكن أن يقتنعوا بغيره، وهذا ما نجحوا فى أن يفرضوه على تفكيرى وعقلى ولكن لمدة لن تطول.

كسرت العود والكمان وعدت للهندسة، ولكن هذه المرة هندسة الزقازيق إذ أنها كانت قد افتتحت، وسبب دخولى هندسة اسكندرية من قبل أنه لم تكن هندسة الزقازيق قد افتتحت بعد.

طوال ستة أشهر سوف أحيا حياة سلفية خالصة، وبدأت بشائر نهايتها فى حادثة الحرم المكى فى نوفمبر ٧٩ والتى سيأتى ذكرها. أثناء تلك الستة أشهر السلفية لبست جلبابا قصيراً، لم أكن أصافح النساء، لم أعد أستمع للموسيقى، لم...لم...لم.... كل المحرمات السلفية المعروفة.

فى يوم اتصل بى صديقى اسحق (الذى أتى ذكره فى أيام المدرسة) وأخبرنى وهو يبكى أن والده قد توفى، رجوته أن يخبر والدته أننى لا أسلم على النساء، وفعلا، عندما حضرت العزاء وارتمى اسحق فى حضنى يبكى ويقول لى وهو لا يكاد يصدق :

- بابا مات يا أيمن، بابا مات!

كان موقفا مؤثراً جداً بحيث لم أمتلك دموعى، وسلمت على والدته دون أن أصافحها (من بعيد لبعيد).

فى تلك الفترة كل عقلى وعاطفتى موجهين لشىء واحد فقط : العبادة. والشىء الواحد هو جوهر الحياة السلفية، فهى حياة مسطحة ذات بعد واحد فقط، الحياة كلها مركزة وممنهجة حول إرضاء الله، ومهما فعل المرء فيجب أن يبدو دائما فى حالة تقصير دائم، لذا الحل هو المزيد من العبادة التى تؤدى إلى المزيد من الشعور بالتقصير، وهذه بدورها ترجع بالمرء للنقطة الأولى مزيد من العبادة! وهكذا فى دائرة لا مخرج منها سوى رحمة الله عز وجل.

لم أكن سلفياً والسلام، ولكنى كنت سلفياً مخلصاً، قرأت أربعة مجلدات من فتاوى ابن تيمية. الشىء الغريب أنه حتى فى عز السلفية لم أقتنع لماذا "يشغل نفسه" إلى هذه الدرجة بموضوع مثل الأسماء والصفات والذات، وهل الصفة هى عين الذات أم لا؟ وأمورأخرى لو ذكرتها لقال القارىء المسلم العادى :

- لماذا يصر الإمام ابن تيميه على أن يعتبر أن هذه الفلسفة هى صلب الدين الذى لابد أن يعلمه كل المؤمنين بينما هى أمور لا يستطيع أ ن يحيط بها إلا المتخصصون؟

هذا ما كنت أوافق عليه المسلم العادي إذا ما سمعته منه، بالرغم من أنني وقتها لم أكن مسلما عاديا، بل سلفياً ومتشدداً لا أختلف عن المتشددين الذى يصادفهم المرء فى حياته، وكانت الفكرة الرئيسية عندى هى نفسها فكرة السلفيين عن الدين، وإن لم يصرحوا بذلك أو ادعوا خلافه : "الأصل فى الأشياء الحرام إلا ما حلله الدين....!" وطبعا هذه الرؤية تخالف ما درج عليه معظم علماء المسلمين من مختلف المذاهب أن الأصل فى الأشياء هو الحلال إلا ما حرم الله، وهو قليل.

قرأت العقيدة الطحاوية، وابن كثير، وكل ما صادفته فى تلك الشهور الستة من كتب سلفية، حتى ابن سيرين قرأت له بعضا من كتابه" تفسير الأحلام ".

وأنا غارق فى السلفية قرأت كتابا صغير الحجم للكاتب الكبير جلال كشك بعنوان" الحق المر" يحكى فيه سيرة الصحابى أبو ذر الغفارى. خلاصة الكتيب هو أن أبا ذر أصر على أن يحيا المثالية الإسلامية فى زمن بداية تكوّن الثروات الرأسمالية، وذلك فى نهاية عصر الخليفة عمر بن الخطاب وبداية عصر الخليفة عثمان بن عفان، وما تبع ذلك من بناء المنازل بطريقة جديدة يتم فيها الاستعانة بالمتخصصين فى بناء المنازل.

على نفس المنوال الذى التزمت فيه فى تلك المذكرات لن أعود للمصادر، وأترك لذاكرتى العنان فى استرجاع الأحداث والمواقف، لذا سوف أحكى ما بقى فى الذاكرة عن هذا الكتيب.

بعد فترة قابل أبو ذر صديقه الصحابى أبا الدرداء، وكان الأخير قد كون ثروة لا بأس بها بعد الفتوحات الإسلامية، وازدهار التجارة مع البلاد المفتوحة. ما إن رأى أبو الدرداء صديقه القديم حتى تهلل وجهه بالفرح، ومد يده كى يصافح رفيق الكفاح الذى تكلل بالنصر وقال له : أهلا بأخى..

ما كان من أبي ذر إلا أن دفعه فى صدره دفعة قوية أوقعته بالأرض وقال له يعنفه :

- لست أخى..! أحملت الآجر على أعناق الرجال؟

وهـذا يعنـى أن أبـا ذر يعنفـه علـى أنـه اسـتأجر بعـض العمـال المتخصصين فـى البنـاء حتـى يحملـون لـه الآجـر (مـواد البنـاء) ليبنـوا لـه بيتـه...!

يعلق مؤلف الكتيب جلال كشك على ذلك، بما معناه بأنه طبيعى أن كل مـن بنـى بيتـاً أن يستأجر المتخصصين كـى يحملـوا (الآجـر)، وإلا فكيـف سيبنى بيتـه إذن؟ كـان أبـو ذر وفقـا لتفسير كشك يبغى أن يواصل الصحابة حياتهم البسيطة كما عاشوها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - والتى كانوا يبنون فيها بيوتا بسيطة لا يحتاجون فيها لاستئجار عمال بناء، ولا يحتاجون لجمع الأموال لذلك. وهذ يعنى الزهد فى الدنيا، وعدم الانجراف وراء متعها الزائلة والزائفة فى نفس الوقت.

يحكى كشك الكثير فـى هذا الكتـاب الصغير، وخلاصـة فكرتـة أن أبـا ذروالقليل من الصحابة بعد انتصار الإسلام يمثلون النسور التـى تحيا فـى الأجواء العالية، وهذا ما لايستطيعه معظم الناس من أمثالنا، ويقول ما معنـاه إن الزواحف تنظر للنسور، وتحسدها على أجنحتها القوية، وتتمنـى أن تكـون مثلهـا، ولكنهـا لا تستطيع ذلك.. وعليـه فيكفى أن ننظر لهم علـى أنهم مثلا عليا، نتتطلع لهم دوما دون أن نكون قادرين على أن نحيا مثلهم.

تـأثرت بـالفكرة تـأثرا بالغـا، وأعطيـت الكتـاب لصديقى وزميلـى فـى الدفعـة بكليـة الهندسـة يحيـى نـور الـدين، شـقيق السلفى الكبيـر صفوت نـور الدين، ورجوته أن يقرأه، ويقول لى رأيه. وبعد أن قرأه صدمنى حيث قال لى ما معناه :

إن الفكرة التى يقوم عليها الكتاب خاطئـة، يمكن للجميـع أن يعيشـوا الإسلام المثالى إذ ما التزموا بالمبادىء السلفية النقية..!

لم يكن رأى صديقى يحيى سوى القشـة التى قصمت ظهر البعير..! كنت مثل كل سلفى مخلص أعيش حياتى رافضاً لكل مظاهر الحياة المعاصرة، التى تجبر المرء على أن يحيا فى وسط مخالف لكل التعاليم الإسلامية. الحياة الإقتصادية المعاصرة قائمة على بنوك ربوية، وقد قرأنا فـى المرويـات حديثا عن الرسول - صلى الله عليـه وسلم- مـا معنـاه أنـه سوف يـأتى زمـان إن لـم يأكل النـاس فيه من الربا فسوف يصيبهم غباره. لم يكن يوجد وقتها بنـوك، إذن فالحديث يقصد بالتأكيد زماننا المعاصر.

النساء فى كل مكان يتبخترن بملابسهن وزينتهن، والحديث المروى عن الرسول يقول ما معناه أن أكثر أهل النار من النساء الكاسيات العاريات. هذا يعنى أيضا أنه يتحدث عن الزمن الذى نحيا فيه.

قرأنا وقتها أن أبا بكر كان يأكل طعاما قدمه له غلام، وأثناء الأكل تحدث الغلام عن أنه قد أحضر هذا الطعام بنقود كسبها من أنه قرأ الطالع لأحد الأشخاص. ما كان من الصدّيق أبي بكر إلا أن حاول أن يستفرغ تلك اللقيمات التى نزلت لجوفه، ولما لم يستطع أمر بدلو من الماء وأخذ يشرب منه حتى (ماعت نفسه) واستفرغ تلك اللقيمات..

إذن، هكذا تكون الحياة السلفية النقية، وهكذا يكون المثل الأعلى. حياة أبي بكر وحياه أبي ذر. ماذا يمكننى أن أفعل وقد تأكد لى من أن كل مظاهر الحياة المعاصرة تجبر المرء على الحياة وسط المعاصى؟ الحل الذى طرأ على ذهنى وقتها هو ما جاء فى الحديث الذى معناه أنه سوف يأتى زمان، يكاد يكون فيه خير مال المرء هو بضعة أغنام، يربيها فى الجبال وهو يحيا وحده معتزلا الناس والفتن.

لا بد أن أبحث إذن عن جبل كى أقضى به بقية عمري الذى لم يكن قد بدأ بعد...!

المشكلة التى قابلتنى أننى لا أحسن رعاية الغنم، بل لم يخطر لى ولا فى الأحلام أننى سوف أصبح راعى غنم...! إذن لا بد من تعلم ذلك..! وبما أننى كنت قد جربت من قبل حياة التشرد فى فرنسا، فقد توقعت أنه لن يكون صعبا على أن أحاول مرة أخرى" الإستقلال" عن الحياة المعاصرة واعتزال الفتن، هذه المرة لن يكون الاستقلال عن العائلة أو المجتمع فقط، لكنه سوف يكون" استقلالا" تاما عن الحياة المعاصرة بقضها وقضيضها، ويالروعة ذلك الاستقلال...!

بالتأكيد أن هذا النوع من الاستقلال ليس هو ما كان يهتف به المتظاهرون فى ثوره ١٩ وهم يرددون شعار :" الاستقلال التام أو الموت الزؤام...!" ولكن لماذا نظن أنه كان بعيدا جداً؟ ألم يكن الشعب يريد الاستقلال عن انجلترا التى تمثل الاستعمار البغيض، ولكن ألم تكن انجلترا تمثل أيضاً الحياة المعاصرة، وليس فقط الاستعمار البغيض؟. عموما هذا من اختصاص المؤرخين، ولست منهم، لذا سوف أعود سريعا للمذكرات.

كما تركت كلية التربية الموسيقية من أجل الدين ومن أجل إرضاء الله، جاء الوقت كى أترك كلية الهندسة للمرة الثانية، وأيضا من أجل الدين

ومن أجل اتباع المثل العليا للإسلام...! سوف أفاتح صديقى يحيى فى الأمر، وإذا وافقنى نبحث سويا خطوات الاعتزال والفرار لشعب من شعاب الجبل، نربى الأغنام ونتتبع مواضع القطر(المطر)، وإذا لم يوافقنى فلن يكون أمامى مفر سوى أن أقوم بذلك وحدي كما فعلت ذلك من قبل عدة مرات.

إذا حاولت أن أتذكر مشاعري وقتها، والتى وفرت لى غطاء مناسبا لمثل هذا التفكير، سوف أتذكر الصحابى الجليل الذى جاء فى موقعة (أحد أو بدر لا أتذكر تماما) وسأل النبى الكريم ما معناه أنه إذا ما قاتل المشركين وقتل، هل سيدخل الجنة؟ فأجابة النبى بنعم، فقال الصحابى : إذن ما بينى وبين الجنة سوى هذه التمرات... رمى التمرات التى كان يأكلها على الأرض واندفع للقتال حتى استشهد.

إذا استطعت أن تتخيل نوعية تلك المشاعر، وهذا الشوق الجارف لعالم مثالى كامل المثالية غير ظاهر للعيان، لكنه موجود هنا، بالداخل، مغروس فى صميم الفطرة الإنسانية أنها تحَن له كما تحن الصغار لأمهم، وتشتاق له كما يشتاق العشاق لبعضهم، إذا استطعت ان تتصور أن الدنيا ما هى سوى معبر وجسر لهذا العالم الجميل الرائع، إذا استطعت ذلك فسوف تفهم مشاعرى وقتها. الجنة قريبة جدا، وما بينى وبينها سوى الكلية والعائلة والمجتمع والحياة المعاصرة، إذن فليذهب كل ذلك للجحيم....!

قبل أن أفاتح يحيى فى الموضوع، وقبل أن أشرع فى التنفيذ، وقعت حادثة بدت لى وقتها أنها هدية من السماء، ومخرجا مثاليا،لن أكون فيه مجبرا على تعلم رعاية الغنم... ظهور المهدى..!

انتظرت المهدي يوم تم الإعلان عن أنه ظهر فى مكة المكرمة، وحدثت المذبحة الرهيبة يوم أن أدخل أتباعه فى توابيت صلاة كان بداخلها أسلحة قتلوا من قتلوا، واستولوا على الكعبة المشرفة، كنت قد هيأت نفسى تماماً لظهوره بعد ما آمن كثير من السلفيين أنه" هو هو ها هى طبوله ها هى بشائره" وبدأت الاشاعات تقول أنه رأى فى المنام كذا وكذا، كما تقول الأحاديث، وأيضا كما فى الأحاديث الشريفة سوف يغزو جيش الكعبة يخسف أوله وآخره، وظهور المهدى موجود أيضا فى عقيدتنا نحن أهل السنة والجماعة، وليس أمراً خاصاً بالشيعة فقط كما يظن الكثيرون، إلا أن تعيينه هو الأمر المختلف بين السنة والشيعة.

الكل متفق على أن المهدى سوف يملأ الأرض عدلا بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً، وأنه من العلامات الكبرى ليوم القيامة.

أن تشهد نهاية العالم تصنع أمامك لهو شيء خارج عن التصديق! أن ترى" رجل الله" يأتي من الغيب كي يصحح أوضاع العالم، ويوحد أمة الإسلام خلفه، لهو هدف يفوق في جماله أية هدف آخر! ثم يأتي زمن الدجال، ويعيث في الأرض فسادا فيقتله المهدي، ثم يخرج يأجوج ومأجوج فيبتلعون الأنهار في جوفهم، ويأكلون كل من صادفهم من حجر وشجر وبشر! فيخرج بنا المهدي إلى الجبال لأن الله سوف يخبره أنه بعث عبادا (يأجوج ومأجوج) لا يقدر عليهم أحد، فيخرج بنا نلوذ بالجبال، ثم يبعث الله ريحاً تأخذ أرواح أولئك الجبابرة...

نحاول ان ننزل من الجبال ولكننا نجد رائحة العفن تسود الأرض، فيبعث الله مطرا يجرف جثثهم بعيدا حتى نستطيع أن ننزل إلى الأرض، نملكها كلها، ثم لا يتبقى شيىء سوى أن تأخذ هذه الريح أرواحنا، نحن الذين نمثل كل المؤمنين في الأرض، ثم ينفخ في الصور وتقوم القيامة!

هل يمكن أن تتصور أنك تعيش في التاريخ وفي المستقبل لكن ليس لك علاقة بالعالم المعاصر...؟! إذا استطعت تصور ذلك فسوف تتصور موقفي وقتها..

أن تتصور موقفي يعني أن تحيا في عالم المرويات التي يطلق عليها" المنثورات والملح "، يلعب بك خيالك، ويطيح بك عقلك، فلا تفعل شيئا سوى التحدث مع زملائك عن الاستعداد لملاقاة ذلك القادم المدعوم من الله شخصياً، والذي يمثل الحل النهائي لكل تناقضات ومثالب الدنيا، تترك نفسك وعقلك وجوارحك تحلم،ثم تحلم،ثم تحلم... ثم تفيق على الحقيقة البائسة وتسال نفسك سؤالاً واحداً ليس له ثان... أين الحقيقة؟!

أعددنا أنفسنا تماما لرؤية جيش يهاجم الكعبة ويخُسف به، ولكن لم يحدث، وتم قتل" المهدى المزيف" وطلع" نقبنا على شونه"، لماذا؟ ومن ضحك على من، ومن نصدق، ومن نكذب؟ ومن يحاسب من؟ لا أعرف. كل الذي أعرفه أنني بدأت بعدها أراجع أفكاري السلفية، وأيضا اهتزت ثقتي في السلفيين كأشخاص وهي نقطة خطيرة، بعد تلك الحادثة المروعة انتهت المرحلة السلفية من حياتي والتي لم تستمر سوى بضعة شهور.

أعود لحادثة ظهور المهدي، وهي حادثة الحرم المكي التي هزت العالم الإسلامي كله والتي بدأت أحداثها في عهد الملك خالد بن عبد العزيز في فجر يوم ١ محرم ١٤٠٠ الموافق ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩، مع فجر أول يوم في القرن الهجري الجديد، وبعد ١٦ يوماً من بدء أزمة الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران. وملخص الحادثة قيام ٢٠٠ (أو ٥٠٠) مسلح

بالاستيلاء على الحرم المكي، في محاولة لقلب نظام الحكم في المملكة العربية السعودية. وقد تسببت في سفك للدماء في ساحة الحرم المكي. وقد بدأت الأحداث بوقوف جهيمان العتيبي، وهو عضو سابق بالحرس الوطني السعودي، ليعلن أمام المصلين الخارجين من الحرم خروج المهدي، وطلب منهم مبايعة نسيبه محمد عبد الله القحطاني الواقف بجانبه باعتباره المهدي المنتظر الواجب اتباعه. وفي هذه الأثناء، قامت مجموعة من الرجال التابعين له وكانوا من ١٢ دولة مختلفة باستخراج أسلحة وذخائر من توابيت كانت أدخلت قبل الصلاة باعتبارها تحوي جثامين لموتى للصلاة عليهم في المسجد. وقد قام المسلحون بإغلاق الأبواب، وسد منافذ الحرم والتحصن داخله، وتمكن عدد من المصلين الذين كانوا داخل الحرم لتأدية صلاة الفجر من الفرار أما الباقون اضطروا إلى مبايعة محمد عبد الله القحطاني باعتباره المهدي المنتظر.

وبعد أسبوعين على الحصار، يوم الثلاثاء ١٤ محرم ١٤٠٠ هـ الموافق ٤ ديسمبر ١٩٧٩م تمكنت قوة فرنسية - سعودية مشتركة من الاستيلاء على الحرم وتحرير الرهائن بعد معركة دامت من الصباح حتى حلول المساء، وتركت وراءها نحو ٢٥٠ قتيلاً وقرابة ٦٠٠ جريح مع اختلاف في تقديرات الأرقام، منهم القحطاني. والمرجح أنه تم استخدام غازات تسببت بشلل المسلحين ثم تم اقتحام البوابات بعد تفجيرها، وأودت المواجهة بحياة الكثير من رجال الأمن السعوديين، والمسلحين المتحصنين داخل الحرم، حركت الحادثة بسرعة مشاعر الكثير من المسلمين، بعضهم شجبها وأنكرها ووقف ضدها، وآخرون تضامنوا معها.

وهكذا انتهت بلا رجعة المرحلة السلفية من حياتى والتى استمرت ستة أشهرأو أكثر قليلا.

الإخوان

بعدها تقابلت مع خالد وأسامة، ووجدنا أنفسنا بلا اتفاق مسبق معترضين على الحالة السلفية، وبدأنا فى قراءات معاصرة لعلى شريعتى، ومالك بنى نبى و آخرين.

جاءت سيرة الموسيقى فعرفت أن أسامة عنده شرائط كاسيت موسيقى كلاسيكية فرجوتة أن يعيرنى بعضها لأنى كنت قد تخلصت، منها لأن الموسيقى حرام فى الفكر السلفى، أو على الأقل شبهة. وهكذا عدت للموسيقى من جديد.

كان أسامة عائدا لتوه من رحلة إلى ألمانيا والنمسا فى الأجازة الصيفية، من أجل العمل كعادة الطلبة وقتها، العمل فى الوظائف لا يقوم بها أهل تلك البلاد، مثل بيع الجرائد فى النمسا، أو العمل فى المطاعم فى ألمانيا. استغرقت رحلته حوالى سبعة أشهر حسبما أتذكر.

حكى لى عن فيلم شاهده هناك لجون ترافولتا وألوفيا نيوتن جون اسمه Grease وكيف أنه قد أصبح الشباب بعد هذا الفيلم يقلدونه فى تسريحة شعره، والاحتفاظ بالمشط فى جيب البنطلون الجينز من أجل التأكد من التسريحة! عرض هذا الفيلم عام ١٩٧٨ فى أوروبا، وشاهدته بعد أن عرض فى مصر، فتذكرت كلامه، وتأكدت أن ملاحظاته صائبة.

كانت "الملاحظات الصائبة" هى ما كنا نحرص عليه، أسامة وخالد وأنا، فى بداية تعارفنا، طبعا احتلت الأمور الإسلامية الصدارة ولكن كنا دائما نلاحظ الدنيا من حولنا كما هى وليس كما يجب أن تكون. وهذه نقطة هامة فى التحول عن الفكر السلفى.

بالنسبة لى كنت أرى أن أعداد الجماعات الإسلامية فى ازدياد، وهذا كان أمراً سعيداً جداً لنا جميعاً، كل يوم تجد أن هناك شاباً أو أكثر يترك حياته العادية ويرتاد المسجد، يطلق لحيته ويبدأ فى قراءة وتعلم القرآن. كانت الظاهرة الأبرز وقتها هى بكاء بل ونحيب أولائك الملتزمين الجدد عند صلاتهم فى المسجد فى الشهور الأولى.

كلنا قد مررنا بنفس تلك المشاعر الفياضة إلى أن تعودنا بعد ذلك فهدأت نفوسنا. أيضا الاعتكاف و الإفطار الجماعى فى المساجد، كان يزيد من الرابطة الموجودة بيننا. سواء كانت السلفية أو كان الإسلام السياسى كان المسجد هو البؤرة التى تجمع الكل، ثم ينطلق منها الإشعاع للمجتمع.

مرة دعوت صديقى أنور- وكان حديثا فى الالتزام الإسلامى - إلى إفطار جماعى، ما إن رأى الأطباق مرصوصة على حصير الجامع فوق الجرائد حتى سألنى بتعجب :

- الإفطار فين يا أيمن؟
- هو ده، مد أيدك...!

لم يكن الإفطار سوى عسل أسود..! وقتها لم نكن نطبق الحديث" حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبة"، لكن كانت الموارد المالية محدودة أمام الطلب المتزايد على مثل تلك الإفطارات الجماعية أيام الإثنين والخميس من كل إسبوع.

عندما كنا نعتكف فى الشتاء نحضر البطاطين من منازلنا وحتى وإن لم تكن تكفى الجميع، لكن عموما يتحمل الشباب البرد دون مشاكل تذكر، أما فى الصيف فكانت المشكلة الأكبر هى الناموس. مرة من المرات وجدت خالد يرش بيروسول على جلده لأنه لم يستطع النوم تحت وطأه لدغ الناموس، لم أتمالك نفسى من الأنفجار من الضحك، وقلت له أننى أفضل أن أترك نفسى للدغ حتى أموت، وأصبح شهيد الناموس...! أو أن أظل طوال الليل مستقيظا" أهش" الناموس وأذكر الله، على أن أقوم برش جلدى بتلك السموم!

بالمناسبة بعد أن دخلنا المعتقلات، مر الكثير منا بتجربة" التعذيب بالناموس"، لم أجربه لكن حكى لى عنه من كان حظه هو سجن المزرعة، حيث يكون الناموس عبارة عن دبابير متخفية فى صورة ناموس..! تتركك أمن الدولة عاريا طوال الليل تحت رحمة الناموس، وهو طبعا لن يرحمك...!

نعود لما قبل الاعتقال، كان المسجد وقتها يزخر بمختلف الاتجاهات من إخوان إلى سلفيين إلى تبليغ ودعوة إلى أزهريين إلى من ليس لهم اتجاه، لكن للحقيقة لم يكن هناك تعصب مثل الذى نراه حاليا، كانت هناك مناقشات وخلافات ولكن لم يكن هناك فرض رأى، أو على الأقل لم أشهد ذلك.

بعد أن تركت السلفية وبدأت أفكر فى الأنضمام للإسلام السياسى، كان السؤال الذى يؤرقنى هو أين سنذهب بعد أن ننتهى من الجامعة؟. كانت الجامعة وسطا مثاليا للعمل الإسلامى من خلال الجماعة الإسلامية، ولكن ماذا بعد أن نتخرج؟ ما هو الإطار الذى سوف يجمعنا ونعمل من خلاله؟

تعمقنا فى قراءة تاريخ الأخوان، ووجدنا أنها أقرب لتفكيرنا من السلفية، صحيح أننا كنا نأخذ عليهم دائما أنهم جماعة مراوغة، مهادنة للسلطة الحاكمة، سواء ملكية أم جمهورية، وفى نفس الوقت سلطوية على من بداخلها، لكن كان تقديرنا أن ذلك ما هو إلا اجتهاد منهم يمكن أن يتغير مع الزمن. الذى أعطانا هذا الاتجاه الراديكالى هو بلا شك نجاح الثورة الإيرانية التى وضعتنا بل ووضعت جميع الحركات الإسلامية أمام نفسها.

بدأنا (أسامة وخالد وأنا) نقارن بين المسار الذى اتخذته حركة الإخوان، وحركة الخمينى فى إيران. بدأ الخمينى حركته وهو فى سن الستين وذلك فى عام ١٩٦٣ فيما عرف باسم انتفاضة ١٥ خرداد (اسم إيرانى لشهر من الشهور) اعترض على ممارسات الشاة، فقامت قوات الشاه بقتل المتظاهرين، وتختلف التقديرات فى عدد القتلى، بينما يقول علماء الحوزة

الدينية أن عددهم بلغ خمسة عشر ألف قتيل تقول، مصادر أخرى أن العدد أقل من ذلك بكثير.

بعد تلك الانتفاضة تم نفيه للعراق، ثم استقر فى السبعينات فى فرنسا. طوال سنوات المنفى لم يكف عن انتقاد الشاه، والدعوة لإسقاطه حتى بدأت مظاهرات طلاب الجامعة فى العام ١٩٧٧ وكما هو الحال دائما، بدأ الشعب الإيرانى ينتقد تلك المظاهرات، ويدعو الطلبة "للعودة لدروسهم، وعندما صمد هؤلاء الطلاب وبدأت فئات من الشعب فى الأنضمام لهم بدأت المظاهرات المليونية، وكما هو متوقع يسقط قتلى برصاص الشرطة، فيتم عمل الأربعين لهؤلاء الشهداء، ومن تلك الأربعينيات تنطلق مظاهرات أخرى ويسقط شهداء، وتجدد المظاهرات فى الأربعين القادم.

يختلف الشيعة عنا نحن أهل السنة فى أنهم يقيمون الجنازة على مرتين، مرة بعد الوفاة مباشرة، ومرة أخرى بعد الأربعين. أيضا فكرة الأربعين موجودة عند الشعب المصرى ولكن" على الضيق "، أى فى المنزل، وبحضور الأقارب المقربين فقط.

وجد الشعب الإيرانى فى الخمينى قيادة صلبة، واستخدم الخمينى بدءا من عام ١٩٧٧ التكنولوجيا الحديثة المتاحة وقتها وهى شرائط الكاسيت، فكان يسجل خطبه ضد الشاه، ويتم تهريبها لداخل إيران، وتتدوالها البيوت والطلبة والعمال، وكل فئات الشعب.

استمرت المظاهرات المليونية لمدة سنتين من ١٩٧٧ إلى ١٩٧٩، وفى شهر فبراير من العام الأخير انضم حولى ربع الشعب الإيرانى إلى المظاهرات، مما أصاب البلد بالشلل التام، وهدد شاة إيران بأن ٧٠٠ ألف جندى متوحش من الجيش سوف يجتاحون البلاد إذا لم تتوقف المظاهرات، لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجد، إذ لا يمكن لنظام مهما كان قمعه وقسوته أن يقاوم الملايين الغاضبة. هرب الشاه وعاد الخومينى من نوفيل لو شاتو- حيث كان يقيم بمنفاه فى فرنسا - إلى إيران كعائد من أربعة عشر قرنا من الزمان، ليجدد شباب الإسلام كما قرأت ذلك للكاتب المصرى أنيس منصور وقتها. استقبله الشعب الإيرانى" الرهبر" أو القائد باللغة الإيرانية استقبالاً أسطورياً...

هذا هو ملخص ما قرأناه وقتها... لم نقرأه فقط ولكن كنا نعيش الأحداث لحظة بلحظة.

قارنـا بين ذلك المسار ومسار حركة الأخوان، الذى بدأ فى العام ١٩٢٨ مع الإمام حسن البنا، المدرس ذي الأربعة والعشرين ربيعاً، وتابعنا الحركة عبر التاريخ وكيف بدأت صغيرة لا يكاد يشعر بها أحد، إلى أن تحولت لأكبر جماعة إسلامية فى مصر، ثم دخلت الحركة فى خلاف سياسى مع الحكومة المصرية مما أدى لحلها من قبل الديكتاتور النقراشى، والزج بأعضائها فى المعتقلات، ولكن لم يتم، اعتقال المؤسس حسن البنا، حيث كان يتم الإعداد لاغتياله الذى تم بالفعل. وهكذا وعرفت الجماعة المعتقلات للمرة الأولى أيام الملك فاروق عام ١٩٤٨.

(فى بداية ثورة يوليو سوف يتم القبض على المتهمين بقتل البنا، ويودعون السجن، وبعد أن نشب الخلاف بين الجماعة وعبد الناصر تم إخراج القتلة من السجن كما الشعرة من العجين!).

تمت المصالحة بين الإخوان والدولة المصرية بعد اغتيال حسن البنا وتم إخراج المعتقلين من السجون، وإلغاء قرار الحل، وعادت الجماعة للنشاط تحت قيادة القاضى الإمام حسن الهضيبى.

شارك الإخوان فى ثورة يوليو ٥٢، أو على الأصح الانقلاب الذى تحول لثورة فيما بعد. كان عبد الناصر وخالد محيى الدين وآخرون من الضباط الأحرار الذين قاموا بالأنقلاب، كانوا أعضاء فى جماعة الأخوان فى وقت من الأوقات، أوعلى الأقل كانوا يتعاونون تعاونا وثيقا مع الجماعة التى كانت قاب قوسين أو أدنى من المشاركة فى السلطة مع الضباط الأحرار، وذلك بعد أن تم حل جميع الأحزاب، و تصفية الحياة المدنية بمباركة إخوانية.

بعد أن استخدمهم الضباط الأحرار كمخلب يساعدهم فى التخلص من القوى السياسية حان الآوان للتخلص من المخلب نفسه! فتم حل الجماعة للمرة الثانية وفتحت المعتقلات أبوابها مرة أخرى فى عام ١٩٥٤، لكنها لم تكن الأخيرة فى تاريخ الجماعة.

تم اعتقال الجماعة مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ بقرار من وزير الداخلية وقتها ينص على" إعادة اعتقال من سبق اعتقاله "، وعلى هذا عاد معتقلوا الحركة فى ١٩٥٤ مرة أخرى للمعتقلات فى ١٩٦٥، تحت دعوى الحفاظ على أمن الوطن من مفكر إسلامى، ومفسر للقرآن اسمه" سيد قطب" الذى تم إعدامه مع آخرين وقتها!

بعد أن مات ناصر وجاء السادت أفرج عن أعضاء الجماعة، ومارسوا نشاطهم مرة أخرى بحذر تحت قيادة المرشد عمر التلمسانى، ونجحوا فى تحويل قطاع كبير من شباب الجماعة الإسلامية المستقلة إلى أعضاء فى جماعتهم، يدينون بالسمع والطاعة للقيادة قبل كل شىء.. وشهدنا نحن (أسامه وخالد وأنا) الحلقة الأخيرة من حلقات التحول هذه.

قرأنا سويا ذلك التاريخ الملئ بالمحن والإخفاقات وهذا ما أثار حفيظتنا عند مقارنة ذلك المنهج المحافظ للجماعة بالمنهج الراديكالى للثورة الإيرانية. ولكن نحن فى مصر ولسنا فى إيران فكان لابد أن نبحث عن أقرب جماعة لنا نستطيع من خلالها نقل فكرة الثورة وليس التغيير البطىء وتكوين الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم قبل أن نصل للدولة المسلمة نكون قد تم وضعنا فى المعتقلات! ذلك السيناريو المعروف والذى تكرر لدرجة الإملال!

لا أقصد التقليل من شأن منهج الإخوان فى تكوين الفرد ثم الأسرة ثم الدولة، ولكن ثبت أكثر من مرة خطأ هذا المنهج وثبت نجاح منهج الثورة كما فى إيران، فعلام التردد؟

الميزة الكبرى لجماعة الإخوان كما كنا نرى وقتها هى أنها تجمع اتجاهات مختلفة من سلفية إلى صوفية إلى أزهرية إلى مفكرين، كما أنشأها حسن البنا رحمه الله، لكن يبدو أن مبدأ السمع والطاعة قد طغى على كل ذلك، ونحن بالطبع لم نكن نهئ أنفسنا كى ندخل ثكنة عسكرية حتى نرضخ لمطالب الجماعة فى السمع والطاعة. المفروض أنها جماعة دعوية- سياسية وليست جماعة عسكرية،الخلاصة كنا مع الإخوان كفكرة إسلامية ترغب فى تغيير المجتمع والدولة إلى مجتمع إسلامى ودولة إسلامية، وهذا هو جوهر الإسلام السياسى الذى كنا ننتمى له وقتها، لكن لم نكن لنقبل بمثل هذا النظام الصارم فى السمع والطاعة.

كان الاخوان يقسمون الجمهورية إلى مناطق، ولكل منطقة مسئول كبير تحته مسئولون أصغر منه تقابلنا مع م. الديرى المسئول الإخوانى عن الدلتا، وعرضنا عليه أننا نرغب فى دخول الجماعة لكن بشرط ألا تفرض علينا الجماعة طريقتها، بمعنى آخر أن نكون جناحا له أفكاره العصرية والثورية الخاصة داخل الجماعة. طبعا كنا على" نياتنا "، ولكن ظلت بيننا وبين الأخوان شعرة معاوية فى الجامعة على الأقل، إلى أن قطعت تماما فى المعسكر الأخير للجماعة الإسلامية قبل اغتيال السادات كما سوف يأتى فى الفصل القادم.

قبل اعتقال السادات للمعارضة فى ٥ سبتمبر وفى لقاء مع م. عبد الغنى قال لنا إن الأستاذ المرشد عمر التلمسانى يقول لهم إن الضربة قادمة قادمة، وإن كل ما بأيديهم هو أنهم يحاولون تأخيرها. كان اعتراضنا شديدا على أننا سوف نعتقل بلاش!

بعد اعتقالات ٥ سبتمبر حاولنا أن نجمع أنفسنا للقيام باعتصام بالأزهر الشريف اعتراضا على الاعتقالات، وحتى نحرج السادات أمام الرأى العام الدولى الذى كان يروج فى الميديا العالمية لفكرة أن المصريين موافقون على حركة الاعتقالات التى قام بها، لكننا لم نجد أية مؤازرة من أى من الجماعات الإسلامية، التى خاطبناها بهذا الشأن، وكانت أعدادنا قليلة جدا بحيث لم تكن تكفى للقيام به، وانتهت الفكرة إلى لا شىء.

٤- المعتقل

" كان اكتشاف الذات فى العربات
أو فى المشهد البحرى
فى ليل الزنازين الشقيقة
فى العلاقات البسيطة
والسؤال عن الحقيقة!"

محمود درويش

فى هذا الفصل تركت لذاكرتى العنان، فلم أتقيد بالسياق التاريخى، فحكاية من البداية ثم أخرى من النهاية ثم عودة لموقف من الوسط وهكذا، ما دعانى لذلك هو أننى أردت أن أعطى هذا الفصل عفوية وتلقائية، خصوصا أن موضوع هذا الفصل هو موضوع متصل، وحلقاته يكمل بعضها البعض. إذا كان رأى القارئ فى هذا الفصل هو أنه نوع من العصف الذهنى فهو محق فى ذلك...! أيضا سوف تتداخل الفصحى مع العامية أحيانا بدون فصل بينهما، لإن الذكريات والأحداث تتطلب ذلك ..

أيام اغتيال السادات.. أين كنت وكيف كانت الأجواء وقتها؟ومن نحن الذين منذ أكثر من ثلاثين سنة كانت لنا أفكاراً خجولة، لم يشعر بها سوى القليل، وتم نسيانها سريعا، حتى نبدو وكأننا نحن أصحابها قد نسيناها أيضا!

لم نكن نعتبر أن اغتيال السادات كان ثورة، كنا نقول، إن الحرية فى أيام السادات مثل ثقوب صغيرة، ومهمتنا ومهمة كل القوى السياسية هى توسيع تلك الثقوب قدر ما نستطيع، وأنه حينما وسعت تلك الثقوب، بحيث لم يعد السادات يستطيع أن يتحملها أصدر قرارات اعتقال ٥سبتمر ٨١، وأنهى الحرية الممنوحة التى كنا ننعم بها، فكان كأنما كتب شهادة الوفاة لنفسه وبنفسه.

ديسمبر ١٩٨١ بعد شهرين من اغتيال السادات تم اعتقالى، اقتادونى إلى مكتب ف.بدير مفتش مباحث أمن الدولة، جلست أمام مكتبه، وأخذ يقرأ على أسماء أصدقائى من ملف أمامه، وأباجورة مسلطة على الملف، سألنى إذا ماكنت أعرفهم فأجبتة" طبعا، أنتم تعرفون أننا أصدقاء ونعمل علانية، سألنى فجأة عن ص. الأشوح؟ استغربت جدا وقلت :

- ده اسمه جاء فى قرار الاتهام بتاع ال ٢٤ متهماً بالمشاركة فى اغتيال السادات، قرأت اسمه فى الجرائد، بس احنا مالنا وماله؟ طبعا ما عرفوش.

كانت هذه هى الحقيقة، لم أكن أعرفه، ولم يكن احدا منا يعرفه، أنا متأكد من ذلك، لكن على طريقة استفان روستى فى فيلم تمر حنة" أحب المفاجآت" كان القدر يخبئ لنا مفاجأة لكن من العيار الثقيل، ويبدو أيضا أن القدر كان مصرا على ألا أعرفها إلا بعد أن تنتهى التحقيقات والتعذيب، كان موقفا غريبا جدا" جايين المعتقل منعرفش ليه" مع الإعتذار لعبد الوهاب، و"التعذيب من غير سبب هو أسمى معانى الغرام "، مع الاعتذارلفريد الأطرش.

نعود للتحقيق،بعد أن أنكرت علاقتى ب ص. الأشوح وهو كان إنكاراً حقيقياً، ليس من قبيل اللف والدوران الذى لم أكن مقتنعا به على أية حال،و لم أسمع نصيحة الأخ أ. الزعفرانى فى محاضرة بالأسكندرية، وهو يشرح لنا قبل ٥ سبتمبر طريقة التعامل مع أمن الدولة. لم أكن أنتمى لأى تيار، لكن كنت أحضر معهم اجتماعاتهم العلنية، و أحاول أن أقنعهم بلم شمل الحركة الإسلامية من أجل ثورة شعبية، هكذا كنت أفهم الإسلام بعد أن أنهيت الفترة السلفية من حياتى، وبعد أن رفض الإخوان تقبلنا فى جماعتهم، فهمى للإسلام يعنى أن المنكر الأكبر الذى يجب تغييره ليس هو شرب الخمر، ولا تبرج النساء، ولا سوء أخلاق الشعب، فكل ذلك هى حرية شخصية، وحساب من يرتكبها هو عند الله وحده" فالحلال بين والحرام بين "، وكما قال القرآن" كل نفس بما كسبت رهينة ".

كنت مقتنعا أنه إذا تحسنت أخلاق السلطة فسوف تتحسن تدريجيا أخلاق الشعب! ولكن المنكر الأكبر كما فهمته من القرآن، ومن سيرة النبى صلى الله عليه وسلم هو تغيير السلطة الفاسدة التى تقهر الناس" وتمص دم الغلابة" بل وأيضا دم الجميع.

أما الأمور الفردية فهى يجب أن تظل فردية وكل أمرئ يتحمل وزر نفسه يوم القيامة، اللهم إلا إذا أراد المرء بإرادة حرة منه أن يتطهر منها، كما حدث فى حادثة ماعز والغامدية.

وأيضا حين جاء الرسول شخص ما، وقال له أنه أصاب شيئا مع امرأة، ويرغب من الرسول أن يقيم عليه حد الله الموجود فى الكتاب، سأله صلى الله عليه وسلم :" هل توضأت فأحسنت الوضوء وصليت معنا العشاء؟" قال الرجل :" نعم "، فقال صلى الله عليه وسلم" اذهب فهى كفارة لك "! ولم يقم عليه الحد، أو كما قال.

فالأصل فى الحدود الشرعية فى النواحى الجنسية هو الستر، وأولها ستر المرء على نفسه، و ستر المسلمين على أخيهم المسلم! هذا ما فهمته وقتها، وما أفهمه حاليا دون الخوض فى أدلة فقهية تحتاج كتابا غير هذا.

كنت أحضر محاضرة هنا، وأخرى هناك كى أتعرف أكثر على الحركات العاملة فى مجال الدعوة الإسلامية! قال أ. الزعفرانى :

- إذا أمن الدولة سألوك عن واحد تعرفه لا تقل أكثر من" شفته فى الفرح، أوشفته فى العزاء"، لا تعطى لهم معلومات أكثر من هذا.

طبعا الكلام النظرى شيء والكلام تحت التعذيب شيء آخر، إلا إذا كان يقصد على طريقة وردة لو سألوك متقولش إنك زعلان معايا!

- سألنى ف. بدير المحقق عن فلان قلت له سعادتك تذكر عندما اعتقلتموه فى ١٩٧٩ أن واحداً منا جاء لكم، وسألكم عنه وطلب تصريح زيارة، علاقتنا به ليست سراً.

وحين أسال نفسى كيف خاطرنا وذهبنا بأنفسنا لأمن الدولة نطلب تصريح زيارة أتذكر أن أمن الدولة لم تكن بتلك الوحشية التى عرفناها بعد ذلك، وكثيراً من مؤتمرات ومعسكرات الجماعة الإسلامية أو الإخوان المتنكرين فى ثوب الجماعة الأسلامية كانت تتم بالتنسيق مع أمن الدولة، الذى كان متخفيا فى الجامعة تحت اسم "الحرس الجامعى"، والكل عارف كده بس هو ده ظروف المصريين،" حد نازل المطار السرى؟"، واحنا كنا بنحضر معهم المؤتمرات والمعسكرات دى وعارفين الموضوع ده وعادى، ولم يكن هناك تخوين ولا حاجة أبدا، الأهم أننا كان من سياستنا ألا نقوم بأى عمل سرى، لأن ذلك من شأنه أن يضعنا فى موقف صعب لا نريده.

كنا أصدقاء، تصادف أننا تعارفنا فى نفس توقيت انتصار الثورة الإيرانية، التى أعطت الإسلام الراديكالى دفعة قوية جدا للأمام، ونحن كنا مع

الراديكالية فى كل مذهب وملة ودين، كنا مع الثورة الإسلامية فى إيران، وأيضا مع لاهوت التحرير المسيحى فى أمريكا الجنوبية، قرأنا وتعرفنا ولو بصورة مختصرة على جميع المذاهب الإسلامية، من أول الإباضية فى عمان إلى الشيعة الزيدية فى اليمن، أو الجعفرية فى ايران والعراق، أو شيعة جبل عامل، و حركة أمل الشيعية تحت قيادة نزيه برّى، قبل ان ينشأ حزب الله بقيادة موسوى ثم نصر الله، إلى الدروز فى جبل لبنان تحت قيادة كمال جنبلاط، ومن بعده ابنه وليد جنبلاط، كنا نعترف بحق جميع القوميات فى الوجود ولغتهم الأم، الأكراد، الأمازيغ،التركمان، الأرمن.

ربما يرجع معرفتنا بالخريطة اللبنانية أكثر من غيرها أننا كنا نقرأ بانتظام مجلة الحوادث اللبنانية، إذ لم يكن هناك مجلة سياسية مصرية مستقلة وقتها.

الجماعات الإسلامية كانت لا تهتم سوى بمذهب أهل السنة، والجماعة، واليساريين، والقوميون لا يهتمون إلا بالقومية العربية. كان لنا موقفنا المستقل عن كل ذلك. لم يكن المذهب أو الطائفة أو العرق عندنا هو المهم بل الأمة. كان تركيزنا على تحرر أمة الإسلام من التخلف، وهيمنة أمريكا وأمة الإسلام كانت تعنى عندنا وقتها (ومازالت بالنسبة لى على الأقل) هم كل من قال بأن القرآن كتاب الله، وأن محمدا رسول الله، أما الاختلافات (أو الانحرافات كما يفضل البعض أن يسميها) فحساب كل مسلم عند ربه يوم القيامة، وليس لمسلم أن يحكم على أخيه بالكفر، فهو حق إلهى خالص لا دخل للبشر فيه.

كنا نحفظ القرآن، ونقرأ فرويد، ونناقش" الليبيدو والأنا والأنا الأعلى، والهو والهى" بدون مشاكل. كنا نسمع محمد منير والشيخ إمام ومرسيل خليفة، ونسمّع آباءنا معنا، فيقولون لنا ما هذا الهبل الذى تسمعونه لنا؟، نشاهد أفلام يوسف شاهين، ونشرحها لهم، فيقولون لنا. ماذ يعجبكم فى هذا المسيحى الشاذ المعقد نفسيا؟ نتحمس للثورة الإيرانية فيقولون لنا ما لكم ومالها :" هو انتم شيعة؟ " فى الحقيقة زهّقنا آباءنا، زهقّنا أساتذتنا فى الجامعة، زهقّنا الجماعات الإسلامية، وتقريبا زهقّنا "كل دابّة قابلناها وكانت تمشى على الأرض!

كان عندنا إصرار غريب أن نناقش مع الجميع كل ما هو ثورى وجديد، كان عندنا اقتناع تام بأننا يمكن أن نغيّرآباءنا، ونجعلهم يتقبلون الجديد الذى ننادى به، كنا مقتنعين بمقولة مالك بن نبى الذى قرأنا كل كتبه، وناقشناها مناقشات ثنائية وثلاثية وجماعية : "إذا لم تغير العالم فسوف

يغيرك العالم" (بتصرف)، هل نجحنا فى ذلك؟ طبعا لا! من أين جاءنا هذا الاقتناع أننا سوف ننجح فى تغيير الجيل القديم؟ حتى اليوم لا أعرف. ربما أخطأنا فى إصرارنا على وضع المرآة فى وجه الجميع وفى كل وقت! يمكن كنا مستعجلين، ولم نترك للزمن الوقت الكافى، يمكن بدأنا بدرى ثلاثين سنة! تماما كما أعطت ثورة تونس الأمل لثورة ٢٥ يناير، فعلت فينا الثورة الإيرانية نحن شلة الأصدقاء، مش احنا بس، ده حتى عبود الزمر نفسه قال إن الثورة الإيرانية شجعتهم.

الثورة الإيرانية كتبت فى دستورها تصدير الثورة إلى الخارج، حاولت بكل السبل ولم تنجح بينما نحن هنا لم نتحدث أبدا عن تصدير ٢٥ يناير، ولم نبذل أى مجهود فى ذلك، إلا أن الثورات والاحتجاجات قامت من تلقاء نفسها، وبنفس الشعارات المصرية فى معظم الدول العربية و فورا،صحيح لأن دور مصر التاريخى فى الدول العربية معروف، ولكن قبل كل شىء لأن ربنا قدّر أن يأتى ذلك الشباب الذى فجر الثورة فى الزمن المناسب!

نرجع من أول الحكاية، السادات والاعتقال.

بعد التحقيقات فى أمن الدولة بالزقازيق بثلاثة أيام تم ترحيلى لمعتقل استقبال طرة، كان هناك مرض فى السجن بحيث يتوجب على كل قادم أن يأخذ حقنة، بعدها سألونا" حد عيّان؟" أظهرت لهم أدويتى وكنت وقتها مريضا فقالوا لى" استنى لما الدكتور ييجى يشوفها"وسكنّوا الباقى فى الزنازين. يعنى أول حاجة شفتها فى السجن كانت المستشفى التى مكثت بها حوالى أسبوعين أو أكثرأوأقل، لا أتذكر المدة بالضبط، لكنها كانت كافية لأن أخوض تجربة مثيرة.

كانت المستشفى عبارة عن بعض حجرات على اليمين، والآخرعلى الشمال، وفى النهاية دورة مياه بلدى. رحب بى شخص فى حوالى الأربعين، ودعانى للانضمام لغرفتهم، دخلت وبدأ الحديث فعرفت منه أنه م.عبد العزيز، وآخر اسمه أ.عبد المجيد كانا محكوماً عليهم بالإعدام مع سيد قطب فى قضية تنظيم ١٩٦٥، وتم تخفيف الحكم عليهما بالمؤبد، ثم خرجا بعد أن مات الرئيس عبد الناصر وتولى الرئيس السادات الحكم. حكيا لى باختصار عن التعذيب الوحشى الذى مارسه عليهم النظام الناصرى، وكيف أن الكلاب كانت تلافى بعضها على أرجلهم!

حكى لى م.عبد العزيز كيف أن الذى كان يشرف على تعذيبه شخصيا هو شمس بدران وزير الحربية وقتها، وبعد أن دخل شمس السجن بعد

هزيمة ٦٧ كان يصلى فى فناء السجن جنبا بجنب م.عبدالعزيز، نسى عبدالعزيز الصلاة، وكل ما كان يفكر فيه هو كيف سيفعل بشمس بدران بعد انتهاء الصلاة، وكيف سيأخذ تاره؟ وعندما انتهت الصلاة وجد شمس بدران يمد له يده ويقول له ''حرما'' ما كان منه إلا أن سلم عليه، وقال له ''جمعا''، ونسى كل ما كانت تحمله نفسه لبدران، ونسى كل مافعله به هذا الطاغية، وقال لنفسه يكفى أن الله قد عاقبه! لم يحكيا لى الكثيرعن التعذيب أيام عبد الناصر، لأنهما كما قالا لى يحتسبان عذابهما فى سبيل الله، ولا يريدان أن يضيعاه بكثرة الحكى!

قلت لنفسى'' دى احلوت!''، تناقشنا وقتها فوجدتهم يرون أن اغتيال السادات عملا لا فائدة منه. قلت لهم إننى أرى عكس ذلك، إذ كنت أرى وقتها أن عملية اغتيال السادات هى الرد المناسب على قرارات الاعتقال الجماعية. لكن عملية أسيوط كنت أرفضها تماما. بعد ذلك بفترة قصيرة، عندما هدأ الغضب وزالت الرغبة فى الأنتقام للمسلمين المعتقلين، كما كنت أقول وقتها، غيرت رأيى فى عملية اغتيال السادات ورفضت كل أنواع العنف، مهما كانت الأسباب، وتأكدت تماما أن الانتقام هو نوع من أنواع الضعف، وأن الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

سألونى عن الجماعة التى انتمى لها، حكيت لهم أننى أدعو إلى توحيد كل القوى، كى تقوم بثورة إسلامية شعبية سلمية، لا مكان فيها للسلاح، وقتها دخل شاب نحيف أسمر، تبين لى من لهجته أنه صعيدى، فعرفنى بنفسه، و عندما سألته لماذا يتحدث بصعوبة قال لى :

-'' أصل لسه فاضل كام رصاصة فى بطنى! ''،

- ''الرصاص ده بتاع ايه؟''

أجابنى أنه من آثارعملية احتلال مديرية أمن أسيوط، قلت'' لا، دى احلوت قوى قوى!''. هذه المرة لم أستطع أن أكتمها فى نفسى فسألونى'' هى إيه اللى احلوت؟''، قلت لهم ولا حاجة ما تخدوش فى بالكم!

تحادثنا وأخبرتهم عن الثورة الإيرانية، معلومات كانوا متلهفين على سماعها، وحتى بعد الخروج من المستشفى للعنبر كان الجميع ينصت باهتمام عندما نحكى عن الثورة الإيرانية، ليس لأنهم مهتمين بإيران، بالعكس كانوا يكرهون الشيعة كراهية عميقة موروثة من الكتب السلفية، السبب هو أنهم كانوا مقتنعين برؤيا رآها عبود الزمر، ويتناقلونها كل يوم تقريبا. رأى عبود

فى المنام أن خالد الإسلامبولى قاتل السادات زاره فى المنام، وقال له إنهم سوف يخرجون من السجن عندما تخرج ملايين المصريين إلى الشوارع!

الغريب أن هذا حدث فعلا مع ثورة ٢٥ يناير! فقد خرجوا بعد أن خرج المصريون للشارع، وهكذا تحققت رؤيته حرفيا! فى عقيدة الأخوة الجهاديين وقتها لا توجد ثورة، ولا يوجد مصريون أصلاً، يوجد سلاح و بس، والإخوان وقتها كانوا مشغولين بتكوين الفرد المسلم والبيت المسلم، وبعدها الدولة الإسلامية والمتصوفة هايمين فى حضرة السيدة نفيسة، والثورة عايزة ناس فايقة! نحن فقط الذين كنا نتحدث عن الجماهير، والثورة، وقوة الشعب،وقوة المطالب السلمية التى تنزع من النظام القدرة على تخويف الناس من السلاح والعنف.

كنا نحكى عن المظاهرات المليونية السلمية فى إيران، وكيف كانت تخرج، وكيف كانت تصنع ودور الأربعينيات فى الفكر الشيعى، وأننا يجب أن نبحث نحن أهل السنة عن مصادر قوتنا أيضا، كنا نحكى بشغف عن" الدم الذى هزم السيف"، وأن النظام لا يمكن أن يعتقل شعبا بأكمله!

المهم، نرجع للمستشفى، قلت لهم هناك سيناريوهات كثيرة للمستقبل،قالوا لى حدثنا فبدأت أحدثهم :اذا انتصرت إيران فى الحرب على العراق سوف تسقط كل دول الخليج وفقا "لنظرية الدومينو"، لكن المشكلة أن أمريكا لا يمكن أن تسكت على ذلك، وهناك احتمال كبير أن يحدث انفجار فى المنطقة، قلت لهم بالنص: ياجماعة لازم تفهموا إن الشعب خايف من حملكم للسلاح، ولكن يبدو أن كلمة الشعب لم تكن تعنى - عندهم كما قال لى قيادى منهم وقتها - سوى" ٤٤ مليون معزة "!

على أية حال كنا وقتها نقول، فيه احتمال إن الوضع العالمى يتغير، كما حدث وقت أن أشعل الصرب المتطرفون الحرب العالمية الأولى باغتيال ولى عهد النمسا وزوجته، قلت لهم أنه بعد انتهاء الحرب انهارت الدولة العثمانية، وظهر للوجود كائنات جديدة مشوهة بحدود مصطنعة وتذخر تلك البلاد بطائفية وقبلية غريبة، ماعدا مصر وقليل من الدول العربية، لذلك فرصتنا كبيرة فى نجاح الثورة، و هناك فرصة كى يكون اغتيال السادات هو بداية لإعادة ترتيب العالم.

طبعا أثبتت الأيام أن هذا لم يكن أكثر من وهم! يمكن دلوقتى يكون هناك فرصة، أخذت أستفسر منهم كيف قاموا بعملية احتلال مديرية أمن أسيوط فى ٨١؟ وما هو الهدف الذى كانوا يريدون تحقيقه؟ وكيف لم يفكروا فى العواقب؟

بعد جدال طويل أخذنى الأخ ع. الشريف الأول على دفعته فى الكلية، صاحب "الرصاصة لا تزال فى بطنى"! وعرفنى بالموجودين فى المستشفى، ممن قاموا بقتل مايزيد على مائة ضابط وجندى، أذكر أن منهم شخصا نسيت اسمه كانت ذراعة مقطوعة، وراقدا على فراش المرض لا يستطيع حراكا، تأثرت للغاية بمنظره، سألتهم فوجدت أن لهم تار بايت عند شرطة الصعيد، اللى اغتصبوا أخته، واللى جلدوا أباه وأمه على الشجرة قدام عينيه، وهو متكتف، وإللى وإللى... حكى لى ع. الشريف أنه كان يفتح عربية الأمن المركزى الكبيرة فيتكوم الجنود على بعض فيضربهم بالآلى حتى تنفذ ذخيرته، يقفل ويعمر البندقية ويدورعلى عربية تانيه، قلت له متعجبا :

- لوحدك تضرب عربية فيها ثلاثين جندياً مسلحين؟
- " نعم لوحدى، تخليص تارات، أصل الخوف كان مكتفهم!"

برّق لى بعينيه، وقال أنه أخيرا أحس بتقل فى بطنه، وراح عن الوعى ليجد نفسه هنا فى المستشفى والمخبرين" يفوقونه" من بعد العملية بضرب الأقلام على وجهه وهو يتقيأ عليهم وعلى نفسه،ولسان حاله يقول" ضرب الحبيب مش زى أكل الزبيب" بينما سبابته شغالة لا إرادى على تتك وهمى،" وادينى ادينى أكتر" بس المهم تكون" رصاصة فى القلب"!

سألته لماذا لم يحقق معى أحد حتى الأن؟ قال لى إن التحقيقات تبدأ بالليل وتستمر للفجر.

عندما جاء الليل نادوا على اسمى وأمرونى" غمّى عينيك"،أخذونى للأسفل والخوف يقتلنى، أى انسان ولو كان نبى مرسل لازم يخاف من التعذيب ولا يستطيع أحد أن يقول غير ذلك.

تركونى واقف حوالى ست ساعات أسمع الضرب والصراخ الفظيع الذى يرهب أشجع الشجعان.

من حين لآخر أسمع صوتا غليظا آمرا يأمر من بجوارى :" إرفع إيدك لفوق" وبعدها أسمع الصفعات تنهال، لا أسمع سوى صوتها، أقول فى نفسى" ياأخى إرفع إيدك وخلص نفسك ".

بعدها عرفت أنهم كانوا يعلقونه على الباب فتكون يديه فى وضع صعب جدا و لا يستطيع أن يرفعها....!

أدخلونى للتحقيق، بعد أن سألونى عن اسمى وبياناتى قالوا لى" احكى لنا قصة حياتك! "، استغربت، وبدأت أحكى وعلى ما يبدو عجبتهم الحكاية، وبالذات الجزء عندما كنت لا "أدريا"، وسافرت إلى فرنسا، ومكثت

بها كام شهر، وكيف أن دخولى فيلم "سكس" لأول مرة فى حياتى والبنت اللعوب الصغيرة اللى فتحت علىَّ الباب، ودخلت تتفرج معايا، وتأثيرها فى حياتى، قالوا لى :طبعا ماكانتش بتتفرج وخلاص! قلت لهم نعم ولكنهم أرادوا التفاصيل فطلبت منهم أن يعفونى من ذلك فأعفونى، سألونى كيف كنت غير مؤمن ولم تمارس الجنس من قبل؟ قلت لهم إن فكرة الناس عن الملحدين أو من لا يؤمنون بإله معين أنهم بلا أخلاق هى فكرة خاطئة، الملحد الحقيقى أو اللاأدرى أحيانا لا يقل تمسكا بالأخلاق عن المؤمن...

- وهل مازلت تعتقد ذلك حتى بعد أن أسلمت؟
- مش فى كل الأحوال، فيه ناس كويسه وناس مش كويسه، زى أى دين أو مذهب.

قلت لهم أن الملحد الحقيقى يعتقد أنه لا يوجد هناك إله يعلق عليه شماعة ضعفه وتخاذله عن تغيير العالم الذى يحيا فيه نحو الأفضل، بينما المؤمن يلجأ دائما للقسمة والنصيب والوعد والمكتوب، بس على كل حال مكنتش ملحد مائة فى المائة لكنى كنت قريباً من فكرة الإلحاد نفسها، وهو الجزء بعدم الإيمان، لكن كنت أقول وقتها أننى غير قادر على إثبات وجود الله أو نفى وجوده، قالو لى بس إنت لسة صغير على كده؟ قلت لهم نصيبى كده!

قالوا لى بس الواحد لا يقترب من النساء لأنه يخاف الله والعقاب، لكن إنت كنت خايف من إيه؟ قلت لهم، المسألة مش مسألة خوف، المسألة مسألة مبدأ،سألونى يعنى إيه؟ قلت لهم أن جنس بلا حب يعنى إن الإنسان تحول إلى حيوان، قعدونى على كرسى وعزموا على بسجاير فأخذت واحدة.

تدخين السجائر كان عامل مشكلة كبيرة فى العنبر بعد ما خرجت من المستشفى، خصوصا أنه لم أكن وحدى، كان هناك ثلاثة على الأقل من مجموعتنا يدخنون، لكن السجن كله كان متأكداً من أننا ملتزمون إسلاميا، وثوريون، والثوريون مجانين وكده يعنى، كانوا يحاجوننا بالحجج الشرعية التى تحرم التدخين، وعندما يئسوا منا تركونا فى حالنا، أما بالنسبة للتحقيق فنكمل القصة...

سألونى كيف تحولت إلى الإسلام فحكيت للمحققين كيف أسلمت، حكيت عن قصة الشمبانيا المسروقة التى شربتها فى فرنسا لأول مرة فى حياتى، و كيف احتقرت نفسى عندما غبت عن عقلى وأخذت أهذى، كانت البداية التى بعدها بدأت أتعرف على الإسلام، وعلى المسيحية، وحكمة تحريم الخمر فى الإسلام، وإن الإنسان لا يجب أن يفقد عقله أبداً تحت أى ظرف...،

لم أكن أعتقد أنهم يستمعون لى" بجد"، قالوا لى أكمل فأكملت : فضلت فترة محتار أسلم ولا ماسلمش، إلى أن أسلمت بعد فترة.

فى الحقيقة لم أسلم مباشرة، كنت اخلص شغل فى مزرعة العنب بجنوب فرنسا، أتعشى وأشرب النبيذ، الذى كنت أفضله على الشمبانيا،لأنه بيعمل مزاج خفيف دون أن يسطل تماما، كنا بعد ما نقطف العنب نشاهد صاحب المزرعة - كانوا يسمونه باطرون- هو ومراته وولاده يعصروة، ثم يعبئونه فى زجاجات، ويعطوا لنا منها أى كمية نريدها، كنا وقتها نبيت عندهم فى جراج صغير وفى الصبح نعمل فى جنى العنب، بعد وجبة العشاء أختمها بالنبيذ الفرنسى، وبعدين أفتح المصحف وأقرا فى القرآن. سألونى إزاى تقرأ القرآن وأنت مسطول؟ المفروض تقرأ الأول وبعد كده تشرب، قلت لهم إن السطلة الخفيفة كانت بتهدى الاعتراض الرهيب اللى كان جوايا على كل ما هو إلهى أو دينى أو أبوى، وبعدين كلمات القرآن كانت بتأثر فى أكتر بعد ربع زجاجة! ضحكوا وقالوا لى كمل، قلت : بالرغم من أنى لم أقتنع بكل ما قرأته فى القرآن لكن أسلمت، أو بالأصح قربت من الإسلام.

قالوا لى : نعم؟ يعنى إيه؟ إما أسلمت واقتنعت بكل ما في القرآن، وإما لم تقتنع ولم تسلم! قلت لهم : إذا كنتم مقتنعين بكل ما فى القرآن فلماذا تقبضون علينا بتهمة العمل على قلب نظام الحكم والعودة لتطبيق أحكام القرآن؟ هو انتوا مش مسلمين؟ قالوا لى نحن لا نشغل مسيحيين فى أمن الدولة، قلت لهم يعنى مقتنعين بكل ما فى القرآن؟ قالوا طبعا، قلت لهم طب لماذا لا تطبقوه؟ سكتوا ولم يردوا وقالو لى أكمل.

قلت للمحققين : إننى أسلمت ولكن مع الاحتفاظ بعقلى، قالوا والدولة الإسلامية كيف ستحققونها؟ بقتل الناس والضباط وإشاعة الفوضى فى البلد؟ قلت لهم إن العنف أو السلاح يجب أن يكون للدولة فقط، وأخذت أضرب لهم مثلا بمنظمة مجاهدى خلق الإيرانية، وزعيمها مسعود رجوى والذين تأثروا بآيه الله طالقانى، الذى تبول السافاك فى فمه، وكيف أنها شاركت فى الثورة بالسلاح ضد الشاه، وبعد أن انتصرت الثورة انقلبت على الدولة الإسلامية أيضا بالسلاح. سألونى تعرف ايه عن" الطلبة السائرين على نهج الإمام؟" قلت لهم أنهم الطلبة الذين احتجزوا الرهائن ال٥٢الأمريكيين فى السفارة الأمريكية بطهران لمدة ٤٤٤ يوما. كانوا فى التحقيق يريدون أن يعرفوا إذا كنا طابور خامس لإيران، أكدت لهم أن ذلك غير صحيح، وأن العلاقة بينا وبينهم هى علاقة احترام لما فعلوه، وإن أنا عندى انتقادات كتيرة لإيران، ونظام الملالى، وإن رجال الدين فى إيران لم يتحملوا الرئيس المدنى "أبو

الحسن بنى صدر" بالرغم من أن الشعب هو اللى اختاره. قالوا لى احكى لنا عن ذلك، حكيت لهم أن الثورة فى إيران وقعت فى نفس الأخطاء التى تقع فيها كل الثورات، الثورة بدأت تاكل أبناءها.

(استطراد : أثناء الحرب العراقية الإيرانية رأيت فى المنام أنى أتحدث مع الرئيس الإيرانى أبو الحسن بنى صدر، وأسأله عن أحوال الجبهة، فقال لى أنه لايعرف، استغربت وسالته : كيف لا تعرف وأنت الرئيس؟. بعدها بعدة أسابيع وصل الخلاف بين بنى صدر وبين الخمينى إلى نقطة اللاعودة، وتم إعلان رسمى فى الإذاعة والتلفزيون الإيرانى أن الرئيس مختفى، وأنه مطلوب القبض عليه! بعدها هرب بنى صدر إلى فرنسا. حفظ الله مصر من تلك التقلبات!)

سألونى عن مجلات الحائط فى الكلية قلت لهم، كل كتاباتنا فى مجلات الحائط فى الكليات تثبت إن احنا مستقلين ومش تبع حد واسألوا اللواء البرمبلى فى أمن الجامعة، كل كتاباتنا كانت تعرض عليه، وساعات كان بيمشيها وساعات بيعترض، قالوا لى احنا عارفيين كل حاجة، قلت نحن نحترمهم لأنهم طلبة زينا، وأنهم أخذوا هذا القرار بمبادرة ذاتية منهم، حتى الخمينى نفسه لم يعرف بها إلا بعد أن احتلوا السفارة الأمريكية، وأخذوا من بها رهائن.سألونى إيه رأيك فينا؟ قلت لهم أنا مقتنع بدورأمن الدولة فى المجتمع، ولابد من أن يحمى أمن مصرولكن يترك الناس فى حالها، ويترك السياسيين والجماعات الإسلامية تمارس الدعوة بحرية طالما لم تلجأ للسلاح، وإنه إذا لم يكن هناك أمن ونظام وقانون فإن الفوضى سوف تنتشر!...

دار حوار موضوعى، كانوا يحاولون أن يقنعونى أن أترك السياسة للسياسيين، وانت لسه صغير وفيه حاجات إنت مش عارفها، لكن كان عندى إحساس انهم عايزين يسمعوا لى، حوالى ساعتين لم يمسسنى فيهم أحد بسوء، كان يظهر من أصواتهم أنهم شباب.

فى اليوم الثانى فى نفس الوقت بدأ التحقيق لكن هذه المرة كانوا أناساً مختلفين عن الأمس، للوهلة الأولى عرفت من أصواتهم أنهم مختلفون وكبارفى السن، أول سؤال كان مصحوبا بالكرباج" تعرف ايه عن فلان، هربتّه فين؟ وديته فين؟" "إنت متهم بإنك قتلت السادات بالإشتراك مع طارق الزمر!" قلت بتلقائية وبدون تفكير ده جنان، أنا عمرى ما شفته ولا عمره شافنى، هاتوه لى دلوقتى حالا وواجهونى به! قالوا لى بعلو الصوت اخرس! قلت بعلو الصوت حاضر!

كنت متأكدا من أصواتهم ومن سبابهم أنهم مختلفون عن بتوع امبارح، الحوار هذه المرة كان هو حوار كلمات من جانبي وكرباج من جانبهم، وبعد أن توقف الكرباج اخذنا استراحة قصيرة، ثم بدأ ماتش مصارعة حرة وأنا مكتوف الأيدى! الخسائر كانت بسيطة والحمد لله، كسر ضلعين وورم فى الفك منعنى من الطعام عدة أيام وعين مقفولة! كان هذا بالنسبة لما كنت أراه من أحوال الإخوة فى المستشفى ترفيه وتسالى، قزقزة لب ع الماشى وتحية من أمن الدولة ع السريع!

الذى كنت ألاحظه دائما وأستغرب له أنه كان هناك اتجاهين داخل أمن الدولة، اتجاه متفاهم وخايف على البلد، والآخر" حربجى" يريد أن يستأصل كل ما له علاقة بالجماعات الإسلامية وأن هذا التحول إلى الاتجاه "الحربجى" هو المسئول الأول عن المأساة التى عشناها طوال حكم مبارك.

اللواء البرمبلى الذى كان مشرفا على أمن الجامعة، والذى سبق ذكره كان صديقا لوالدى رحمهما الله، حكى لى والدى يوما أن اللواء البرمبلى حكى له أنه كان ضابطا صغيرا، وصدر له الأمر بالقبض على حميه، لأن حماه كان من الإخوان المسلمين. وقع فى حيرة وأخبر حماه أنه صدرت إليه أمرا بالقبض عليه وهو سوف يعتذر، فرجاه حموه أن ينفذ الأمر، ولا يعرض مستقبله للخطر وأقنعه أنه سوف يكون أحَن عليه أثناء عملية القبض من أى إنسان آخر!

تعرفت على ضابط من الذين كانوا يعذبوننى، والغريبة أنه كان متفاهم بعد أن توقف التعذيب، كأنه كان يؤدى مهمة، وبعد أن انتهت رجع انسان من تاني! (م.عبدالعليم بعدها بسنة أو سنتين كان من ضمن أربعة وأربعين ضابطاً قدموا للمحاكمة بتهمة تعذيب سياسيين - لأول وآخر مرة فى عهد مبارك- وطلعوا كلهم براءة)! بعد أن خرجنا من السجون كانت هناك فرصة حقيقية للمصالحة بين نظام مبارك وبين الجماعات الإسلامية، ولكنه لم ينتهزها وربما لو كان فعل، أقول ربما كان أنقذ نظام حكمه وأنقذ مصر من الذل والهوان ثلاثين عاما، لكنها إرادة الله، ربما كى تبدأ مصر على "نضافة"، ولكن متى؟ فى علم الله.

بعد انتهاء التحقيقات فى اغتيال السادات تحسنت المعاملة، وبالنسبة لاستقبال طرة الذى كنت فيه، كان فيه أساطين الجماعات الإسلامية.

تصور نفسك أنك لا حول لك ولا قوة، وأنت آت من عالم وهم من عالم آخر، وفجأه تجد نفسك مع كل هؤلاء العتاة وجها لوجه، تكلمهم وتحاول تقنعهم بترك العنف، والغريب أن هؤلاء كان معظمهم شباب فى سننا، للحق

لم يكونوا عتاة ولا جبارين، كانوا شباب "زينا "، هذا ما اكتشفته بعد أن تعرفت عليهم وحاورتهم.

أقول بصدق إن كل التحولات الجوهرية فى تاريخ مصر الحديث من أول ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ كانت مرتبطة بالشباب، عبد الناصر ورفاقة كانوا شباباً،حسن البنا أسس الأخوان وعنده ٢٤ سنة، اللى اغتالوا السادات وروعوا مصر كلها فى التسعينيات كانوا شباباً، واللى بدأ وفجر ثورة ٢٥ يناير كانوا شباباً، على بن أبى طالب اللى بات فى فرشة النبى، وخدع المشركين كان شاباً، أرقم بن أبى الأرقم اللى جعل من بيته مقراً للدعوة كان شاباً، ابن مسعود أول واحد جاهر قريش بالقرآن وخد علقة موت كان شاباً، باختصار الرسول قال ما معناه نصرنى الشباب وخذلنى الشيوخ! شىء عجيب، مش كده؟ يبدو أن صراع الأجيال هو من سنن الحياة، والنصر دائما للشباب!

إذا صلح الشباب صلحت الأمة، وإذا انحرف فيا ويلنا كلنا! هذا ما كنت أشعر به تماما لأنى كنت شاباً مثلهم، ولكن يمكن عندى معلومات عن الدنيا والسياسة أكتر منهم، كنت أشعر أنهم أنقياء وطاهرون، لكن ليست عندهم المعلومات الكافية عن السياسة والدنيا.

بصراحة، قضيت أجمل أيامى هناك بالرغم من التعذيب والسجن، لأنى كنت أشعر أنى أؤدى واجبى فى أيام تاريخية عصيبة، و أشهد نقاط تحول مهمة فى حياة الوطن والحركة الإسلامية.

هذا لا يعنى بحال من الأحوال أن المعتقل كان نزهة، فالمعتقل هو المعتقل، مزيج من التعذيب، والخوف من التعذيب، ودقات القلب المتزايدة مع كل اقتراب خطوات من الزنزانة فى أيام التحقيقات الأولى، فلربما تكن أنت المطلوب..! ثم تهدأ نفسك قليلا بعد أن يفتح باب زنزانة آخر... وما هى إلا دقائق أو ساعات حتى تقترب الخطوات مرة أخرى..! حتى يأتى اليوم الموعود ويفتح باب الزنزانة، وتسمع اسمك فتبادر من تلقاء نفسك بتغمية عينيك برباط يرميه لك مخبر أو عسكرى، ثم يسحبك حيث تدور التحقيقات والتعذيب، ثم تعود للزنزانة، وتعود فى نفس الوقت للأنتظار ويعيد السيناريو نفسه كل يوم وكل ليلة.

ما كان يخفف عن نفسى كثيراً هو أننى كنت سعيداً جداً باغتيال السادات، كنت أرى أننا كحركة إسلامية قمنا بعمل رائع سوف يقلب المعادلة رأساً على عقب. أن تعلن الحركة أنها موجودة وتغتال، السادات الذى كان قد تحّول، لديكتاتور وسار على نفس طريق الديكتاتور ناصر فى محاربة الحركة

الإسلامية بل والقوى الوطنية كلها لهو أمر لا يمكن المغالاة فى تقديره، لن ننتظر الاعتقال المجانى مثل كل مرة من أيام الأخوان.

ما كان يسعدنى وقتها جداًهو أن هؤلاء الشباب لا ينتمون للإخوان، ولم يتلقوا دروسا عقيمة فى السمع والطاعة، وانتظار الوقت المناسب، والحكمة والثقة فى القيادة التى لا تفعل شيئا سوى تأجيل المواجهة مع النظام إلى ما لا نهاية... إلى آخر كل هذه الترهات والتخاريف التى لا تثمر سوى كبت حيويتنا وتلقائيتنا نحن الشباب. كنت سعيدا جدا أن هناك حركة جديدة من الشباب ظهرت للوجود لا تنتمى للجيل القديم، الذى عفا عليه الزمن وأكل عليه الدهر وشرب، جيل الإخفاقات والانبطاح أمام السلطة. لذا فالمعتقل هو أقل ثمن يمكن للمرء أن يدفعه مقابل هذا الإنجاز العظيم. أحكى بصدق ما كنت عليه أيام اغتيال السادات وفى المعتقل.

على كل حال بعد كل المناقشات المستفيضة فى المعتقل مع أعضاء الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد، رأيت أنهم لا يفهمون معنى اغتيال السادات على أنه بداية حركة سياسية إسلامية جديدة تنتزع الاعتراف بشرعيتها من السلطة الحاكمة، بل يرغبون فى مواصلة طريق العنف، وهو ما رفضته تماما، حتى أننى فى آخر أيام المعتقل، وقبل الإفراج بقليل كنت أفكر إذا ما كان اغتيال السادات عملا صحيحا أدى لمكاسب أم لا؟

يوم اغتيال السادات كنت مع بعض الزملاء فى رحلة بالأسكندرية، كان التلفزيون فى الصالة والبعض يتفرج على العرض العسكرى، والبعض الآخر بالحجرات الداخلية. نادى علىَّ بعض الزملاء وقالوا :

- أيمن، تعالى اتفرج، السادات اتقتل..!

ظننت للوهلة الأولى أنها مزحة، ومقلب من المقالب التى نعملها فى بعض، فقلت لهم :

- قديمة..!

لكنهم أصروا على أن آتى للفرجة،وما أن حضرت أنا وأنور حتى سجد أنور لله على الأرض أمام التلفزيون وأنا وراءه..!

بعد ذلك حين كنا نتابع محكامات المتهمين باغتيال السادات، كان هناك طالبا عنده ١٨ سنة اسمه "عطا طايل حميده"، وهو في مثل سننا وقتها، كان وجهه بشوشا وهو يرد على رئيس المحكمة بثقة وفرحة بالإنجاز الذى قام به هؤلاء الأبطال..! كنت أخجل من نفسى وأردد الآية :" ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما "، طبعا الآية الكريمة لها سياق آخر،

وتتحدث عن شيء مختلف تماما...! لكن كما قلت فى الفقرة السابقة أحكى بصدق مشاعرى وقتها.

ما أن تنتهى التحقيقات التى تستمر شهورا، حتى يبدأ الملل ومحاولة التخفيف عن معتقلين من زملائك يصيبهم اليأس، وربما شارفوا على الانهيار، ليس أمامك سوى أن ترفع روحهم المعنوية بينما فى حقيقة الأمرأنت من يحتاج لذلك...!

كانت مهمتى التى لم يكلفنى بها أحد هى اقناعهم بالتحول من السلاح الى التغيير السلمى، عن طريق المظاهرات والاعتصامات، اقتناعهم بضرورة فهم التاريخ، فهم السياسة، فهم الدنيا الحديثة اللى احنا عايشين فيها، والتى تختلف تماما عن دنيا الفتاوى، والكتب السلفية اللى عايشين فيها، أحاول أن أقنعهم أن موضوع اغتيال السادات مثله مثل الحرب، لا يمكن لدولة أن تستمر فى الحرب إلى ما لا نهاية، لا بد من أن تأتى السياسة بعد الحرب، وأن عملية أسيوط كانت كارثة، وعملية فاشلة تماما، ولا يجب تكرارها مرة أخرى..

للأسف مرة أخرى لم أنجح وأصبت بإحباط كبير......

كنت أغنى معاهم أناشيد دينية، كان شعرى ساعتها بيقف، وروحى كلها تنتفض لما واحد صوته جميل يقف من وراء قضبان الزنزانة فى الليل البهيم وينشد :

شباب لم تحطمه الليالى، ولم يسلم إلى الخصم العرينا

وإن جن المساء فلا تراهم من الإشفاق إلا ساجدينا!

فيرد عليه العنبر كله بصوت جهورى مؤثر حتى وإن كانت النغمات نشاز :

ملكنا هذه الدنيا قرونا وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء فما نسي الزمان وما نسينا!

ولكن أيضا مجموعتنا كانت تغنى الشيخ إمام واحمد فؤاد نجم، وبعدها ممكن نغنى فريد الأطرش أو وردة لأننا كنا اتجاه إسلامى أيوه بس برضه بنحب مصر! مرة كنت بغنى داليدا : كلمة حلوة وكلمتين، قال لى الأخ الصفتى وكنا احنا الإتنين عاملين دويتو هايل فى الزنزانة بعد ما خرجت من المستشفى :

- داليدا؟ فى برضه أخ يغنى داليدا؟

- أصل يا أخ صفتى، فيه أخ أخ وفيه أخ فخ! وصاحبك من نصيبك، وهي يعنى داليدا يعنى كانت بتغنى لأبو لهب؟ دى بتغنى لمصر! طب أغنى ايه قولى؟
- غنى مثلا : بطنى بيوجعنى، مش عارف ليه، تسمح يا خويا تكشف لى عليه! يالا يالا يا أخوه، الدكتور وصل، كله يكشف بطنه! وأخذ يغنى : بطنى بيوجعنى.....

يقصد أغنية فريد : قلبى و مفتاحه دول ملك إيديك، ومساه وصباحه يسألنى عليك،..

ولكن "فريد" لو كان سمع الأخ الصفتى أكيد كان كشف بطنه... شربات!

اكتشفت نفسى أن أنا بغنى لمصر، ووقتها كان كل همى هو الوطن الإسلامى الكبير، فى الحقيقة وربما كانت أغنيتى لمصر تمت بطريقة رد الفعل، أى بدون تفكير، عندما كان الأخ "عمدة" يحرف كلمات أغنية وطنية تقول :

حبيت بلدى وعشان بلدى   أنا عايزك تكبر ياولدى
وأشوفك بتعمر فيها   وبتزرع ورد ف صحاريها
وبتبنى مصانع ياولدى   تغنيها وتسعد أهاليها

فيقوم بتحريفها وغنائها كالتالى :

حبيت بلدى وعشان بلدى   أنا عايزك تكبر ياولدى
وأشوفك بتخرب فيها   وبتزرع ديناميت أراضيها
وبترمى قنابل ياولدى   تفقرها وتخربها ياولدى!

فلم أتحمل هذا الهجوم الظالم على مصر، وغنيت داليدا! مرة سألنى الأخ "ابراهيم" ذو الثقافة المتواضعة :

- هى الديكتاتورية هى اللى فيها تعذيب ولا الديمقراطية؟
- لا، الديكتاتورية
- الله، طب هم بيعذبونا ليه؟
- الظاهر نسيوا أننا فى دولة ديمقراطية!

فى الحقيقة كنت أدعو وقتها لدولة إسلامية معادية للغرب، وعلى رأسه أمريكا، تدخل معه فى صراع حتى تستخلص حقوقنا منه، لكنى لم أكن أخفي إعجابى به وبديمقراطيته التى يطبقها فقط داخل حدوده، ولم يكن

عندى مانع إذا تحولت مصر إلى دولة ديمقراطية حقيقية أن تنخرط الحركة الإسلامية فى مؤسساتها. هذا بالرغم من علمى التام وقتها بالتحدي الغربي وضرورة الرد المناسب عليه، لأن لنا هويتنا التى لا بد وأن نحافظ عليها وهى هوية إسلامية.

كانت الزنزانة ٣/١٥ تضم خليطا غريبا، فكنا نصلى ثلاث جماعات، نبدأ نحن بالصلاة، ونحن هنا تعنى سلفيين على إخوان على جهاديين، وحتى اللى على كل لون يا با تستا، المهم يقتنع إن احنا مسلمون! بعد أن ننهى صلاتنا تبدأ صلاة جماعة" التوقف والتبين "، وهى جماعة تؤمن بأنها تتوقف فى تكفير المسلمين حتى تتبين إذا كانوا على العقيدة الصحيحة أم لا، إذا ثبت لهم أن المرء على العقيدة الصحيحة، يحكمون بإسلامه، وإلا يعطوه ختم الكفر!، ثم بعد أن ينتهوا من صلاتهم تبدأ صلاة جماعة" التكفير والهجرة" وهم ناس شاربين دماغهم! لسه ها يتوقفوا ويتبينوا!مبدأهم أنهم يكفرون الجميع مسلمين وغير مسملين، كل من لاينتمى لجماعتهم ويبايع أميرهم على السمع والطاعة فهو كافر وبتلاتة صاغ يالوبيا!

بمنسابة التكفير، قبل دخولنا السجن كان هناك الشيخ "ع" الذى فى مرة من المرات ونحن وقوفاً بالشارع نتحدث إذا به فجأة يقول :" أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله "، سألناه ما هذا الذى تقوله يا شيخ؟ فأجاب :

- مر خاطر برأسى فكفرت به، لذلك أقول الشهادتين من جديد حتى أدخل فى الإسلام مرة أخرى!

وآخر كان يكفّر أم كلثوم وعندما سألته عن السبب قال :

- من أفتى بغير علم فقد كفر، وهى تقول القبلة حلال فى أغنيتها، وبما أنها تعلم أن القبلة حرام، إذن فهى تفتى بما تعلم أنه حرام، فهى أكثر كفرا من الذى يفتى بما لا يعلم!

(حتى الآن الآن لم أقرأ ولم أسمع أن الذى يفتى بما لا يعلم يكون كافرا!)

أما عجب العجاب فهو عندما تتحدث مع واحد من جماعة تسمى جماعة "الفرماويه"، وهم يحرصون على ارتداء ملابس خضراء، ولا أعرف السبب حتى الأن، ويؤمنون بأن قتل البراغيث أو الناموس أو الخنافس أو أى شئ من هذا القبيل حرام، ويطلبون منك أن" تشيل" البرغوث أو النملة التى تمشى عليهم لأنهم لا يستطيعون ذلك...!

كان المعتقل عبارة عن بانوراما إسلامية كبيرة، فيها كل ما يمكن أن تتخيله، وكل ما لا يمكن أن تتخيله..!

أول ما دخل علينا مخبر اسمه غزال، اصفر وجه جماعة التوقف والتبين، بعد أن خرج قالوا لنا انهم كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى منزل واحد منهم، فوق محل غلال، وكان غزال أفندى يجلس عند صاحب المحل باستمرار، وفى الرايحة والجاية يسلمون عليه ويقولون له" السلام عليكم يا أستاذ غزال "، دون أن يعرفوا أنه مخبر أمن دولة!

مرة طلع فى دماغ أم المخبرين يطلعونا كلنا من الزنزانة، ويوقفونا على رجل واحدة! كان يمر علينا جنود الحراسة واحنا واقفين ويقولوا لنا :

- واقفين زى الفراخ، على رجل واحدة؟
- عايزين تقلبوا الحكومة؟ ده كانت تطخكم بالنار وانتوا حيين (يقصدون أحياء)!
- ....
- أنا عايز أهرش فى ظهرى، مد ايدك كده من ورا ومن غير حد ما يحس واهرش لى!
- ها،ها، ها يخرب بيتك يا" صفتى"، ها تخلى صوتى يطلع وتبقى وقعتنا منيله!

أيضا مرة من المرات فى زنزانة ٣/١٥ كنت واقفاً على الشراعة، وأغنى عفاف راضى جرحتنى عيونه السودة، طلّ على الأخ أ.رشدى من الزنزانة المجاورة، ونظر لى بإشفاق وقال لى" وبعدين؟ هاتقابل ربنا ازاى؟"! أخذت أتسامر معه فحكى لى كيف أنهم عذبوه حتى طيروا أظفار رجليه، والحمد لله دلوقتى رجعت تانى وأردف قائلا" يعنى اللى بيجرح ياأخى هم أمن الدولة مش عيونه السوده!".

مرة سمعنا أصواتا وجلبة فى زنزانة الأخ أ.رشدى، ثم طلبوا إن اثنين أو ثلاثة منهم يتنقلوا المستشفى وفعلا تم نقلهم على نقالات الإسعاف، سألنا ليه؟ قالو لنا :

- أبدا، صعايده وبيهزروا مع بعض!

بيتخانقوا ولا بيهزروا...؟ الله أعلم!

كان معهم فى الزنزانه راجل شكله غريب، نظراته وتعبيرات وجهه كلها مخيفة، عرفت بعدها من الأخ رشدى أنه ليس أخا ولكنه تاجر سلاح! كانت هذه أول وآخر مرة أرى فيها تاجر سلاح!

دخل علينا أخ زنزانتنا وقال :

" إنتم نظامكم إيه يا أخوه؟" سألناه ماذا تعنى بذلك، قال :" كل ما اروح زنزانة ألاقى كل واحد ماسك مصحف، وليل نهار يقرأ فيه، أنا أحب شوية عبادة وشوية هزار وفرفشة "... قلنا له : "إنت جيت ولا الهوى رماك؟ خش علينا خش، إنت جييت فى المكان الصح!".

عندما يتعب أخ نحاول نبعت واحد من جنود الأمن المركزى الطيبين يشوف له برشامة ف زنزانة تانية، وكذلك الحال فى جميع الزنازين.

مرة نلاقى مجند جاى ويقول خدو دى من غير ما نكون طالبين حاجة، ماشى، اتلخبط فى الزنزانة، نسأله إنت جايبها من زنزانه كام؟ يقول مش عارف، طب موديها لزنزانة كام؟ برضه مش عارف! مرة تانية مجند يقول لنا :

- " خدوا دى من سولو"
- مين يابنى سولو ده؟
- مش عارف.

كانوا غلابة زيادة عن اللزوم، كانوا بيصعبوا علينا، مرة واحد قال لنا :

- أنتم هنا مستريحين، الواحد فيكم ياخد كام علقة وبعدين يقعد باقى المدة مرتاح، ده احنا اللى بنشوفه من الضباط والمخبرين كل يوم علق، إهانة وضرب وشتيمة ع الفاضى و المليان، وكل يوم، كل يوم.

كان وراء المعتقل معسكر أمن مركزى، نراه من شباك الزنزانة الخلفى، فى أوقات السماح نطل من الشباك ونشوف الجنود يقضون حاجتهم بجوار بعض صف طويل. فكرونى بالحمامات الرومانية! مرة شفت ضابط بيضرب مجند والمجند يقع من القلم، يقوم يقف تانى ويرجع للضابط عشان يضربه ويقع، و هكذا...عشر دقائق ربع ساعة، زهقت ونزلت وتركت الضابط لسه بيضرب فى المجند! مسكين يا ولداه! كان ممكن أى حد فينا ربنا يخلقه من نفس الطبقة دى ويتجند أمن مركزى ويتعمل فيه كده، وذنبه إيه؟ إنه بيقضى الخدمة الوطنية! وبعدين نقول عايزين إنتماء للوطن! طب إزاى؟

من الغرائب التى سمعتها منهم أن تدبير عملية اغتيال السادات كان آخر هرجلة وفوضى، وأن العملية نجحت فقط لأن الله كتب لها ان تنجح، لكن مع الإسباب كانت عملية فاشلة مائة بالمائة! حكى لى د.س.ح. إن أطفالهم

فـى الصـعيد كـانوا يعرفـون أن الإسـلامبولى سـوف يغتـال السـادات وكـانوا يتفرجـون علـى العرض العسـكرى أمـام شاشـات التلفزيـون ويقولـون ببـراءة الأطفال" طـخ ياخالـد! طخ ياخالـد!" حكـى لـى أيضـا الأخ م. ع. يوسـف الـذى عذبوه بوحشية عن ممدوح أبـو جبل، وكيـف وضعوه شاهد ملك، وقـال لـى كلاما لم أفهمـه وقتهـا! بالمناسبة أيضـا فـى حـادث الفنيـة العسـكرية عـام ٧٤ حكـى لـى الأخ" ط." الـذى شـارك فـى العمليـة، و قضـى بالسـجن٥ سـنوات وقتها عن شىء مشـابه، وأن هنـاك أخ نسيت اسمه توجـه إلـى أمـن الدولـة، وأخبرهم بالعملية، فلم يصدقوه إلا بعد أن تمت العملية!

كان العقيد م. السرساوى هو قائـد السـجن فـى ٨١، كـان يبـدو عليـه الدماثة فى كل مرة تعاملت معه فيها، عندما حكيت ذلك ل م.ع. يوسـف، قـال لى إنـه كـان يتعذب فـى مكتبـه حتـى يغمـى عليـه،ثم يـأتوا بجردل ميـاه يلقونـه على وجهه ثم يعذبونه مرة أخرى من جديد :

- ده الأخوة المعتقلين قبلنا فى سبتمر ٨١ كان بيقول لهم إذا حدث تعذيب فى السجن ها يستقيل؟
- أبـاى أبـاى أبـاى... ده أنـا كـانوا بيشـيلوا مـن دمـى فـى مكتبـه بالجرادل....!

كانت عضلات يديه الاثنين من العضد قد ضمرتا من كثرة الضرب بالعصى بعد تكتيفه، وحكـى لـى كيف كـانوا يحرقـون لـه شعر جسمه بولاعة السجائر أما إطفاؤها فى جسده فكـان أمـرا شائعا، و لأنـه كـان صعيدى جدع كان مبدؤه إللى يضربنى ها ضربه! وفعلا كان يضربهم وهو متغمى ممـا أدى إلى أنهم فى كل مرة يعذبونه فيها لابد أن يربطوه بالحبال أولا!

كان" ابن نكته "، كما يقال، فقد كـان كثيرا مـا يربط رأسـه ببطانيـة على شكل عمامة صعيدية! أول مرة رأيته يفعل ذلك فـى المستشفى لم أملك نفسى من القهقهة بصوت لافت! كان منظرا كوميديا وسط التعذيب والنـار..! لا املك نفسى أمام الكوميديا مهما كان الموقف! فالكوميديا عندى هـى أكسير الحياة" ونعنشة الفؤاد"!

شمر القميص وأخذ يحرك عضلاته و يرينى إياها وهو يقول بسعادة:

- شوف، رجعت تانى زى الأول..!
- ده على كده بقى ما عملوش معايا حاجة!
- أحمد ربنا، أصلك ما تستحملش..!
- وهو يعنى إنتوا من طينة تانية؟ مفيش حد يستحمل العذاب ده.

- عذاب الآخرة أكبر يا أخى، عذاب الآخرة أكبر.
- ونعم بالله.
- بس إنت تبع جماعة إيه؟
- ها نرجع تانى؟ قلت لكم أنا مش تبع حد. أنا تبع نفسى.
- يعنى مذهبك إيه؟
- مذهب أمة لا إله إلا الله محمد رسول الله

رؤى ومنامات

رأيت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الكثير من المرات فى المنام.

كنت مع عمر بن الخطاب وعمر يمسك التوراة فى يده يقرأ فيها قليلا ثم يدفن رأسه بين يديه من حيرته، ألقى فى روعى وقتها أنه يخاف أن تكون التوارة أصح من القرآن، ثم دخل علينا الرسول وقال له "لا تخف يابن الخطاب إن الله لن يخذلنى يوم القيامة! ".

عندما أتذكرها وأنا أحكيها لك الآن الآن أشعر أنها كانت رؤية مهولة!! ولكنى لم أكن أشعر أنها كانت كذلك وقتها!! دخول الرسول علينا والهدوء والثقة التى في عينية، السلام النفسى الذى حباه الله به، وظهرلى وقتها فى المنام أمر خارج عن التصديق!! كنت وقتها محتار جدا بين الإسلام والمسيحية وديانات أخرى.

رأيته مرة أخرى ولكن فى موضع آخر،بعد أن دخلت الإسلام بحوالى سنة، بدأت أتعرف على الاتجاهات المختلفة للحركة الإسلامية، انتميت للاتجاه السلفى فترة قصيرة إلى أن قرأت كتاب أبي الأعلى المودودى" الخلافة والملك" فوجدت أنه لا مناص من مراجعة الأفكار السلفية إذ انها كلها مبنية على" نقاء" الماضى وهو ليس كذلك، ثم رأيت هذا المنام الذى تزامن مع حادثة الحرم المكى الذى حكيت عنه من قبل، بعدها قررت مباشرة أننى سوف أنسحب من الاتجاه السلفى، وأبدأ رحلة شاقة فى صحراء مترامية الأطراف بأقل القليل من الزاد، بحثا عن الحقيقة والتماسا لشعاع من ضوء يلوح فى نهاية النفق المظلم.

رأيت فى المنام أنى كنت واقفا مع مجموعة من الصحابة ـ كان من ضمنهم ابن عمر وابن عباس وآخرين- وكنت أختلف معهم فى الغسل من

الجنابة،كنت قد أحضرت وعاء معدنيا أبيض اللون كى أسخن فيه ماء كى أغتسل من الجنابة، رأيت الصحابة رضوان الله عليهم قادمون وينهوننى عن تسخين الماء فيه، ويأتون لى بإناء من الفخار كى أسخن فيه الماء، رفضت وقلت لهم إن تسخين الماء فى الأناء المعدنى أفضل، وأنا لا أعرف كيف أسخن الماء فى إناء من الفخار، وبينما نحن نتجادل إذ حضر الرسول وأشار إلىّ بإصبعه وقال لهم وإمارات التعجب والدهشة مرتسمة على وجهه الكريم، ومازالت كلماته الكريمة ترن فى أذنى حتى الأن، وفى كل مرة أتذكرها أتذكر كيف كان صوته الشريف يهدئ من روعى، ويأخذنى فى عالم من الرحمة المتناهية، قال لى وكأنى أسمعه الآن الآن ولأول مرة :" لقد رضيت لأبى سلمان هذا ولكنكم لا ترضونه له!" ثم تركنا وانصرف وخيم الصمت والوجوم علينا جميعا. رأيت الصحابة بعد ذلك بدون الرسول ولكن فى منظر غير لائق، مشتتين، حيارى، متخاصمين، لذا فلن أحكي ذلك المنام.

كان أصعب منام عندى يوم رأيت جنازته صلى الله عليه وسلم. مع مرور الأيام ومع قسوة القلب التى تحدث عنها أبو بكر رضى الله عنه، نسيت منامات كثيرة مع الرسول ومع الله ويا ليتنى سجلتها فى وقتها ولكن قدر الله وماشاء فعل.

أما المنام الرهيب الآخر الذى لا أنساه أبدا هو أن اليوم كان يوم القيامة، رأيت مربعا كبيرا من البشر، كبيرا جدا، وأنا أقف فى آخر الصف، ويقف أمام الصف الأول كقائد لنا عمر بن الخطاب، الكل واقف بلا كلمة واحدة كأن على رءوسنا الطير، الرءوس كلها متساوية، لا أحد أطول ولا احد أقصر، الدقائق تسير متثاقلة، انتظار ممض ولا أحد يستطيع أن يسأل متى وأين ينتهى هذا الموقف، من بعيد يأتى الرسول راكبا فرسا أبيض شاهق البياض، بدون لجام، ثم يشير لمربع آخر (ألقى فى روعى أنه مربع المشركين) ثم يسألهم" هل لى من الأمر شىء" ولا يرد أحد منهم، الصمت مازال هو سيد الموقف، ياتى الرسول بجواده ويقف أمام الصف الأول كقائد لنا،فيرجع ابن الخطاب إلى مكانه فى الصف الأول. ثم لا شىء سوى الأنتظار.

عن المنام الذى سمانى فيه رسول الله "أبا سلمان" تشبها بسلمان الفارسي الذى لم يسلم حتى تحقق من نبوءة محمد بأدلة كانت عنده من دياناته السابقة التى اعتنقها قبل الإسلام، أريد أن أستطرد قليلا، كانت فكرة إذا ما كان الإسلام دين حقيقى من الله، أم أنه وشى من الأحلام أتى به محمد فى ساعة تجلى تشغل كل تفكيرى وقتها. لذا فقد جذبتنى تجربة هذا الصحابى

الجليل" سلمان الفارسى" ولم أكن أعرف وقتها شيئا عن الأساطير التى تنسب له بعد ذلك من أنه عاش ثلاثمائة عام، أو موقفه من الخلافة حيث يميل لعلى بن ابى طالب، وعليه اعتبره الشيعة منهم، كل ذلك لم أكن أعرفه، وبعد أن عرفته لم يفرق معى فى شىء.

كلهم صحابة النبى الكريم، وكلهم عدول حتى ولو ارتكبوا أخطاء، هذا ما كنت أعتقده وما زلت أعتقده حتى الأن، والحديث يقول كل ابن آدم خطاء وإذا لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيستغفروا فيغفر الله لهم أو كما قال صلى الله عيه وسلم.

أما أن يكون لى رأي مختلف عما قال به الصحابة أو أن يكون لى تفسيرمختلف عنهم فذلك لأن الله سوف يحاسبنى يوم القيامة وحدى، ولن يشفع لى أحد منهم، لأن كل واحد سوف يكون مشغولا بالدفاع عن نفسه. والقرأن الكريم صريح فى ذلك" يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ". هذه الأية القرأنية الكريمة كانت تسيطر على كل خلجة فىّ، وكل نفس من أنفاسى وقتها : كيف سأجادل عن نفسى وما هو دفاعى يومها؟. ثم إن الله لم يهبنى عقلا كى أضعه فى الدرج وأقول أنا أتبع الصحابة، ولولا العقل والبحث، وتقليب الأراء لما كنت آمنت بالله أنا لم أدخل الإسلام عن طريق الصحابة، فلا أحد منهم له فضل على فى إسلامى، والفضل كله لله، وأرجو من الله كما هدانى له أن يعفو عن سيئاتى يوم الحساب.

الإسلام دين الإنسان

فى السنة الأولى من إسلامى كنت شغوفاً جداً بالتجربة الفردية فى القرآن، لو قلت التجربة الوجودية سوف يكون أقرب لمنطق تفكيرى ومعرفتى وقتها، لكنها فعلا كانت تجارب آسرة خلوة محمد فى الغار قبل الرسالة، تجربة إبراهيم عليه السلام فى البحث عن الله من خلال الكواكب. موسى بن عمران وهو يبحث عن الحقيقة فيترك قومه ويذهب وحيدا مع فتاة لمقابلة الخضر، كثيرا ما اعتقدت أن شخصيتى سوف تكون مناسبة جدا كى أقوم بدور فتى موسى، وإن تمنيت شيئا وقتها فقد تمنيت أن أصاحب موسى عليه السلام فى تلك الرحلة العجيبة!

الأنخراط فى تجارب جديدة وغير مالوفة، والبحث عن الغامض المثير، كل ذلك موجود فى القرآن، ومع الأسف تمسخه الأفكار السلفية مسخا، تحت دعوى أنها تعرف كل شىء عن الدين وعن الله، وتحت دعوة مغلوطة تفسر الأية الكريمة" أكملت لكم دينكم" على أن الله أبلغ رسوله بكل

شىء عن الدين، وأن الرسول بلغ الصحابة كل شىء، وأن الصحابة بلغوا لنا كل شىء حتى" الفسوة الفسية" كما هو منقول عن ابن عباس، هذا التفسير بالمعنى الحرفى لا يمكن أبدا أن يكون له نصيب من الحقيقة، إلا أن يكون مجازاً، والغريب الذى لا ينتبه إليه أحد أن الصراع بين التفسيرات والمذاهب الإسلامية المختلفة له أوجه عديدة، من أبرزها هو صراع حول تفسير اللغة، واللغة هى أمر دنيوى بالأساس!.

الغموض والبحث عن المجهول كانا أيضاً من المحفزات القوية جداً لسيد قطب وهو يبحث عن الحقيقة فى تفسيره" فى ظلال القرآن ". الذين يأخذون أفكار سيد قطب عن العزلة الشعورية وتكفير المجتمعات المعاصرة وجاهليتها، لا يأخذون فى الاعتبار الظروف الشنيعة التى عاشها سيد قطب وتراوحه ما بين الأمل الواسع العريض فى ثورة يوليو ٥٢- التى تم مع الأسف اختزالها فى الديكتاتور ناصر.

وإن كنت قد اقتنعت بآراء سيد قطب حينا من الدهر لم يطل، إلا أننى رميت وراء ظهرى سريعا كل ما يتعلق بأموروقتيه، واستبقيت لنفسى منه تجربته الفردية، ورحابة نفسه، وتفسيره المتماهى مع الآيات القرآنية، كنت وقتها أعتبره سلفيا، وهو مثال جيد للسلفى المتفتح إذا نزعنا منه أراءه التكفيرية التى نبتت فى ظل التعذيب الوحشى، والهجمة غير الإنسانية على القوى الحية فى المجتمع المصرى، ناهيك عن رموزه وقادته المعنويين.

هناك مثل بوذى يقول" حين تشير الإصبع إلى القمر فإن الغبى وحده هو الذى ينظر للإصبع وينسى القمر". بكيت دموعا حقيقية عندما وصلت لحقيقة أنى لن اقرأ لسيد قطب بعد الأن، وأن وقته قد انتهى وأفكارة" قديمة" وعلى أن أبحث عن أفكار جديدة كى أتواصل مع القرآن والدين، فى ذلك الوقت تشكلت الشلة من عدد بسيط من المعترضين على" الحالة الإسلامية" وبدأنا نقرأ مالك بنى نبى وعلى شريعتى و توفيق الطيب، والبيرت حورانى وهشام شرابى.....وهكذا أيضا كنا نقرأ مجلات ودوريات مثل" السياسة الدولية" و "علم النفس" وغيرها، ثم بدأت الشلة الثلاثية تمارس دورها، وانضم لنا أعداد بسيطة، كل فترة ينضم لنا أعداد بسيطة، ربما لو كانت أتيحت لنا الفرصة ولم يتم اغتيال السادات كنا قد واصلنا مسيرتنا، لكن الأحداث المتلاحقة وضعت نقطة النهاية فى رواية" الشلة" : قرارات سبتمر التعسة ثم الأنتقام بقتل السادات، ثم المعتقل، وأخيرا تطرف الحركة الإسلامية أكثر وأكثر حتى وصلت لنقطة فارقة يوم مذبحة الأقصر.

أول ما بدأ العنف واستهداف الأجانب قلت لنفسى لا يمكن أن يكون هذا هو ما كافحت من اجله سنوات من عمرى.

كنا نؤدى الصلوات الخمس فى مسجد" الرشيدى" القريب من المنزل، أما الاجتماعات التى تشمل محاضرات وجلسات قراءة يقوم به أخ فى حلقة مفتوحة لمن أراد من رواد المسجد، فكانت فى" مسجد حمام السباحة "، وكان لها مواعيد وبرنامج، لم يكن البرنامج يشمل الكتب ذات الصبغة الفكرية فقط، بل كان يشمل أيضا" تجويد القرآن" و دراسة" السيرة النبوية "، وشيئا يسيرا من الفقه الذى لا غنى للمسلم عنه فى حياته.

فى أول مرة يتم التحقيق معى فيها من قبل م.عبد العليم نزلت له مرتديا روب نوم لأنى وجدت أنه من السخافة وعدم اللياقة أن أنزل مرتديا بيجامه، ولم يكن هناك فسحة من الوقت كى أرتدى الملابس العادية، وعندما ذكرت له مسجد" حمام السباحة" انفجر غاضبا ومتوعدا :

- نازلىّ بالروب دى شمبر وتقول لى بنعمل اجتماعتنا فى مسجد البسينى، هو انت فاكر نفسك جاى هنا تتفسح! قلعوه الهدوم دى كلها...... (وفين يوجعك!)

أما بالنسبة" للخاصة" فقد كان هنا مسجد آخر أطلقنا عليه من باب السخرية من النفس" الوكر"! وهو ما يتناسب أيضا مع كونه تحت الأرض ببضع سلمات وفى مكان منعزل! كنا نتندر بتلك التسمية وعندما يسأل واحد منا الآخر :

- الاجتماع فين النهاردة؟

تأتى الإجابة : فى الوكر!

الغريبة أن كلمة الوكر معناها فى اللغة العربية هو" عش العصافير "، وقد كنا فعلا وقتها مثل العصافير المغردة، يقول إقبال فى قصيدته المشهورة" حديث الروح "، ترجمة أحمد رامى تلحين السنباطى و غناء أم كلثوم :

والطير صادحة على أوكارها تشجى الربا بأنينها المتجدد

حتى نتخلص من التأثير السيئ الذى كانوا يطلقونه على أماكن تجمع الجماعات الإسلامية فى الجرائد" أوكار الجماعات الإسلامية" أطلقنا على ذلك المسجد اسم الوكر. فى" الوكر" كنا نناقش ونحاضر الكتب ذات الثقل، والتى تشترط معرفة مسبقة بأمور تاريخية وفكرية. كان اهتمامنا بالتاريخ منصبا على فترتين أساسيتين من حياة الحضارة الإسلامية : فترة القرن

الأول للإسلام حيث تشكلت المذاهب والعصبيات والأفكار التى شكلت بعد ذلك المذاهب الإسلامية والفترة الأخرى هى من يوم أن" دخلت الخيل الأزهر "، أيام الحملة الفرنسية على مصر إلى يومنا هذا أيضا (المقصود فى الثمانينات). أيضا احتلت كتب ابو زهرة عن أصول الفقه، وكتبه عن الأئمة الأربعة، وعن الإمام جعفر الصادق، وتاريخ الجدل وغيرها مكانة أساسية فى برنامج التثقيف للخاصة.

كان أكبر همنا ان نجمع بين الأصول الإسلامية القديمة والفكر الإسلامى الحديث، وأيضا الفكر العالمى (إن صح التعبير). أن نصنع خلطة من هذ كله، كان هذ هو مبتغانا، خلطة مناسبة للعصر ولا تتنكر للقيم الإسلامية فى الوقت نفسه.

تعرفنا أيضاً على فتحى الشقاقى الذى سبق ذكره،كان أكبر منا بحوالى عشر سنوات، ويدرس الطب فى الزقازيق بعد أن حصل على بكاريوس علوم، مثقف على درجة عالية من الثقافة ومهتم بالقضية الفلسطينية،وله كتاب عن الثورة الإيرانية نشره بعد نجاحها مباشرة، كانت شقته عبارة عن مصدر إشعاع وتنوير، اختلفنا معه فى أشياء، فقد كان اهتمامه الأساسى هو القضية الفلسطينية وهذا طبيعى. أذكر أنى فى مرة تجادلت معه فى النقطة التى كان يدعو إليها وهى أن تكون القضية الفلسطينية هى القضية المركزية للحركة الإسلامية، قلت له أن ظروف الحركة فى مصر غيرها فى فلسطين، تناقشنا ولم نصل لاتفاق، ولكن هذا لم يمنعنا من احترامه وتقديره كمثقف ومناضل إسلامى، كان يكتب فى مجلة المختار الإسلامى تحت عنوان مستعار. اغتالته إسرائيل بعد أن أنشأ حركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين.

كان معرض الكتاب مزاراً سنوياً لا يمكن أن" نفوته" وأيضا نجد فيه ما يشبع اهتماماتنا الفردية بجوار الاهتمامات العامة، فمثلا يوم من الأيام أعطانى الأخ خالد كتاب" خواطر مسلم فى المسألة الجنسية" للكاتب الكبير جلال كشك، اهتممت بالموضوع واشتريت من المعرض بعدها كتاب" الإسلام والجنس" لعالم الاجتماع التونسى عبد الوهاب بو حديبة.... أيضا كنت أهتم شخصيا بجبران خليل جبران فأشتريت كتاب أعماله الكاملة، وهكذا.

كان أسامة له اهتمام خاص بالمعتزلة، وكان يرى أنهم يمثلون الوجه الحقيقى للعقلانية الإسلامية فكان يقرأ لمحمد عمارة، كما كان محبا للسينما العالمية، فكان يمتلك مكتبة نادرة عن السينما العالمية وكان يتولى إدارة ندوات السينما حيث نتفرج على الأفلام الأجنبية المهمة، ثم نتبادل الأراء

والأفكار، كان ذلك يتم فى المنزل. أى منزل يكون عنده استعداد لاستقبال الشلة.

فى الشعر كنا كلنا نقرأ محمود درويش، عندما دخلنا المعتقل كنا نلقى أشعاره التى حفظناها من كثرة ترددها بيننا، كان من المعتاد أن يلتقى أحدنا الآخر وهو فى حالة "نشوة شعرية "، فينشد بدون سبب وبدون أن يطلب منه أحد :

أنا أحمد العربى فليأت الحصار

جسدى هو الأسوار

فليأت الحصار

وأنا أحاصركم أحاصركم أحاصركم

وغيرها من أشعاره، حتى أشعار الحب التى فى مرحلته الأولى كانت تجد منا التقدير، وكان هذا يسبب الاستغراب من الجماعة الإسلامية وقتها، ولكن لم يكن هناك وقت للجدال فى مثل تلك الأمور، إلى حد كبير كان الجميع مقتنعين بالحكمة التى تقول" نعمل سويا فيما اتفقنا فيه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ".

كانت أبيات مثل :

وسرنا فى الطريق

يدى لا ادرى أم يدك

تحتسى وجعا من الآخرى!

تعنى عندنا الكثير.

وبالرغم من أننا – أسامة وأنا – لن نلتقى الحب إلا بعد سنوات، إلا أننا كنا جميعا نكن التقدير والاحترام للمشاعر الفياضة والتعبير الأخاذ.

مرة كنت أسير فى الطريق بجوار المنزل مع خالد فقلت له :

- انظر لهذا الكلب،كم هو رائع وهو نائم، إنه يرقد فى حالة نادرة من السكون والرضا بالقدر!
- يخرب بيتك، ده انت شاعر!

قرأنا صلاح عبد الصبور فى مسرحيته الشعرية"مأساة الحلاج "وأخرى نسيت أسمها والتى يقول فيها :

النسوة يرحن يجئن، يذكرن مكايل انجلو!

أيضا قرأنا مدينة بلا قلب لعبد المعطى حجازى.

هذه مجرد عينات مما كنا نقرأ، فى الحقيقة قرأنا أضعاف أضعاف ذلك، ما أقصد أن أبينه أننا كنا نقرأ على كل الاتجاهات، ونخرج بالخلاصة الجيدة مهما كان مصدرها عملا بالقول المأثور حسب البعض أو الحديث الشريف حسب البعض الاخر : الحكمة ضالة المؤمن إن وجدها فهو أحق الناس بها! أو كما قال.

شخصيا كانت تعجبنى قصيدة مظفر النواب" بجار البحارين "، لم يكن يهمنا كثيرا من هو شيوعى ومن هو مسلم، الأهم هو الأبداع، كانت لنا مبادئنا الإسلامية فلم نكن نخشى أن نتواصل مع الآخرين. وحتى الآن لا أستطيع أن أفهم المسلم المنكفئ على نفسه خشية أن يتعرض لتأثيرات غير إسلامية، لم تكن حال الدعوة ايام مكة ولا المدينة كذلك، ولم تكن سنة الرسول الكريم كذلك، وإلا فكيف يتواصل المسلم مع الناس؟ واين الجهاد الأكبر الذى هو جهاد النفس؟

خالد كان مهتما بمسرحيات معينة مثل مسرحيات "الزجاج" ومسرحية أخرى نسيت اسمها لميخائيل رومان" ربما كانت" الدخان "، و مسرحية ألمانية اسمها" ماراصاد"، حكى لى عن الثلاث مسرحيات، لكنى كنت فى وقتها مشغولا بقراءات أخرى -، أيضا سوف يتعرف لاحقا على الشيخ إمام وصافى نازكاظم ولكن ذلك فى مرحلة لاحقة، أيام "الهروب الكبير ".

بعد أن خرجت من المعتقل وأنهى خالد فترة هروبه، دار بيننا الحوار التالى :

خالد : بعد كل العك اللى حصل فى إيران أرى أن الحكومة الإسلامية لا يصح لها أن تتحدث لا باسم الدين ولا عن الدين، تتحدث عن العدل فقط.

ا.ع. : ولكن من يقوم بذلك الدور وما هو المطلوب من الحكومة؟

خالد : علماء الدين والمنظمات الإسلامية فقط هم الذين يتحدثون عن الدين، لكن السياسة تترك للسياسيين.

أ.ع. : ولكن هكذا نقترب من المفهوم العلمانى للدولة!

خالد : وليكن....! القوانين إسلامية والنظام إسلامى، لكن السياسة للسياسيين وليس لرجال الدين الحق فى الدخول فيها. انت مش شايف بيحصل ايه فى ايران؟

مثل هذه الموضوعات كانت متداولة بيننا بصراحة، وأيضا بعض الكتب كذلك، فقد وصل غرامنا بالقراءة لنفس الدرجة التى قال عنها توفيق الطيب" القراءة التى تلتهم نور ابصارنا" ولم يكن من الممكن للجميع أن تكون عندهم نفس الرغبة، كل مجموعتنا كانت متفوقة دراسيا وضحت بتفوقها الدراسى" ويا دوب كنا ننجح ". أحيانا كنت ألجأ للغش كى أنجح لأنه لم يكن هناك حل غير ذلك. ربنا يسامحنى، كان خطأ ولا بد من الاعتراف بانه خطأ.

فى امتحان الرسم فى كلية الهندسة، لم يكن هناك حل، الموضوع كله معتمد على التدريب وليس مجرد قوانين ومسائل، ولم يكن عندى وقت لذلك، قلت فى نفسى أكيد "ها شيل الرسم "، أول ما دخلت قاعة الامتحان وجدت أخ بجوارى قلت" يا ما انت كريم يارب "، كانت أرقام الجلوس وقتها من غير صور :

- بص يأخى، بسرعة وقبل أن يبدأ الامتحان، أول ما المراقب يلتفت، ها تيجى مطرحى والكارنية بتاعك معاك، وانا ها روح مطرحك والكارنية بتاعى معايا، ترسم لى شوية، مش عايز منك اكثر من ربع ساعة، بعد كده كل واحد يرجع مكانه وانا ها اكمل على الى انت رسمته وتلطيشه من هنا وتلطيش من هنا ها تمشى!
- بس يا أخى.....
- ما فيش بس، كده يا إما ها شيل الرسم! ربع ساعة، قلت إيه؟
- خلاص على بركة الله!

..... كان من شلتنا الأخ م.س. الذى دائما ما كانت نفسه تهفو لأن يكون متطوعا فى برنامج من برامج استكشاف الفضاء، إذا ما قرروا أن يعلنوا عن رحلة لإستكشاف البقعة السوداء التى تبلع فى جوفها كل الكواكب والسيارات التى تقترب منها ولا أحد حتى الآن يعرف ما هو مصير تلك" المبتلعات"!

- ولكن إذا ذهبت ولم ترجع، أليس ذلك انتحاراً محرما فى الإسلام؟
- لا، إنه ضريبة الاكتشاف ولا يمكن أن يكون ذلك محرما بل بالعكس سوف آخذ عليه حسنات من الله.

بمناسبة الأنتحار، تمت الدعوة فى المعتقل للإضراب عن الطعام حتى نأخذ حقوقنا، وحتى يخرج من ليس له" دعوة" بمسالة إغتيال السادات،

ولكن قتل النفس حرام فى الإسلام فما العمل؟ قرروا أننا سوف نضرب" نص نص "، قلت لهم أننى أعرف أن" الكبير كبير والنص نص نص نص"! اما إضراب" النص نص" فلم أسمع به من قبل! قالوا لى أنهم سوف يقسمون المعتقل إلى قسمين، قسم غير مضرب وهو يهرب الطعام والشراب للقسم المضرب! رفضت تماما ذلك النوع من الإضراب "الوهمى" وقلت لهم إما نضرب عن الطعام ونتناول الماء فقط حتى نموت، وإلا فانا مع غير المضربين الذين سوف يهربون لكم الطعام والشراب.

- يا اخوانا، ده احنا إذا نفذنا إضراب حقيقى ومات منا بضعة أشخاص هيكون له تأثير كبير جدا علي إدارة السجن، وصوتنا ها يطلع بره، وها نعمل سابقة للحركة الإسلامية، ونبتدى نضال سياسى حقيقي، وبعدين يعنى هو اللى بيربط نفسه فى طوربيد ويضرب سفينة العدو ها يموت شهيد ولا منتحر؟

لم يكن لكلامي أى تأثير عليهم، وبالرغم من أن أمن الدولة وإدارة السجن كانت تعرف أن الإضراب وهمى، إلا أنه سبب لهم إزعاجا شديدا، وأخذوا يتناقشون مع المضربين واحدا واحدا ويلبون لهم بعض الطلبات البسيطة حتى تم فض الإضراب. أحسن من مفيش.

بعد أن خرجت من المعتقل بعدة سنوات، وبعد محاولة اغتيال وزير الداخلية حسن ابو باشا، لم تكن أمن الدولة تعرف من وراء الحادث، أخذت "تلطّش" كعادتها واعتقلوا خالد، ثم بعد أن ثبت أن تنظيم" الناجون من النار" هم من قاموا بالعملية أفرجوا عنه.

قبل أن يفرجوا عنه قرر خالد الإضراب الحقيقى وليس الوهمى، لأنه كان لا يعرف شيئا بالفعل عن الموضوع، كان يخزن الأكل فى مكان مظلم من زنزانته الأنفرادية، حتى لا يعرفوا أنه مضرب ويكتفى بالماء، حتى يفاجئهم بأنه على شفا الموت، هكذا كانت الخطة التى رسمها لنفسه وبدأ فعلا فى تنفيذها. بعد عدة أيام رأى عسكرى الطعام" متكوم" صاح وأزبد وأرغى :

- إيه ده، يخرب بيتك يابن ويابن... إنت ما بتاكلش؟ ها تودينى فى داهية...!

وأخبر الضباط الذين حضروا على الفور ولم يقبل خالد أن يعود للطعام حتى يعرف سبباً وجيهاً لاعتقاله،عندما لم يجدوا حلا معه أتوا له برئيسهم، م.ع. عمر :

م.ع.عمر : صحيح إنت مش متهم فى محاولة الاغتيال بس عايزين نتناقش شوية وبعدها تخرج بعد ما ترجع تاكل.

خالد : نتناقش

- : إيه رأيك فى الخروج على الحاكم؟
- : إذا صادف وقابلنا ناس أجانب وعايزين ندعوهم للإسلام، نقول لهم إن الإسلام بيقول إذا الحاكم بتاعكم كان ابن كلب و سجنكم وأكل أموالكم بالباطل تطيعوه ولا تغيروه؟
- نقول لهم نطيعه الأول وبعدين نقول له بالذوق غير سلوكك.
- طب عايزين منى أيه؟
- سبحان الله يا أخى فين الصبر على المكاره؟ فين الصبر فى سبيل الله! استنى لما نخلص تحقيقاتنا...!
- المتهم ومسكتوه وعرفتوه، معقدنى ٣ شهور انفرادى عشان تخلصوا و لسه ما خلصتوش؟
- بس ارجع للأكل وها اخرجك بعدها على طول.

بعد أن خرج خالد من المعتقل، قطع علاقته بكل السلفيين والجماعات الإسلامية الأخرى الذين كان يحاول أن يقنعهم بأن يمارسوا السياسة، وهاجر لأنجلترا ولم يعد حتى الأن، أنا كنت مقتنعا من بعد ما خرجت من المعتقل أن" ما فيش فايدة فى" كل أجنحة الحركة الإسلامية إلا بعد أن تغير من نفسها تغييرا جذريا، وبالتالى لم أشاركه نشاطه، واعتزلت "بدرى بدرى"، ربما لو كان خالد معى فى المعتقل وتعرف عليهم لما احتاج لتلك الفترة كى يقتنع مثلى أن الأمر أكبر منى ومنه. قرأت جارودى وتأثرت به فيممت وجهى نحو آباء الصوفيين، اقرأ لهم كتبهم الأصلية، كان ذلك صعبا فى البداية، لكن بعد أن قرأت بعض الدراسات الحديثة عنهم كان الموضوع أسهل.

نعود مرة أخرى لحب المغامرة الذى كان موجودا عندنا، نحن شلة الأصدقاء، الأخ م.غ. كانت أمنيته الأثيرة غريبة لا تصدق، بينما لم تتحق أمنية الأخ م.س. بالسفر لاكتشاف سر الثقوب السوداء حتى الآن إلا أن أمنية الأخ م.غ. قد تحققت وبأسرع ما يمكن.... كان يتمنى أن يعتقل!

أثناء ترحيلنا لمعتقل استقبال طرة كان سعيدا يضحك مع المخبرين وهم يستعجبون من روحه المرحة، سألت عنه فى أيام" الراحة" فى المعتقل، فلم أجده فقد تم ترحيله، سألت عنه من كانوا معه فى الزنزانة، الكل

أكد أنهم تعجبوا أشد العجب من أنه فى أول يوم تحقيق له دخل عليهم الزنزانة مبتسما ضاحكا وهو يحمل" جزمتة" فى يديه لأنه لا يستطيع أن يرتديها من آثار التعذيب على قدميه!

نسيت أن أقول أنه بعد أن استقيظت من النوم فى القرآن بعد رؤية الرسول والصحابة وتسخين الماء فى الوعاء المعدنى أنى وجدتنى فعلا جنبا...! دخلت الحمام وسخنت ماء فى نفس الوعاء المعدنى الذى رأيته فى المنام واغتسلت به.. وقتها كان عندى شيئ غريب، أحيانا أرى الأمرفى المنام فاجده صباحا كما رأيته فى المنام، المشكلة كانت تحدث عندما أرى أمرا مكروها سواء لنفسى أو لغيرى، ثم أنتظر اليوم بعد اليوم و لا يتحقق منه شيء، وأظل فى هم وسؤال بينى وبين نفسى : متى يتحقق؟ أحاول أن أتناسى حتى" تعدى" الأيام ولا ارتاح إلا بعد أن تتحق. بعد فترة تمنيت ألا أرى تلك الأحلام مرة أخرى حتى ولو كان معناه انقطاع رؤية الرسول الكريم، دعوت الله أن يخفف عنى تلك الرؤى والأحلام فخففها عنى. فعلا هى نعمة من الله أن يجهل المرء الغيب!

أيضا اكتشفت وقتها أن عندى حاسة غريبة للموت، سواء كان موت قريب أم غريب، قبل موت شخص ما بأيام أظل فى حالة من الاكتئاب والتشكك، حتى" أسمع خبره" أستغفر الله العظيم، ثم تهدأ نفسى بعد ذلك. ما هى الحكمة من تلك الموهبة الغريبة وما هو المطلوب منى أن أفعل بها؟ لا أعرف، ايضا لا أعرف معنى أن أرى فى المنام أشخاصا لا أعرفهم يتكلمون فى مواضيع لا تخصنى ولم اسمع بها من قبل. فى كل تلك الأحلام لا يتكلمون معى ويبدو أنهم لا يشعرون بوجودى معهم من الأصل. دعوت الله أيضا أن يخفف عنى تلك الأحلام غير مفهومة السبب والمعنى، أحيانا أنسى الموضوع برمته حتى يحدث ما يذكرنى مرة أخرى بتلك" المواهب الغريبة ". بعد سنوات عديدة وعندما رأيت فيلم **The others** الآخرين، لنيكول كيدمان وفيه يختلط الأحياء بالأموات قلت فى نفسى ما أكبر جهل الإنسان!

كان آخر معسكر حضرناه مع الجماعة الإسلامية كان فى المدينة الجامعية قبل قرارت سبتمبر، كان" فول بورد "، بس النوم حسب التساهيل،لأن العدد كبير جدا فكان مراتب على الأرض واللى يلحق، وبالرغم من ذلك كنا مبسوطين وسعداء. وقتها كانت الجماعة الإسلامية فى الجامعة" سلمت نمر" لجماعة الإخوان ماعدا بعض "الفلول" إللى احنا منهم طبعا!

اختلفنا مع قيادة المعسكر بشأن بعض المجلات التى كنا قد كتبناها، ونرغب بوضعها على حوائط المعسكروهم يرفضون ذلك، ولكن لم يكن هذا هو الخلاف الوحيد، الخلاف القادم كان أكبر وأعمق.

جاءنا خبر أن جماعة مجاهدى خلق وضعت قنابل فى اجتماع حزب الجمهورية الإسلامى فى أيران وقتلت ٧٣ واحداً من الحزب منهم أية الله بهشتى زعيم الحزب. تشاورنا وانتهينا إنه إذا قلنا للأخ س.ع. أمير الجماعة الإسلامية نظريا وعضو الأخوان عمليا، لن يقبل، وهو أصلا كان" قارش ملحتنا" لأننا ننشر أفكارا غير أخوانية، لم نكن نتكلم فى حق الأخوان فى المعسكر لا بالطيب ولا بالردى، كنا متفقين على كده قبل ما ندخل المعسكر،مع إن المعسكر نظريا هو تحت اسم الجماعة الإسلامية، ومن حقنا أن ننقد من نشاء ما دام النقد فى صالح الحركة الإسلامية التى وإذا لم نكن جناحا فيها فعلى الأقل ريشة! ومن حقنا بل ومن واجبنا الحوار بما فيه مصلحة الحركة من وجهة نظرنا طبعا.

إلا أننا كنا أعقل من ذلك واتفقنا على عدم نقد الأخوان، انتهت المشاورات على أننا بعد صلاة المغرب واحد مننا يطلع يذيع الخبر ونصلى صلاة جنازة على أرواح الأموات.والله إذا المعسكر رفض يبقى يا دار ما دخلك شر وأدينا عملنا إلى علينا. اخترنا الأخ أسامه وفعلا، أول ما قال ذلك تأثر المعسكر كله ولم يعترض أحد، لم يكن وقتها مسلسل فتنة السنة والشيعة قد بدأ بعد.

طلبنا من الشيخ سليمان رحمة الله عليه، وكان شيخا كبيرا، أن يصلى بالمعسكر صلاة الغائب على أرواح الشهداء، واخترنا الأخ أسامه كى يبلغه برغبتنا تلك، فعلا أبلغه فما كان منه إلا أن وافق لكنه قال أمام الجمع الذى كان يحتشد فى الفناء الأمامى للمدينة الجامعية :

- إكراما للأخ سنصلى صلاة الغائب..

فانبرى له أسامه وقال له :

- أنا لا أملك جنة ولا نار، ولا تجوز الصلاة إكراما لخاطر فلان أو فلان، إذا كنا سنصلى عليهم فذلك لأننا مقتنعين بذلك وإلا فلا داعى للصلاة من أساسه!

المهم صلى بنا الشيخ سليمان صلاة الغائب، وبعد أن انتهينا وجدنا سيارتي شرطة خلفنا والأخ الأمير يطلبنا لاجتماع عاجل، وقال لنا ما معناه

إنه لن يمكننا أبدا من أن ننفذ إللى بيدورفى دماغنا! بعد أن أكدنا له أننا لا نقصد شيئا أبدا غير صلاة الجنازة، تم طردنا من المعسكر!

ونحن نغادر مطرودين شاهدنا سيارتي الشرطة ترحل معنا،" فشاورنا لهم" كما يشاور العشاق لبعضهم البعض، وسلم لى ع التروماى !

بعد أن رجعت المنزل سألنى والدى رحمة الله عليه :" هم طردوكوا من المعسكر ليه؟" قلت له :" هو اللواء البرمبلى لحق يقول لك؟ ".

بعد ذلك كنا نتناقش وكان هو يشغل منصب عميد كلية طب الزقازيق، سألته عن رأيه فينا، نحن الجماعات الإسلامية، قال لى :" على الرغم من كل عيوبكم وطيشكم وتهوركم لكن أنتم أفضل من الشيوعيين ".

فى أيام الراحة كل زنزانة كان لها اشتراك فى الجرائد اليومية سواء قومية أو معارضة! اللى فاكرة ان ساعتها كان فيه جريدة الأهالى، ربما أيضا الشعب؟ الأحرار؟ مش فاكر بالضبط، وكل واحد يختار الزنزانة اللى عايز يبات فيها، يعنى كنت تقريبا كل يوم فى زنزانة شكل.

بعد أن فتحوا الزنازين، نزلت الدور الأرضى وتوجهت لزنزانة ٦/١ الأنفرادى، كان من الضرورى أن أقابل الأخ أمين، لماذا؟ كان المخبرين مستلمنى كل ما تييجى زيارة :

- الأخ أمين فى ٦/١ بيقولك عايز يتعشى
- حاضر، بس مين الأخ أمين ده؟
- ده بلدياتك، من الزقازيق، إزاى متعرفوش؟

وهكذا باستمرار، وأنا مش ممكن أرفض أعشى الأخ أمين بلدياتي والرسول بيقول ليس منا من بات شبعان وجاره جائع، ده حتى اللقمة متنزلش فى الزور، أول ما قابلته وعرفته بنفسى، سألته :

- المخبرين كانوا بيوصلوا لك الحاجة؟
- حاجة إيه؟
- ولا حاجة؟ الأكل، الزيارات!
- أبدا.
- ولا حتى ساندوتش؟
- بقول لك ما شفتهومش...
- يا ولاد الكلب!! طب بس لما أشوفهم
- ها تعمل لهم إيه؟

- هيه، ولا حاجةً، بس مش ها ديهم أكل تانى.

فعلا كنت لا أعطيهم طعاما بعد هذه الواقعه فكانوا يأتون لى بالزيارة ناقصة النص! أه ياولاد الهرمة ده انتوا بتاخدوا الضريبة من المنبع! ما هوالمثل بيقول" إن جاء لك الغصب خدوا بالرضا ".

كان هناك ممن قامو بعملية أسيوط اعترفوا لى شخصيا أنهم أخطأوا فى قتل الضباط والمجندين وأنهم تسببوا فى ضرر للدعوة وللجماعات الإسلامية أكثر من الفائده، لكن للتاريخ كان هناك منهم من كان يؤكد لى أنهم على صواب، وأن إقامة الدولة الإسلامية بالعنف هو الحل الوحيد، المهم أن بعض هذه المراجعات المبكرة الخجولة وغير المؤثرة كانت أمن الدولة حريصة على أن تكون على علم بها، يمكن بهدف جس النبض.

بالنسبة لى على الأقل كان هناك الضابط ش. الذى شجعنى على الحوارات مع باقى الجماعات وكنت أنقل لهم وجهة نظر أمن الدولة وهى أننا سوف نخرج إن آجلا أو عاجلا، وأنهم يريدون منهم ألا يرجعوا للسلاح تانى، وأنهم واخدين أوامر عليا بفتح حوار مع الجماعات، للأسف واجهت البلاد مصيرا أسود بعد أن انتصر التيار "الحربجى" ليس فى أمن الدولة فقط لكن فى القيادة السياسية أساسا وتحولت أمن الدولة إلى جهاز قمعى لا يقل بشاعة عن "السافاك" فى إيران أو "الشتاسى" فى ألمانيا الشرقية سابقا، و ارتضت أمن الدولة لنفسها أن تكون هى المنفذ لتلك السياسات الاستئصالية الإجرامية.

للحقيقة لم يكن جهاز أمن الدولة جهازا محترما قبل اغتيال السادات، كانت فيه كل العيوب السائدة فى أجهزة الشرطة المصرية، من الإهمال إلى استسهال التعذيب لمعرفة المعلومات إلى قلة الأدب وضرب عرض الحائط بحقوق الإنسان، لكن لا يمكن مقارنة أمن دولة السادت بأمن دولة مبارك.

أمن دولة مبارك فكرنى بأمن عبد الناصر، وأمن السادات كان فترة انتقالية! المشترك بينهم هو أنهم كانوا أمنا للحكام و كابوسا على المحكومين.

بمناسبة الفترة الأنتقالية لأمن الدولة أيام السادات، مرة الباشا التركى حكم على واحد فلاح بالجلوس على الخازوق، بعد شوية طلب الفلاح إنه ينتقل على الخازوق التانى، اندهش الباشا وسأله :" ليه؟"، أجاب الفلاح :"عقبال ما تقومونى من الخازوق ده وتحطونى على التانى أكون استريحت لى شوية! ".

قضيت فى المعتقل عشرة أشهر، من، ٥ ديسمبر ١٩٨١ إلى عيد الأضحى من العام التالى، تم حفظ قضيتنا، لم يصدر لنا قرار اتهام و لم تتم أحالتنا للمحكمة، الغريب اننى عرفت ولأول مرة اسم التنظيم الذى ألفوه لنا وهو" تنظيم الطلائع الثورية "، أول ما قال لى وكيل النيابة هشام. س. أن مباحث أمن الدولة تتهمك بأنك عضو فى هذا التنظيم، قلت فى نفسى، والله الاسم ده جميل! طبعا قلت له إننى لا أعرف تنظيما بهذا الإسم، وكنت صادقا جدا! كان هشام بك.س. كما قرأت مكتوبا على الدوسيهات، دمثا، مهذبا، طلب لى شاى فاستأذنته فى سيجارة، كانت هذه أول سيجارة لى فى المعتقل منذ شهورمنذ التحقيق الأول فى المعتقل. بعد فترة طلبت سيجارة اخرى، واهو الواحد يتمردغ فى النعيم ساعتين!

وقتها لم يكن معروفا تماما ضرر التدخين كما أصبح معروفا الآن، بعد سنوات وبعد أن تكشفت الحقائق عن خطورة التدخين الفادحة توقفت عنه تماما وحتى اليوم.

واحنا رايحين وراجعين كان معايا الأخ ع.عرابى (كان له قصيدة بالعامية اسمها حمزة جاى، جميلة ومؤثرة : لا اتذكر منها سوى طشاش : شواشى النخل مالت وسألت بعضها حد يعرفش سر البلد دى؟ حمزة جاى.. أصبح استاذا فى كلية الطب وهجر الشعروالسياسة)، والأخ ع.مجاهد (هاجر إلى انجلترا بعد أن تخرج فى كلية التجارة ولم يرجع)، أخذنا نغنى فى سيارة الترحيلات :

إذا الشمس غرقت ف بحر الظلام

ومدت على الدنيا موجة ضلام

وتاه البصر فى العيون والبصاير

وغاب الطريق ف الخطوط والدواير

يا ساير يا داير يا بو المفهومية

مفيش لك طريق غير عيون الكلام.

أحيانا كانت تأتينا إشاعات عن بعض زملائنا الذين فضلوا الهروب من الاعتقال أنهم نجحوا فى الخروج خارج البلاد، لكن ثبت أنها غير صحيحة. بعد أن وضعت المعتقلات أوزارها ــ بالنسبة لنا ــ وبعد سنوات، تزوج أسامة أمريكية كانت نازلة مصر تعمل شغل، بعد قصة حب بينه وبين جودى اللى كانت واخدة ماجيستير فى الثورة الإيرانية تزوجا، ثم هاجر واستقر هناك وحصل على الدكتورا فى الطب النفسى، ودكتورا تانية فى طب

الأطفال، وتخصص فى طب نفسى الأطفال و فتح عيادة، خالد تزوج دكتورة مصرية زواجا تقليديا – زواج اجتماعى حسب تعبير – ثم سافر إلى انجلترا ولم يرجع من ساعتها.

أما قصة حبى وإن بدأت قبل أسامة بسنتين إلا أننى كنت أكتمها، وأحرمها حتى على نفسى لأن الوقت ده وقت نضال مش وقت حب، هكذا كنت افكر – وفى السنة الثالثة هندسة الزقازيق، بدأت أدرك عاطفتى تجاه زوجة المستقبل وبدأ ذلك بأن رأيتها فى المنام! بعد الخطوبة سوف تخبرنى هى أيضا أنها بعد أن تحجبت فى آخر سنة ثالثة رأتنى فى المنام وأنا أقول لها مبروك! طبعا كنا نرى بعض يوميا فى الكلية لأننا فى سنة واحدة وسكشن واحد! لكن لا كلام ولا سلام!

ظللت سنتين لم أفاتحها بحبى، ولا أقترب منها حتى لا أضعف وأصارحها بعاطفتى، وذلك لأنى كنت أرتب لنفسى أن أنتهى من الكلية أولا، ثم أدخل مجال الحياة العملية ثانيا، وموضوع الزواج هذا لم أكن أعيره انتباها كثيرا، حتى بعد إسلامى والتزامى كنت غير محبذ للزواج، و لم تكن الرغبة الجنسية عندى فى يوم من الأيام حافزا عليه.

المستحيلات عند العرب ثلاثة : الغول والعنقاء والخل الوفى. عندى أنا مستحيل رابع وهو الزواج بدون حب!

النظام عندى مهم جدا! أهم من الزواج! أن أتزوج يعنى أن أكون مجبرا على تحمل مسؤلية بيت وأولاد...." أنا ها آخذ إيه من ده كله؟ هو أنا ناقص مسئوليات؟ أيضا كنت أعتقد دائما أننى سوف أكون أبا سيئا، فالتقلبات التى مررت بها وأمر بها لا تدع لى مجالا أن أكون مهتما سوى بنفسى ".

منطق جميل وأفكار مرتبة! ولكن اللى على البحر عوّام! والحب غريب وما لوش أسباب!

فى السنة النهائية من الكلية تلخبط النظام ووقع الأنفجار العظيم، وذلك عندما جمعنا القدر فى مشروع واحد وكان لا بد من تعاون المجموعة كلها مع بعضها البعض، ونتبادل اللوحات ونقسم الأعمال.....

ظللت يومين لا (نوم ولا أكل)، دخنت أكبر كمية ممكنة من السجائر، فى اليوم الثالث قررت أننى لا بد أن أفاتحها ولا مفر من تحمل لخبطة النظام! أخيرا جاء القدر لى بحبيبتى أمام عينى، هل أضمن لو فوّت الفرصة أن تعود ثانية؟ هل يأتى الحب مرتين فى عمر الإنسان؟ ألا يكفى سنتان حب من بعيد لبعيد؟ توكلت على الله وأخذت القرار الصعب!

قرأنـا الفاتحـة وظللنـا طـوال السـنة مثـل العصـفورين، كـان زملاؤنـا يقولون عنا" أحلى COUPLE فى الكليـة "، مـع الأسـف لا أعـرف ترجمـة الكلمـة مـن الإنجليزيـة للعربيـة! إذن فقـد حـدثت المعجـزة وتخليت عن فكـرة الحياة البوهيمية والسبب هو الإيمان والحب!

كانـت صـافى نـاز كـاظم تقـول لنـا أن المحبـين هـم الوجـه المضـئ للقمـر...! مـش عـارف ليـه شـغلت نفسـها زيـادة عـن اللـزوم بمهاجمـة العلمـانيين؟ خسـارة...! أكيـد الجهـد والوقت الضـائعان فـى الخـلاف الإسـلامى الليبرالى ليس فى مصلحة مصر، وبعدين ما فيش حد ها يقدر يمحـى التـانى! لـو تكتـب عـن حياتهـا وتجاربهـا الكثيـرة المتعـددة يبقـى أحسـن....! أول مـا تعرفت عليها عن طريق خالد، سألتها عن رسم تعلقه علـى الحـائط، قالـت لـى إنـه فنـان سـكندرى ناشـئ اسمـه" عصمت دواستاشـى"،وأيضـا قالـت لنـا ان هناك أديبـاً لا أتذكرأسمه بعث لهـا بقصص قصيرة أو روايـة لا أتـذكر، ربمـا كان اسمهـا" حقيبة خاويـة "، أعجبت بهـا وكتبـت عنـها،كانـت تشـجع الفنـانين المبتدئين إذا رأت فيهم موهبة حقيقية. كانت لا يعجبهـا الحـال المايـل، وتعبـر عن نفسـها بصراحـة زايدة حتـه! أو حتتين!! فعلا امرأة عظيمـة، أسـمع نفسـى أقـول لهـا لسـانك عسـل أبيض وحلاوتـه زيـادة وهـى تقـول لـى، بـس؟ عسـل أبيض بس؟

أيام الحب، كانت أيام نسير فيها فوق السحاب، نشرب فيهـا مـن هنـاء الوداد، وننظر فيهـا بعين الجمـال....! لـن استطرد فـى ذلـك لأن أى كـلام عن الحب لا يمكن إلا وأن" يترك" فيه المرء الدنيا بما فيها ويكتفـى بـالتغريد فـى بسـاتين المحبوب، أيـام الـدنيا مـا كـان فيهـا حـب بجـد مـش اليـومين الغـامقين دول، أهو كل حى بياخد المقسوم له والسلام...!

حضـر أسـامة وجـودى خطبتنـا، بعـدها كـان لابـد أن يـدخل الجـيش، فبعثت جودى خطابا لحسنى مبارك كى يعفى أسـامة مـن الجيش لأنـهـا ترغـب أن يسـافر معهـا أمريكـا!.. لـم ينفـع الخطـاب ودخـل الجـيش وبعـدها سـافرت جودى، ولحقها هو بعد أن انهى الخدمة العسكرية.

بعـد خمـس سـنوات مـن أو ل سـفرية لـه زارنـا فـى المنـزل أسـامة وجودى، قال لى أسامة أنه مشغول جدا فى أمريكا كى يعادل شهادته.

جودى تشتكى وتقول له :

- هل أصبحنا زوجين تقليديين؟

قلت لها :

- لست وحدك، أنا أيضا...!

هنا تدخلت زوجتى واعترضت فهى ترى أن الحب يتعمق بعد الزواج ويأخذ منحى أخر،(أنا لا أوافق على هذه النظرية لكن ما باليد حيلة!) فى هذه الأثناء بكت طفله جودى فصحبتها زوجتى إلى حجرة بالداخل كى ترضع" سارة" ابنتهما الوحيدة.

الغريبة أننى كنت أتوقع أن اقابل حبيبتى وأنا عندى ١٣ سنة، وكنت أتوقع أنها سوف تكبرنى، وذلك لم يحدث، الذى حدث هو أن جودى التى وقع أسامه فى غرامها وتزوجا هى التى كانت تكبره ببضعه سنوات!

كل بضعه سنوات أفتح دولاب الذكريات وأقرأ ما كنت أكتبه لخطيبتى، حبيبتى، كلام جميل، :" ما جمعه الله لا يفرقه إنسان ". بعد عشرين سنة زواج اكتشفت زوجتى أنها آية فى الأنجيل...! واكتشفت أنا أن محبتى ما زالت على حالها...! لكن أحيانا يعلوها الصدأ وتحتاج المحبة أن يجلو المرء عنها غبار الأيام...! ولكن النار واللوعة والحرقة و" بقيت وانت معايا الدنيا ملك إيديا "، فقل،" باى باى يا أجمل أيام حياتنا، باى باى، يا أجمل ذكرياتنا" و "قول للزمان ارجع يازمان، وهات لى قلب لا داب ولا انهرس ولا شاف معتقلات "!

بعد أن خرجنا فى بهو السجن أيام الراحة، عرفت أن أحد أصدقائنا من المعتقلين هو الذى أطلق علينا إسم التنظيم الوهمى "الطلائع الثورية" وذلك أثناء التحقيق معه! وهى حكاية طريفة تذكرنى بما قراته فى كتاب" البوابة السوداء" لأحمد رائف قبل الاعتقال بأشهر قليلة، وهو أن المباحث الجنائية كانت تقوم بالتحقيق وقتها، و كان لازم تقدم للمخابرات قصصاً عن المؤامرات الوهمية اللى اخترعوها عشان يقبضوا على الأخوان، فكانت تعذبهم حتى يعترفوا بأشياء لم تحدث،ثم تعذبهم مرة أخرى حتى" يسبكوا" الكدبة ويعترفوا بتفاصيل التمثيلية اللى هى أصلا ما حصلتش، واهو يقدموا لمخابرات عبد الناصر" شاهد ماشافش حاجة" والسلام!

بعد أن قبضوا على صديقنا ظلوا يضربوه حتى يعترف باسم التنظيم الوهمى، لم يجد بداً من أن يؤلف لهم اسم تنظيم، قال لى أنه وقتها كان هناك تنظيم عصام العطار فى سوريا، فأخذ منه إسم الطلائع، وبما أننا ثوريين فقد أضاف كلمة الثورية للطلائع حتى لا يتهموننا بأننا ننتمى لتنظيم عصام العطار! قلت له إنك تحسن الظن بهم،هما يعرفوا حاجة عن مصر لما يعرفوا عن اللى بيحصل فى سوريا؟.

نكتة : مرة أمن الدولة كانوا بيمسكوا الحمير، ما لاقوش غير قرد، جابوه وقعدوا يعذبوه ويقولوا له :" قول أنا حمار! ".

كان وقتها فعلا أمن الدولة فى حالة يرثى لها، كانوا كما يطلق عليه فى الأدبيات العالمية فى حالة" عمى مخابراتى "، يقبضون على شخص ما، ثم يعذبونه حتى" يقر "، بأسماء كل من يعرفهم فياتون بكل من يعرفهم ويظلوا يعذبون الجديد المسكين حتى" يقر" باسماء من يعرفهم....وهكذا، وهذا يفسر كيف أن المعتقلات كان بها أكثر من عشرين ألفاً وقتها، كل الذين صدر لهم قرار اتهام وأحيلوا للمحاكمة كانوا ثلاثمائة، ٣٠٠ فقط!

دخول (المعتقل) مش زى خروجه!

بعد اغتيال السادات بشهر أو نحو ذلك صدر قرار الاتهام ل ٢٤ واحداً واتهموا بقتل السادات أو الاشتراك فى تسهيل قتله، كان منهم خالد الإسلامبولى ورفاقه الثلاثة الذين قتلوا السادات فى حادثة المنصة بالاضافة للمهندس : محمد عبد السلام فرج صاحب كتاب" الفريضة الغائبة" ومهندس عملية الاغتيال، دول خدوا إعدام و تم التنفيذ.

باقى الأربعة والعشرون كان منهم واحد اسمه ص. الأشوح و كان هربان من المطاردة (اللى مفتش المباحث كان بيسألنى عليه). كان لنا صديق اسمه محمود، من عرب جهينة و مستأجر غرفة بجوار" مسجد حمام السباحة" ويدرس فى كلية الطب. حكى لى عندما قابلته فى المعتقل فى فترة السماح، أنه فى يوم من الأيام جاء له أ.ح. الذى كان على خلاف مع أهله، فغادر المنزل وسكن مع محمود، وقال له أن معاه الأخ ص.الأشوح، ويحتاج إلى مكان ينام فيه للصبح لأن عنده مشوار، بشهامة عرب جهينة قال يتفضل، بيته ومطرحه.... وبس.

فى الفجر كانت الشرطة عند صاحبنا بالمدافع الرشاشة، ولكن لم تكن تبحث عن الأشوح ولم تكن تعرف بوجوده، حكى لى محمود أنهم كانوا يبحثون عن أ.ح. المصاب بجنون الجغرافيا السياسية، يعرف كل نقاط التوتر والصراعات الموجودة فى العالم وسببها، عندما تجىء مثلا سيرة خليج الخنازير وتسأله متى ولماذا وقعت تلك الواقعة، يمدك بمعلومات كأنه موسوعة معارف متحركة، لكن خياله كان أوسع من المطلوب مما يجعله يتهيأ أموراً غير موجودة أحيانا، عندما دخل أمن الدولة غرفة محمود استغربوا وسألوه :

إيه كل خرائط الدول دى؟ هو انت فى طب ولا فى آداب؟

المهم لم يجدوا أ.ح. فأخذوا يفتشون فى غرفة محمود حتى وجدوا فى جيب بنطلونه صورة السادات والمنصة وحادثة الاغتيال، ووجدوأنه مكتوبا على الصورة بخط يده" الكلب السادات "، قالوا له:

- هو انت معاهم؟ طب تعالى معانا، ومين ده كمان؟ (يقصدوا الأشوح)
- ده واحد صاحبى
- طب خليه وتعالى انت معانا

بعد أن خرج أمن الدولة خارج الغرفة رجع الضابط مرة أخرى وقال للأشوح :

- بقول لك إيه، ألبس هدومك و تعالى معانا احتياطى.

وفى مقر أمن الدولة عرفوا أنهم وقعوا على صيد ثمين! تيجى مع العمى طبات!

بعد الخروج من المعتقل، وبعد أن أنهى محمود دراسته تعرض لمضايقات كثيرة من أمن الدولة، مما اضطره إلى السفر للعمل بالسعودية كطبيب، كان يسافر فى الأجازات إلى انجلترا، وحصل على البورد فى طب النساء وهى شهادة تعادل الدكتوراه المصرية.

عندما جاءوا للقبض علىّ، كنت يومها مريضا وغائباً عن الكلية، كانوا قبضوا على صاحبنا محمود قبلها بأسبوع أو أسبوعين. كان إجراء روتينى وقتها أنهم يقبضوا على الشلة بتاعتنا لمدة أسبوع فى مقر مباحث أمن الدولة فى الزقازيق، وبعد الاستجواب يطلقون سراحه، ماشى، عادى، الريس تم اغتياله وإجراءات أمن عادية. كنا واثقين أن احنا مش علينا حاجة، لذا كل منا كان متوقعاً بكتيره أسبوع تحقيق ويطلع.

ضرب جرس الباب وجاءت والدتى تقول لى واحد اسمه محمود عايزك، تصورت أنه محمود صاحبنا و خرج بعد ما قضى الأسبوع المقرر، فرحت جدا ومشيت على عكاز لأنى كنت مريضا - كما سبق وقلت - وأنا أقول" حمد لله على السلامة" من قبل أن أصل للباب وأمد يدى كى أسلم على محمود، فوجئت أن اليد التى امتدت لتسلم على أكبر من إيد محمود، وبجواره شخص آخر، قلت لهم : إيه ده؟ من أنتم؟!

هذا هو ما حدث بالحرف، أتذكر اليوم وكأنه البارحة، طبعا لم أقل له" محمود إيه ده يا محمود؟"! ولكن الدقائق الخمسة امتدت لعشرة أشهر

وبدلا من مقر مباحث أمن الدولة فى الزقازيق، شتيت وصيفت فى معتقل استقبال طرة، بس الحمد لله" مرجعتش الشتوية ".

" محمود إيه ده يا محمود؟" كان إعلان عن سجاد، أعتقد عامله طارق نور على ما أتذكر وعمل ضجة وقتها، واتناقش فى مجلس الشعب. دلوقتى يعتبر لعب عيال و إعلان محافظ جدا، حدود الممنوع والمسموح فى المجتمع اتزحزحت ولا اتشقلبت؟،" الأيام لعبها عجيب يا بخيت يا بشارى"!.

المهم طريقة تصرف أمن الدولة مش ها تلاقى تعبير بليغ عنها أكتر من النكتة اللى بتقول : "قالوا للقرد بتجرى ليه دول بيقبضوا على الحمير؟ قال حلّنى لما أثبت إن انا قرد!"

والله وتالله و قسما بالله مفيش ألذ ولا أطعم ولا أحلى من نكت الشعب المصرى، على نفسه وعلى حكامه!

فى يوم" الخروج" من المعتقل، كان عيد الأضحى المبارك، نادوا على أسمائنا مرتين، حزمنا أمتعتا، أو بالأصح اللى سابوه لنا منها، بعد أن استلمت متعلقاتى، قابلنى العقيد م.السرساوى وقال لى" مبروك، مش عايزين نشوفك هنا تانى"!، استغربت الكلمة لكن عندما فكرت فيها وجدتها منطقية فتقبلتها بصدر رجب. ركبنا سيارة ترحيلات حتى وصلتنا لأقرب نقطة فيها ناس ونزلونا وتركونا ومشيوا لحالهم ومشينا لحالنا!

مرة مخبر اسمه صلاح على ما اعتقد قال لنا" بكره تخرجوا وترجعوا تلعبوا بديلكم تانى ونرجع نجرى وراكم تانى، ما هى الدنيا كده "!

كل اللى أنا فاكره أن المكان كان بجوار باب اللوق، مش فاكربالضبط فين، وجدنا سيارة بيجو، كان منظرنا غريباً، الجميع بجلاليب بيضاء وذقون كثه، مغبرين(= متربين)، وكل واحد شايل شنطة، ننظر للحياة والناس ولا نصدق أننا خارج المعتقل!

تفاوضنا مع صاحب السيارة فطلب مبلغا من المال :

- كتير ياريس
- معاكم كام؟
- كذا
- ماشى.

من المؤكد أنه شعر بحالتنا لأن الثمن الذى دفعناه - وهو كل الذى كان معنا - يقل عن نصف الأجرة، وفى يوم عيد! لكن هذا هو المعدن الأصيل للشعب المصرى.

وصلت المنزل وجدت أهلى مسافرين،لا احد فى الشقة! وطبعا لا يوجد معي مفتاح، "إيه الورطة دى!؟" قرعت على باب أحد الجيران ولحسن الحظ كان بالمنزل وحده، وأهله أيضا مسافرين لكنه لم يسافر معهم، قضيت الليل معه وفى الصباح، كلمت أهلى بالتليفون، أخبرونى أنهم فى الأسكندرية لقضاء العيد، ركبت الأوتوبيس ولم يكن هناك مكان للجلوس، فسافرت فى الوضع واقفاً. مش مهم! المهم أنى بدأت مرحلة جديدة فى حياتى بعد تلك التجربة التى خرجت منها بما خلاصته أن الحركة الإسلامية" مهرجلة "، وأن الأساس الفكرى اللازم لبناء دولة إسلامية عصرية غير موجود! ومن وقتها وتوجد محاولات عديدة ولكن مازال الشوط طويلا.

بعد أن خرجنا بسنتين تقريبا، صدر قرار الاتهام فى قضية سميت وقتها" تنظيم الأنتماء" وهذا يعنى الذين انتموا لتنظيم الجهاد، لكن لم يشاركوا فى اغتيال السادات. جاءت الأحكام مخففةجدا وكتير منهم أخد ٣ سنوات كان قد قضاها أصلا فى الحبس الاحتياطى، فخرجوا فورا، كنا فرحانين جدا وكتب مورو مقالا بعنوان" مصالحة مبارك للجهاد الإسلامى "، بعدها بكام يوم جاء له تلغراف من السفارة الأمريكية يدعوه للحضورولم يذكروا الأسباب، سألنى إيه رأيك أروح ولا لأ؟ قلت له روح، فيه مثل بيقول لك خللى أصدقاءك قرب عينيك وخللى أعداءك أقرب!، لكنه لم يذهب لأنه كان يكره أمريكا كراهية شديدة، ويخاف علي اسمه أن يرتبط به،وهو كان بيجهز نفسه كى يهجر الصيدلة، ويصبح كاتباً إسلامياً وهذاما حدث فعلا.

كنا وقتها شباب عادى جدا فى سن ولادنا دلوقتى، لما بفكر ازاى كل ده حصل لنا فى هذه السن الصغيرة، وازاى كنا بنحاول نحشر أنفسنا حشر فى هذا العالم الواسع المضطرب، وازاى كان عندنا هذا الوعى السياسى واحنا ولاد امبارح كما يقال، وليه وعشان ايه كله ده اتبخرو راح؟ وايه الحكمة أنه يخرج تانى دلوقتى؟ وبعد ثلاثين سنة! لا أجد إجابة واضحة، لكن أقول حكمه الله تأتى فوق كل شىء.

بعدها أو فى نفس الوقت مش فاكر بالضبط جاءت عملية تقديم الضباط المتورطين فى التعذيب اللى حكيت عنها سابقا، ودى كانت آخر محاولة من جهاز أمن الدولة لتطهير نفسه وقتها، وبعد أن أخذوا كلهم براءة قلت بس، هذا أمر دبر بليل! ولا واحد منهم خد حكم؟ طب مين كان بيعذبنا؟

الهوا ولا عصابة اللهو الخفى؟ برضه وقتها بدأنا نسمع عن أعمال التعذيب فى إيران، وعن انتقادات آيه الله منتظرى لتلك الممارسات، تناقشنا طويلا ووصلنا أخيرا إلى رأى قاطع وكأننا بنمشى الدنيا على كيفنا! : مهما كانت الأسباب والمبررات، إذا لم يقدم من قام بذلك للمحاكمة فلا يمكن أن تستمر تلك الثورة فى مجراها الصحيح!

كان آيه الله منتظرى هو النائب الذى عينه الخمينى بنفسه بعد ما مات نائبه آية الله مطهرى الذى قال عنه الخمينى كان ثمرة روحى)، المهم بعد الخمينى مامات عزلوا منتظرى، وقاموا بترقية خامنئى الحالى إلى رتبة آيه الله العظمى ومرجع تقليدة التى يشترطها الدستور الإيرانى فى رجل الدين (اسمه المرشد) الذى يتولى قياده البلاد! ومن مرشد إيران لمرشد الإخوان ياقلبى لا تحزن! ده حتى فى عهد عبد الناصر كان وزارة الثقافة اسمها وزارة الإرشاد! هو ايه حكاية الإرشاد بالضبط؟ هو احنا هنكبر امتى؟!

فى سوريا جرت الأمور بطريقة مختلفة لكنها أدت إلى نفس النتيجة، بعد وفاة حافظ الأسد غيروا الدستور فى ٢٤ ساعة وخفضوا السن من أربعين إلى أربعة وثلاثين سنة حتى يناسب ابنه بشار! يعنى واحد قامو بترقيته حتى يناسب الدستور والتانى غيروا له الدستور نفسه وكل الطرق تؤدى إلى روما!

سوف أخرج قليلا للحاضر..

مهما شكرت الشباب، لا يمكننى أبدا إلا أن أعبر للجميع عن امتنانى الشخصى، وأقول للشباب إنكم نجحتم فى كسر هذه الدائرة الخبيثة، دائرة التوريث والوصاية والديكتاتورية، كنت بدأت أعتقد أنها يمكن أن تكسر فى روسيا وأوروبا الشرقية، وماليزيا، وتركيا، واندونيسيا وكل بلاد الدنيا إلا مصر و البلاد العربية!

حقيقى إنه لما يؤلم النفس ويدمى القلب أنك إن بحثت عن المجتهدين المخلصين من شباب مصر تجدهم إما فى الخارج يخدمون بلاد الدنيا، ويقدمون لها عصارة ما تعلموه فى مصر، أو تجدهم شهداء وترمى جثثهم فى الزبالة، أو تعثر عليهم فى المعتقلات وتلفق لهم التهم! أو تجد شابات مصر تعرى أجسادهن ويضربن بلا رحمة ولا أنسانية! حتى متى تفعلين ذلك بشبابك ونسائك يا مصر؟

صحيح ياشباب أنه تم نسيانكم، ونسيان شجاعتكم، وإقدامكم وتضحياتكم، لكن تأكدوا أن اليوم قادم والمستقبل لكم إذا أحسنتم التصرف،

والثورة لم تنته بعد، ولن تنته بإذن الله إلا بإقامة دولة ديمقراطية حديثة، تنهي دور آلة القمع البوليسية التى قامت عليها الدولة منذ عام، ١٩٥٢، كلنا أمل أن تنتهى الثورة إلى دولة حرة مستقلة عن العسكر، يجد كل فرد فيها نفسه وتشعر كل طائفة، وكل جماعة فيها أنها تنتمى لذلك الكيان الأكبر الذى اسمه : مصر، مازلت أنتظروينتظر الشعب المصرى كله اليوم الذى يعود فيه الجيش لثكناته، يحمى البلاد من الأعداء الخارجين، وأرى شباب الثورة يحكمون مع السياسين والأحزاب الذين لا بد فى يوم من الأيام سوف يعودون لرشدهم، ويعملون لصالح البلاد بدلا من العمل لصالح أحزابهم ومصالحها الضيقة، لا بد أن ينتهى الخلاف القاتل على هوية مصر بأسرع ما يمكن، و يتوجه الجميع لحل المشاكل المزمنة للشعب المصرى. هل هذا وهم أم أمل مشروع؟ هذا سيحدده ما نبذله من جهد فى سبيل تحقيق ذلك..

فى مرة من المرات فى سجن الاستقبال خرّجوا السجن كله إلى حوش كبير به أحواض وأدشاش مياه سخنة وباردة، أول ما شفتها ضحكت لأنها كانت عاملة زى مداود البقر والجاموس، بس كانت نقلة كبيرة جدا، ولا أتصور أبدا أننى سوف أستمتع فى حياتى بدش بمثل ما استمتعت به وأنا فى هذا" المدود" بالملابس الداخلية، لأن كلنا كنا قدام بعض ولم تكن هناك سواتر، كنت أخلط مياه ساقعة على سخنة وأقول للأخوة" ياحلاوه ياولاد "! والكل يغرق فى الضحك! فى الحقيقة فى المعسكرات الإسلامية أيام السادات لم يكن هناك رفاهية الماء الساخن! استمرت الرفاهية حوالى ١٥ يوماً أو ٣ أسابيع ثم ضلمت الدنيا من تانى" وإذا دنيا أمن الدولة كما نعرفها" مع الإعتذار لإبراهيم ناجى!

قبل ذلك وفى عز أيام التعذيب والتحقيقات كان والدى" رحمة الله عليه" على علاقة برجاء العربى، النائب العام وقتها الذي كلم الضابط م. عبد العليم وتمت الزيارة المعجزة! الضابط عبد العليم كان حاضرا فى الزيارة فى مكتب م. السرساوى بصفة" مراقب "، ظل" ينظر لى وأنظر له"، فهو الذى كان يشرف على التحقيق معى وطبعا التعذيب، كنت أعرفه ويعرفنى، لكن "عملنا" مش عارفين بعض! أخيرا قال لى :

" عندما تكبر يابنى سوف تفخر بنفسك وتقول أنا شفت تاريخ مصر وهو بيتصنع!"، وقد تحققت هذه البنوءة. لكن الحقيقة اللى أنا شفتها وعيشتها إنه كان قبل ما يتصنع كان بيتضرب زى البيضة الأومليت!

أما النبوءة التى لم تتحقق فكانت بعد اعتقال على الطاير - ٤٨ ساعة-، يمكن سنه ٢٠٠٢ وانا خارج من أمن الدولة- أخذ ضابط يدردش معى فى الأمور العامة وكان آخر ما قلته له :

- حضرتك تعرف أن معظم الشلة القديمة هاجروا وتركوا مصر، لكن بالنسبة لى مصر هى وطنى، أرضى هنا، وأنا لن أهاجر وسوف أظل بها حتى أموت! فقال لى:
- إنت تعرف مين من الضباط هنا فى الجهاز؟
- أعرف الضابط فلان والضابط فلان.
- إنت مش عارفنى؟
- أنا متغمى ومش شايف، ممكن أعرف مين بيكلمنى؟
- أنا فلان الفلانى، رئيس مباحث أمن الدولة، لما تبقى رئيس جمهورية ابقى افتكرنى!
- نار على علم يافندم.

خرجت وأنا مندهش لأن فكرة رياسة الجمهورية لم ولن تدر فى خلدى، ولا مرة جتلى ف منام،ولا جايزأكون شفتها فى الأحلام وأنا ناسى؟ ماهو أمن الدولة تعرف عن الواحد أكتر ما هو عارف عن نفسه! سألت نفسى : الراجل ده بيقول كده ليه؟ ياترى فيه تغيير هايحصل قريب؟ على أية حال تحققت النبوءة الأولى - بركاتك يا شيخ عبد العليم بس فرقت معاك بنط - شفت التاريخ وهو بيتصنع فى ٢٥ يناير، بعد ثلاتين سنة، وماله ما هو يوسف عليه السلام تحققت رؤيته بعد أربعين عاماً، واللى يعيش ياما يشوف واللى يثور يشوف أكتر! أما النبوءة الثانية فيبدو أن الشيخ ما كانش مستحمى، وعليه.. لابعد ثلاثين ولا مائة ها نتظرك يا نبوءة!

بعد أن خرجت من معتقل استقبال طرة فى ٨٢ كنت أزور خالد الذى كان" هربان" ويقيم فى القاهرة، ويعيش عالمه الخاص ولا كأنه هربان ولا حاجة، دخلنا سوا فيلم يوسف شاهين" حدوتة مصرية "، أعجبنى الفيلم جدا وقلت له بعد أن خرجنا ونحن نتناقش كعادتنا :

- الفيلم ده حلو قوى، ليه مفيش حد من الكباراللى له تاريخ فى الحركة الإسلامية بيعمل فيلم زيه ويقول فيه كل الحقائق عن نفسه وعن المجتمع ويسميه "حدوتة إسلامية" ؟

(*******)

٥ – بعد المعتقل

" أنا للأقدار عبد لا تلمني
كيف سارت بي حياتي! "
الشاعر الغنائي : محمد علي أحمد

لم أكن أتخيل يوما أننى سوف أتزوج وتزوجت، ولم أكن أتخيل يوما بأننى سوف أصبح أبا وأصبحت، فماذا ينقصنى حتى أتحول لإنسان تقليدي، وانخرط فى مجتمع لا يوجد بينى وبينه وفاق، لا نفسى ولا عقلى؟ الذى ينقص هو العمل فى وظيفة حكومية!

يوم أن ذهبت كى أستلم وظيفتى فى الإدارة الهندسية بجامعة الزقازيق نصحنى أمين عام الجامعة ألا ألتحق بالإدراة الهندسية، لأنها كلها مشاكل ولن تعجبنى - على حد قوله – ونصحنى بأن ألتحق بمعمل الكمبيوتر بمعهد الكفاية الأنتاجية، وهكذا استلمت العمل كمهندس كمبيوتر بهذا المعهد. كانت أسوأ سنة فى حياتى العملية، ولكن كل أمر سيء لا بد وأن يجد المرء فيه حسنة، أوعلى الأقل يحاول أن يجدها.

يحكى أن السيد المسيح كان يسير يوما مع تلامذته، فمروا على حمار ميت، فقال أحدهم : ما أشد نتن رائحته، وقال آخر ما أبغض شكله، وهكذا، فقال لهم السيد المسيح : ولكن انظروا،" ما أشد بياض أسنانه!" وعلى هذا المنوال حاولت أن أجد حسنة فى الوظيفة الحكومية.

كان عملنا فى معمل الكمبيوتر يتركز فى شهر واحد بعد ظهور نتيجة الجامعة، وهو أن ندخل بيانات الطلبة إلى الكمبيوتر فى برنامج معد سلفا، ونطبع النتائج، ونسلمها لإدارة الجامعة كى تقوم بإعلانه. عمل لا بأس به، ولكن ماذا عن باقى الأحدى عشر شهرا من العام؟ لن أستطيع أن أجد كلمة أفضل من : لا شىء! هذه هى كانت وظيفتنا، لاشىء! نمضى حضور فى الصباح ونمضى حضور بعد انتهاء العمل، وكل موظف له أن يأخذ عدد ٢ تصريح فى الشهر كى يغادر العمل فى الساعة الحادية عشرة، بالإضافة للأجازات السنوية المعتادة والسنوية، وإذا لزم الأمر الأجازات المرضية.

كان لا بد أن أستثمر ساعات الفراغ الطويلة فى شىء غير شرب الشاى والقهوة والرغى طول اليوم. تعلمت من خلال برنامج كمبيوتر الكتابة باليدين عربى وانجليزى. كما تعلمت العمل على بعض البرامج الأخر. كنا حوالى ستة أفراد فى معمل الكمبيوتر، تعرفت عليهم كلهم بالطبع، كانت شلة ظريفة لطيفة، كان منهم الفتاة المسيحية" مارسيل"، التى كان لى معها حوارت دينية عديدة لأنى كنت قد قرأت الأنجيل مع القرآن فى فترة محاولة التعرف على الأديان كما ذكرت سابقا، لذا فكانت محادثات مثمرة، خصوصا أننا كنا نبتعد عن الموضوعات العقائدية.

بعد أن تركت المعهد وقدمت استقالتى بسنوات قابلت" فداء"، الذى كان يعمل معنا، وسألته عن أخبار الزملاء واحدا واحدا، وما أن سألته عن "مارسيل" حتى فاجأنى أنها استقالت والتحقت بالدير.

كيف يقضى الموظف وقته بعد أن يعود من العمل؟

وجدنا أنا وزملائى الموظفون الذين كنا زملاء سابقين فى الكلية أن أنسب طريقة لقضاء الوقت هو أن نتجمع فى منزل أحدنا ونلعب كوتشينة، لعبة اسمها "استميشن". كل يوم من الساعة السابعة مساء حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل : "استيمشن".أنا شخصيا كنت فى حالة يأس، الحركة الإسلامية بدأت فى التطرف أكثر وأكثر، والأمن بدا وكأنه مصصم على القضاء عليها، وتطرف كل طرف يزيد من تطرف الآخر. بدأ مسلسل الاغتيالات من الجانبين حتى أضحى الوضع كئيبا بدرجة لا تطاق.

الإستميشن لعبة تستلزم أربعة أفراد، أحيانا كان يأتى أفراد أكثر فأحضرنا طاولة كى يسلوا بها أنفسهم حتى ينتهى الدور، ويحل الاثنان القادمان الجدد محل الخاسرين. أحيانا كان يأتى أربعة فنقوم بتنظيم دورى! بعد فترة من إدمان "الإستميشن" بدأ اللعب يأخذ منحى آخر، ليس اللعب من أجل الفوز أو الخسارة، ولكن اللعب من أجل" تخسير" فلان أو علان! وعندما وصلت الأمور لتلك الدرجة، تحولنا إلى لعبة أخرى وهى "البريدج"، ويلعب فيها كل اثنين سويا كفريق أمام الإثنين الآخرين اللذين يلعبان أيضا كفريق، وبهذا لا يمكن الاتفاق على" تخسير" طرف من الأطراف.مرة من المرات كنا فى بيت صديق لنا، وإذا بجيرانه يشتكون لأهله أننا نلعب قمار!هل رأونا مثلا ونحن نوزع نقود القمار؟ من أين لهم هذه المعرفة الكاذبة؟ لا تسأل! طبعا لم نلعب عند صديقنا هذا مرة أخرى!

مثل هذه المواقف وغيرها كانت تعيد لذاكرتى دائما كراهيتى للتخلف." هو يعنى لو قعدنا فى القهوة حد ها يوجه لينا كلام؟ ولا نقعد

أحسن فى غرزة؟ وبعدين اشمعنى الكوتشينة قمار والطاولة لأ؟ أى لعبة فى الدنيا ممكن تتلعب على قمار! ".

فى مرة من المرات كنت أنا وعلى صبرى ومحمد لطفى ولم نجد الشخص الرابع اللازم للعبة، فنزلنا و اشترينا بنك الحظ وكنا سعداء جدا ونحن نلعب لعبة أطفال!

هكذا كانت حياتى طوال هذا العام الكئيب، لكن الكوتشينة فعلا خففت كثيرا من وطأة الإحساس بالعبث، ليس هذا فقط، بل عانيت فى آخر العام من زيادة رهيبة فى الوزن. عندما يكون طولك١٦٥ سم لا يمكن أن يكون وزنك ١٠٠ كيلو جرام!

ما أن انتهى العام إلا وقدمت استقالتى وبدأت فى تجهيز الأوراق للسفر وتعلم اللغة الألمانية. فى هذه الأثناء ذهبت لطبيب تخسيس، أعطانى رجيم كيماوى : ثلاثة أيام زبادى،وثلاثة أيام فاكهة،وثلاثة أيام لحوم، وثلاثة أيام خضار مسلوق. بعدها فعلا نزل وزنى نزولاً ملحوظاً، لكن ماذا بعد ذلك؟ عاد الوزن مرة أخرى لسبب بسيط،لأنه لا يمكن لأنسان عاقل أن يستمر فى مثل هذا الرجيم للأبد!

بدأت فى تأليف نظام غذائى خاص بى، فى الصباح بيضة مسلوقة مع قطعة جبن أبيض ملح خفيف مع نصف رغيف وكوب من الشاى بنصف ملعقة سكر، فى الغذاء بطاطس مسلوقة أى كمية مع نصف صدر دجاجة أو قطعة صغيرة من اللحم المسلوق، مع ثلاثة ملاعق أرز، وأخيرا الفاكهة (أى كمية). العشاء كوب زبادى مع نصف رغيف مع جبنة ملح خفيف.

هذا النظام الذى اخترعته لنفسى كان شرط النجاح فيه هو أن يتكرر كل يوم بلا أدنى تغيير! وأيضا عدم تناول أى شىء عدا ما تم ذكره.

فعلا بعد ثلاثة شهور وصل وزنى ٧٥ كيلو جراماً، فقدت ٢٥ كيلو فى ثلاثة أشهر، إنجاز! ومن وقتها آكل كل شىء لكن باعتدال وأحافظ على هذا الوزن، ولكن المشكلة أنه كلما كبرالمرء فى السن كلما انضغطت الفقرات وقصر فى الطول وبالتالى أصبح الوزن لا يتناسب مع الطول، لكن كما يقول المثل الفرنسى :" هذه هى الحياة!".

أعتقد أن فلسفة عدم تغيير نظام الأكل التى اتبعتها هى أن المرء لا بد وأن يمل من الأكل، ولا يصبح الأكل وسيلة للمتعة، يصبح الطعام ضربا من تعذيب النفس والجوع أفضل منه! وبالتالى لا يمكن للمرء أن يرغب بمزيد من الطعام بل العكس هو الصحيح.

فى النهاية قررت أن أسافر إلى ألمانيا كى أقوم بدراسة الماجستير فى الهندسة، قدمت أوراقى بالبريد فى أكثر من جامعة وقلت حتى تأتى الموافقة أدرس اللغة الألمانية.

قابلت صديقى هشام الذى كان راجعا لتوه من ألمانيا وأعطانى كتابين يتم تدريسهما فى معهد جوتة وشرائط كاسيت مصاحبة و Glosar قاموس صغير به الكلمات الألمانية الواردة فى الكتابين وترجمتهما باللغة العربية. كنت أنوى التوجه لمعهد جوته بالقاهرة كى ألتحق بدورة دراسية فى لغة لا أعرف منها حرفا واحدا، ولكن قلت أفتح الكتب أولا وكانت المفاجأة.

الكتب مصممة بشكل منهجى مع الشرائط بما يمكن المرء من الدراسة بنفسه بدون مدرس إذا أراد ذلك!

بعد ثلاثة أشهر من المذاكرة فى لغة لم أكن أعرف منها حرفا واحدا ولم أتكلمها أبدا، ذهبت لمعهد جوتة كى أجرى امتحان تحديد مستوى،كانت أول مرة أتكلم فيها المانى مع الممتحن، ظهرت النتيجة وكانت أننى مؤهل لدراسة المستوى الرابع!

أثناء داستى للمستوى الرابع G4 بمعهد جوته، التحقت بدورة دراسية فى معهد خاص بوسط البلد، ودرست مع فراو ألمانية اسمها سوزانا، متزوجة من مصرى، وتتعلم أن تكتب اسمها باللغة العربية حتى تحصل على الجنسية المصرية!

كنا اثنين فقط فى الكورس، محمدأبو مسلم و أنا. تقريبا نصف عدد مرات الكورس لم يكن محمد يحضر لأنه كان يعمل ومشغولا بعمله، فكان الكورس بمثابة كورس خاص!

كان ذلك فى عام ١٩٨٩ وكان عندنا بنتان، سوف أرجع للوراء قليلا، ندى جاءت للحياة فى العام ١٩٨٦ فى ولادة طبيعية. ورجعنا المنزل وبعد أن كنا اثنين رجعنا المنزل ثلاثة!

فى عام ١٩٨٨ جاء الطلق لزوجتى وهى تؤدى آخر امتحان لها لتحصل بعده على الماجستير! ما أن انتهت من الإمتحان - كنت أنتظرها خارج اللجنة - وقبل أن أسألها عن الإمتحان بادرتنى بقولها :

- خدنى على الدكتور على طول، أنا فى حالة ولادة!

وهكذا من الامتحان إلى الدكتور حسين حسن زوج خالتى!، لكن الدكتور حسين جاء الفجر وقال أننا أمامنا على الأقل ساعتين وتركنا وذهب

للمنزل كى يرتاح قليلا، بعد أن خرج الدكتور حسين بعشر دقائق بدأت رأس الأنسة سارة تطل إلى الوجود! شجعتنى حماتى وقالت لى :

- شد، ما تخافش، دى راسها باينة أهه!

بينما ذهبت أمى كى تأتى بالممرضات، مددت أنا يدى وأمسكت بالرأس البارزة و شددتها منها تارة، ومن الأكتاف تارة أخرى و أخرجتها للحياة! الموضوع سهل جدا!

وقفت محتاراً، ماذا يمكننى أن أفعل بعد ذلك؟! لم تطل حيرتى إذا جاءت الممرضات وأكملن الباقى، قطعن الحبل السرى ونظفن المولودة و....إلخ!

جاء ميعاد السفر فى عام ١٩٨٩، وكانت زوجتى معترضة على السفر، ولكنى صممت وفعلا سافرت، ولكن يبدو أن من يفعل شئيا لا ترضى عنه زوجته لا بد وأن يناله من الحب جانب!

بعد ثلاثة أيام من وصولى لألمانيا وقعت لى حادثة سيارة، نقلت إثرها للمستشفى ومكثت بها ثلاثة أشهر للعلاج، ثم رجعت لمصر بعكازين كى أستكمل العلاج الطبيعى لمدة عام!

لا أعرف السر فى الثلاثة شهور، المغامرة الفرنسية استمرت ثلاثة شهور وكذلك الألمانية!

بعد أن نقلت للمستشفى فى ألمانيا بقليل فوجئت بأحمد خليفة، رئيس المركز الإسلامى فى ميونيخ فوق رأسى وأنا شبه فاقد للوعى، عرفنى بنفسه، فقلت له إن والدى أخبرنى قبل السفرعنك، وقال لى أنه قد حضر عندكم منذ عدة سنوات، لم يصدق نفسه، وبعدها غبت عن الوعى.

كان أحمد خليفة يزورنى باستمرار، وفى مرة من المرات جاء ومعه أطفاله الصغار، ما إن رأيتهم حتى تذكرت بناتى فغطيت رأسى بلحاف السرير وأجهشت بالبكاء. بعدها تذكرت قول جبران خليل جبران :" المحبة لا تعرف عمقها إلا ساعة الفراق!".

فى المستشفى وبعد أن قاموا بتجبيس قدمى،وفى اليوم التالى فوجئت ب" مارجريتا" أخصائية العلاج الطبيعى تعرفنى بنفسها، وتقول أنها سوف تفك الجبس حتى تقوم بعمل تمرينات رياضية لقدمى المكسورة! قلت لها إن هذا لا يمكن" لأننى لسه مجبسها امبارح "! قالت أنها تعرف ذلك وفعلا كان الجبس مصمما بحيث أنه نصفان ويربط بينهما رباط، ما كان من مارجريتا إلا أن فكت الرباط ونزعت الجبس عن قدمى بكل بساطة، ووضعت جهازا

صغيرا على ركبتى، وبدأت ممارسة عملها وأنا أنظر لرجلى وهى خالية من الجبس وأقول لنفسى :" أنا فى حلم ولا فى علم؟ رجل لسه مكسورة امبارح يفكوا الجبس عنها النهاردة ويدلكوها، ده يرضى ربنا ده؟ ".

كان ذراعى مشكلته أكبر من رجلى، فعظام الكتف تكسرت قطعا صغيرة، والتفت حول العصب بحيث أننى كل يوم كنت أنزل للأسفل حيث مكان الأشعة، وأقوم بعمل أشعة على كتفى، ثم يأتى الدكتور ويقول : غدا سوف نقوم بعمل عملية.

وقبل ان يقوموا بالعملية أعمل أشعة مرة أخرى، ثم يقول الدكتور : لا، لا يمكننا أن نعمل عملية الأن، يجب أن ننتظر إلى الغد.

ذراعى الأيسر كان لا يتحرك إطلاقا، وكل يوم تأتى مرجريتا وتحاول أن تجعلنى أحركه ولو سنتيمترا واحدا، فلا أستطيع فتقول :" Schlecht" وهى تعنى سيء! وعندما تغير الكلمة تقول كلمة أخرى :" Schlimm" وهى مرادف آخر لكلمة سيىء!

كانت العظام المكسورة تحيط بالأعصاب وكان الأطباء يخشون أنهم إذا قاموا بالعملية أن يقطعوا الأعصاب عن طريق الخطأ، ووقتها ينتهى الأمل تماما فى أن يتحرك هذا الذراع مرة أخرى! من حسن الحظ أننى كنت قد تعلمت اللغة الألمانية فكنت أستطيع أن أستفهم منهم، وهم من جانبهم كانوا لا تنقصهم الصراحة، بالعكس، ما ينقصهم هو التعامل مع المريض على أنه إنسان وليس آلة! ولكن فى كل الأحوال هذه هى الطريقة الألمانية ومن يرد أن يعش فى ألمانيا عليه أن يعتاد عليها.

بعد حوالى عشرين يوماً من الاشعات قرر الأطباء أنهم لن يقوموا بالعملية لخطورتها، ولا يوجد حل سوى انتظار نتيجة العلاج الطبيعى.

فى يوم من الأيام حدثت المعجزة! تحركت يدى عدة سنتيمترات، صاحت مارجريتا من الفرح صيحة لو سمعها مصرى لا يعرف عادات الألمان لقال :" الوليه اتجننت!".

أسوأ ما فى المستشفى كان هو الأكل. الإفطارالساعة السابعة صباحا، الغذاء الساعة الثانية عشرة ظهرا والعشاء الساعة الرابعة عصرا، ثم : لا شيء حتى صباح اليوم التالى!

نظام المستشفى يبدأ فى الخامسة صباحا، تدخل ممرضة وتقول بصوت جهورى" صباح الخير" فيستقيظ المرضى وتبدأ عملية تغيير الملايات، أربع ممرضات، إثنتان فى كل جهة يبدأون عملية تقليب المريض

وتغيير الملايات بلا أدنى رحمة، ولا أدنى اعتبار لصراخ المريض، ومدى الكسور أو الجراح التى يعانى منها! المهم عندهم أنهم ينتهوا من تلك العملية فى ثلاث دقائق، حيث تأتى ممرضة أخرى وتغرز حقنه فى أعلى الفخذ، ثم راحة لفترة قليلة.

ما إن تغفل عينك إلا وتفاجأ بغزو آخر من أجل مسح الغرفة وتطهيرها، تغفو عيناك قليلا حتى يأتى وقت الإفطار، وبعدها بساعة يأتى الطبيب المعالج يسألك هل تشتكى من شىء؟ ويطلع على التقارير التى كتبتها الممرضات عن درجات الحرارة والأدوية وخلافة.

نعود للطعام، مهما قلت عن رداءة طعام المستشفى فلن أوفى الكلمة حقها! ليس فقط الرداءة وانعدام الطعم ولكن أيضا السريالية، كنت حتى هذا الوقت أظن أن السريالية مدرسة فى الرسم لكن هذه أول مرة أتعرف فيها على السريالية فى الطعام، مرة من المرات جاءوا لنا بمهلبية وأعلى منها سردين!

بعد أن خرجت من المستشفى ذهبت إلى ضيافه المركز الإسلامى فى ميونيخ، وقلت فى نفسى أنتظر قليلا حتى تتحسن صحتى شيئا ما، حتى إذا رجعت إلى مصر يكون وقع الصدمة خفيفا على أهلى الذين كانوا يعرفون بأمر الحادثة عن طريق صدفة غريبة!

كنت حريصا على ألا أعرف أهلى ولا زوجتى بالحادثة، ولكن وصلهم خطاب من المستشفى فى المانيا يطالبهم بثمن ضمادات وخلافه، طبعا لم يفهموا ألمانى، فذهبت زوجتى للدكتور محمود الذى كان قد حصل على الدكتوراه من ألمانيا، وترجم لها ما فى الخطاب و" بان المستخبى"!

مكثت بالمركز الإسلامى خمسة عشر يوما، وبعدها حجزت تذكرة وعدت لمصر، فى أثناء تلك الأيام كنت أركب الأوتوبيس وأذهب هنا وهناك كى أزور معالم مدينة ميونيخ، إذا قلت أزور فهى كلمة غير دقيقة تماما، لأنى كنت أسير عشرة أمتار فى ربع ساعة! ما أذهلنى حقا هو كمية البشر الذين يسيرون على عكازين، منهم من يجبس قدمة كلها ومنهم من يجبسها حتى المنتصف وهكذا!

عندنا فى مصر من يجبس قدمه لا بد وأن يمكث فى المنزل حتى يلتئم الكسر تماما ثم يخرج للشارع، فى ألمانيا لا يطبقون تلك القاعدة، الكسور لا تمنعهم من السير وركوب الأتوبيس والسير فى الشارع والتنزه

بالحدائق،! ساعتها قلت فى نفسى هذا هو الفرق بين الحضارة والتخلف، بين الشجاعة والإقدام، وبين الخوف والحذر.

يضع المرء عكازين تحت إبطيه و" يتحنجل" على الرجل السليمة، أول ما بدأت مارجريتا تعلمنى المشى بهذه الطريقة، بعد أن سمح لى الأطباء بمغادرة السرير، والتجول فى المستشفى وفى حديقتها، لم أكن أتصور أبدا أننى سأنجح فى السير بهذه الطريقة، آخراليوم كنت أسير بالعكازين وأتحنجل على الرجل السليمة كالرهوان!

كانت مارسيل التى قابلتها فى معهد الكفاية، والتى أنهت وظيفتها وحياتها المدنية، والتحقت بالدير، كانت تحدثنى أن أخاها (إذا كانت ذاكرتى صحيحة) هاجر لكندا، ويحثها على أن تهاجر هى الأخرى، لكنها فضلت الدير، كانت أثناء المحادثات التى دارت بيننا تنتقد التطبيق الحرفى لمبدأ الحيطة والحذر فى البنوك، أظنها كانت تحضر الماجستير فى أعمال البنوك أو ماشابه!

نعود للمركز الإسلامى، كان النظام أنهم يطبقون حق الضيافة الإسلامية، وهى ثلاثة أيام لكل وافد جديد، بالنسبة لى فقد أخذت مدة مفتوحة، ليس لأنى فى فترة نقاهة، ولكن لأن أحمد خليفة أخبرنى أن والدى حين كان فى ألمانيا تبرع لهم بمبلغ محترم.

فى الكتب القديمة يسترسل المرء فى القراءة، ثم يفاجأ بان المؤلف قد طرأ على ذهنه حادثة لها علاقة بما يكتبه، وربما تكون العلاقة بعيدة نوعا ما، فتراه يسردها بالرغم من أنها تحمل أحيانا نوعا من التشتيت عن الفكرة الأصلية، ثم يعود للموضوع من جديد، بالرغم من انتهاء هذا الأسلوب فى التأليف إلا أننى أراه مناسبا نوعا ما فى كتابة المذكرات، لذا سوف أحاول أن أعيده للوجود مرة أخرى وأذكر حكاية.

بمناسبة حق الضيافة، يحكى الإمام الشافعى أنه كان مرة مسافرا ونزل على شخص ما ضيفا عملا بالمبدأ الإسلامى فى حق الضيافة ثلاثة أيام للغريب، وكان الشافعى قد تعلم علم الفراسة، وهو علم قراءة صفات الإنسان من خلال تفاصيل وجهه وجسمه، المهم أن الرجل أحسن ضيافته، فقال الإمام الشافعى فى نفسه أن علم الفراسة هذا علم باطل،لأنه وفقا لعلم الفراسة فهذا الرجل بخيل وسيء الخلق.

عندما هم الشافعى بالرحيل شكر الرجل وقال له إذا نزل بالبلدة الفلانية – بلد الإمام الشافعى – أن يسأل عن محمد بن إدريس الشافعى،

وهو سوف يرد له ضيافته بأحسن منها، ففوجىء بالرجل يغلظ له القول ويطلب منه النقود نظير النوم والطعام وعلف الفرس!

قابلت هناك الجزائريين ووقتها كان الشاذلى بن جديد، الرئيس الجزائرى قد أعلن عن انتخابات حقيقية، وكانت جبهة الأنقاذ بقيادة عباسى مدنى وعلى بلحاج قاب قوسين أو أدنى من الفوز بها، حاولت أن أتعرف منهم على سبب منطقى لهذه الانتخابات النزيهة فلم أحصل منهم على جواب.

كان من ضمن حوارى معهم أننى قلت لهم أنهم يفهمون الفرنسية أكثر من العربية، غضبوا منى جدا، وقالوا لى كيف تقول ذلك، نحن عرب ومسلمون.

بعد قليل أتى جزائري صديق لهم وأخذ يتكلم معهم، كلمتين بالعربى ثم" قلبوا فرنسى "، قلت لهم :

- يعنى بتتكلموا مع بعض فرنسى!
- لا، ده كان بيسأل إذا كان المطعم فاتح ولا قافل و عشان سهولة الكلام سألنى بالفرنسية ورددت عليه بالفرنسية!
- وهو اللى بيتكلم بلغة وتكون أسهل بالنسبة له، ده مش معناه إنه بيفهمها أحسن من التانية؟ أوعى حد فيكوا يقوللى بعد كده إنه بيفهم عربى أحسن من الفرنسى!

أخيرا وقبل العودة لمصر بعدة أيام قابلت صديقى فى الكلية" لطفى الجزار" فى الشارع، وكانت مفاجأة سارة جدا.

- إنت إيه اللى جايبك هنا، وإيه اللى عمل فيك كده؟
- جاى أدرس فحصل لى حادثة عربية
- أنا أعمل فى أبو ظبى والكفيل أحضرنى معه كى أترجم له، فهو يرغب فى شراء بعض المعدات من ألمانيا.

رافقنى يومين أو ثلاثة، وكان كريما معى إذ سارمعى" تاتا تاتا" على قد خطوتى، زرنا خلالها معا المتحف العلمى، ومكان فى وسط المدينة يدعى مارين بلاتس، وأشياء أخرى معدودة، لأنى كما قلت كنت أمشى" بالتيلة"!

حضرت المؤتمر السنوى الذى ينظمه المركز الإسلامى لكل الألمان للتعرف على نشاط المركز وأيضا الإسلام. كان يوما رائعا، ساعدت فى تقديم بعض المشروبات والأكلات الخفيفة فى حديقة المركز، كما كان هناك

منشورات وكتيبات عن الإسلام، كما كان هناك من المسلمين الذين تم تدريبهم على الإجابة على أسئلة الألمان عن الإسلام، وعن نشاط المركز.

قلت لأحمد خليفة : لماذا لا تعقدون هذا المؤتمر مرة كل ثلاثة شهور بدلا من مرة فى السنة؟ رد علىّ بأنه كذلك حتى لا يفقد رونقه، أظنه كان على حق وأهل مكة أدرى بشعابها.

عدت لمصر وبعد أن أنعم الله على بالشفاء بدأت رحلتى مع العمل الحر والتى تعرفت فيها بحق على الشعب المصرى، وبمرور الأيام والسنوات وتوالى الأحداث سوف أصبح واحدا منه، انتماء واعيا وليس بمجرد الميلاد، تماما كما حدث مع الإسلام.

لا يمكننى أن أقول أننا كشعب مصرى خال من العيوب، أو حتى أن عيوبنا قليلة، بالعكس عيوبنا كثيرة ولا مفر من إصلاحها، ولكن كلمة حق لله والوطن... مزايانا أكثر! هذا خلاصة ما توصلت له بعد رحلة طويلة من البحث والمقارنات، وكما ستأتى الأحداث فى فصل قادم.

بعد عام من العلاج الطبيعى تماثلت للشفاء والحمد لله، ووضعت كتب الألمانى على الرف ولم أرجع لها إلا بعد سبعة عشر عاما، والتى سبقت الأحداث وحكيت طرفا منها فى الفقرة السابقة. نسيت ألمانيا وبدأت أبحث عن عمل خاص.

٦- سنوات التحول

" من علمنى حرفا صرت له عبدا"!

مثل عربى

ما أن انتهيت من قراءة كتاب ورجيه جارودى" الإسلام دين المستقبل" بعد خروجى من المعتقل بعام واحد، أى فى عام ١٩٨٣، حتى صرخت من داخلى :" وجدتها"! لقد قال جارودى ما أفكر به ووضع تلك الأفكار فى بانوراما إسلامية بطول وعمق التاريخ الإسلامى! نعم، أخيرا حصلت على الأفكار التى حاولت أن أعبر عن طرف منها لزملائى فى معتقل استقبال طرة بعد اغتيال السادات، ولكن بطريقة أجمل وأكثر صلابة وعمقاً. أخيرا وجدت شخصا يفكر بنفس الطريقة التى أفكر بها!

بعد أن قرأت جارودى بدأت أركز فى قراءة ما كتبه آباء الصوفية المسلمين، أو ما كتبه الآخرون عنهم وأشياء أخرى كثيرة لا أرى داعيا كى أزعج القارىء بها، خصوصا أنها كلها تدور وتدعم تلك الخلاصة التى اقتنعت بها تماما وبدرجة عالية من الاقتناع، خلاصة ما توصلت له فى تلك الفترة هى أن الإسلام هو دين حضارى فى الأساس، وذلك يعنى أنه قادر على أن يرث كل ما فى العالم من جمال وحكمة، وهذا ما حدث فعلا فى الماضى، أما المستقبل فيتوقف على ما يقوم به المسلمون أنفسهم

فى العام ١٩٨٦ وبعد أن تأكد لى تماما أن إيران-الثورة، ومن بعد الدولة لم تعد تمثل الأمل فى دولة إسلامية معاصرة كما كنت أتوقع من قبل، كانت الصدمة كبيرة جدا حين اتجهت إيران للديكتاتورية، ضاع الأمل وكان لابد من التفكير فى مبادىء تمنع تلك الديكتاتورية من النشوء فى الدولة الإسلامية المرتقبة وأيضا البحث عن الأسباب التى تؤدى إليها. توصلت إلى أنه لابد من دمج الديمقراطية الغربية بما فيها من أحزاب وصناديق انتخابات، وحرية رأى فى الإسلام السياسى.هذا فيما يتعلق بالدولة الإسلامية المرتقبة، أو الحلم الذى عاشت عليه الحركة الإسلامية منذ أن أسس حسن البنا الإخوان فى عام ١٩٢٨ وتفرعاتها بعد ذلك.

عشت مع الحركة الإسلامية الحلم، وعشت وحدى الانكسار. كانت الحركة الإسلامية تظن أن انحراف إيران نتيجة للمذهب الشيعى، لكن فى الحقيقية أى حركة إسلامية ستصل للسلطة دون أن يكون فى أدبياتها تبنى

مبادىء الديمقراطية لا بد أن تصل لنفس الأنحراف، هذا ما كنت أقوله دائما فى مناقاشاتى مع الأطراف المختلفة للحركة.

بعد أن وصلت إلى أنه لا يمكن إقامة دولة إسلامية بدون الديمقراطية الغربية، بدأت ببطء أتفهم أصول الليبرالية الغربية، وأقارن بينها وبين مبادىء الإسلام، لم يأت التغيير مرة واحدة كما فى التحول من اللأدريه الدينية للإسلام، ولكن جاء الأفكار تدريجيا عبر عدة سنوات إلى أن تبلورت فى رؤية.

هذه الرؤية الجديدة أسفرت عن قصيدتين شعريتين، بعد أن كتبت القصيدة الأولى" المرأة والقمر" فى عام ١٩٩٢ وبعد حوالى عشر سنوات من قراءة جارودى، أدركت تماما أن هذا" قطع" مع الإسلام السياسى ولكن لم يكن عندى عنوان لتفكيرى الجديد.

البداية كانت الشعر.

قصيدة : "المرأة والقمر" تتناول نشوء الفردية فى الحضارة الإسلامية من خلال شخصية امرأة. فى هذه القصيدة حاولت التعبير عن أفكارى الليبرالية الجديدة، حتى وإن لم أكن قد توصلت للتسمية بهذا الشكل الواضح، تناولت بحرية مواضيع مثل الجسد والدين فى خلال تاريخ الحضارة الإسلامية.

المرأة والقمر

المرأة : فى البدء كنت..
شاهدُ وشهيد
وهذه الصحراء الموحشة..
الصوت الأول : كم لبثت..؟
المرأة : كان الصمت كئيبا والعزلة قاتلة..
فمددت الجسد الممدود
بعبق النرجس..
فارتبك الصمت وسطعت شمس..
كان الليل يقاوم..

والشمس تُدغدغُ أطراف الروح بفتنتها..
جلست أمشط شعرى بين
القوم وعين البشر تغازلني..
بين النوم وبين اليقظة
جاء القدر..
وحوافر خيل الفنجة تلهو بقرطبة
ودعت الخدر الناعس..
وسمعت صهيلا أعلا
من كل صهيل..
فاختمر الحمأ المسنون
فألقيت ثيابى عارية..!
تطاولت الأعشاب فغطتني
لكن قمرا كان يناجي هذا الحسن الآمر..
لم يُفهم أبدا كيف
تداعب حلمات الليل
عيون الصبح..
لم يُعرف أبدا كيف تكون اللذة..
آه، كم كان الشوق يعذبنى
كبغى هجر السمار
أنوثتها..
آه.. آه..
ليتنى فيها جذع
بلد النهرين أغطى
عرى نساء الكرخ..
أقيم بحانات الليل
موازينا

للخمر..
أو الشعر
أو الجنس
أو الصدفة..
وعجلت إلى القمة
مسحورة..
فانطلقت صرخة شهوة
أم حسرة؟
سقطت بغداد..!
الصوت الأول : لا أمل؟
المرأة : جلسنا بباب الحكمة
فى قصر الخضراء
سنينا..
لم نرم سوى وهج
صوفى..
أشعلنا قناديل العشق
وكم كان مخيفا
سيف الغز وكم كان عميقا
صوتنا فى آيه فاعتصموا..!
ركضت وصوت
الحلاج يطاردنى..
والليلة غارقة فى مطر أسود..
لم يُدرك حتى اللحظة
كيف تلاقى سيف صلاح الدين بخرقة صوفى..
مزقها..!
فانبعث دم من الصخر..

وأقمنا صلاة فى بيت المقدس..

واشتعل العرس ثلاثة أيام..

بل خمسة..

قال الفقهاء بسبعة أيام..!

الصوت الأول : وأنت؟

المرأة : تركت العرس..

ركبت الفرس..

ولذت بميقاتي..

لم أكمل حتى ضحى اليوم الأول..

فأنا لا أفهم إلا شهواتي..!

الصوت الأول : كيف جرؤت؟

المرأة : لم أجرؤ..

لكن كذلك كان كذلك..

كان الغلمان

يقيمون صلاة الصبح

وبعد الظهر

يضاجع رجلا شهوته..

وجوارى القصر

مع المردان

يقمن الليل..

وما كان زمانى..

- الصوت الأول : أشهد أنك لست بغاياً لكن الزهرة لا تنبت إلا فى بستان..

قال الأب.. وقال الجد..

وأنت..؟

أنت نبات سحرى..!!

لست من البحر

ولست من النهر
حتى التربة
لا تقبل أن تنمو
جذورك بين دخائلها..
المرآة : وعلى شط البحر المسحور جلست أمشط شعري ثانية..
وعيون الليل تجالسنى..
ترقب سحري
وأراقب فتنتها..
ألقيت ثيابي
والقمر الساطع يسترني..
مسحت بيدى المسحورة
ذاك الجسد العاري..
فذاب اللحم البشري
وما كان لى الأمر..
نزعنا ورق التوت
بلا خجل..
فحشرنا إلى الإيقاع
الآمر..
مزجنا الجسد الطينى
بصوت الرتم..
تلاشى..
وصرنا نحن الإيقاع..
وثنايا جسد المحبوب
تروادد بالحكمة..
لم نصبر..
فنزعنا ورق التوت
نداري سوءتنا..

فانبجس الجسد كئيبا
يزهى بفتنته
وما كان زمانى..!
الصوت الأول :
لم يُعرف أبدا كيف تكون اللذة..
آه.. كم كان الشوق يعذبها..

كبغى هجر السمار أنوثتها..

المرأة : كان الزمن
فتوحات كبرى..
وسنابك خيل..
كان النهم شديدا
وجموع البشر تمارس جوع الأرض..
وكنت..
كنت أسيره ملك الروم..
وحين تعالت رايات النصر..
غدوت جارية السلطان..
ما الفرق بين السجن والوطن..؟!
ما الفرق بين القيد والجسد...؟!
كان الليل عنيفا
حين حشرت
إلى البشر..
لا الأرض تسمح لى
لا القمر يغازلنى..
غادرت زمان السلطان..
زمان الحرب الصليبية..

دخلت فى زمن العسكر..
أصبحت امرأة عصرية..
الصوت الأول : مكياج وحمالة صدر.. بعض نكات جنسية..
تدخن أحيانا..
أحيانا أخرى تكتب أشعارا..
المرأة : كان الثمن هو الحرية..
دفعت الثمن ومازال
الحرمان يطاردني..
كان الإشباع عيمقا مرة..
سطحيا عدة مرات..
لم أكمل إلا عشر سنين..
وعادت روحى ترسف
فى أغلال الحرية..
فى زمن الصحوة
تشعل ذاتي موقدها..
فى زمن الغفلة
أسبح ضد التيار..
واكتملت مأساة هزلية..!
هل نحن المحتل
الغاصب؟
مذ عشر سنين
وهذى الكلمات تطاردني..
لم أفلح أبدا
أن أنجو من فتنتها..!
لكن القمر تبسم ثانية
من شط الغرب
ولم ينطق..

فانفجر العقل
وتاه المنطق أياما..
يوما عند حدود
الكرخ..
وآخر
كفر الرمانة..
وأه يا ملك الروم...!
هل أبحر فيك..
أم تبحر أنت
فى دمى......؟!

فى قصيدة" الرجل المجهول" التى كتبتها فى عام ١٩٩٤، حاولت أن أصوغ نشوء علاقة جديدة مع الله، هذه العلاقة حدثت داخل نفسى بعد تعرفى بعمق على الصوفية فى الإسلام.

الرجل المجهول

وغدا..
يطوينا الرحيل..
وروحك
المستورة
تأذن فى الظهور..!
أنت الوجود
ونحن الفناء..
هب لنا من روحك..
حتى لا نضيع
فى العدم..

ولأنى أخاف الحديث..
أخاف الكلام..
يضيع صوتى فى الزحام..
أخاف الغربة
فى رحم الوطن..
أخاف أن أضيع فى قلوبكم..
ولأنى أخاف البشر..
أصمت كالحجر..
أنكسر كالزجاج..
أكفر بالخل
وبالخليلة..
تسمع روحى..
أجراسا بعيدة..
شوق القادمين..
وصوت الراحلين..
وما بين دجلة والفرات..
سوى الألم..
وما بين نـهر النيل
والرباط سوى الأنين..!
أنت خلقت البكاء
وأنا صغت الألم
و نظمت به الأشعار..
أنت خلقت الهوى
فصرت أنا..!!
وحين خلقت الممات
عشقت حريتى...!

وجودك أم وجودى..
ليت شعرى
أدرك أيهم..
قانون الأنتماء..
كلما دارت كئوس بالهوى
صرت أنا..!!
وصرت أنت
كلما سمعت
صوت الأنبياء....!
هل نحن
صور فى مرآه وجودك؟
أم نقش بارد على سطح الزمان..؟
حين تأذن روحك بالظهور...
أختفى...!
وحين أسطع أنا..
تتركنى للهوى...!
.

******

خلقت السهاد خلقت الأرق..
طريق المحبة والأصطفاء..
خلقت الموت طريق الخلود..
أنت جبار وأنا عاشق..!
(كلما اقتربت منك)
أفهم ماذا تعنيه الحدود...!

أنت جبار وأنا عاشق...!!
أعلم أن محبتي دون المستوى..
أعلم أن عشقي خال من الهوى..
لذا سوف تطردني
وسوف أعود..!!
لا أسألك بعد اليوم
عن معنى الوجود..!
لن أبحث فيك عن معنى القدر..
فقدرى هو قدرى ..!
فقط أريد أن أفهم لماذا ينمو
شجر البرتقال بلا خجل حين تطردنى..؟!
كيف تطلع الشمس
بلا وجل حين تقرّبنى..؟!
لماذا
أذوب فيك كالقدر..؟!
وحين تحبنى لماذا
أود لو أنى أعانق
كل البشر..؟!
محبتى دون المستوى
وعشقى خال من الهوى
لذا فسوف
تطردنى.. وسوف أعود..!
فى الموت فى الرهبة
فى الخمر فى الجنس
بين الأخيار بين الأشرار
فى الأشعار

مع السمار
فى البلاد مع العباد
مع الأحياء أو أسيرا للسلاطين..
أعلم أن عشقى بارد..
لذا سوف تطردنى وسف أعود..
ولأننا بشر
شيئان يشعلان فينا الحنين..
عشقك والخطايا..
ولأن صورتنا تلوح فى المرايا
مرآة للهوى وأخرى للحقيقة..
شيئان يشعلان العشق فينا
حبك والمرايا...
أعلم أن محبتي دون المستوى..
أعلم أن عشقي بلا هوى..
سوف تطردني وسوف أعود.

فى عام ١٩٩٦ كتبت رواية اسمها" هيلين "، تدور حول العلاقة بين الشرق والغرب.

أيضا فى نفس العام ١٩٩٦ كتبت قصتين قصيرتين تعبران عن صعوبة الموقف الفكرى والنفسى الذى وجدت نفسى فيه، أقصد، محاولة التوفيق بين الليبرالية والإسلام. الأولى اسمها" قبل التحول"، والثانية اسمها" راشد ". الشعر كان هو" البداية" ثم، هاتان القصتان تمثلأن مرحلة" الوسط" فى مسيرة حياتي الفكرية. كلتا القصتين يخيم عليهما اليأس والنهاية الحزينة، لأنى كنت أرى أنه لا توجد هناك أية فرصة حقيقية لنشوء تيار" إسلامى ليبرالى ". إذن فسوف أحارب طواحين الهواء إذا ما حاولت أن أنشر شيئا من تلك الأفكار على الملأ.

سوف تثبت الأيام، أننى كنت مخطئا، فتيار الإسلام الليبرالى، سوف يكون موجودا بالفعل فى تركيا من خلال حزب" العدالة والتنمية" بقيادة

أردوغان، وبعد ذلك من خلال حزب النهضة التونسي بقيادة" راشد العنوشى ". أيضا فى أندونيسا وماليزيا، ولكن هذين البلدين بعيدان عنا نوعا ما ولهما خصوصية فى تجربتهما، لكن هذا لا ينفى وجود" الليبرالية الإسلامية" فيهما، بل بالعكس، يثبت أن هذا التيار قادر على أن يكيف نفسه مع ظروف كل بلد.

القصة الأولى : "قبل التحول "

هل أدركت الآن الآن كيف كرهتها؟ فى أول الأمر ظننت أن ضعفها وهروبها المستمر هما السبب فى كل ما شعرت به نحو مخلوقات تعسة. فى كل مرة طاردتها كنت تبدي الاشمئزاز والتقزز، وكانت هى تبدي الاضطراب والقلق. بعد أن تفرغ من المطاردة تجلس منهكا على كرسيك المفضل مجاهدا كى تستعيد عالمك المفضل. كانوا يمرون أمام عينيك، ببطء ببطء، لكن أحدا منهم لم يكن قادرا على القول أنه شاهد على وجهك – ولو مرة واحدة – علامات الأنزعاج المصاحبة لأنهاء مهمة قذرة.

ترتد بذاكرتك إلى الخلف عسى أن تجده هناك، ذهبت لأمك فى المطبخ وحكيت لها فنصحتك أن تتوسل إلى أبيك قليلا، تتوسل فلا يرد عليك، تسير باتجاه معاكس، نحو لا أحد، من ياترى علمك الحكمة؟ يمرون جميعا على مهل، يمرون فلا تبصر، يصرخون فلا تسمع، يشهر كل سيفه ويهاجمك، تلجأ إلى مكان حصين وتتركهم يفعلون بك ما يشاءون، فقد أمنت ولم تعد بحاجة للقلق.

عندما تأكد للجميع أن هناك ظاهر و باطن، أدركت على الفور أنه لايمكن أن تكون بكل شيء عليم،أكثر من هذا، رفضت أن يتم تاويل الأمر على أنه كذلك. حين صرّحت برغبتك أن يكون لك ظاهر فقط، رفضوا أن يمنحوك الاعتراف لكنهم نصحوك بالتريث. لم يكن هذا هو أهم ما خرجت به من التجربة، يقال إنك انتزعته منها انتزاعا. الأهم والأهم هو أنك أدركت – ليس على الفور ولكن يوما بعد يوم – أن ضعفها وهروبها المستمر ليسا هما السبب فى كل ما شعرت به نحوها، نويت فنفذت بسرعة، عدوت خلفها، دون أن تبدي الاشمئزاز والتقزز، كنت أمل أن يختلف الموقف ولو قليلا، لكنها كعادتها أبدت الاضطراب والقلق.

لم يكن هناك مفر من إعادة تقييم الموقف، تنظر فى المرآة فتجد أنك قد أصبح لك شوارب استشعار طويلة و رفيعة، ها هى قشرتك بنية اللون

الضاربة للإحمرار، يقال أن هناك بعض الأنواع لونها أصفر لامع يحذب أنظار النساء، لكنك رضيت بالمقسوم، ها أنت تمشى ملتصقا بالأرض وتفرهاربا أمام كل بارقة خوف، تلوذ بأمك عسى أن تجد عندها نفسك.

- صباح الخير يا ماما
- صباح الخير يابنى
- شايفه شىء غريب فى شكلى؟
- أبدا
- يعنى أنا زى ما انا؟
- طبعا يا حبيبى، خير إن شالله؟
- لا أبدا ما فيش حاجة

تنظر للمرآة وترفع شواربك استغرابا، تسير فى شوارع مزدحمة، سيارات تطلق النفير بلا سبب وبلا خجل.. طرقات مكدسة بمارة وصخب وباعة جائلين، لا تهتم ولا تسمع. تحاول أن تتخطى فلا تفلح، تحاول التظاهر بأنك تخطيت فعلا، تسيرمع الركب، ينعطفون يمينا تنعطف يمينا، ينعطفون يسارا تنعطف يسارا، يسيرون فتسير ويقفون فلا تقف ولكنك لهدفك أبدا لا تصل. تنصت جيدا علّك تسمع صوتك، علّك ترى وجهك، علّك تلمح يديك المعروقتين بحزن اللاوصول، علك تتطاول بقامة مرتفعة بين البشر، لا تفعل.

تطلق صيحتك الأخيرة" الكل باطل وقبض الريح "، لا يسمعك أحد.تسأل إلى أين؟ فلا تسمع سوى نداءات وفرقعة كرباج الحناطير، تستغرب، هل مازالت الحناطير تسير بالشوراع؟ تسأل عن السر فيقول لك العربجى أن الحياة خالدة والبشر فانون، هى تعرف طريقها جيدا، ونهاية كل حى معروفة، لم يحدث ولو مرة واحدة أن اخطأت طريقها، أو ضل الركب عن الهدف.

كم كنت سعيدا تلك المرة وأنت تقترب من هدفك وتحل المعادلة الصعبة : أن تنفصل عنها أولا ثم بعد ذلك تقتلها دون أن تبدى أنت الإشمئزاز، ودون أن تبدي هى الاضطراب والقلق. بدلا من أن تطاردها ممسكا بفرده حذاء، وتضرب الأرض عدة مرات قبل أن تصيبها فى مقتل، أصبحت تترقبها فى صمت ودهاء، ثم تطلق عليها دفعة أو دفعتين من مبيد حشرى قوي المفعول. الأمر سهل وبسيط، من على بعد لا يمكن أن تشعر بتأنيب الضمير وآلام الإصرار على إفناء كائن ضعيف خائف، كما انك لن تكون مضطرا لمراقبة مشهد الإحتضار الطويل، ولن تكون مجبرا على رؤية

أجزاء متناثرة من كائن كل حياه رد فعل مستمر.. لا يصل أبدا ولايبنى حضارة لكنه موجود وعنيد وغبى.

بعد أن تفرغ من المطاردة سوف تجلس منهكا على أى كرسي، بعد ان مارست إنهاء حياة مخلوق تعس بأكثر ما يمكنك من هدوء،وبأقل قدر من الآلام، استدرت إلى عالمك المفضل فأصبته بتصلب الشرايين ودخلت فى نوم عميق هادىء....

القصة الثانية :" راشد "

خرجت تسير فى الطرقات لا تلوى على شيء، فقط كان أسفلت الطريق تحت قدميك ساخنا والسيارات ترنو فى صخب لا ينتهى إلى الأفق الديمقراطى، بصبر و تأهب وفقا لإشارات الطريق، لكن المفارقة الواضحة هى أن بعضا من" فرد الكاوتش" والذى يعده البعض من الحرس القديم قد بلغ به ملل الزحام حدا أن أعلن الإضراب، والتوقف عن إرسال الدلالات، والاكتفاء بعلاقة رمزية، تسبق الاستدعاء الدينى- العلمانى وتمهد له مع سائقي سيارات لم يستسلموا بسهولة لعلاقة دال ومدلول.

مددت بصرك إلى اثنين على الرصيف المقابل يحاولأن تطوير بنية جزئية مغلقة كليا لا تشير إلا إلى نفسها، حتى تصبح قادرة على استيعاب وقائع قديمة. فجأة وبلا سبب واضح انغلقت أبواب السيارات انغلاقا تاما، وتحولت عملية انتاج النص البنيوي ما بين إشارات المرور وبين قائدى السيارات إلى ما هو أكثر من مجرد تواصل رمزى، إلى ضرورة حياة،كى تسير السيارات فى انتظام.

دخلت قهوة تحت مستوى الأرض بأربع سلمات، جاء القهوجى على مهل، متثاقلا، محملا بدلالات حركية لا تخطئها العين المدربة، إلا أنه لم يشأ أن يصرح بدلالة صوتية ما، نظر إليك نظرة محايدة، وانتظر منك أن تطلب طلبا مألوفا، لم يكن عندك الرغبة فى أن تخّيب توقعاته فطلبت كوبا من عصير القصب المغلي. كما جاء فى صمت انصرف فى صمت.

لم يكلف القهوجى نفسه عناء أن ينبس ببنت شفة، أو حتى ينظر نحوك فدخلت معه فى علاقة تجاهل لا ترقى لمستوى التعاضد، ولا تختزل لمستوى المساءلة، لكنها على الأرجح علاقة مبسطة.

ما أن تجرعت أول جرعة من الشاى حتى قمت وصرخت بأعلى صوت ممكن رافضا أن يملى عليك أحد ما تشرب. ادعيت أنك طلبت مشروبا

فى درجة حرارة النص المتبادل بينك وبين القهوجى، وهو ما لم يتحقق إلا على المستوى الذهنى فقط.

لم تسترح لنظرات العجوز الجالس أمامك، ولم تستطع أن تخمن من أى صنف هو، على أية حال يبدو أنك لن تصل إلى حل حتى لو بذلت مزيدا من التركيز، فهو ينتمي إلى صنف لم يدرجه جهازك العصبى بعد فى منظومته المعرفية، إذن فلن تستطيع سوى الوصف الظاهرى،وإن كان هذا بحد ذاته لا يعد أمرا ممجوجا. لايمكن أن تأخذ عليه شيئا محددا، فهو اجتماعى- أنانى فى نفس الوقت، شأنه شأن كل الناس، نظراته التى يلقيها هنا وهناك بلا مبرر تشى بكبرياء هش كما الجميع، يخشى السلطة وقسم البوليس، فالتحفز وانتظار الخطر اللذان يشعان من وجهه لا يمكن تجاهلهما، ولكن لماذا لا يجددون الكراسى؟ من المؤكد أن القهوة تكسب الكثير، هل ياترى من حقك أن تسأل صاحب القهوة؟ من غير الضرورى أن تفعل هذا، ربما لايكون موجودا، كما أنه بالتأكيد لا ينقصه سوى سؤال أحمق كهذا حتى تنفجر شرايينه بالغضب، وربما يرد عليك بلهجة غير لائقة، أو حتى ينهرك عن طرح هذا السؤال القبيح مرة أخرى، لكن الزبائن تدفع نقودا، من المسئول ياترى عن التفريط فى حقهم فى كراسى سليمة؟

فجأه قمت بتحويل مجرى الحديث إلى الضفة الأخرى من النهر، وطرحت سؤالك فى برود : كيف يمكن تجديد القهوة كلها وليس الكراسى فقط؟ من المؤكد أن دعاة الدولة المدنية سيدافعون عن الضرائب بوصفها حجر الأساس فى المواطنة الاقتصادية : بارات شعبية رخيصة، وعلاج نفسى مدعوم للجميع،كما أن التسلية هى أدوات مهمة وحوافز قوية على عملية إنتاج الإنسان الجديد،

بينما يرى دعاة الدولة الدينية أن المسلم يمكنه أن يستعيض عن النشوة المنبعثة عن الخمر والرقصات الخليعة بانتظار خمر الجنة ونسائها المطهرات الكاملات.

لم تقتنع بأى منهما فهززت منكبيك وانتظرت ما لا يجىء.

دخل القهوة زبون مجنون وصاح بأعلى صوت :

- عايز كرسى عدل عشان أقعد عليه!

لكنك حتى الآن لم تعرف من هو المسئول عن عدم تجديد كراسى القهوة. هل لو سألت الزبائن، هل يمكن أن تحصل على إجابات شافية؟ من المستحسن ألا تفعل، ياترى كم ستدفع؟ تشرق بارقة أمل، من الحساب الذى

سوف تدفعه سوف تعرف إذا كانت فكرتك عن النقود والتضخم صحيحة أم لا؟. ربما تكون قد أصبت نفسك بنوع من الجفاف العقلى، لذا فمن الأفضل أن تبحث عن موضوع عادى.

تابعت العجوز بشغف وهو يحاسب القهوجى، قلت فى نفسك هذا تمهيد للمغادرة، وبالرغم من أن توقعاتك قد تحققت هذه المرة، إلا أن ما خيبها هو دخول عجوزآخر، وطلبات جديدة، وحيطة وحذر جديدين.

أما الأن، وما دمت ترغب فى المزيد من الوقت وسط رواد القهوة،إذن فمن المستحسن أن تفكر هل السقوط هو فى جوهره روحى أم مادى؟ لم ينتظر القهوجى أن تجيب عن السؤال :

- الحساب يابيه، عايزين نشطب.

نظرت حولك فلم تجد سواك، أين العجوز الجديد؟ أين الزبون المجنون؟ أين الناس؟ أين أنت؟

خرجت من القهوة، أخذت أسير فى الطرقات بلا هدف، بلا أمل، بلا برهان، ومع هذا تظل تحلم.. بأنه فى آخر الأمر سوف يندمج الاثنان فى واحد يجمع أفضل ما عند كل منهما، الدينى والليبرالي، ربما اختارا اسما جديدا موحدا هو : راشد. أما انت فسوف تحكى كل يوم ما هو زائل تماما : حلم جديد، أكذوبة جديدة، حياة جديدة، وتسميها حكاية! سوف تسأل نفسك كثيرا، من أنت؟ وإلى أين تمضى؟

بينما كنت تسير فى الطرقات لا تلوى على شىء، وأسفلت الطريق تحت قدميك باردا، والشوارع خالية معتمة، لمحتهما على رصيف الحلم، يحاولأن تطوير بنية كلية مفتوحة، لا تشير فقط إلى نفسها، بل تشير للكل، قادرة على استيعاب وقائع جديدة، إشارات جديدة،أناس جدد. أمامهما مشوار طويل. لم تلتفت إليهما، وواصلت السير، فأنت دائما على عجل، ترغب بأشياء لم يحن وقتها بعد.. على أيه حال أنت تدرى جيدا أن ما سوف يأتى لن تجده مثيرا بما فيه الكفاية : حجر بارد، فى لحد بارد وتغمض عينيك إلى الأبد قبل أن ترى الحلم حقيقة واقعة

******

بعد ذلك كتبت مسرحية بعنوان" جسر اللولى "، لكنها لم تعجبنى فمزقتها بعد أن انتهيت منها.

لم أفكر فى نشر أى شىء لأنى كنت أعتبر كل ذلك هو محاولات لبلورة اتجاه" الليبرالية الإسلامية" الذى توصلت إليه، فضلا عن أنه، لم

يكن عندى أمل حقيقى فى امكانية أن يكتسب هذا الإتجاه أرضا فى المجتمع. لذا لم أحاول أن أطور تلك الأفكار.

أيضا كنت مشغولا جدا بعملى، لذا فلم تكن هناك فرصة كى أتفرغ وأناقش مع نفسى أو مع غيرى ما تحتويه تلك الأعمال من قيمة فكرية أو فنية. حقيقى أنه من الصعب على المبدع أن" يحبس" أعماله سنوات طويلة كما حدث معى، لكن هذ هو ما حدث.

فى أثناء انشغالى بعملى الخاص تعرفت على صديقى المهندس محمد عامرعن طريق صديقى الليبرالى سامح الشوادفى، كان محمد خريجا حديثا ويبحث عن عمل، ويرغب فى الهجرة ولا يطيق التخلف الموجود فى مصر، كان يميل للشيوعية وإن لم يكن شيوعيا،لكنه لم يكن مؤمنا على كل حال، كانت نقاشاتنا تتواصل فى العام ١٩٩٦ عن الإسلام والسلفية ومصر القديمة (الفرعونية) والنهضة وهكذا.

وجدت فيه عقلا منفتحا وباحثا عن الحقيقة. كتبت يومها مسرحية من فصل واحد سميتها :" البحث عن محمد عامر ".

المسرحية تعتمد على واقعة حقيقية وقعت فى مصر فى القرن الثامن عشر، حين آمن الناس أن يوم القيامة آت فى يوم معلوم، تغيرت الأحوال وترك الناس أشغالهم، وعمت التقوى وأعمال البر، ولما أتى اليوم المعلوم ولم يحدث أن جاء يوم القيامة رجع الناس لعاداتهم.

كان صديقى محمد عامر مهتما بأمور الفلك، لذا فقد صغت المسرحية كما بالسابق ولكن قبل أن يرجع الناس لحالهم المعهود، سمعوا عن شخص اسمه" محمد عامر" يفهم فى الفلك ويستطيع أن يحدد بدقة يوم القيامة، فتسير المسرحية بعد ذلك فى طريق" البحث عن محمد عامر ".

قرأها محمد عامر وأعجب بها وطلب منى أن أسجلها فى الشهر العقارى، ولكنى تكاسلت وقلت له : لماذا؟. ثم قرأت عن مسابقة فقدمت المسرحية فيها، وبعد شهور عدة،وجدتها تعرض على أحد المسارح تحت اسم" يوم القيامة"!

ليس هذا هو المهم، المهم أن محمد عامر وجد عملا فى شركة بترول وترقى بها سريعا، وكانت الشركة تبعثه دائما للسفر للخارج. آخر مرة زارنى فيها هو وزوجته فى المنزل، وعاتبته على أنه لم يدعنى للفرح لكنه قال لى أن الأمور سارت بسرعة فقلت له :

- عموما، مش غريبة عليك، المهم إنك تزوجت مصرية، وها تقعد هنا فى مصر، بالرغم من أن طول عمرك تتمنى الهجرة للخارج!
- أقول لك الحقيقة، أنا لا أرتاح إلا هنا، فى مصر!

بعد فترة اتصل بى صديقى الليبرالى سامح الشوادفى، الذى كان أصلا سببا فى معرفتى بمحمد، وقال لى :

- فيه خبر وحش!
- خير!
- محمد عامر مات!

ثم بعد ذلك حكى لى الحكاية :" اختفى محمد أيام وليال، ثم عرفنا بعد ذلك أن الشرطة وجدت جثته فى القناطر وبها محفظته سليمة وفيها بطاقته وكل أوراقه. وبعد بحث تبين أن سيارته تقف فى مكان بجوار النهر فى الجيزة وعندما سألوا من كان بجوار السيارة وقتها قالوا أنه كان هناك من يغرق فى النهر فأوقف محمد عامر سيارته و"نط" فى النهر بملابسه كى ينقذ هذا الشخص فغرقا سويا! " رحمه الله!

فى عام ٢٠٠٢، ولادة ابنتى الثالثة" زينة" والتى اختار لها أخواتها هذا الاسم.

عام ٢٠٠٤ كنت أحضر حفلة فى ساقية الصاوى بالزمالك، وكانت الساقية فى بداياتها، أعجبتنى فكرة الساقية التى كانت تتيح الفرصة للجميع، سواء فرق غنائية أو مسرحية ناشئة أو مغنيين فرديين، فتعرفت على المهندس محمد الصاوى صاحب الساقية، وسألته إذا ما كان للساقية فريق موسيقى فأجابنى بالنفى، عرضت عليه أن أكوّن للساقية فريق موسيقى، فوافق على ذلك فأخبرته أننى أحتاج لمواد دعاية كى نعلن عن اختبار أصوات غنائية، وأيضا نحتاج لأورج من أجل التمارين، وفعلا لم يتردد فى ذلك.

ترك لى المهندس محمد فكرة تكوين الفريق، وكانت فكرتى تقوم على تكوين كورال يستطيع أداء أنواع متعددة من الغناء : قديم وجديد، شرقى وغربى.

أثناء الإعداد للاختبارات كنت أبحث عن مساعد، فتعرفت على أيمن حنفى، طالب فى نهائى تربية موسيقية تخصص غناء، وكان وقتها يقوم بإعطاء دروس فى البيانو للهواه فى الساقية، شرحت له فكرتى فرحب بها، كتبت صيغة الدعاية المطلوبة، وبدأنا فى استقبال الطلبات وتنظيم مواعيد

الأختبارات. استمرت الإختبارات ثلاثة أيام حتى انتهينا من الأعداد الغفيرة التى جاءت لنا واخترنا منهم قرابة ثلاثين شابا وفتاة، إذ كانت من شروط الالتحاق بالفريق هو أن يكون المتقدم تحت سن الخامسة والعشرين وأن يكون متفرغا.

كانت التدريبات خمسة أيام فى الأسبوع، وبما أن يومي يبدأ من السادسة صباحا ولا أستطيع السهر، فقد جعلت التدريب يبدأ فى تمام التاسعة صباحا حتى الثانية ظهرا، مما أثار اعتراض الكثيرين الذين يفضلون الاستيقاظ متأخرا، خصوصا أن معظمهم كانوا طلبة فى الكليات ويفضلون السهر فى الأجازة وهو ما يبدو أننى حرمتهم منه، أو على الأقل سببت لهم إزعاجا فى مواعيد الإستيقاظ، ولكن لم يكن لهم اختيار، إذ أننى أفتهمتهم من البداية أن الموضوع جد وأصعب مما يتصورون، وعليهم أن يعتبروا أنفسهم فى دراسة، ولا بد أن يستيقظوا فى الصباح الباكر.

كان على أن أعلمّ نفسى كى أستخدم الميكسر، وأوصله بالكمبيوتر والميكروفونات والسماعات التى كانت موجودة بالساقية. لم يكن الأمر صعبا إذ أننى كنت معتادا على التعامل مع برامج الصوت المخصصة للمحترفين، والتى يستخدمونها فى الاستديوهات لتسجيل الموسيقى والأغانى على تراكات، لذا فقد كانت تجربة رائعة أن أمارس أمرا احترافيا، وعلى مسرح حقيقى لأول مرة.

كنا ـ المساعد أيمن حنفى وأنا ـ نسجل الأغانى على الكمبيوتر ونخفض الصوت، ثم فى اللزمات الموسيقية نعلى الصوت،بهذه الطريقة استغنينا عن وجود عازفين فى التدريب.

عندما أتذكر ذلك الآن أستعجب من نفسى، كيف واتتنى الجرأة أن أكوّن الفريق، ثم بعد ذلك أحاول فى تلك الوصلات لأول مرة فى حياتى! ماذا يحدث إذا لم أستطع أن أقوم بالتوصيلات الصحيحة؟

كانت بداية التدريب هى تمارين الصوت المعروفة باسم vocalies، وهى تمارين بالمقطع.(ها) بمصاحبة بيانو وهدفها تقوية الصوت، وإكسابه مرونة عن طريق غناء أربيجات متتالية، استعضنا بصوت البيانو الموجود فى الأورج، لأن البيانو موجوداً على المسرح الكبيرللساقية، والتى يقدم فيه العروض الفنية، وقد استخدمناه بالفعل فى الحفلة.

أيضا كان هناك تدريب على غناء السلم الكبير والصغير في الموسيقى الغربية، وبعض المقامات الأساسية في الموسيقى الشرقية مثل الرست والهزام والبياتي والحجاز.

تستغرق تلك التدريبات الأساسية حوالي الساعة والنصف ثم نبدأ في التمرين على الأغاني التي ستقدم في الحفلة.

من البداية كنت قد اتفقت مع المهندس الصاوي ألا يلزمني بوقت محدد في التدريبات، ولكن بعد حوالي شهر من التدريبات، وحوالي الساعة الثامنة صباحا، وقبل وصول أعضاء الفريق، طلب مني أن أسمعه بعض ما سنقوله في الحفلة، فهمت مباشرة أنه قد بدأ القلق يساوره، لابد أنه قال لنفسه إلى متى تستمر تلك التدريبات؟ المهم قلت له أن صوتي لا يصلح للغناء وأنني أقوم بتدريبهم فقط، لكني أسمعته بعض الأشياء، ودعوته ليحضر معنا بروفة على بعض الأغاني.

كنا وقتها نتدرب على موشح من التراث الشرقي مقام الحجاز، يقول:

ياغزالا ماس عجبا بالقوام سمهري آه ياليل

وامنح الظمآن شربا من لماك سكري آه ياليل

لم يتمالك المهندس محمد الصاوي نفسه من الإعجاب وقال" ياريت يكون فيه من الأغاني دي كتير في الحفلة ". ويبدو أنه اطمأن بعدها أن العمل يسير في طريقه الصحيح.

لم يكن المساعد أيمن حنفي ولا أنا نفهم معنى "سمهري"، ولا معنى "ماس عجبا"، لذا فعندما سألنا بعض المتدربين عن معاني تلك الكلمات وقفنا حائرين! لكني على الأقل كنت أعرف معنى لماك السكري، وهو لعابك الذي له مذاق السكر. عندما عدت للمنزل فتحت قاموس عربي -عربي فوجدت سمهري تعني الطويل القوام، أما كلمة ماس فلم أجد لها معنى، ربما تكون كلمة تركية. أعتقد أن ماس عجبا أن المعشوق معجبا بنفسه.

أكملنا التدريبات على برنامج الحفلة في حوالي شهرين، وقدمنا حفلتنا في ١٣ اكتوبر قبل رمضان من ذلك العام بعدة أيام. قبل الحفلة بأيام اتفقنا مع عازفين، وعملوا معنا بروفة مرتين. معظم الأغاني كانوا يعرفونها، فلم يكونوا يحتاجون نوت موسيقية، أما بقية الأغاني التي لم يكونوا يعرفونها كتبنا - أيمن حنفي وأنا - النوت الموسيقية لها.

كان البرنامج يحتوى على مختارات من المائة عام الماضية من الغناء الشرقى والغربى، لذا فقد قمنا بعمل استراحة فى منتصف الحفلة، لأنها استمرت حوالى ثلاثه ساعات، وهو وقت طويل بالنسبة لحفلة موسيقية.

كان البرنامج معدا وفقا للترتيب الزمنى من بداية القرن العشرين، ويمتد حتى نهايتة، بدأ بموشح ياغزالا، ثم دور نور العيون لمحمد عثمان(توفى ١٩٠٠)، ثم ميدلى من الأغانى الوطنية مثل" رايحين فـ ايدينا سلاح" موسيقى على اسماعيل، وكتابة زوجته علية اسماعيل،" ياأغلى اسم فى الوجود" غناء نجاح سلام، ثم أغانى دينية، وبعدها" ياحبيب الروح" غناء ليلى مراد وألحان محمد عبد الوهاب وأوبريت" الليلة الكبيرة" لصلاح جاهين وسيد مكاوى.... وهكذ حتى انتهت بأغنية لعمرو دياب.

بعدها استراحة ثم يبدأ البرنامج الغربى بأغنية أيطالية من بداية القرن العشرين، وربما كانت من القرن التاسع عشر، لا أتذكر بالضبط، اسمها osolo mio ووصولا للعصر الحديث وأغنية I want to spend my life time loving you التى قدمت فى فيلم زورو بطبعته الحديثة، وأغنية سيلين ديون فى فيلم تيتانيك My heart will go on.

للأسف، بعد الحفلة، لم أجد حلا سوى حل الفرقة لأن أعضاء الفريق وجدوا أن العائد المادى للحفلة – بعد دفع أجور العازفين - لا يساوى المجهود الذى يبذلونه فى التدريب، وأيضا لأن الدراسة كانت على الأبواب، إن لم تكن قد بدأت بالفعل، ومعظم الأعضاء طلبة جامعيين، وأيضا رغبة كل فرد فيهم أن يغنى solo أى بمفرده، طبعا أصابهم الحزن حين أعلنت قرارى بحل الفرقة وطالب أكثريتهم بالاستمرار، وتخفيض ساعات التدريب، وأعلن بعضهم عن تخليه تماما عن فكرة العائد المادى من وراء العمل.

فى الحقيقة كنت أنا أيضا حزينا، ولا يسعنى أن أقول غير ذلك، لكن وجدت أن هذا هو القرار الصائب إذ ما الذى يمكننى أن أفعله بفريق مكون من ثلاثين مغنى ومغنية سوى الكورال؟ وغناء الكورال" المضبوط" يحتاج لجهد ووقت الفرق الشبابية الحديثة لا تحتاج سوى لثلاثة أو أربعة مغنيين وليس ثلاثين، وأيضا لا تحتاج مثل هذا المجهود الشاق فى التدريب.

قلت لهم ألا يحزنوا وأن يعتبروا أنهم قضوا أجازة صيف مختلفة، استمتعنا فيها وتعلمنا وقدمنا حفلة فى نهايتها ستظل ذكرى لكم، فلماذا الحزن؟ طبعا أخفيت عنهم حزنى لذلك القرار القاسى.

اللغة الألمانية

فى التسلسل التاريخى للذكريات وصلنا لعام ٢٠٠٤. بعد هذا العام لم يكن هناك شىء يذكر فى المجال الفني أو الفكرى حتى عام ٢٠٠٨ الذى قررت فيه دراسة اللغة الألمانية كمحاولة للخروج من الصندوق، أقصد الواقع المصرى الصعب. تعرفت بعمق أكبر على الحضارة الأوربية، التى هى أساس الحضارة الغربية، وقارنت بينها وبين مبادىء الإسلام، فوجدت أن المبادىء التى قامت عليها الحضارة الأوروبية من حرية الفكر والفن فى العلوم والفنون الإنسانية ومبدأ التجربة فى العلوم الطبيعية، هى مبادىء مستمدة فى الأصل من الحضارة الإسلامية بعد أن اقتبستها أوروبا، ثم قامت بتعديلها بما يناسبها، ويناسب ميلها الدائم لما هو طبيعي ومادي، وتقليل من شأن ما هو روحي ومعنوي، لكن أصل المبادىء فى كلتا الحضارتين هو واحد.

ليس فقط الكتب، ولكن أيضا المناقشات الحية كان لها دورهام، لذا فسوف أعرضها كما حدثت، وعلى نفس المبدأ الذى سرت عليه فى تلك المذكرات، حتى يطلع القارىء على صورة حية عما جرى هناك، لكن قبل أن أستعرض الأحداث كما وقعت فى معهد جوته قسم دراسة اللغة أستعرض الحالة التى كنت عليها وقتها، وقت اتخاذى لقرار دراسة اللغة الألمانية.

بعد سبعة عشر عاما من عودتى من ألمانيا فى عام ١٩٨٩ وانشغالى بأعمالى الخاصة التى لم أستفد منها ماديا، بالقدرالذى استفدت منها فى التعرف على الشخصية المصرية، وعلى الشعب المصرى عن قرب، وبعد انقطاع دام كل تلك السنين عن اللغة الألمانية، وجدت نفسى بالقرب من معهد جوته فى شارع حسين واصف، بالقرب من ميدان المساحة،فقررت أننى سوف أتعلم اللغة الألمانية من جديد من مجرد نظرة للمعهد..! كان الموضوع مثل ما يبحث المرء كثيرا عن اسم شخص أو كلمة ولا يجدها، وعندما ينسى البحث يجدها أمامه فجأة..! هكذا وجدت أمامى مبنى معهد جوتة قسم اللغة.

خلال السنوات الماضية أدركت بشكل متزايد أننى لا بد من أن أتقن لغة أجنبية، كى أقرأ الكتب والأخبارمباشرة بلغتها الأصلية دون ترجمة، لأنه فى الحقيقة ما تتم ترجمته يكاد لا يمثل شيئا مما ينتجه العالم من ثقافة

وعلوم وفنون. مثل الأكاذيب فى وسائل الإعلام عندنا لا تخلو وسائل الإعلام الغربية أيضا من أكاذيب، وفى أحد الامتحانات فى معهد جوته كان السؤال هو كالتالى :

أكتب موضوعا توضح فيه كيف يمكنك أن تميز بين الأخبار والمعلومات الكاذبة والصحيحة فى وسائل الإعلام..

... وفى امتحان تحديد المستوى كان موضوع التعبير هو :

الديمقراطية تبدأ بالأطفال فى المنزل والمدرسة، اشرح وجهة نظرك فى هذه العبارة..

هذا يعنى أننى وجدت من أول اليوم أن موضوع اللغة ليس قاصرا على اللغة من حيث هى أداة للتفاهم بين البشر الناطقين بها فقط، بل أيضا وضعت يدى على الثقافة التى تكمن وراء اللغة.

عندما سلمتنى فراو حبيش موضوع التعبير قالت لى إذا كان صعبا يمكنها أن تحضر لى موضوعا آخر، أجبتها بأنه موضوع مناسب وأستطيع أن أكتب فيه، ردت بأنها تقصد أنه من الممكن أن يكون صعبا أن أكتب عنه باللغة الألمانية، قلت لها أنه موضوع صعب باللغة العربية أيضا..! وكتبت فيه وملأت الورقة "وش وضهر"، ولو كانت أعطتنى كشكولا لكنت قد ملأته..!

كان المنطقى أن أتعمق فى اللغة الإنجليزية التى درستها منذ الرابعة إبتدائى وكانت دراستى للهندسة بها إذا أردت أن أقرأ بلغة أجنبية، و فى هذا توفير للوقت والجهد والمال، ولكن كنت قد وصلت لمرحلة من الجفاف الروحى، وكان لا بد من تجديد الحياة، ولم تكن الإنجليزية بالنسبة لى سوى لغة تنتمى للماضى، وكنت أرغب فى بداية جديدة. تفكير غير عقلانى أن يبدأ المرء فى دراسة لغة أجنبية درس منها ستة أشهر منذ سبعة عشر عاما، ويبدأ الآن و فى أواخر الأربعينات من عمره فى دراستها، واستكمال ما انقطع وهو قليل، ويهجر لغة تعلمها منذ الصغر ويسمعها كل يوم فى المسلسلات، أوالأفلام، أو فى نشرات الأخبار، ربما، ولكن من قال إن الحياة تتقدم بالعقل فقط...؟!

المشكلة الأولى التى واجهتنى هى أن كل الدارسين - فى الفصول الأولى - كانوا من الطلبة فى عمر بناتى، وبعد ذلك فى الكورسات المتقدمة كانت هناك فئة عمرية أكبر، لكن لم يختلف الأمر كثيرا، إذ كان معظمهم قد تخرجوا منذ عدة سنوات، ويعملون أو يعملن مدرسات لغة ألمانية ويحسنون

لغتهم، بغرض الحصول على وظيفة أفضل، أى كان أيضا فارق السن الكبير. فى كل المراحل كنت أبدو لهم إنسانا غريبا، (كما ترانى زوجتى أحيانا).. ولا يستطيعون أن'' يمسكوا'' أنفسهم فيسألونى السؤال الأشهروالأكثر تكرارا الذى واجهته مع بداية كل كورس :

- أنت ليه بتدرس ألمانى؟

من خلال ملاحظتى للشباب والكبار، أعتقد أنه من بداية سن الأربعين فصاعدا يبدأ المرء غالبا فى الاهتمام بما يرضى نفسه، أكثر من اهتمامه بإرضاء الآخرين، و الحصول على استحسانهم. كثير من أصدقائى تزوجوا للمرة الثانية، وآخرين أقدمواعلى ذلك ولم يوفقوا لأسباب خارجة عن إرادتهم كرفض والد العروسة أن تكون ابنته زوجة ثانية، أو أن المحبوبة متزوجة أصلا...! من المؤكد أنهم لم يهتموا برأى أسرتهم ولا أقاربهم، واهتموا فقط بما يريدونه. قد يبدو هذا المثل سلبيا ولكن هذه هى الحقيقة، من سن الأربعين فصاعدا يبدأ المرء فى ضرب الحائط برأى المجتمع، ويسعى لإرضاء نفسه أولا،ولم أكن لأشذ عن هذه القاعدة فى دراستى للغة الألمانية، لقد عشت حياتى كلها لإرضاء نفسى، ولم أكن أعير المجتمع وتقاليده أدنى اهتمام فى مرحلة الشباب، ثم تزوجت وأنجبت أطفالا وأصبحت مسئولا عن عائلة، وكان لا بد أن أتنازل عن كثير من رغباتى وحياتى الخاصة من أجل الأسرة، شأنى فى ذلك شأن كل الناس، وحان الوقت كى أعود ثانية لإرضاء النفس، وتمثل هذا الإرضاء فى صورة دراسة اللغة الألمانية.

والآن أثناء كتابة هذه المذكرات سوف أكيف نفسى على احترام المجتمع وتقاليده لحد كبير، حتى وإن كنت غير مقتنع بها، وهذه المذكرات خير شاهد على ذلك، فلو كنت قد أطلقت العنان لنفسى، وذكرت كل ما شاهدته وعشته لكانت المذكرات هذه عبارة عن صدمة كبيرة للقارىء...!

فى كل مرة يقرر فيها المرء أنه سوف يتبع نفسه، وينبذ مبادىء الجماعة التى يحيا وسطها جانبا، يكون معرضا لعذاب الخوف من الذات، والشك والاضطراب، الشك فى ذاته نفسها، وفى قدراته، وفى أهليته لاجتياز الاختبار، وهو أخطر أنواع الشك على الإطلاق.! هكذا شعر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حين انفرد بنفسه فى الغار، ونزل عليه الوحى، وعاد لزوجته يرتعش ويقول لها زمِّليني.. دثّريني (أى غطيني بغطاء يقي البرد والرعشة) وهكذا كان نبى الله عيسى حين ترك قومه وصعد الجبل، وهكذا كان حال نبى الله موسى حين تلقى الرسالة فى جبل الطور. ربما ود البعض

ألا أذكر تلك الأمثلة لأن مقام النبوة محفوظ، ولا يجوزمقارنة تجارب الرسل بأى تجارب لنا، نحن الناس العاديين الذين لسنا بأنبياء ولا نتلقى الوحى من الله. الحقيقة أنى أختلف مع هذا الرأى، فلماذا إذن فصّل الله تلك الحكايات فى القرآن تفصيلا، وأعادها فى أكثر من موقع؟ ولماذا تحدث عن استيئاس الرسل وظنهم أنهم لن يُنتصروا على قومهم؟ أرجو ألا يقارن أحد بينهم وبيننا من ناحية الرسالة والعصمة، لكن المقارنة بين تجربة بشرية وأخرى بشرية، لأنهم كانوا أيضا بشر، أعتقد أنها مقارنة مشروعة، بل وتفيد المرء فى حياتة، وتعطيه الثقة فى نفسه والأمل، مع الإحتفاظ بالمسافة المطلوبة بين المرء وبين مقام النبوة الرفيع. أمرنا القرآن أن نتخذ الرسول قدوة، وإذا لم تكن القدوة فى الصبر على الاختلاف مع قومه، وإصراره على أداء رسالته وتتبع مواضع سيرتة العطرة، فكيف تكون القدوة مؤثرة إن لم تكن فى هذا؟

أرجو ألا يظن أحد أننى كان عندى رسالة أوما شابهه وأنا أدرس اللغة الألمانية، لم يكن هذا ورادا فى ذهنى ولم يرد حتى الآن ، كل ما فى الأمر أن المرء يحاول أن يحصل على الأمل والثقة بالنفس من خلال عقائده التى يؤمن بها، ومن خلال الرموز التى يعتقد فيها، ولا علاقه لذلك بالصواب والخطأ.

منذ أول حصة مع فراو حبيش أدركت أننى أوقعت نفسى فى ورطة كبيرة، اللغة الجديدة فى غاية الصعوبة، القواعد معقدة بطريقة لا تصدق، لا أستطيع أن أجمّع كلمتين على بعض، أكتب موضوعا فتصيبنى الصدمة عندما أستلم التصحيح من فراو حبيش، الأخطاء الإملائية تذكرنى بأخطاء بناتى وهن صغيرات، بين كل كلمة وأخرى خطأ إملائى أو نحوى، أو فى التعبير، من أجل أن أقرأ صفحة من الكتاب المقرر لا بد أن أترجم ما يقرب من عشرين كلمة من القاموس.. بعد شهر واحد من الكورس قلت لنفسى: علام هذا العذاب؟ وهل أنا فعلا قادر على إنجازالهدف الذى من أجله شرعت فى دراسة اللغة الألمانية؟ ولكنى كنت أقول لنفسى إن الولادة دائما صعبة، وأنا فى حالة ولادة جديدة لنفسى وروحى، ولا يوجد سوى الصبر، والصبر الجميل.

كما قلت سابقا كانت فراو حبيش هى من قامت بامتحانى شفوى وتحريرى فى امتحان تحديد المستوى، ووضعتنى فى نهاية المستوى المتوسط M3، لم أصدق نفسى، إذ أننى كنت منذ سبعة عشر عاما فى منتصف المستوى الإبتدائى٤ G، ولكن يبدو أن سفرى بعدها لألمانيا

وممارستى للغة فى مستشفى شفابنج بألمانيا قد حسّنت مستواى من حيث لا أدرى. أيضا بعد ذلك عندما رجعت لمصر،وأثناء فترة النقاهة قرأت أجزاء من كتاب وثائقى ألمانى اسمه" النازية، ١٢ عاما سوداء فى تاريخ ألمانيا "، كان هذا الكتاب عبارة عن توثيق لفترة صعود وانهيار النظام النازى، وبالإضافة للمكتوب يحتوي على ٨ شرائط كاسيت، يسمع فيها المرء خطب هتلر وجورنج وألبيرت شبير...إلخ مسجلة تسجيلا حيا، ومكتوبة فى الكتاب فى نفس الوقت، كأن المرء يعيش الماضى مرة أخرى، هذا بخلاف التعليق لتفسير الأحداث وربطها ببعض، استمتعت كثيرا بالتنسيق بين الأحداث المسموعة، وبين الأحداث المكتوبة، وقدرت المجهود المبذول من أجل حصول القارىء والمستمع على صورة أقرب ما يكون للحقيقة. نظرا لاهتمامى القديم بالسياسة الدولية فقد شدتنى الحياة فى الماضى الألمانى، وتعرفى على حكايات ومواقف القوى السياسية المختلفة وقتها.. فعلا شدنى الكتاب جدا بالرغم من صعوبته، وتمنيت أن أقرأ كتاب مصرى عن نكسة ٦٧ مشابه له. بعد أن شفيت جمعت هذا الكتاب مع كل كتب الألمانى ووضعتها على الرف فى المكتبة، واتجهت للعمل الخاص، ونسيت موضوع اللغة وألمانيا لمدة سبعة عشر عاما، لذا كان غريبا أن يكون مستواى بعد كل تلك السنين، ويعد كل تلك القطيعة مع اللغة الألمانية هو نهاية المستوى المتوسط، لكن للحقيقة أيضا، قبل امتحان تحديد المستوى أخرجت كتب الألمانى من مكتبتى، وراجعت القواعد والكلمات لمدة أسبوعين، ثم ذهبت للامتحان وأنا أتخيل أنه "بالكتير" سوف أحصل على نفس المستوى الذى تركته منذ سبعة عشر عاما.

هكذا كان الكورس الأول فى مستوى **M3** عبارة عن" مصيبة" أوقعت نفس فيها! لا يمكن أن أترك نفسى ليتفوق علىّ بعض (الأطفال) فى سن بناتى..! صحيح أنهم كلهم (كان عددنا ستة أفراد) يدرسون الألمانى فى كليات الألسن، أو اللغات والترجمة، وصحيح أن "هبة" كانت الثانية على دفعتها، لكن لا يمكن أن أتركهم يتفوقون علىّ... كنت وقتها متفرغا بعد إغلاق المزارع، وكنت أبحث عن عمل آخر، لكن بعد أن بدأ الكورس قررت أننى سوف أتفرغ للدراسة وبعدها أبحث عن عمل، بعد أن أنهيت الكورس بنجاح قررت أننى لن أعمل مرة أخرى حتى أنهى دراسة اللغة الألمانية تماما وهو ما استمر ثلاث سنوات إلى أن قامت الثورة.

ولكن ما هى الأهداف الحقيقية من وراء دارسة اللغة الألمانية؟ باختصار هى الرغبة فى تحقيق أهداف قديمة عشتها بعمق، ولم أحقق منها شيئاً.

لم أتحمل فكرة أننى لم يتبق لى سوى سنتين وأبلغ الخمسين، ولم أفعل شيئا فى حياتى الفكرية والثقافية، فقد كنت متأكدا وأنا شاب أننى إذا بلغت سن الخمسين سوف يكون لى شأن آخر غير الذى أنا عليه الأن. لم يكن واضحا لى فى شبابى ما هو هذا الشأن، ولكن روحي كانت تشعر به، وهذا يكفى. لقد أحببت الموسيقى من أعماقى، ومن أعماقى أيضا أحببت الله والإسلام والحركة الإسلامية، فماذا حدث؟ و ما الذى أنا عليه الآن ؟ كتبت قصيدتين وقصتين ورواية وتوقفت، حتى لم أفكر فى أن أنشر شيئاً ولا يبدو فى الأفق ذلك. ماذا تبقى من روحى؟ إنها تضمحل شيئا فشيئا..

هناك موشح غنائى من التراث القديم كنت كلما سمعته أتحسر على نفسى، الموشح اسمه يا هلالا غاب عنى واحتجب، يقول الموشح فى آخر بيتين :

فى الهوى ما نابنى غير التعب يا عينى

وانقضى العمر وما نلت الأرب..!

(كلمة يا عينى إضافة لأن الميزان الموسيقى للموشح هو ٨/٧، فهو ميزان أعرج بلغة الموسيقى الشرقية أو بلغة الموسيقى الغربية، وكلا التعبيرين يقصد به أنه ميزان غير منتظم)

لم أكن أعرف شكل صافى ناز كاظم، وعندما زرتها فى منزلها لأول مرة كنت أتوقع أننى سأقابل امرأة (سامباتيك) تناسب ثقافتها الرفيعة التى سمعت عنها وأنا داخل المعتقل، ولكن رأيت شكلا مختلفا عما توقعته، تأقلمت مع الموضوع بسرعة، بل ورأيت أن شكلها مريح ومحبب لعينى بعد أن نفذت لى روحها وشخصيتها القوية والمؤثرة. ليس هذا ما أريد أن أتحدث عنه، لأن صافى أكبرمن أى حديث يمكن أن أقوله عنها، ما أريد أن أوضحه أننى رأيت فيها نفسى عندما أكبر...! سوف يكون لى مقالات فى الصحف، وأستقبل الشباب الصغير أعطيه خلاصة فكرى وخبرتى فى الحياة، إذن لا بأس، سوف تكون حياة مناسبة لشخصيتى،،،،...،حين أتذكر ذلك وأقارن بين ما كنت أتمناه وأرغبة وما حققتة من ذلك لاشىء! حقيقى أنى أنجزت أسرة وأطفال وعمل، وهذا جيد جدا فى حد ذاته، وبما أننى أصبحت إنسانا ناضجا فيحب أن أفكر فى النصف الممتلىء من الكوب، لم أعد شابا مراهقا يرغب

فى كل شىء. كل هذا جميل،ولكن.. وآه من لكن..! هناك شىء فى الأعماق يعلن عن نفسه كل يوم، إن لم يكن فى العلن فبين المرء ونفسه، وإن لم يلاحظه أحد، وإن رحلت" ليلى" وغابت فيكفى أنها ما زالت فى سويداء القلب، وحتى إن بانت" سعاد" فما زالت قريبة قرب القلب من حبل الوريد، هذا الشىء اسمه" أنت الحقيقى "، وهو ما لا يدركه سواك، هذا الحقيقى لم يتحقق بعد، ينتظر العام وراء العام ولا يزداد الأمل في التحقق سوى ابتعادا، وكلما ازداد ابتعادا كلما ازداد حلاوة كما تقول الأغنية" أحلى شىء فى الحب عذابه ". حتى متى؟ تسأل نفسك ولا تملك الإجابة، ثم فجأة وبلا مقدمات، تجد نفسك أمام نصف أو ربع أمل، أو حتى شعاع طائر فى الفضا.. هل يمكن أن تتخلى عنه؟ اسئلوا قيس : هل نسى ليلى؟ واسئلوا جميل :هل زاده بعد بثينه إلا شوقا؟ واسئلوا كثيّر : هل مازالت عزه تأتيه فى منامه؟

كنت شيئا فشيئا بدأت فى الابتعاد عن المجتمع، كل من أقابله سواء كبيرا أم صغيرا،سواء مثقفا أم عاملا أم فلاحا يؤيد غزو صدام للكويت، وذلك لأنه من وجهة نظرهم سوف يستولى على بترولها كى يضمه لبترولـه، و يحارب به إسرائيل..! يا حلاوة..! ومرة أخرى أسمعهم يؤيدون أسامه بن لادن فى تفجيراته لبرجىّ التجارة العالمى انتقاما من أمريكا اللى طايحة فى العالم ومش لا قية حد يلمها..!... كسبنا صلاة النبى.! فى الحقيقة أصابنى الأحباط وقلت فى نفسى إن الشعب المصرى غير ناضج بما فيه الكفاية، حتى يمكن للثقافة أو الفكر أن يؤثر فيه، ويمكن أن يتلاعب به المتعصبون والجهلة من أجل تحقيق أهداف أبعد ما تكون عن الإسلام. كان الاستبداد السياسى لنظام مبارك على أشده وكنا نحتاج إلى مناضلين، ولكن كما قلت سابقا لم أكن أعد نفسى كى أكون مناضلا، بل مفكرا عقلانيا وباحثا عن الحقيقة التى أعشقها أينما كانت، وفى أى مجال أعربت عن نفسها فيه، سواء الموسيقى أو السياسة أوالدين... أى مجال، المهم أن تكون حقيقة ناصعة تنير للمرء الحياة والعالم الذى يحيا فيه، ربما حتى بالغت وتصورت الجنة على أنها الحياة وسط أنوار الحقيقة، ينعم فيها المرء بحقيقة وراء حقيقة، وهكذا إلى ما لأنهاية، وهذا معنى الخلود...! تصوّر شخصي طبعا، ولكن لا بد للمرء من تصورات شخصية عن الأمور الغامضة.

إذن أقدمت على دراسة اللغة الألمانية من أجل هدف مزدوج، أرضي به نفسي وهو أن أقرأ الرواية بلغتها الأصلية، وأستطيع أن أبدى رأيي فيها، وأتبادل مع الآخرين الآراء بنفس اللغة، وهذا هو" أنا الحقيقى ". إذا كان الرمز واضحا، فيمكن أن ننتقل لسرد الأحداث كما وقعت، أحكيها سردا، به

كثير من التوثيق وقليل من التفسير والتحليل، أما إذا لم يكن الرمز واضحا فيمكن للمرء أن يشيل "أقرأ الرواية "ويحط مكانها "أفهم العالم" ويشيل" بلغتها الحقيقية" ويحط مكانها" كما يصنعونه" وبذلك يتضح الهدف و تصبح العبارة كالآتى :" أردت أن أفهم العالم كما يصنعونه وأتاثر به وأؤثر فيه "، ولا داعى للشيل والحط..!.

لم أدرس اللغة بهدف دراسة اللغة البحتة، ولكن اللغة هى ثقافة وعلوم وحضارة وتأثير وتأثر وعقل وعاطفة، وأيضا يتعرف المرء على نفسة ومجتمعه فى عيون الآخرين. بعد أن تحسن مستواى فى اللغة اشتريت طبقا (دش) كبير، وكارت كمبيوتر، وكنت أشاهد يوميا القنوات الألمانية، من خلال قناه ZDF التابعة للدولة.. شاهدت العجب...! شاهدت برامج وثائقية حية عن الحج وفلسطين والعراق وتركيا ومصر.. برامج كثيرة لدرجة تصورت معها أن تلك القناة موجهة لنا نحن المسلمون. لكن الحقيقة غير ذلك، فتلك القناة مملوكة للدولة الألمانية وموجهة بالأساس للألمان، ولمن يتكلم اللغة الألمانية، وليس معنى أنها قناة دولة أنها قناة الحكومة أو أن من يديرها يأخذ قراره من وزير الإعلام كما يحدث عندنا فى التلفزيون المصرى الرسمى بقنواته المتعددة، فهناك فرق كبير جدا بين الحكومة والدولة، و هذا واضح جدا هناك ولكنه ليس بنفس الوضوح عندنا. أن تكون القناة مملوكة للدولة يعنى أنها مفتوحة للحكومة والمعارضة على حد سواء، وأنها تعرض كل وجهات النظر، و الفرق بينها وبين القنوات الخاصة أنها لا تهدف للربح، لأنها كما قالت لنا فراو بتينا فى الكورس أن كل ألمانى عنده تلفزيون يدفع ١٧ يورو شهريا، ما عدا الطلبة والفقراء، ومن تلك الحصيلة يتم تمويل مثل تلك القنوات وأيضا بعض قنوات الراديو، لا أعرف إذا كانت أيضا ممولة من ميزانية الدولة أم لا، على كل حال، هذ التمويل غير التجاري يعنى إعلانات أقل، وبرامج ترفيه أقل، وبرامج تنوير أكثركى توازن طوفان القنوات التجارية التى همها الأساسى هو الربح. قناه ZDF عبارة عن ثلاث قنوات، واحدة عامة، والثانية وثائقية، والثالثة للفن والمسرح والموسيقى والأوبرا... أيضا كنت أتابع باستمرار قناة إخبارية متخصصة فى الأخبار والتحليلات طوال الأربع والعشرين ساعة اسمها n-tv وهى قناة خاصة كما أعتقد.

شاهدت أوبرات ومسرحيات وأفلاما وأعمالا من روائع ما أنتجته الحضارة المعاصرة، وما كان لى أن أشاهدها إلا من خلال اللغة الأصلية. شاهدت برامجا وثائقية عن الطب والهندسة والسياسة والفن...، برامج

تثرى الروح وتفتح أفق الحياة، وليست كبرامج التلفزيون المصرى ونشرات أخبارة التى تبعث فى النفس الكآبة والأفق المسدود، ولا تسمع فيها إلا الأكاذيب، ولا تشاهد فيها سوى التفاهات. بعد أن تابعت التلفزيون الألمانى انقطعت صلتى بالتلفزيون المصرى تماما إلى أن قامت الثورة، وإذا كان هذا هو الآنجاز الوحيد الذى استفدته من تعلم اللغة الألمانية فكفى به إنجازا..!

حتى لا يظن القارىء أن كل القنوات الألمانية على هذا النحو، أقول أن ذلك ما كنت أشا هده فى قناتين رسميتين يتبعان الدولة وهما ZDF وقناة أخرى لم أكن أشاهدها كثيرا و نسيت اسمها، ربما كانDer Erste أى القناة الأولى.

بخلاف قناتي الدولة توجد عشرات القنوات المحلية الألمانية، والتى تختص بالمقاطعة أو البلدة، وليست بقوة قناتي الدولة، وفى النهاية تأتى القنوات الأكثر مشاهدة وهى القنوات الخاصة مثل RTL وهى عبارة عن مجموعة قنوات منها قناة أو اثنين كرتون، كانت" زينة "ابنتى الصغيرة تتفرج معى عليها قبل أن يأتى كل ذلك مدبلج لمصر، القنوات الخاصة غالبا ما تذيع التفاهات والأفلام الهابطة بجوار الأفلام الجادة بدون مشاكل، المهم أن تجذب المشاهد الألمانى الذى عاد من عمله متعباً يائسا من السياسة والسياسيين ويجلس أمام التلفزيون ممسكا زجاجة البيرة الفاتحة أو الغامقة بيد، والمقرمشات باليد الأخرى، ويتابع الدورى الألمانى لكرة القدم Bundslig، أو المسلسل الأمريكى المدبلج للألمانية الذى لا يفرق كثيرا عن مسلسلاتنا، أو المسلسل الألمانى الذى لا يفرق عن الاثنين شيئاً : فشتيقى تحب كلاوس، وبرجيت ترغب فيه أيضا، وجرترود حيرانه بين زوجها وعشيقها... إلى آخر هذا المسلسل الخايب والمتكرر والممل..! ولكن أحيانا توجد مسلسلات وأفلام لها قيمه أيضا، ولكن لغلبة التافة لم أجد فى نفسى رغبة فى أن أجلس ساعتين، ربما وجدت شيئا جيدا، وربما ضاعت الساعتين هباء، وعلى ذلك وبعد أن أخذت فكرة عنها وفهمت طريقتها لم أعد أتابع تلك القنوات التجارية. توجد قناة أو أكثر SEX بالإشتراك بطبيعة الحال وكأن الألمان ناقصين ومش مكفيهم الموجود على أغلفة المجلات فى أكشاك المترو، وفى الإعلانات التى تبرز المفاتن بأكبر صورة ممكنة : فالست كلوديا لها ثديان عملاقان و الآنسة ناعومى تمتلك ساقين "ملهومش حل"..! بالإضافة للقنوات الرياضية والتى منها المفتوح ومنها بالاشتراك.

الألمانى التقليدى انقطعت علاقته بالسياسة منذ زمن بعيد، واقتصرت على الذهاب لأنتخاب الحزب المسيحى الديمقراطى مرة، والحزب الاشتراكى

الاجتماعى مرة أخرى، وإذا زهق من ده ومن ده ينتخب حزب الخضر، وطول السنة ملهوش دعوة بالأحزاب ولا السياسة إلا فى نشرة الأخبار، أو إذا حصلت فضيحة سياسية، وهذا المواطن الصالح هو الذى تركز عليه القنوات الخاصة وتتفنن بالحق أو الباطل فى إبقائة أطول فترة أمام قنواتها وإعلاناتها. يوجد أيضا المهتمون بالسياسة والفن والحياة الحقيقية، وهم أقلية ولهم أيضا من يهتم بهم، مثل قناة ZDF التى سبق ذكرها وبعض القنوات الصغيرة الخاصة و المتخصصة.

يبقى أن أقول أن ما ساعدنى ووفر لى الوقت اللازم لذلك هو أننى كنت قد دخلت فى فترة نقاهة بعد أن أصابنى المرض من مزرعة، الأرانب وعيش الغراب التى كنت أمتلكهما فى السنوات الأخيرة. أصبت بحساسية ظهرت فجأة وبدون مقدمات، لى ولفيصل الطبيب البيطرى ومدحت سائقى الخاص الذى كان يساعدنى فى حقن الأرانب والإشراف على المزرعة، بينما لم تؤثر فى باقى العاملين. دخلت فى كورس علاج مكثف مع الدكتور عادل غنيم طبيب الأمراض الصدرية، فى نفس الوقت الذى كنت أتابع فيه أعمالى، وفى النهاية نصحني الطبيب بضرورة الإبتعاد تماما عن المزرعتين وإلا فإن المضادات الحيوية والأدوية لن تساعد وحدها على الشفاء. أغلقت المزرعتين مضطرا وأنا حزين لأنى كنت أحب الأرانب محبة حقيقة، وأيضا لأنى بعت مزرعة الأرانب بثلث ثمنها، بينما مزرعة عيش الغراب تنتهى بانهاء الدورة لذا لم أخسر فيها سوى" تنكات "تسخين القش التى بعتها بنصف ثمنها، ولكنها إرادة الله، من المؤكد أنه لو كنت شفيت واستمريت فى عملى لم أكن لأجد الوقت لدراسة اللغة الألمانية ولا متابعة التلفزيون الألمانى.

لم أحزن وحدى على غلق المزرعة، ولكن حزنت معى د. بلقيس عباس أستاذتى فى البيانو، إذ أنى كنت أدرس معها مرة فى الشهر كى لا أنسى العزف، وفى كل مرة كنت أحضر لها فى منزلها أحمل معى شنطة Icebox ممتلئة بالأرانب المذبوحة، لها ولأقاربها بعد أن تبلغنى بالتليفون بالعدد المطلوب وأقوم بتجهيزه وتجميده. طبعا كانت أرانب مضمونة التربية، ومضمونة المصدر، فمن المهم جدا جدا ألا تأخذ الأرانب مضادات حيوية قبل الذبح بثلاثة أيام على الأقل، هكذا يقول الكتاب، وكمعلومة للقارىء، العامل المؤثر فى جودة اللحم الحيوانى عموما هو العلف الذى أكل منه الحيوان، فكلما كان أكل الحيوان أقرب لأكل الإنسان كلما كانت الجودة مضمونة، لذا

فأفضل لحم يمكن للمرء أن يتذوقه إذا قام بالتربية فى سطح منزله أو فى حديقته الخاصة، وعلف الحيوان أو الطائر من بقايا أكل المنزل.

بخلاف البيع التجارى والذى لا يسمح ببقاء الأرنب بعد وزن اثنين كيلو إلا ربع، كنت أربى أيضا لمن يطلب من" الأكيّله" أو" الآكاله" بالتعبير الفلاحي، وهؤلاء" الآكاله" هم الذين يرغبون فى أوزان إضافيه ٣ كيلو مثلا وربما أكثر، فى هذه الحالة لم تكن التربية اقتصادية لأن معدل الزيادة فى الوزن لا يتناسب مع مصاريف العلف والخدمة، لذا فكان لتلك الأرانب الخاصة سعر خاص أيضا. هناك أيضا تربية أخرى من نوع خاص، تسمى تربية السلالات، وهى تعني أن الأرانب لا يتم تربيتها من أجل الذبح، ولكن تباع لأصحاب مزارع التربية المبتدئين، أو الذين يرغبون فى تحسين السلالة فى مزارعهم.

إذا كنت من" الكتيفة والدويّقة" و أضفت الملوخية الطازجة لطبق الأرانب المعلوف علفة

" حلوه" فقل على الدنيا السلام، ولن تأكل أكله أطعم منها إلا فى الجنة وعليك خير...!

هذه هى الأخبار الطيبة، أما الأخبار غيرالطيبة فهو ما قرأته فى جريدة ألمانية عن وجود سبعة عشر سببا كى تمتنع عن أكل اللحوم، أو على الأقل تأكلها بكميات ضئيلة للغاية، من ضمن السبعة عشر سببا المضادات الحيوية. حضرتك وحضرتى نأكل حيوانات" اتهرت" مضادات حيوية، وهذه المضادات الحيوية تبقى مستمرة فى جسم الحيوان حتى بعد الذبح، وبالتالى أنت وأنا نأكل لحم بالمضاد الحيوى، الأسوء من ذلك أن المضادات الحيوية التى تأخذها الحيوانات منها أنواع شديدة المفعول، ومع مرور الزمن تتحور الفيروسات والميكروبات حتى تقاوم تلك المضادات، وإذا لا قدر الله تعرضت أنت أو أنا لفيروس وذهبنا للصيدلية كى نأخذ مضاداً حيوياً، تكون النتيجة أنه لا يؤثر لأننا أخذنا مضاداً حيوياً أقوى منه عن طريق أكل الحيوانات، ونضطر أن نذهب للطبيب، ويكتب لنا على نوع مضاد حيوى أقوى...وهكذا يمكن القول بأن مزارع الحيوانات هى مزارع رهيبة للمضادات الحيوية والفيروسات.. آسف على الإزعاج ولكنها الحقيقة.

للحق والحقيقة لم أكن أعرف ذلك قبل دراستى للغة الألمانية، وإلا لكنت ترددت فى كل مرة أحقن فيها الأرانب بالمضادات الحيوية، ولكن حتى إذا فرض وكنت قد عرفت، فما هو البديل؟ حتى تكون التربية اقتصادية لا بد من استخدام المضادات الحيوية بكثرة، لسنا نحن فى مصر فقط، ولكن العالم

كله فى أزمة بهذا الشأن. إذا كانت البشرية جادة فعلا فى الحفاظ على صحة الإنسان والأرض التى نعيش عليها، والموارد التى نستنزفها بلا رحمة، وبلا تفكير فى أبنائنا وأحفادنا، فلابد من نظم مختلفة تماما عن تلك التى نسير عليها الأن، وطرق جديدة وخيال وبحث علمى له أهداف مختلفة. أما إذا استمر الحال لصالح الصناعة والتجارة فقط، وتم النظر للأنسان على أنه مستهلك ووسيلة للربح ليس إلا، فلن يتغير الحال قيد أنملة وسنظل ندور فى ما نحن فيه ندور، ويادارة دورى بينا ضللى دورى بينا، كما قالت الست فيروز، وستأخذنا المرجيحة دوما لتحت حتى وإن غنى عدوية" مرة فوق ومرة تحت "، وحتى إن أكد دياب على ذلك..!

هل الجهل نعمة؟ لا وألف لا وإن بدا ذلك فى الظاهر..! حين يعجز الإنسان عن المقاومة، وعن تغيير الواقع يقول الجهل نعمة، ولكن حين يأتى الأمل يصبح العلم نور. الله نور السموات والأرض، وقد فضل الإنسان على الملائكة بالعلم، واستخلفنا فى الأرض بالعلم.. ولكن من الذى وضعنا فى هذا الموقف العاجز وما الحل؟.. على رأى المعلم (بضم الميم) و الفنان المسرحى الأنجليزى شكسبير : أن تكون أو لا تكون هذا هو السؤال...! وهذا السؤال هوسر قيامنا بثوره ٢٥ يناير، وهذا السؤال هو ما حفزنى على كتابة هذه المذكرات، والبشرية كلها اليوم أمام هذا السؤال ونحن جميعا أمام أنفسنا، فإما حضارة جديدة، وقيم جديدة، و تغييرما بالنفس، وتغيير النظم الفاسدة، ونزع سلطة الفساد والإفساد من يد كبار العالم، وتسليمها للعقلاء من كل دين ومذهب، و إما.. لن نكون..!

فراو حبيش

كان أول موضوع فى الورقة التى وزعتها علينا فراو حبيش فى الكورس هو سؤال محير جدا نصه كالآتى : ما هو الحب؟ قلت بتلقائية أن شوكوكو يقول الحب بهدلة! ضحك الجميع ولكنها لم تفهم لأننى قلت" بهدلة" بالعربية، احتجت لأن أستجمع كل قدرتى اللغوية حتى أشرح لها معنى "بهدلة" باللغة الألمانية فلم أجد سوى كلمة حيرة **Verwierung!** ولكن يظل السؤال معلقا، ماهو الحب؟ وأيضا كلمة حيرة ليست هى كلمة بهدلة، أثارنى الموضوع وعندما ذهبت للمنزل كتبت موضوعا تحت نفس الإسم، وشرحت فيه باستفاضة معنى البهدلة لأننى لم أجد فى القاموس

مرادفا، فى المرة القادمة سلمتة لها لتصحيحة، صححته وكتبت فى الأسفل : جميل جدا. بعد مرات من الكتابة قالت لى : "أنت (حضرتك) تكتب مواضيع معقدة جدا! جميل جدا!"، أولاً لم اكن أتصور أنى أكتب فى مواضيع مقعدة، ثانيا لم أكن أعرف كيف يمكن أن يكتب المرء فى مواضيع معقدة ويكون التعليق على ذلك هو جميل جدا!

كانت هذه أول ملاحظة أتلقاها على ما أكتبه، ذكرت من قبل أننى كتبت أشياء ولم أنشرها، وبديهى أننى لم أتلق عليها أى تعليق من القراء، لأنه لم يكن هناك قراء أصلا..! فكان هذا التعليق بمثابة التعليق الأول الذى سمح لى بأن أنظر لكتابتى ونفسى من وجهة نظر الآخرين، وأن يدب الأمل فى نفسى أننى سوف أكتب شيئا وأنشره يوما ما.

فى حصة أخرى، عرضت فيديو يشرح الثورة و الحب و الحرية فى الستينات والسبعينات فى أوروبا، وثورة الشباب فى الجامعات، وما اقترن معها من حركات مثل حركة الهيبز والسيارة الفولكس فاجن الخنفسة. قال زميلى عبدالله أنه لو كان هناك لكان وجد نفسه جدا فى تلك الحركة! قالت فراو حبيش أن تلك الفترة فى تاريخ أوروبا تميزت بانغماس الشباب فى السياسة، وتم الإعتراف بالحرية الجنسية فقلت لها أن الموضوع تطورجدا لدرجة خطيرة وجنونية :

- هل تعلمين حضرتك أن ولاية هامبورج أقرت زواج المثليين مع ما يستتبعة من تخفيضات ضريبية للمتزوجين المثليين واستحقاقات أخرى؟!
- نعم ولكنه ليس كذلك فى باقى الولايات. [جرى هذا الحوار فى ٢٠٠٨]

لم أشأ أن أستخدم التحليل والتحريم الدينى سواء الإسلامى أو المسيحى لأن ألمانيا دولة لا يمثل فيها الدين ثقلا كبيرا أو صغيرا، قلت لها :

- ولكن كيف ينجبون أطفالا؟، كنت أتصور أننى انتصرت عليها ولن تجيب، لكنها قالت ببساطة :
- يمكنهم أن يتبنوا أطفالا!

لم أجد جوابا فآثرت السكوت وانتقلنا لنقطة أخرى! لكنى عرفت أن المناقشة فى المرات القادمة لن تكون سهله وعلىّ أن أتعلم المنطق الألمانى حتى استطيع أن أنقل وجهة نظرى لأناس يعيشون بمنطق مختلف عن الذى

نعيش فيه، كان هذا هو الدرس الأول! بالنسبة لى كان شيئا محفزا للغاية أن أتحدث مع أشخاص لا يبادلونا نحن المصريين نفس المنطق.

بالرغم من أن التدريس كان يسير وفقا للكتاب المقرر إلا انه كانت هناك فرصة كبيرة لمناقشة موضوعات مختلفة، فى مرة من المرات كان الموضوع هو تطور أوروبا من الوحشية والظلم إلى نظام اجتماعى يجد فيه المرء احتياجاته المادية والنفسية المتنوعة، بعد أن حكت موجزا للتاريخ الأوروبى كان هناك مقارنات بين النظام عندنا فى مصر والنظام المتبع فى أوروبا

- أيمن : من وجهة نظرك ماهو الشىء الذى يميز الشعب الألمانى عن شعوب أوروبا وأمكنه من تحقيق المعجزة الألمانية فى الإقتصاد؟
- فراو حبيش : الشعب الألمانى مثله مثل الشعوب الأخرى، ربما كان مشروع مارشال بعد الحرب العالمية الثانية.
- أيمن : لكن كل الشعوب الأوروبية المضارة من الحرب حصلت على مساعدات من هذا المشروع
- فراو حبيش : أعتقد أن السبب هو وجود انضباط بألمانيا، الحكومة تنجح دائما فى فرض العقوبات على من يخل بالنظام والشعب يتقبل ذلك!
- أيمن : ومن وجهة نظرك بعد سنوات طويلة من الحياة فى مصر، ماهو الذى ينقصنا حتى نتحول لدولة متقدمة مثل ألمانيا؟
- فراو جبيش : النهضة الأوربية قامت بعد ثورات عديدة منذ قرنين من الزمان، أعتقد أن النهضة عندكم قد بدأت فعلا ولكن عليكم الأنتظار قرنين من الزمان!
- أيمن : أعتقد أن هذا غير صحيح، النهضة بدأت فعلا مع محمد على منذ قرنين من الزمان! كم ينبغى علينا أن ننتظر إذن؟

كان هذا الحوارفى ٢٠٠٨، لم يكن أحد يتصور وقتها أن الثورة على بعد خطوات منا، ثلاث سنوات فقط وتندلع ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ تحت شعار" عيش، حرية، كرامة إنسانية" من ضمن شعارات أخرى! لم تكن فراو حبيش مفكرة أو ناقدة أدبية أو شابة، كانت مدرسة لا أكثر، لكن مدرسة مثقفة وجدت الوقت كى تقرأ وتعرف وتتعلم. قارنت بينها وبين المدرسين عندنا الذين ليس عندهم وقت سوى للدروس الخصوصية.

فى الحصة قبل الأخيرة وبعد مرور شهرين تمرست على المناقشة، وبدأ لسانى فى الأنطلاق مما أسعدنى جدا، واعتبرت ذلك نصرا صغيرا، وبداية الطريق الصحيح، كان الموضوع هو الموسيقى، قالت فراو حبيش أن موتسارت أرق وأسهل من التعقيد الموجود فى موسيقى بيتهوقن وباخ! لم أستطع سوى أن أنبرى لأدافع عن الإثنين لأنهما كانا لى مصدر إلهام كبير، وقلت لها إذا كان بيتهوفن وباخ يكتبان موسيقى صعبة ومعقدة من وجهة نظرك فذلك لأن الحياة كذلك، وعلى كل حال لا أجد موسيقى الإثنين سوى آية فى الجمال والعذوبة، وأحيانا الرقة، وأنهما أعطيا الموسيقى الكلاسيكية عمقها وعظمتها ونفاذها للقلب، ويعبران بلا شك عن عظمة الروح الألمانية خالصة من قومية وتعصب فاجنر فيما بعد مثلا!،والذوق مسألة مختلف فيها ولا يمكن أن يحكمها ضابط صارم كما فى العلوم الطبيعية، أيضا موتسارت نفسه قال معاصروه عنه إن موسيقاه معقدة! قالت لى" معاك حق ".

لم يكن هناك صديق أو قريب لى أستطيع أن أعبرله عن رأيى فى الموسيقى الكلاسيكية ومؤلفيها! شعرت أننى مصرى أتكلم اللغة المصرية، ولكن لا أفهم المصريين ولا يفهمونى، وفى نفس الوقت أتعلم اللغة الألمانية وأتكلمها بصعوبة لكن يفهمونى وأفهمهم، لم تكن فراو حبيش دارسة للموسيقى، ولم تكن متعمقة فى الموسيقى الكلاسيكية كفراو بيتينا مثلا، ولكن اللغة المشتركة كانت موجودة، فاللغة ليست مجرد حروف ورسوم، إنها ثقافة وتربية ووسط وقيم ومثل عليا وروح ووسيلة للتفكير..!

فراو ماهى

أتذكرجيدا كيف بدأت فكرة الPresentation (عرض) مع فراو ماهى، كانت هى المصرية الوحيدة التى درست لنا فى المستوى المتقدم.

شرحت لنا فكرتها الجديدة وهى أن تقوم كل مجموعة مكونة من اثنين فأكثر بعمل دراسة مصغرة، لتقديمها فى ميعاد محدد، وأيضا يمكن الاستعانة بالداتا شو وجهاز آخر صوت وصورة الموجود بالمعهد، ونقوم بحجزها للميعاد المطلوب – بعد فترة كان هناك فى كل فصل التجهيزات كاملة موصولة بإنترنت، مما أتاح لمن أراد فى أى وقت أن يعرض اى شىء - ويمكن أن يقوم بها طالب واحد أيضا. بحكم دراستى للموسيقى كهواية عزفا ونظريات فقد أخترت أن يكون أول موضوع لى هو تاريخ الموسيقى، وأن

أعرضه وحدي، كانت مغامرة فى أول مرة أن أقوم بذلك وحدي وكان زملائى فى الفصل يشفقون على من ذلك!

فى البداية كان الموضوع مرعبا، حقيقى كان هناك نقاشات دائمة وفى كل المواضيع، لكن هذا شيء وأن يقوم المرء وحده بتقديم موضوع والإجابة عن التساؤلات، هذا شيء مختلف تماما، لم يحدث هذا باللغة العربية من قبل، وهى اللغة الأم، فما بالك بلغة أجنبية، مهما كانت درجة إتقانها لكنها تظل لغة أجنبية!

كان يجب على كل مجموعة أو فرد أن يحدد مسبقا الوقت اللازم للتقديم. حددت الوقت اللازم لى بساعة ونصف! ياللهول! كنت أرغب فى أن أشرح تاريخ الموسيقى المقارنة ين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فلا أقل من ذلك! بعدها تعلمت أن أكون مختصرا حتى لا يصيب الحاضرون الملل. فى المرات القادمة كنت أحدد ربع ساعة للعرض، وأترك وقتاً أكبر لتساؤلات الحاضرين، ومن خلال الإجابات أقوم بشرح ما لم أشرحه فى المقدمة، كان هذا أفضل كثيرا.

فراو هدى يوسف

لم تكن المعارضة والثورة بعيدة عن معهد جوتة. فراو هدى أبوها مصري ولكنها أخذت شكلها كله من أمها الألمانية، إلا إذا كان أبوها المصرى شكله ألماني، درست الإسلام فى جامعة برلين الحرة.بعد ان دخلنا وكنا نتوقع مدرسة مصرية كما يوحى اسمها لكننا فوجئنا بوجه ألمانى صرف،كانت فراو هدى فى منتصف الثلاثينات (هكذا خمنت!) مرحة بشكل لا يصدق، عرفت نفسها على أنها تحمل جوازي سفر، مصري والماني، وتتقن العربية باللهجة المصرية.

وفى شهر مارس كتبت فراو هدى على السبورة ٦ إبريل، وسألت من يعرف شيئا عن هذا التاريخ؟ لم يعرف أحد، قالت أنه ميعاد وقفة احتجاجية تضامنا مع عمال المحلة، تقوم بها منظمات المجتمع المدنى، وتساءلت أين نقودنا؟ ولماذا الشعب المصرى شعب فقير؟ وأننا يجب أن نسأل الرئيس حسنى مبارك عن ذلك! كانت تعرف نفسها على أنها نصف مصريه نصف ألمانية، فقد كانت حاصلة على الجنسية المصرية، ليس هذا فحسب، ولكن تتكلم مصرى بصورة ممتازة بالرغم من أن لغتها الأم هى

الألمانية، ولكن يبدو أنها عاشت فى مصرأوقاتا كثيرة،على أيه حال هى شخصية إجتماعية من الطراز الأول. كانت تقول دائما أن هذا هو ما حدث فى أوروبا فى عصر الثورات الأوروبية على الحكام الفاسدين، وأن المظاهرات دائما تبدأ هكذا، وأنه لا بد أنه سيكون هناك اعتقالات وهذه هي الضريبة! وأنه من المهم جدا أن يعرف المرء لماذا يتظاهر! فى البداية بدأنا نحن المشتركين فى الكلام بحذر، ثم زال الخوف وبدأ الكل فى انتقاد النظام والحكومة!

مرة حكت لنا أنها بعد أن زهقت من المعاكسات التى تتعرض لها فى الشارع، وقفت وقالت لمن يعاكسها أنها تعرف عربى أحسن منه ومن اللى خلفوه! وأن هذا لا يليق بالمصريين! قلنا لها وماذا كان رد فعله؟ قالت : أصابته السكتة!

فراو بيتينا فان دير فاى

فى نهاية المرحلة المتوسطة وبعد مناقشة مطولة عن تولى أوباما الرئاسة قلت إن الطريق ليس ممهدا كما تظن لكى يصلح أوباما أخطاء بوش قالت لى فراو بيتينا فان دار فاى" حضرتك كاتب "! تعجبت وسألتها" أنا؟" قالت" اكتب مقالا خاصاً بك واطلعنى عليه ".

كتبت مقالا بعنوان"" nun ist es passiert" وأقرب ترجمة له بالعربية هى :

" وقعت الواقعة"! أو بالعامية" ياداهية دقى"! والموضوع هو تولى أوباما رئاسة أمريكا.

حاولت بيتينا مرارا وتكرارا أن تشرح لنا الفن الحديث فى مجال الرسم من خلال أمثلة عملية. فى الكتاب المقرر كان هناك موضوع عن الفن، يتناول عدة موضوعات منها الرسام النمساوى *Gustav (1862-1918) Klimt*. الكتاب المقرر ينقسم إلى عشر وحدات تتناول كل وحدة موضوعا معينا مثل : الجريمة – العولمة – الفن... إلخ، فى الصفحة الأولى دائما ما يكون هناك رسومات ملونة بديعة تعرض الموضوع الأكثر أهمية، أو ما هو أكثر تعبيرا عن الوحدة. تعرض الصفحة الأولى لموضوع الفن لوحتين من روائع كليمت، وتنتميان إلى الفترة الذهبية فى حياته. الأولى اسمها Der "

Kuss"""" القبلـة" والثانيـة اسمها Die Sonnenblume """ عباد الشمس، ويوجد أربعة أسئلة :

١- صف الصورتين : الموزاييك – الزخارف – البورتريـة – سجادة الزهور – تقسيم الفراغ السطوح.... إلخ

٢- قارن بين الصورتين : أ- ما الذى يجمع بينهما؟

ب- أيهما أعجتك أكثر؟

٣- ما هو الموضوع (التميه) التى ترسمها الصورتان؟

٤- تكلم عن الفن فى حياتك : أ- مـاهى الصورة التـى تعلقها علـى جدران غرفتك؟

ب- متى زرت صالة عرض فنيه آخر مرة؟

ج – ما هى أهميه الفن فى حياتك؟

النسيج فـى الصـورتين هـو الزهـور، "عبـاد الشـمس" تصـف عبـاد الشمس، لكن" القبلة" تصف اثنين من المحبين يتبادلأن القبلة فى نسيج من الزهور، لا يمكن وصفه لجماله وإبداعه وهما نفسهما (العاشقان) مكونـان من الزهور، وهذه الصورة" القبلـة" هى من أكثر المبيعات ككارت بوستال فـى العـالم. الألـوان الذهبيـة أخـاذة خصوصـا أنـه كـان يسـتخدم بعض القطـع الذهبية الحقيقية فى الصورة، الزخارف تملأ الفراغ بشكل طاغ.

كـان هنـاك صفحتان تصفان جوستاف كليمت، فـى الأولـى صـورته وسؤال بجانبها : صف جوستاف كليمت (قبل قراءة الموضوع)، وصفته كشحاذ! الفصل كله غرق فى الضحك لأنه كان يبدو فى الصورة كهذا فعلا، يرتدى شيئا ما به فتحات كثيرة، وعبارة عن قماش أكثر منه قميص، ويحمل قطة بيده،ملتح وعيناه فيهما بريق شخص أبله! هكذا رأيت كليمت من خلال صورته فى الصفحة الأولى، بعد أن قرأنا الموضوع وجدت أنه شخص أقرب لما تخيلته!

الموضـوع عبـارة عـن وصـف حياتـه وأتيليهـة وبعـض المـوديلات، وأشـهرهم ماريـا أوسيسـكا وماريـا زيمرمـان التـى عرفـت ب" ميتسـى". أحضرت بيتينا معها مجلدا به صور لأعمال كليمت و قالت أنها وجدته فى مكتبة الديوان بسعر مائـة جنيه، وأعطت لكم منا فرصة بضعة دقائق كى يتصفح الرسومات ثم بدأنا فى القراءة.،

فى بداية حياته صور كليمت أعضاء العائلات، وبعد ذلك اتجه إلى تصوير Akt-Modelle الموديلات العاريـة، كلمـة Akt بالألمانيـة تعنـى

ملف (دوسيه) وأيضا تصوير الجسد العارى. ومن أعماله على هذا النمط صورة اسمها" الأمل" تصف امرأة حامل عارية.

على أية حال كان الموضع مفهوما سواء تعلق الأمر بالزهور أو بالجسد العارى، لكن الطامة كانت حين أحضرت بيتينا معها فى المرات التالية صورا للفن السريالى وغيره من أنواع الفن الحديث، الذى يجب على المرء أن يصفه حيث لا شىء واضح! مكعبات، مثلثات، داوئر، أنصاف كلاب وقطط، أجزاء آدمية متناثرة هنا وهناك.... إلخ والمطلوب من كل منا أن يشرح وجهة نظره وكيف يرى اللوحة!

- شريف: أرى أن نحدد أولا إذا ما كان هذا فن أم لخبطة!
- بيتينا : حسنا، حاول مرة أخرى أن تنظر للوحة وتحكى عن انطباعك أيا ما كان
- شريف : هل من الممكن لأى شخص أن يلخبط أى شىء على أى شىء ويقول أنها لوحة؟
- بيتينا : لماذا تصر على أنها لخبطة؟
- شريف : انا لا أستسيغ الفن الحديث، هذا هو كل ما فى الأمر!
- بيتينا : لو ركزت أكثرتستطيع أن تخرج بتفسير ما
- شريف : وما هى الفائدة من ذلك، أنا أرغب فى تعلم اللغة ليس إلا!
- بيتينا : حسنا، ولكنك أيضا يجب أن تتعلم ثقافة اللغة التى تدرسها
- شريف : وماذا أستفيد من ذلك؟
- بيتينا : حاول أن تركز فى اللوحة، ماذا ترى أعلى هناك......

من ذلك اليوم واكتشفت فى نفسى أننى معجب بفن التصوير والرسم خلافا لما كنت أعتقده، فى نفسى واشتريت من معرض الكتاب كتاب ضخم بالصور لثروت عكاشة عن الفن فى عصرالباروك، وكتابا آخر لنفس المؤلف عن الفنون الإسلامية.

فى آخر حصة بالكورس قرأت ل" بتينا" شعرا كتبته بعنوان "الوحش"، فأعجبتها القصيدة ورجتنى أن تحتفظ بها فقلت لها Gern" بكل سرور ". (الأصل الألمانى موجود بالملحق).

الوحش
مترجمة للعربية

وصلنا النهاية!
فتش فى الدرج
دع الزبالة مكانها ولا تتصرف كإنسان متحضر
الشيكات والأوراق المالية انتهت صلاحيتها
الوحش أسفر عن وجهه الحقيقى
العالم المتحضر تنتظره التغيرات
إنهم يمسخون الحقائق
فهل مازالت أموالنا تدعمهم؟
وقت السلم ولى
فتش فى أوراقك
وأنقذ فقط ما هو قابل للأنقاذ... لا تتصرف كإنسان متحضر!
من أعلى رءوسهم إلى إخمص أقداهم
أسلحتهم - ملابسهم – صدورهم تتفجر بالنياشين والمجوهرات...
حين أطلقوا أبشع الوحوش من مخبئه،
قفزت من السفينة فئران مذعورة.
أطرد الكلب من أمام الباب
وافزز ولدك من السرير
النهيبة تهرب!
صافى مرتبك غير قابل للحساب الآن
وأنت..
أنت لا تملك الوقت كى تراجع موقفك
رأس المال لاذ بأمه
إنهم يزيدون فى أعداد فرقهم العسكرية
الموضوع انتهى..!

إنه حر طليق
فى الخارج هو،
يبكى ويضحك لكنه دائما يعض
ليس له والد ولا ولد
- ما معنى هذا كله؟ هل هو وحشى جدا؟
- ....!
فلتحاول الهروب مرة
صافى مرتبك غير قابل للحساب
لا تدر الأمر فى رأسك
بل أطح بأفكارك فى الهواء
لاتحاول مباشرة المشاكل
بل دوما ودوما تجاهلها
فقط يستطيع المرء حمل أشياءه الصغيرة وحده
من الممكن أن تنصرف الأن، راشدا...!
متخطيا الحواجز يقبع فى الخارج
لقد أغروه بالخروج من مخبئه
لقد أغروه
أنه يأتى كما لم يسبق له من قبل
إنه يأتى!
الموضوع انتهى، وصلنا النهاية......!

٢٣ -٢-٢٠١٠

كانت سعادتى بعد الانتهاء من تلك القصيدة مضاعفة، فهى من ناحية تظهر تمكنى لحد ما من اللغة الألمانية، ومن ناحية أخرى تناولت فيها قضية عالمية معاصرة وهى :" عسكرة العالم ونتائجة الكارثية" وهو موضوع جديد بالنسبة لى.

كان المعتاد فى المستوى المتقدم أن يقوم مشتركو الكورس بعمل Presentation وهو ما ساستخدم كلمة "عرض" للتعبير عنه بالعربية. اخترت شخصية تاريخية هى زرياب الموسيقي والمغني، وصانع الموضة ودار بيننا الحوار التالى :

- هل أستطيع أن أحضر العود معى؟
- بالتأكيد، بكل سرور! كم من الوقت تحتاجه؟
- نصف ساعة.
- هل يشمل هذا العزف على العود؟
- نعم.
- Bis dann إلى اللقاء
- Bis dann إلى اللقاء

تعلمت اللغة على يد الألمانيات، تفرق كتير، ذكرنى ذلك بإبن حزم الأندلسي الذى ذكر فى كتابه "طوق الحمامة فى الألفة والألآف" أنه تربى على يد الجواري والمربيات، لذا فهو يفهم طباع النساء جيدا وما يعتريهن من أحوال. لحظات أتصور تصورا خاطئا وهو أنه لا يستطيع أن يدرّس اللغة الإلمانية إلا النساء! طولة البال والروح المتفائلة بالحياة وحب العمل،كل ذلك يجده المرء بصورة أفضل عند النساء عموما فى كل أنحاء الدنيا. إنها الأمومة والحنان الفطرى الذى غرسه الرب داخلهن، وتأصل فى فطرتهن على مر السنين! لو أن حواء لم تخرج آدم من الجنة لما فكر أبدا فى أن ينجب الأولاد، لا أتذكر أين قرأت ذلك ولكنه حقيقى!

كتب ابن حزم كتاب" المحلّى" (بضم الميم) – وهو كتاب فقهى، ويعد من أعمدة الفقه الظاهرى - و يختلف عن فقه المذاهب الأربعة، و كذا يختلف عن فقه المدرسة السلفية التى تتبع منهج ابن حنبل - ابن تيمية - محمد بن عبد الوهاب.

بدأت أعد المادة العلمية التى سأستخلص منها ربع ساعة للعرض القادم. كانت معلوماتى عن زرياب هى النواحى الموسيقة، والتى تتلخص فى إسهامه بإضافة وتر خامس للعود، وأنه أسس مدرسة فى الأندلس – أسبانيا حاليا – لتعليم الغناء والموسيقى، وأنه وضع اكثر من عشرة آلاف لحن ضاع معظمها، كعادة الحضارة الإسلامية فيما يتعلق بالأنجاز الموسيقى، أيضا كنت أعرف مسبقا أنه بعد أن أسس مدرسته ولقى إقبالا منقطع النظير، عمت وفشت المدارس الموسيقية فى أنحاء الأندلس، بحيث أن شهرتها طارت

للغرب المتخلف، فجاء الأمراء والطلاب من انجلترا وفرنسا و جميع أنحاء أوروبا، حتى وصل عددهم إلى سبعمائة طالب! كى يتعلموا العلوم الموسيقة الجديدة، و يتنسموا هواء الثورة التى أحدثها زرياب فى تاريخ الموسيقى. بعد أن تعلموا الموسيقى والغناء والرقص فى مدارس الأندلس ورجعوا إلى بلدانهم، كانت الثمرة الأبرز هى" الشعراء الجوالين" أو" التروبادور ".

أول ما ذكرت" التروبادور" شهقت بتينا، كانت مثقفة من طراز رفيع، طالما تحدثنا عن الموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الاثنى عشر تونا، مرة أتت بموسيقى باروك سامية، قالت إنها تسمعها أحيانا قبل النوم. أطفأت الأنوار وصدحت الموسيقى،أرادت أن نشاركها فى الاستمتاع بها. لم تصدق نفسها أن التروبادور كانت نشأتهم كثمرة من ثمار المدارس الموسيقية الأندلسية.

نشأ زرياب - لغويا تغنى الطائرالأسود المغرد - فى بغداد وتعلم الموسيقى على يد ابراهيم الموصلى، ثم ابنه اسحق الموصلى، عاش فى زمن الخليفة الهادى ثم هارون الرشيد. فى ذلك الوقت تجمعت فى بغداد — عاصمة الخلافة الإسلامية - ثروات مادية ومعنوية هائلة، كنوز الأرض، ثقافات وحضارات تمازجت ولقح بعضها البعض فى تلك الفترة الزمنية العجيبة وفى ذك البلد الأعجب. كل ذلك كنت أعرفه إجمالا، لكن ما إن بدأت أجمع التفاصيل حتى انتابنى الذهول! يبدو أن مطربي عصرنا الذين" يكسبون الملايين" كانوا موجودين أيضا هناك...

تشبع زرياب بالمزيج الحضاري الآتي من بلاد فارس، والحضارة الرومانية، والحضارة المصرية المتجمع والممتزج فى بغداد، وذهب به للأندلس، فأثمر ذلك المدارس الأندلسية فى الموسيقا والغناء، الحضارة الإسلامية من وجهة نظرى هي" الحضارة الوسيطة" كما سميتها فى العرض، لأنها صنعت من نفسها جسرا نقل العالم من الحضارات القديمة إلى الحضارة المعاصرة التى نحياها الأن.

الجديد الذى عرفته عن زرياب ولم أكن أعرفه أن إنجازه لم يقتصر فقط على المجال الموسيقى لكنه تعداه للموضة والأيتكيت والأزياء! قدم زرياب للأندلس فوجد أمراءها وعلية القوم يأكلون الطعام كيفما اتفق، فنقل لهم ما كان الحال عليه فى بغداد، البدء بالشوربة ثم اللحوم والسلاطة والأنتهاء بالعصير والفاكهة! أيضا علم زرياب النساء أنه لابد أن يحرصن على أن تكون لهن مناديل تختلف عن تلك التى يستعملها الرجال، أدخل للأندلس طلاء الأظافر والروائح وأنواع الأقمشة، أصبح المرء وقتها ينظر

كيف يمشى زرياب،كيف يأكل زرياب، كيف يصفف شعره، كيف وكيف......ألخ. بالتأكيد كل ذلك يحتاج لمراجعة وتأريخ من المتخصصين لكن تظل الفكرة صحيحة أيا من كان هو السبب فى نقل حضارة العالم التى تركزت فى بغداد إلى الأندلس.

بعد أن انتهيت من العرض قدمت فاصلا موسيقيا لآله العود، مع شرح بسيط لمكوناتها وبدأت الأسئلة التى فى معظمها كانت عبارة عن دهشة كبيرة، وأسئلة عن الحضارة الإسلامية، وكيف أخذ الغرب عنها الأفكار الرئيسية فى الموسيقى والشعر، واحترام المحبوبة والغزل فيها .

فتح هذا الموضوع لى بابا واسعا لدراسة التاثيرات المتبادلة بين حضارتنا وحضارة الغرب، ومن بعدها أصبحت أكثر اهتماما بذلك الموضوع فى المجالات المختلفة مثل الفنون وعلوم الطب والكيمياء والفيزياء...إلخ

فراو كاترين

مع فراو كاترين أخذت كورس يسمى" نحو وكتابة "، كى أحسن من قدراتى فى الكتابة والنحو، كان مطلوبا من كل واحد أن يختار موضوعا ويكتب عنه فى المنزل وهى تصححه، أخترت موضوع : اصطياد الذكريات" مذكرات طالب يتعلم اللغة الألمانية" المهم اننى كتبته على ثلاثة أجزاء، فى كل مرة كانت فراو كاترين تصحح الأخطاء اللغوية دون ملل، وتطلب منى ان أمكث بعد انتهاء زمن الحصة فترة وجيزة تسألنى فيها" ماذا تقصد بهذه العبارة؟"، ثم تقول لى" بالألمانية يقول المرء كذا وليس كذا ".

المشكلة أن المرء يفكر بالعربية ثم يترجم ذلك للغة أخرى، أحيانا تكون العبارة مضحكة، وأحيانا غير مفهومة. وعلى هذا بدأت أهتم بأن أبحث عن التعبير الأصلى باللغة الألمانية نفسها، وهو ما بدأت فيه مع بداية المستوى المتقدم. شعرت بفائدة هذا الكورس فكررته أكثر من مرة بالرغم من أنه كورس حر، يعنى أنه لا يوجد فى نهايته امتحان ولا نجاح و لارسوب ويمكن للمرء أن يحضره بعد مستوى معين، كان العامل الحاسم فى إعادة ذلك الكورس هى فراو كاترين نفسها، إذ أنها كانت متفانية بكل ما تحمله الكلمة من معنى فى توصيل كل ما تعرفه لنا.

بعد أن حضرنا فيلم" البرفان" معها تسأل فروا بيتينا عن الأنطباعات الأولى، ثم يتدرج الحديث إلى تفاصيل الفيلم، ثم فجأة يسألها أحد الحضور إذا ما كانت قد لاحظت خروج الفتاتين الموجودتين ولم يكملا الفيلم؟

فراو كاترين : نعم لاحظت ذلك

- : هذا بسبب أن جرينوى كان يعري الفتيات بعد أن يقتلهم كى يستخرج الدهن!
- أخ! بجد، هل خرجتا من أجل ذلك؟
- نعم، طبعا، هل ترين العري فى الفيلم أمرا عاديا؟
- نعم،لأنى تفرجت على أفلام أكثر من ذلك بكثير فى ألمانيا وهو هناك شىءعادى!
- لكنه هنا ليس كذلك! هل ستعرضين ذلك الفيلم مرة أخرى؟
- لا أعلم.

أكملنا النقاش إلى آخره وخرجت بعدها وأنا أسال نفسى : هل المجتمع هو الذى يضع الحدود أم أن هناك حدودا تصلح للجميع؟.

حدثتنا فراو كاترين أنها أول ما جاءت لمصرجلست فى حديقة وفى يدها كتاب تقرأ فيه كما تعودت فى ألمانيا، اندهشت لأن الكل بدأ ينظر لها ولم تفهم لماذا!

فى الحقيقة أفادنى تعلم اللغة الألمانية فائدة جمّة،فبالإضافة لما ذكرته من قبل من متابعتى للتلفزيون الألمانى استطعت أن أفتح النت أو الموبايل واقرأ يوميا جريدة Sueddeutschezeitung أو غيرها لمعرفة آخر الأخبار العالمية. كان مهما أن أعرف كيف يرى العالم نفسه وكيف يرانا، وأيضا هناك من المشكلات الحيوية التى لا تهتم بها جرائدنا المصرية، التى قاطعتها أيضا، كما قاطعت التلفزيون المصرى حتى بدأت الثورة، فعدت أقرؤها ثانية فالشأن المحلى طغى على الجميع بعد الثورة، ولا يزال حتى وقت كتابة هذه المذكرات.

الليبرالية الإسلامية

بعد أن استعرضت السنوات الثلاثه التى قضيتها فى تعلم اللغة الألمانية بمعهد جوته قسم اللغة، أرجأت سرد الواقعة التى من خلالها

اكتشفت التحول عن فكرة الإسلام السياسى إلى الليبرالية الإسلامية، والذى تمت داخل نفسى بهدوء و تفكير عميق على مدار السنوات، وحان عرض الظروف التى تمت فيها الأن.

فى حصة محادثة كانت المدرسة الأصلية غائبة لمدة أسبوعين فدخلت لنا فراو نادية حمزة بدلا منها، مصرية أمها ألمانية، ودرست فى المدرسة الألمانية ثم فى كلية آداب القاهرة على ما أذكر. كان الموضوع هو العمل وشروطه والوظائف التى تدر ربحا أكثر من غيرها، وماذا يمكن أن يفعل المرء حتى يرفع من دخله.....إلخ استمرت المحادثة كالمعتاد، ثم فجأة تحول الحديث إلى الصراحة التامة،وبدأ كل من فى الكورس يعبر عن مشاعره، الحقيقية إزاء ضآلة فرصهم فى سوق العمل فى مصر، وآخرون يصرحون برغبتهم فى الهجرة من مصر و...هكذاظللت صامتا أستمع فكل الموجودين فى الكورس فى عمر أبنائى وكنت أرغب فى سماع رأى الجيل الجديد. بعد أن انتهى الجميع سألتنى فراو نادية عن رأيى فقلت :

- كل ما قاله زملائى فى الكورس صحيح، ولكن دعونى أذكركم بأن الأوضاع خارج مصر ليست مثالية، سواء كانت دول عربية أم أوربية، وأن العامل الاقتصادى له الأولوية عند الشباب، هذا لا شك فيه، لكن أرجوكم لا تظلموا مصر تحت تأثير عامل الاقتصاد، المميزات التى تجدونها فى مصر لا تجدوها فى بلد آخر.كان معى بالمصادفة كتاب فى الشنطة)، أخرجت الكتاب وواصلت حديثى :، هذا الكتاب اسمه" زوجى مصرى "، تتحدث فيه المؤلفة عن تجربتها وتجربة ١٥ ألمانية تزوجن من مصريين. معظم الأزواج وبعد رحلة عمل طويلة فى ألمانيا يفضلون العودة لمصر، مع زوجاتهم الألمانيات بعد تحقيق الاستقرار الاقتصادى، وقضاء الوقت المتبقى من عمرهم فى مصر. واحدة ألمانية لم تتحمل الإقامة فى مصر بعد أن أنجبت ابنا وبنتا، وهى تستعد للرحيل إلى ألمانيا سألت ابنها إذا ما كان سيرافقها فى رحلتها للعودة للبلد الأم؟ ودار بينها الحوار التالى :

الابن : لا، سوف أواصل حياتى هنا

الأم : لماذا؟

الابن : لأن هذه البلد لها روح!

واختتمت كلامى بأن قلت لهم إن من سوف يسافر منهم للخارج سوف يظل يحمل مصر داخل قلبه، ويشتاق للعودة لها، وسوف ينسى سيئاتها.

صدّقت فراو نادية على كلامي وقالت لهم إنها يمكنها بسهولة أن تسافر للعمل بألمانيا، لكنها فضلت مصر لأن ميزاتها أكبر من سيئاتها، ثم رجتنى أن أعيرها الكتاب لتقرأه.

عدت للمنزل وأنا أستغرب من نفسى، تذكرت يوم أن كنت فى فرنسا مع المصريين وهم يسمعون أغنيه صباح" سلموا لى على مصر سلموا لى" وكيف انهمر من بعضهم دموعه، وكيف تأثر الكل ما عدا أنا، فسألتهم علام التأثر؟ وهل إذا كانوا رأو فى مصر خيرا، هل كانوا تركوها وأتوا هنا كى يبحثوا عن عمل؟ وكادت تحدث مشكلة لولا ستر الله.

تعجبت وسألت نفسى، هل حقا تغيرت ودفاعى عن مصر هو دفاع حقيقى، أم هى من تأثير اللحظة الحاضرة؟سألت نفسى،هل نسيت هكذا كل المتاعب التى لاقيتها والتى ألاقيها هنا، فى مصر؟ لماذا لم أشاركهم فى الهجوم على مصر كما كنت أفعل فى السابق؟ ساعتها أدركت أن الموضوع أكبر من مصرومشاكلها، فمع أن كل ذلك حقيقى فالموضوع يتعلق بالأمية الإسلامية التى كانت تقف بينى وبين أن أرى محاسن مصر على حقيقتها، وحتى تلك الأمور التى لا يمكن الدفاع عنها مثل ما أثارنى سابقا من تأييد قطاعات من الشعب المصرى(بالرأى) لصدام حسين وغزوه الكويت أو بن لادن وهجومه على برجي التجارة فى أمريكا، بعد هذه الحصة وبعد أن عدت للمنزل أخذت أفكر فى دلالة ما حدث، إن أى شعب فى العالم عرضه للتضليل، وليس معنى هذا أنه لا أمل فيه، بل يعني أن هناك مزيداً من الجهد يجب أن يبذل من أجل توضيح الحقائق، وأن قيادات هذا الشعب عليها أن تتحمل مسئوليتها الفكرية والتنويرية، وأن عبئها قد أصبح مضاعفا بعد تولى مجانين الحرب رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

لا مفر من الاستطراد فى هذه النقطة حتى تتضح على حقيقتها : موضوع الخلافة الإسلامية. لا يمكن لمكابر أن يعارض حقيقة أن جميع الدول العربية مدينة لنظام الخلافة الإسلامية الذى بدأ يوم خروج العرب حفاة رعاة الشاه من أراضيهم ليفتحوا البلاد وينشروا الدين الجديد، لم يكونوا ملائكة، ولكن يمكن لكل ذى عينين أن يقارن بين الفتح الإسلامى، وألوان أخرى من الاستعمار الفارسى والبيزنطى وأخيرا الأوروبى، ويحكم بنفسه، هل كان الفاتح الإسلامى يستأثرلنفسه بخيرات البلد على نمط الفتوحات الأخرى، أم

أن الفاتح الإسلامى كان بحق أرحم الفاتحين كما قال كبار دارسى التاريخ المنصفين؟ كنت ومازلت على الرأى القائل بأن الدين هو الذى أعطى هذه الأرض شكلها فى هذه المنطقة، وجلب لها الخير والتقدم، هذا فى المحصلة الأخيرة، مع الإعتراف الكامل بكل سوءات الفتح، ونزعات الأثرة واستغلال الآخرين التى لا يمكن أن أدافع عنها حتى ولو كان الثمن هو نشر الدين، لا يمكن تبرير الخطأ لأنه فقط إسلامى. هذا ما تعلمته من القرآن. لكن كما أسلفت يجب أن يرى المرء المحصلة النهائية وليس فقط الأخطاء.

ضعفت الخلافة ودخلت الدول الإسلامية فى مرحلة الجمود والتخلف، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه أوروبا نهضتها وحضارتها بعد أن تمثلت وهضمت العلوم والفنون الإسلامية فى كل مجال. هذه الأخيرة- الحضارة الإسلامية - كانت قد هضمت وتمثلت كل العلوم الطبيعية (هندسة – رياضة – طب – فلك – جغرافيا.. إلخ) و قليل من الفنون فى الحضارة الإغريقية مثل الموسيقى، ترجمت أوروبا لكل ذلك وحفظته، ثم بدأت فى الإبداع والنقد والتعديل والتفوق عليها بعد ذلك. شأنها شأن كل حضارة دخلت الحضارة الإسلامية مرحلة الضعف فى العصر العباسى الثانى و المرحلة العثمانية فى نفس الوقت الذى بدأت فيه دورة النهوض الحضارى الأوربى.

مرضت الخلافة العثمانية و شاخت ووصلت لنهايتها، وأطلق مصطفى كمال أتاتورك عليها رصاصة الرحمة. لا مفر من الاعتراف بان الوطنية المصرية بدأت فى التشكل مع محمد على شيئا فشيئا بدرجات متفاوته - بعيدا عن الخلافة العثمانية، أو بالقرب منها، ولها كل الحق فى ذاك وذاك. لم تنفرد مصر من بين كل الدول الواقعة تحت الخلافة بالاستقلال، بل لم يكن أمام كل دول الخلافة طريق آخر، لكن مصر لها خصوصيتها فى نمو الشعور الوطني مبكرا.

كل ذلك معروف وليس فيه جديد، ولكن الجديد (القديم فى نفس الوقت) أن زعماء الدولة الوطنية بعد الاستقلال ارتكبوا كل السوءات المتوقعة وغير المتوقعة بحق مواطنيهم،حتى انتهوا بالتفريط فى الأرض بشكل مأساوى، وكما يقول المثل الفلاحى" الأرض عرض "،وكما فهم المسيحى الشيوعى اللبناني المصري، وأخيرا المسلم المتصوف الشاعر فؤاد حداد العلاقه بين الأرض والدين فقال فى " المسحراتى ":" من حمى لى الدار حمى دينى"، وايضا غني له سيد مكاوى :" الأرض بتتكلم عربى تقول الله .. إن الفجر لمن صلاه .."

الدين ليس فقط شرائع ومحرمات، بل هو أيضا هوية وأرض ومكتسبات على مر التاريخ. هل أتكلم عن التاريخ أم أتكلم عن نفسى؟ فى الحقيقة وفى هذه النقطة بالذات لا يمكن إلا أن يرى المرء نفسه من خلال مرآة التاريخ، فالهوية ليست بنت اليوم فقط، وليست وليدة التاريخ المحدود الذى عاشه المرء. فى النهاية لم يكن أمامى بد من الاعتراف بالحق المصرى، للمفكرين والشعراء والأدباء، منذ بدأ محمد على فى الاستقلال بمصر عن الخلافة الإسلامية، فى الإحساس والتعبير عن الهوية المصرية،منذ عهد مصر القديمة - والمعروفة بمصر الفرعونية - دون أن يعنى ذلك عداء الإسلام نفسه، هذا إذا غضضنا الطرف عن المبالغات والتحيزات الظالمة، وهذه الأخيرة بالذات هي التى شوهت صورة الوطنية المصرية، أقصد أولائك الذين لم يستطيعوا أن يفرقوا بين التخلف الحضارى، الذى هو مرحلة عارضة فى حياة الأمم، وبين الإسلام.

يوم أن غزت أمريكا أفغانستان ثم العراق ووقفت إيران تتفرج، بل وقامت بتسهيل الغزو لم أتفاجأ، فقد تبنيت بعد أن خرجت من المعتقل بعدة سنوات أنها تحولت لدولة قومية، ونسيت كل شعارات الأمية الإسلامية التى انطلقت مع بداية الثورة الإيرانية.! راجعت فكرة أن الأممية الإسلامية هى الحل لتقدم الدول الإسلامية- وهى فكرة كلاسيكية فى الإسلام السياسى -، فما الذى يمنع من تكرار ما حدث في إيران، فى حالة قيام دولة إسلامية فى مصر تتبنى شعار الأممية الإسلامية؟ الجواب كان هو دولة وطنية ديمقراطية تحترم الإسلام، ترعى مصالح مواطنيها أولا، لا تتنكر، بل وتتعاون تعاونا صادقا مع البلدان الإسلامية، ولكن ليس على حساب مصالحها ومصالح مواطنيها.

الأممية الإسلامية التى كنت أؤمن بها قد انتهت من عقلى، وأصبحت مصر ''اختيار'' وليست مجرد وطن أعيش فيه بعدها صارحت نفسى، لايمكن أن تؤمن بالإسلام السياسى العابر للأوطان بعد الأن، وقتها قلت : أنا ليبرالى ولكني لا أومن بكل ما تقوله الليبرالية الغريبة لأنى مسلم، إذن أنا مسلم ليبرالي، هذا هو تعريفى لنفسى، ولن أقبل بعد اليوم مغامرات إسلامية مثل التى حدثت فى السودان أو الصومال أو باكستان. هذا هو تسلسل الأحداث كما وقعت.

لا أرغب فى الدخول فى مناقشات حول الخصخصة التى تم تطبيقها بلا شفافية أو رقابة، لأن ما تم تطبيقه فى عهد مبارك هو شعبية مزيفة تهدف لسرقة البلد لصالح حرامية متنكرين فى ثياب رجال أعمال، تماما كما

كان عبد الناصر يطبق اشتراكية مزيفة، لا تهدف فى النهاية إلا إلى إمساك السلطة بيد، والثروة بيد أخرى ولا علاقة للموضوع لا بالفلاحين ولا بالعمال إلا بالقدر الذى يساعدونه فيه على أن يصبح غولا كبيرا. بالنسبة للسادات فالموضوع مختلف، فقد استلم البلد من سلفه وهى خرابة، ولكن بعد الحرب الناجحة والأنتصار العظيم والوحيد فى ٧٣، كان أمامه فرصة لتطبيق نظام اقتصادى ليبرالى ناجح لولا أن تفكيره كان منصبا على ذاته، وعدم ثقته لا فى الشعب ولا فى القوى الوطنية شأنه شأن سلفه وخلفه. لا يمكن تطبيق نظام اقتصادي ليبرالى ناجح بلا رقابة شعبية حقيقية وتداول حقيقى للسلطة، وهو ما لم يكن السادات مستعدا له بحال من الأحوال.

لا يمكن أن أثق فى القطاع العام إلا فى حالة واحدة فقط، أن يرزقنا الله بأناس أطهار يديرونه لنا بالاشتراك مع عقول اقتصادية تعرف معنى المغامرة، وفتح الأسواق الخارجية والداخلية، وتمتلك خيالا وصلة بالواقع ومتطلباتة. الدولة المصرية لم تكن فى يوم من الأيام سوى تاجر فاشل وصانع فاشل. دور الدولة الحقيقى هو تنظيم العلاقة بين كل فئات المجتمع مع أولوية حق الفقراء، والالتزام التام بمبادىء العدالة الإجتماعية لكن من خلال نظام اقتصادى ليبرالى، إقتصاد السوق المقيد بمصلحة الوطن، وهذا يختلف تماما عن الليبرالية المتوحشة، أو ما يعرف بالنيوليبرال،وأيضا يختلف عن الإقتصاد الإشتراكى والقطاع العام.ليبرالية يمكن أن تدمج بداخلها بعض ملامح اليسار، لكنها تظل ليبرالية، هذا تلخيص لوجهة نظرى بعد أن بحثت كثيرا فى أصول الإقتصاد الإسلامى، وفى الحقيقة لم أجد ما يمكن تسميته اقتصاد إسلامى، ولكن توجد مبادىء عامة تحمى الملكية الخاصة وتشجع التجارة الحرة والتبادل، فى نفس الوقت الذى تضع فيه مصلحة المجتمع نصب عينها، ولكنها ليست نظرية، هى مجرد مبادىء عامة.

لا أجد نفسى مجبرا على التذكير بأن المحرمات الاقتصادية فى الإسلام لا تصنع نظرية اقتصادية، وهذا بالمناسبة مرونة من الإسلام وليس عيبا، العيب فينا نحن الذين نصر على إطلاق اسم إسلامى على كل شىء فى الحياة ونحب أن نكون ملكيين أكثر من الملك.

(ملحوظة سريعة ومهمة جدا وبين قوسين فيما يتعلق بالليبرالية السياسية : الدستور الذى تكتبه جيمع طبقات الشعب والأحزاب، و مجلس الشعب،والانتخابات، وتحديد مدة الرئاسة، والفصل بين السلطات و النقابات والمجتمع المدنى ووسائل الإعلام الخاصة، وكل ما تتخيله من مظاهر الحياة

الديمقراطية التى بدأناها بعد ثورة عرابى، وما زلنا نتعثر فيها حتى الأن، ما هى إلا مصطلحات وأنظمة ليبرالية وليست إسلامية ولا اشتراكية. سواء الإسلامية السلفية أو الاشتراكية السلفية، وجهة نظر كليهما البحتة والتقليدية و التاريخية، أن كل هذه الأمور ما هى إلا ضلالات وانحراف عن الإسلام إذا كنا إسلاميين سلفيين تقليديين ، أو سرقة لعرق الطبقة العاملة إذا كنا اشتراكيين تاريخيين !)

تعد البنوك هى عصب العمل المصرفى، والإقراض والإقتراض هما دعامتا عملها وسبب وجودها الأساسى. هذه العملية يعتبرها التفكير الإسلامى الكلاسيكى" ربا ". لا شك أن الربا محرم فى الإسلام بلا جدال. ولكنى سألت نفسى مرارا وتكرارا - وما زلت - هل تعريف الربا بأنه كل قرض جر فائدة، هل هذا التعريف هو تعريف فقهى أم جاء فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم؟ هل مقصود القرآن هو تحريم القروض التى تؤدى إلى الضرر الأكيد أم هو تحريم كل قرض جر فائدة بغض النظر عن الضررو النفع؟

لقد جاء فى تحريم الخمروالميسر مثل هذا التفصيل، أى ما معناه أن فيهما نفع وضرر وضررهما أكثر من نفعهما، والمنطق يقول أن القرآن يتحدث عن النفع الإقتصادى لفئة من الناس (التجاروالذين يعملون فى القمار) ولكنه ينظر للضرر الأكبر(العداوة والبغضاء)، وعلى هذا كان التحريم، وبذلك فيما أتصور وضع قاعدة لتعريف الحرام، وهى غلبة الضرر،، وعلى ذلك يمكن أن نفكر نحن في المعاملات التى يغلب عليها الضرر والأخرى التى يغلب فيه النفع، حتى نستطيع أن نصنف نشاطا اقتصاديا يعمل بنظام الفائدة ما إذا ما كان داخلا فى تعريف الربا أم لا.

إذا وضعنا المصلحة نصب أعيننا كما فعل عمر وكما قال الإمام الطوفى الحنبلى (فى المعاملات وليس فى العبادات)، سنجد أن صندوق النقد والبنك الدوليين أدت قروضهما فى معظم الحالات لضرر أكيد، ورهنت البلاد التى أقرضوها لصالح الدول الكبرى، هذا لا شك فيه، وهذا ضرر بالغ وإذا تم تصنيفه على أنه يدخل فى تعريف الربا الذى كان يؤدى فى الماضى لاسترقاق المقترض، أو يؤدى فى الحاضر لاسترقاق الوطن ، سأؤيد ذلك بلا تحفظ. . على الناحية الأخرى هناك تجربة محمد يونس فى بنجلادش وبنك جرامين، وهو البنك المعروف باسم بنك الفقراء، ويهدف لإقراض الفقراء بفائدة بسيطه وشروط ميسرة، وحقق إنجازات رائعة وأنقذ الملايين من التشرد والموت جوعا أو الأنخراط فى تجارة المخدرات وبيوت الدعارة.. هل

هذا البنك ينطبق عليه تعريف الربا؟ النوع الثالث من البنوك وهى منتشرة فى كل مكان، تقترض الأموال وتعيد إقراضها مرة أخرى بفائدة. أنا لست متخصصا فى الإقتصاد حتى أوازن بين الأضرار والمنافع فى تلك البنوك وتأثيرها على اقتصاد الدولة والعمليات الإقتصادية البحتة مثل التضخم والأنكماش وسعر الصرف، لكن بالنسبة للأفراد فأهم شىء هو ضمان أموالهم واستفادتهم من الإدخارفى البنك وإلا فسيبحثون عن عقارات وأراضى أو ذهب أو أى أصول ثابتة لن تفيد المجتمع وسيؤدى ذلك تلقائيا لرفع أسعارها عن السعر الحقيقى وتضرر الفئات الأضعف : الباحثى عن السكن ومشترى الذهب من أجل الزواج والشبكة... أو فى النهاية : تحت البلاطة!كل ذلك يعنى تجميد الأموال ولا يمكن لعاقل أن يقول بأن الإسلام حريص على إبطاء النشاط الإقتصادى.

يمكن أن نضحك على أنفسنا ونستخدم الحيل وما أكثرها، مثلا أن نقول أن البنك سيقرض الأموال بلا فائدة على أن يعيدها المقترض كما هى بعد شهر واحد، وبعد ذلك تكون هناك غرامه كذا فى المائة شهريا على التأخير، وبذلك نستبدل مفهوم الفائدة بمفهوم الغرامة..! أولا وأخيرا لن تكون تلك الحيل سوى حيل..!

المبدأ العام الذى أقترحه للمناقشة هو الموازنة بين المنفعة والضرر واعتبار الفائدة ربا إذا تحققنا بوساطة المتخصصين من أن ضررها أكبر من منفعتها والعكس بالعكس. مجرد اقتراح للمناقشة.

على كل حال لا يوجد عندى اعتراض إذا تم اختراع بنوك إسلامية لا تتعامل بالفائدة ولكن حتى الآن لم أشاهد مثل هذه البنوك ولا أعرف كيف تعمل، هل ستدخل فى شراكة مع المقترضين؟

هناك مبدأ إسلامى أصيل وهو الوقوف بجوار الضعيف قبل القوى، فى أى مجال سواء اقتصادى أو غيره، ولاشك أن المودعين هم الطرف الضعيف، فما هى الضمانات حتى لا تتبخر أموال المودعين؟ حتى يتحقق ذلك النمط من البنوك الإسلامية أرى أنه - وحتى إذا تم الإتفاق على تعريف أى فائدة على أنها ربا بغض النظر عن النفع والضرر- يجب أن لا يتم تصفية البنوك التى تتعامل بنظام الفائدة إلا بالتدريج وبعد أن تثبت البنوك الجديدة جدارتها وإلا أوقعنا أنفسنا والمجتمع فى مصيبة لا يعلم مداها إلا الله. فى كل الأحوال وأيا ما كان التعريف الذى سنسير عليه، فى المبدأ الإسلامى الضرورات تبيح المحظورات متسع ورحمة.

بعد أن انتهيت من الكورس لخصت لنفسى بعض النقاط التى راجعت فيها بعض مبادىء الإسلام السياسى :

النقطة الأولى هى أن الإسلام السياسى يرى أن الدول والمجتمعات الإسلامية الحالية ما هي إلا دول، ومجتمعات كافرة أو منحرفة عن الإسلام، وعليه فلا بد من إقامة دولة إسلامية. ما توصلت له وقتها أننا فعلا دول وشعوب إسلامية وعلى هذا فلا معنى للسعى لإقامة دولة إسلامية.

النقطة الثانية هى أن الإسلام السياسى لم يكن يعنى الحكم فقط، لكنه يعنى أسلمة العلوم والفنون وجميع مجالات الحياة، هذا ما تخليت عنه لأن المفهوم خاطىء، ليس معنى أن هناك علم أو فن غير إسلامى أنه معاد للإسلام، وليس معنى العلم والفن الإسلامى الذى تم إبداعه من المسلمين أنه متفق مع الإسلام تلقائيا وبدون نقد.

النقطة الثالثة الإسلام السياسى الذى تخليت عن أجزاء كبيرة منه هو الصراع الدائم مع الغرب، وكل ما ينتمى له من قيم ومبادىء وفن وعلم..إلخ، فى الماضى كنت مع ذلك الصراع، وكنت أتصور أنه سيأتى اليوم الذى سنتعلم فيه هندسة إسلامية، ونستمتع فيه بفن إسلامى، ونعالج أنفسنا بطب إسلامى، أما الآن أرى أن كل ذلك كان خطأ من البداية، فكثير جدا من كل ذلك يتفق مع الإسلام ومبادئه. أما الصراع من الناحية السياسية فالسبيل هو الطرق السلمية، واستغلال مساحة الديمقراطية الواسعة والحقيقية الموجودة بالغرب لتحقيق مصالحنا. طبعا أمريكا موضوع معقد لأنها امبراطورية وليست دولة، لكن أيضا نحن المقصرين، فلا يوجد لنا لوبى عربى إسلامى ليقاوم النفوذ الإسرائيلي هناك، ومن ناحية أخرى نحن الذين نسلم أمريكا مفاتيح بلادنا ولا نسعى للاستقلال الفعلى عنها.

بعد أن نستنفذ كل الوسائل السلمية، وبعد أن نعيد بناء اقتصاد قوي قادرعلى أن يقف وراء الإرادة السياسية وبعد أن تكون عندنا ديقراطية حقيقية، وعلاقة سوية بين الشعوب والحكام، ويثق كل طرف فى الآخر، بعد كل ذلك، وفى حالة فشل كل ذلك فى الحصول على حقوقنا كشعوب إسلامية وعربية، نفكر فى الحرب، أما أن نبدأ بالتفكير فى الحرب دون أن نمتلك من الأمكانيات والمؤهلات لها فذلك يعنى أننا نكتب على أنفسنا الهزيمة قبل أن ندخل الحرب.

فى كتابه" الإسلام دين المستقبل" كتب جارودى : "... وفضلا عن المتاهات والضياع الفكرى والفراغ الروحى الذى يعانيه الغرب، فمهمتنا هى أن نعيد الحوار بين الشرق والغرب ". رجعت لهامش الكتاب فوجدت كتابتى

على الهامش بجوار تلك الفقرة فى أول مرة قرأته فيها :" هذا فى المجال الفكرى صحيح،أما فى السياسة فلا حوار بين الضحية والجلاد ". كتبت هذا الكلام فى عام ١٩٨٣ أى بعد خروجى من المعتقل مباشرة. وأرانى بعد كل تلك السنوات أعود لرأى جارودى وأرى أنه كان أصح وأقرب للصواب.

النقطة الرابعة والأخيرة هى موضوع تطبيق الشريعة والحدود، وهو موضوع أثار وما زال يثير جدلا لا نهاية له. باختصار موقفى من هذا الموضوع أننى بالطبع مع التطبيق، ولكن ليس التطبيق الحرفي، إنما التطبيق الذى يستلهم المبادىء والأحكام، ويكيفها مع الظروف المستجدة كما فعل عمر بن الخطاب.

بقى توضيح مهم وهو أن كل تلك المراجعات الفكرية - إن صح التعبير - تمت فى أجواء التطبيق الفعلى للأفكار والنظريات، من ناحية، ، نجاح التجربة الإسلامية و الصعود التركي فى تجربة حزب العدالة والتنمية بقيادة أردوغان، والصعود الماليزى بقياده مهاتير محمد، الذى استطاع أن يدمج كل مكونات الوطن الماليزى فى مشروع تنموى مستلهم من أصول إسلامية، ولم يتردد فى التعاون مع جيرانه من النمور الأسيوية فيما يعرف بمنظمة" آسيان" لتكوين حلف تجارى مستقل عن الولايات المتحدة وسيطرتها البغيضة على العالم... وفى نفس الوقت وفى المقابل فشل نموذج الإسلام السياسى فى السودان والصومال وباكستان وأفغانستان، وإن تعددت الأسماء والمصطلحات.

لو كنت فى شبابى وعاصرت كل ذلك لرفضت أيضا التجربة التركية لأنها مازالت تقمع الأكراد، وعلاقتها بإسرائيل وأمريكا والحلف الأطلنطى ما زالت متينة ايضا كنت سأرفضها لأننى أرفض العلمانية وتركيا دولة علمانية. لكن التحول تم أيضا بعد أن ودع المرء سن الشباب بمثالياته الجميلة، والتى ترغب فى أوضاع مثالية فى كل شىء، مع التقدم فى السن يتغير الإنسان، و يميل لتقبل الأخطاء و تفهم الآخر المختلف و التدرج فى تحقيق الأهداف و التفكير الواقعى، كل ذلك كان مرفوضا أيام الشباب، وكان لابد أن تؤخذ الدنيا" قفش ". أعتقد أن تلك التغيرات يمر بها الجميع مع التحول من الشباب إلى الكهولة، وليست أمورا خاصة بى فقط (كهل فى العربية تعنى سن الأربعين والخمسين).

بقيت نقطة واحدة لا بد من توضيحها أيضا، وهى علمانية تركيا الإسلامية، وهو تعبير على غرابته إلا أنه يمثل وضعا تاريخيا صعبا، وجدت تركيا نفسها فيه وتكيفت معه، ولا يعنى ذلك أن تجربة حزب العدالة والتنمية

تجربة علمانية، بالعكس هى تجربة إسلامية نشأت فى دولة علمانية. من وجهة نظرى تركيا الحالية ليبرالية إسلامية فى العمق، وعلمانية فى المظهر لأسباب تاريخية، وحتى ذلك المظهر بدأ فى التغيير التدريجى لصالح المظاهر الإسلامية مع تولى أردوغان وحزبه تشكيل الحكومات المتعاقبة، أما النجاح الذى لا يمكن التقليل من شأنه سواء كنا محبين أو مبغضين للتجربة التركية الإسلامية فهو نجاحها فى تقليص دور العسكر فى السياسة إلى الحد الأدنى.. ومن يرغب فى معرفة دور العسكرفى التاريخ التركي الحديث فعلية بالتاريخ فسيقرأ فيه العجب العجاب..!

الخلاصة :

لا يمكن النظر لليبرالية الإسلامية سوى على أنها مذهب، وأى مذهب هو أمر وقتى مرتبط ومحكوم بظروف زمانية ومكانية، أى التاريخ والجغرافيا، قد يصلح اليوم ولا يصلح غدا، ولا يمكن اعتباره مبدأ ثابتا لا يتغير، بل هو محاولة لاستشراف المستقبل، أما الثابت الذى لا يتغير فهو الإسلام نفسه. فى النهاية ومهما كان المذهب أو الإيدلوجيا فهو يمثل البناء الفوقى والظاهر، ومهما بذلنا من جهد فى تغيير الظاهر وأهملنا الباطن فلا يمكن سوى أن تبوء محاولاتنا بالفشل.

كتب جارودى فى كتابه الإسلام دين المستقبل :".. لا يمكن أن تكون هناك اشتراكية داخل طريقتنا فى السعى وراء النمو الأعمى دون هدف إنسانى... ولا يمكن أن تكون هناك اشتراكية دون تسام، دون إمكانية دائمة لقطع الصلات مع حتمياتنا واستلاباتنا... إن كل ثورة ستسقط إذا ادعى الإنسان أنه غير كل شيء ولم يغير نفسه، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)..... إن تغيير الإنسان فى عصرنا هذا كما فى زمن الريشيين فى الهند الفيديه أو فى زمن لاوتسو فى الصين، كما فى زمن إبراهيم، وزمن يسوع الناصرى، أو فى زمن محمد، هو ربطه مع المطلق وتذكيره بقدرتة على الأنفصال عن كل ما هو موجود، ومقاطعته لهذه الأمور بدءا من النمو والقدرة وانتهاء بالعنف. ". انتهى.

إذن مهما كان اختيارنا ومذهبنا لا يمكن أن ينفصل التصوف عن الفقه بعد اليوم. لن يستطيع التصوف الإجابة على مسائل البيع والشراء، وتنظيم الحياة بين الناس، ولن يستطيع الفقه الإجابة على تساؤلات الوجود والنفس من الداخل، فلا مفر من المصاحلة بينهما لصالح الإنسان، ولصالح الثورة. أى تطبيق مثالي سوف يواجه بأنانية الإنسان المتأصلة بداخله،

وقابليته للإغواء والأنحراف. لا يوجد حل سوى بناء الإنسان فى نفس الوقت الذى يتم فيه بناء الاقتصاد ومؤسسات الدولة. لقد أعطى التصوف الإسلامي على مدار ألف وأربعمائة عام هجري درسا بليغا وعظة عميقة لمن أراد تغيير ما بالنفس الذى ذكره القرآن الكريم، ووصفه النبى الأعظم بأنه الجهاد الأكبر.

بينما حافظ التصوف الإسلامي على وجوده داخل الحياة والناس، فضل التصوف المسيحى الأنعزال فى الأديرة، أيا ما كانت ديانتنا و أيا ما كان مذهبنا، لن ينفصل الظاهر عن الباطن بعد اليوم.." من هنا نبدأ "..

أشياء لا تموت إلا كى تولد من جديد : الموسيقى!

كما قلت سابقا، تعلمت الموسيقى فى عام ١٩٧٨ من خلال دراسة السنة الإعدادية فى كلية التربية الموسيقية، تعلمت مبادىء علم الصولفيج، أى التعرف على المدرج الموسيقى، و قراءة وكتابة النوتة الموسيقية، غناء وعزف السلالم الغربية، و المعلومات الأساسية عن المفاتيح المستخدمة فى الكتابة للآلات الموسيقية المختلفة، وأيضا الأصوات البشرية والموازين الشائعة،... باختصار الانتقال من مرحلة الأمية الموسيقية وتذوق الموسيقى بالفطرة، إلى مرحلة فك الخط و التعرف على أصول الفن الرائع الذى أسمه الموسيقى.

فى السنة الإعدادية لم أتعلم شيئا عن الموسيقى الشرقية، لذا فقد كان لزاما على أن استكمل معلوماتى ومعرفتى الموسيقة عن طريق الدراسة الحرة فتعلمت المقامات الشرقية فى معهد الاتحاد فى عابدين مع الأستاذ الكبير محمد عابد، و مع الأستاذ محمد حسين الذى قال لى يوما" نحن أعطيناك كل ما عندنا "!

أخذت خطوة اخرى فبدأت أتعمق فى العلوم الموسيقية الغربية، فتعلمت الكونتربوينت مع أستاذي على عثمان،وهو سودانى الجنسية، ومتزوج من السوبرانو القوية جدا تحيه شمس الدين التى تسطيع الغناء المصرى العادي بجانب الغناء الأوبرالي بطبيعة الحال، مثلها فى ذلك مثل عفاف راضى وهو ما يصعب كثيرا على مغنيات الأوبرا، أخوها محمد شمس الدين عازف بيانو ممتاز،شاب، حضرت له أكثرمن مرة وشدني مستواه

المتقدم. وقت دراستى الكونتربوينت مع على عثمان، كان يعمل "مايسترو مساعد" لأحمد الصعيدى لفرقة النور والأمل، بعدها بسنوات أصبح هو المايسترو الرئيسي.

كانت تلك الفرقة معجزة، وتبهر كل بلاد العالم الغربية والشرقية واليابان، وتترك أثرا لا يمحى فى كل البلدان التى تزورها لأن العازفات النساء تعزفن مقطوعات كلاسيكية وهن كفيفات، أى بدون نوتة، وبدون أن يرين المايسترو! كيف فعلها على عثمان ومن قبله المايسترو أحمد الصعيدى؟ وكيف فعلنها أولائك الموهوبات؟ حتى الآن لا أعرف، لكن يبدوأن الشخصية المصرية تملك من المقومات أكثر بكثير مما يظن المرء عن نفسه، وأن التخلف ما هو إلا طبقة من الصدأ تخفى المعدن النفيس!

بعدها درست الهارمونى مع ريمون المعيد بالتربية الفنية.

جاء الوقت لدراسة العود الشرقى بطريقة مختلفة، ذهبت لبيت الهراوى حيث يدرس الموسيقى النابغة والذى أعتبره زرياب العصر فى بيت العود - العراقى" نصير شمه ".درست معه شهر واحد فى الأجازة الصيفية، ثم تحولت لتلميذه النجيب، حازم شاهين حيث يدرّس فى الأوبرا لكن مرة واحدة فى الأسبوع، وهو ما ناسبنى أكثر وقضيت معه ثلاثة أشهر. لم تكن آلة العود آلة جديدة بالنسبة لى، بالعكس، فقد كنت أعزفها من أيام ثانية ثانوى، مما جعلنى فى تلك الشهور الأربعة أستوعب ما يدرس فى عام كامل.

كانت الأشهر الثلاثة مع حازم شاهين هى ١٠،١١،١٢ سنة ٢٠١٠ أى قبل الثورة بأشهر معدودة. أخبرنى حازم أنه مع بعض زملائه قد أنشأوا منذ فترة فرقتين : واحدة اسمها" اسكندريلا" والأخرى اسمها" الشارع "، وأنهم سيقدمون عرضا فى ساقية الصاوى، سألته :

- وليه فرقتين؟
- واحدة كلها غناء وموسيقى والثانية فيها غناء وموسيقى وشعر

لم أكن قد سمعت بهاتين الفرقتين وكنت أظن أنهما فرقتان مغمورتان،على أية حال ذهبت فى الميعاد ففوجئت بأن الصالة ممتلئة على آخرها، وما أن بدأ العرض حتى كانت المفاجأة الأكبرى.

أغانى الشيخ إمام - نجم، وأشعار فؤاد حداد وصلاح جاهين بعثت من جديد! فى المرة القادمة سألته عن السبب الذى دفعهم لإعادة إنتاج الماضى مرة أخرى، قال :

- الشيخ إمام كان يزور والدي فى المنزل ورأيته أكثر من مرة، كما أن خطيبتى هى حفيدة فؤاد حداد، وأبوها أمين حداد الذى يكتب لنا أشعارا ويلقيها على المسرح، وأيضا معنا سامية جاهين ابنة صلاح جاهين.....

فى الحقيقة لم أجد فى كل ما قاله أسبابا مقنعة، كنت منذ فترة قد ابتعدت عن المشهد الثقافى المصري لذا فقد كانت مفاجأة كبيرة لى : ما الذى يدفع هؤلاء الشباب أن يقوموا بإحياء تراث الأغاني السياسية التى انقرضت، كما كنت أتصور، وهى على كل حال أغانى جيلنا نحن، وليس بين جيلنا وجيلهم اتفاق، والأهم من ذلك أنها تذكرنى بالثورة التى كنا ندعو لها، ولذلك كانت تلك الأغاني بالنسبة لنا هى منشورات ثورية وليس فقط مجرد أغان وموسيقى!

أنهيت كورس العود مع حازم فى آخر شهر ١٢، وفى الشهر الذى بعده مباشرة قامت ثورة ٢٥ يناير، ساعتها فهمت لماذا قام هؤلاء الشباب بإحياء الماضى!

أول وآخر مرة أحضرت فيها فنى ضبط بيانو كان" إدوارد سايان" وهو أرمنى يسكن فى شبرا، سألته لماذا دائما الأرمن تنتهى أسماؤهم بمقطع يان، قال لى أن" يان" بالأرمينية تعنى ابن، و" سا" تعنى محاسب، فيكون" سايان" بالأرمينية تعنى ابن المحاسب بالعربية! راقبت كيف يضبط البيانو، طلبت منه أن يشترى لى مفتاح ضبط كالذى بحوزته، فقال أنه من ألمانيا واشتراه ب ٨٠٠ يورو(أشك فى ذلك كثيرا!)، بعدها صنعت على يدى مفتاح بلدى مكون من مفاتيح (الألأنكيه) للسيارات ومقبض عند اللحّام، تكلف كله خمسين جنيها و بدأت أضبط البيانو بنفسى، لأنه لم يكن من الممكن أن تتحمل أذنى نغمات نشاز، أيضا حصلت على مهنة تنفع عند اللزوم!

المشكلة غالبا تحدث أن وتر واحد" يخس" بلغه الصنعه، ويلزم شده مرة أخرى، وهذا أمر طبيعى فى كل الآلات الوتريه نتيجه الجو والإستعمال وكل عازفى الآلات الوتريه يضبطون أوتارهم بأنفسهم ما عدا البيانو لصعوبته. صعوبه الموضوع تكمن فى أنك لا بد أن تكتم الوترين الصحيحين حتى يتسنى لك أن تسمع صوت الوتر" الخاسس" وحده وتستطيع أن تضبطه مع الإثنين الآخرين. عملية ليست سهله بالمرة خصوصا إذا فتحت البيانو لأول مرة سوف تجد أمامك غابه من الأوتار وتسألة نفسك : مين بتاع إيه؟ وكيف يمكن التمييز بين الأوتار بعضها البعض! عملية ليست معقدة حتى إذا بدا أول الأمر أنه كذلك، خصوصا إذا تعلق الأمر بمائتى جنيه كل شويه!

البيانو السابق كان إيجار لذا فقد كنت أتابع الجرائد على أمل أن أجد بيانو مستعمل بحالة معقولة وسعرمعقول كى أشتريه، مرة من المرات (وهى المرة الوحيد على مدار عام كامل من متابعة الجرائد) وجدت إعلانا عن بيانو إليكتريك، والبيانو الاليكتريك،عبارة عن دوائر ولا يضبط، لكن،إذا فسد مفتاح يتم تغيير الـIC ،اتصلت بالتليفون فرد شخص، ظننت أول مرة أنه سودانى وعندما ذهبت كى أرى حالة البيانو وجدت صاحبه عراقى، وكان وقتها مأساة احتلال أمريكا للعراق وحكى لى طرفا عن مأساته الشخصية هو وأسرته، والتى هى مأساة العراق والعراقيين.

كان هو وأسرته يملكون ألف نخلة، بعد الحرب لم يبق منها غير سبعين فقط! قرر هو وأسرته الهرب لمصر بعد أن أدرك الموت أقاربهم وأصدقاءهم، دخلت علينا أمه، وقدمت لنا الماء وهى تنظر لنا بانكسار لم أره من قبل، لن أنسى ما حييت نظراتها التى تنطق بغير كلام!، قال لى أنه وأسرته حصلوا على فيزة للهجرة لأمريكا، وباعوا" العفش "الذى اشتروه بسبعين ألفا، باعوه بعشرين ألفا من الجنيهات! وهو يعرض البيانو الإليكتريك للبيع لأنه لا يستطيع شحنه لأمريكا، وأظهر لى فاتورة الشراء، وهى من الوكيل مباشرة، وقبل عدة أشهر فقط وما زال فى الضمان، وأنه للظروف الحالية يبيعة بنصف الثمن!

جربت البيانو فوجدته فعلا كالجديد، أشتريته منه وذهبت للمنزل ومازال صدى كلماته يرن فى أذنى فكتبت قصيدة صغيرة بعنوان" مرثية للعراق!" بعد أن كنت قد انقطعت عن كتابة الشعر لسنوات طويلة، ربما كان السبب فى العودة للشعر مرة أخرى ما ذكرته قبل ذلك من أن الدولة الوطنية الديمقراطية هى ضرورة حياة للفرد، كل فرد، وكيف استخف زعماء العرب بمواطنيهم وأرضهم، وبكل القيم الإنسانية والسماوية.

مرثية للعراق!

ولأن حزنى قد انتهى
والذكريات..
خبأت بجرحي دمعتين..
دمعة للعراق
وأخرى ليوم الفراق..

مابين الكرخ والرصافة ألم لا ينتهى
وصلاة لا تنتهى..
ياحلاج الأسرار.. ابسط يدك
تخضر هذي الأرض.
نضبت مقلتي
فاختزنت لجرحي دمعتين.
يأمة العرب
فلتتركى للجرح دمعتين..
لاتبكي يا أماه من رحل
لكن من سافر وارتحل
أشلاء ماض تليد
وأب لم يزل يأمل بالخير وينظر للسماء
وبعد صباح ياتى مساء
وبعد المساء ألف ألف مساء..!
يا أبناء أرض السواد
ما هذا لكم بمقام..!
أشباح تجري فى عروقي تهتف ياعراق..!
أشباح تنادي الرحيل الرحيل..
إنه اليوم اليوم اليوم...!
سقطت بغداد....!
فلنرحل فلم يعد لنا
نخل فيها ولا ماء.
ماهنا سوى قبر كبير
ماذا نخسر أبتاه غير لحد..!
إني أضعت قبل الرحيل دمعتين
فلتذرفى لنا يا أم دمعتين..

لا دمع اليوم ولا شجن

" اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرم "

ولقد سويت لكم قيثارتى

فلأسمعنكم ولأطربنكم.

لا ترتدى الجبال ثوب الحداد بعدنا

لا نخلف سوى أرض يباب

قفر، لازرع ولا ماء

أرحل وترحلون

وتبقى قيثارتى ويخلد النغم

يا أمة العرب.. اليوم يوم وداع

اليوم يوم الملحمة..!

بعدنا.. تنتهى الأحزان وتبدأ المراثى

بعدنا.. تمطر السماء عصافير وسكر..

بين الخطوة والخطوة مسافات لا تقطع!

بدايات لا يهتدى بخطوها

تخلع الجبال حلتها وترتديك

فأصعد صوب الصوت القادم

من أعماق التاريخ العربى

وأختفى...!

يذوب جلدى وحزنى

وأستحيل إنسانا..!

أصعد أسوار بغداد وأهتف للقادم من بعدى :

أين أنت؟

لا صوت اليوم سوى.. صوته..

لا حجة اليوم سوى.. حجته..

حبيبتى..

لا تسألى القوم عنى
فهم غياب فى غياب
مخصى الصوت أنا.. مكسور النغمات..
محاريب ولا صلاة..
يا حلاج الأسرار، ابسط يدك تخضر الأرض،
هذى الأرض لنا..
لا يجرى فى الفرات اليوم ماء، بل دمى.
يا أمة العرب..
اليوم يوم وداع وغدا يوم الملحمة..!

٧- عودة على بدء

" ولا ينبيك عن خلق الليالى
كمن فقد الأحبة والصحابا! "

أحمد شوقى

كما فى الفصل الثانى" المعتقل "، أيضا هنا سوف أترك الذكريات تنساب دون التقيد بالزمن ولكن بدون عصف ذهني.

بعد سنوات وأثناء مباشرتى لعملي الخاص تعرفت على صديقي الأنتيم، محمد بيومى، ويوما كنا فى سيارته نمر من أمام معتقل استقبال طره، أشار بيده نحوه و بدأ يحكى :

- :أيام بناء هذا المعتقل كنت أعمل فى شركة" المقاولون العرب" التى تقوم ببنائه، وكنا نرغب بأن نسلمه لشركة حكومية، لكن كان لا بد أن ندفع رشوة حتى تستلمه الشركة، وفجأة جاء لنا النبوى اسماعيل وزير الداخلية وقتها وأبلغنا أن عنده أوامر عليا باستلام المعتقل فورا بأى حالة، لأنه بعد أيام سوف" يشرّف" فيه زبائن كتير! وهكذا استعجلتنا الشركة التى تتسلم المعتقل، وكانوا يدعون على النبوى اسماعيل الذى حرمهم من الرشوة، والغريب أننا سلمنا الزنازين بدون أقفال!

- طبعا أنت ستذهل حين أقول لك أنك كنت تبنى هذا المعتقل كى أسكن أنا فيه!
- أنت؟ أيمن؟ كنت هنا فى ٨١؟
- نعم.
- ماكانش ممكن أتصور إنك اعتقلت قبل ذلك، على العموم أكمل لك، بعد أن بدأ استقبال المعتقلين، كنت أشاهدهم يأتون بهم فى سيارات الأمن المركزى الكبيرة، وعيونهم عليها غمامة، وأثناء نزولهم من السيارات يضربونهم فى ظهورهم، فيقعون على وجوههم، وتسيل منهم الدماء، ويعلو صوت الآهات، لم أتحمل

تلك المناظرالفظيعة ونفسيتى تعبت جدا فقدمت استقالتى وبدأت العمل الحر!

- عشان نتقابل! شفت بأه الدنيا صغيرة إزاى!

بعدها أخبرنى محمد بيومى أنه سوف يسافرإلى تركيا كى يبحث مع مستثمر تركى، يبيع المصانع التى تقوم بتجهيز ملح الصباغة للملابس، وأن هذا المستثمر مستعد أن يكتب عقدا كى يستورد إنتاج المصنع كله، بعد أن عاد من تركيا، اشترك هو وأخوه وائل وابن عمته د. حسين فى شراء الأرض، وسوروها وبنوا عليها جمالون، فى أثناء ذلك كانوا" دايخين السبع دوخات" من أجل الحصول على تصاريح المصنع وتصاريح الاستيراد.

المشكلة التى قابلتهم هى" الفرخة الأول أم البيضة"! هذا حقيقى!

جهة حكومية ترفض أن تعطيهم تصريح بالمصنع إلا بعد أن يستوردوا الماكينات، وجهة حكومية أخرى ترفض إعطائهم تصريح باستيراد الماكينات إلا بعد أن يحصلوا على تصريح المصنع! مرت شهور بلا أدنى تقدم، حتى كان اليوم الذى بعث لهم المستثمر التركى يعتذر ويقول إنه اتفق مع شركة مصرية أخرى ويستغرب أن مثل تلك الأمور فى تركيا تتم فى أربعة أيام! بعد أن سألوا عرفوا أن الشركة الأخرى دفعت المعلوم و" مشّت نفسها" وحصلت على التصاريح!

قبل السفر لألمانيا بأيام قليلة جاءنى خطاب من ألمانيا من الأخ أسعد طه يخبرنى فيه أنه سافر إلى ألمانيا، ويرجونى أن أراسله كى نستعيد معا مشوارا صغيرا كنا قد بدأناه معا.

بعد حركة الاعتقالات فى ٥ سبتمبر التى قام بها الرئيس السادات فى ١٩٨١ وبعد أن فكرنا أن نقوم بالاعتصام فى الأزهر الذى حكيت عنه سابقا، كان كل واحد منا يبحث عمن يمكن أن يساندنا، حتى نصل لعدد معقول يمكننا من عمل اعتصام حتى يكون له تأثير. قال لى أخ لا أتذكر اسمه أن هناك فى الأسكندرية أخ اسمه أسعد طه، يسير على نفس منهجنا فى رفض النظام، وضرورة الثورة عليه، وأعطانى تليفونه، اتصلت به وحددت معه الميعاد والمكان، وتم اللقاء فى الأسكندرية، أخبرنى أنه للأسف لا يوجد عنده فى الأسكندرية عدد كاف، المهم حتى لا أعود من المشوار خالى الوفاض، أخذنا نتحدث عن الحركة الإسلامية وعيوبها، وطرق النهوض بها ثم عدت للزقازيق.

لم أرد على خطاب صديقي لأنى كنت سوف أسافر ألمانيا بعد أيام، وقلت أعملها له مفاجأة، وأتصل به من هناك، لم أتصل بأسعد طه وأنا فى مستشفى فى "ميونيخ" لأنه كما أتذكر كان فى مدينة "ماينز" وربما كان فى مدينة أخرى، وكنت لا أرغب فى أن أجعله يتحمل تكاليف السفر خصوصا أننا كلنا كنا وقتها على فيض الكريم!بعد ذلك بسنوات سوف يغمرني سرور بالغ حين أراه يقدم برنامجه المميزفى قناة الجزيرة : "نقطة ساخنة" قلت فى نفسي : إنها ليست نقطة ساخنة فقط بل أيضا نقطة نجاح!.

أول ثلاثة أيام فى ألمانيا نزلت ضيفا على صديقي "علي صبري" فى المدينة الجامعية بميونيخ، كان على من مؤسسى شلة الاستيميشن والبريدج، وكان يضحك معنا ويقول أن وصيته لنا أن نضع الآس البيج فى مقدمة جنازته! فكنت أداعبه و أقول له :" أنت من الأحرار يا على"!

أخبرنى أن الألمان قد قرروا أن يقذفوا بكل أوانى المطبخ فى الزبالة! سألته لماذا؟ قال لى لأن المصريين كانوا لا يغسلونها بعد استخدامها كما هو مفترض، وبعد أن نبه الطلبة الألمان الطلبة المصريين أكثر من مرة،ولما لم يجدوا استجابة قرروا هذا القرار الغريب و" كل واحد يصرف نفسه" فى الطبيخ لأنهم لم يكونوا يتحملوا منظر أدوات مطبخ قذرة ملقاة فى كل مكان!

ساعتها تذكرت أيام كنت فى مارسيليا وكانت كل الأمور الجماعية تسير بانتظام، وكيف أن كل شخص كان يغسل الأطباق والحلل بعد استخدامها بدون مشاكل، وكيف أننا كلنا كنا نضع الأكل فى الثلاجة وكل واحد لا يمد إيده لأكل الآخر، وتذكرت أيضا بمزيد من الأسف والأسى أنه لم يكن يوجد هناك مصرى واحد غيرى!

كما حكيت سابقا بعد ثلاثة أيام خرجت من المدينة الجامعية فى ميونيخ كى أقوم بالاشتراك فى التأمين الصحى وقبل أن أقوم بذلك حدثت لى حادثة السيارة،سيارة الإسعاف أتت بعد دقيقتين إن لم يكن أقل و تم نقلى للمستشفى فى شبه غيبوبة ونصفى الإيسر كله كسورمن رأسى إلى قدمى، أول ما أفقت بدأو يدونون بياناتى، قلت لهم أننى كنت ذاهب كي أشترك فى التأمين الصحى ولكن حدثت لى الحادثة أولا.

عندما أخبرونى بالتكاليف اليومية للمستشفى صعقت! ألف جنيه فى اليوم! قلت لهم أننى طالب ولا أستطيع أن أسدد تلك المبالغ وأرجو منكم أن تحجزوا لى تذكرة لمصر! ضحكوا وقالوا لى أنهم لو فعلوا ذلك دون أن يعالجونى سوف يقدمون للمحاكمة! لأنه ممنوع أن يدخل مريض المستشفى ويخرج بدون علاج، سواء قام بتسديد أجرة المستشفى أو لم يقم. أعطونى

استمارة عبارة عن طلب لمكتب الضمان الاجتماعى أن يقوم هو بتسديد مصاريف العلاج بدلا منى.

بعد أسبوعين أو ثلاثة من العلاج جاءت موافقة مكتب الضمان الاجتماعى على تسديد فواتير العلاج الخاصة بى، وعندما سألتهم ماذا إذا لم يكن المكتب قد وافق؟ أخبرونى أنه لا يمكنه إلا أن يوافق، وهذا إجراء روتينى سواء كان المريض ألمانيا أم أجنبيا ما دام لا يستطيع أن يسدد فواتير العلاج فيجب على مكتب الضمان الاجتماعى أن يسددها عنه.

بعد فترة من الغذاء عن طريق المحاليل، وقبل أن أبدأ فى الأكل الطبيعى، جائتنى ممرضة وسألتنى عن ديانتى، قلت لها :

- أنا مسلم، ولكن أنتم مجتمع علمانى، وأصلا لا تؤمنون بأى دين، فلماذا ترغبون فى أن تعرفوا ديانتى؟
- حتى نحضر لك وجبات المسلمين الخالية من لحم الخنزير!

ساعتها قلت :" لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون ألمانيا "، مع الإعتذار للزعيم الوطنى مصطفى كامل! طبعا ألمانيا والغرب لهم عيوب قاتلة، ولكن عندهم مميزات نحتاجها فى بلادنا بالتأكيد، وبدون لف ولا دوران، نحن فى موقف حرج! ولا بد أن نخرج من هذا التخلف سريعا!

فى ٢٠٠٩ سوف تسافر مدرستى الألمانية" بتينا فان دار فاى" المتزوجة من مصرى ومقيمة فى القاهرة، سوف تسافر إلى ألمانيا فى رحلة قصيرة، أسألها بعد عودتها، هل كانت رحلة سعيدة؟ تقول لى :

- ألمانيا بلد جميلة!
- أنا مصرى ولكن أعرف ذلك أكثر منك!

كانت آخر مرة أقابل فيها صديقى اسحق (أيام الثانوى) بعد أن عدت من ألمانيا بسنوات، زرته فى المنزل فوجدت زوجته فى حالة ولادة! كنا فى أولى ثانوى حين اكتشفنا (هو وأنا) الكيفية التفصيلية للعملية الجنسية، صدمنا و صارحنا بعضنا البعض أننا لا نتصور كيف أن أهالينا قاموا بهذه العملية (المقرفة) من أجل إنجابنا! عشنا فى هذه الصدمة أياما وشهورا! سلمت عليه بسرعة، ورجوته أن يتصل بى إن احتاج مساعدة وانصرفت! لله درّك يا أيام الفرفشة والهزار!

بعد أن أنهينا الثانوية العامة كان عمرو له ترتيب على المحافظة (صديق الطفولة فى مدرسة الراهبات، وصاحب الرست القوى، والذى كان

يراقص الفتيات فى كازينو سيدى بشر بالأسكندرية) ثم دخل كلية الطب. كان الكل يتوقع له مستقبلا باهرا، لكن ما حدث هو عكس ذلك!

كانت درجاته فى إعدادى طب مفاجأة غير متوقعة هى مقبول، بعدها بدأ فى إهمال الدراسة، حتى ترك الكلية نهائيا وتوقف عن الدراسة، وكلمنى والده فى ذلك... قابلته فإذا بى أمام شخص آخر، كأن الله قد ألقى له بمهمة فى الأرض، وهى مساعدة أطفال الشوارع! عبثا حاولت إقناعه بأن يسير فى الخطين معا : الدراسة ومساعدة أطفال الشوارع.بعدها بسنوات عرفت أن والده قد توفى وأنه قد أكمل دراسته فى كلية الآداب ويعمل فى مدرسة، ثم بعد ذلك حضرت يوم الزفاف وكم كنت سعيدا أنه تزوج وأنجب بعد ذلك.

مازلت إلى الآن أحاول أن أفسر ما حدث له. أقرب تفسير عندى هو أنه قد ملّ من المنافسة ومن اهتمام الجميع بقدراته غير العادية، وأيضا ملّ من اهتمامه بنفسه، فكان لا بد أن يخرج من ذلك الجو المشحون بالمنافسة والأنانية بأن اختار طائفة مظلومة فى المجتمع وهى أطفال الشوارع من أجل مساعدتها. سواء كان هذا تفسيرا معقولا أم لا لكن كلما تذكرته تذكرت دراما الحياة التى تتفوق على خيال أى مؤلف!

بعد أن سافر ضياء (صديقى الأنتيم السابق فى الموسيقى أيام الثانوى) لأمريكا ومكث بها تسع سنوات متصلة، عاد فى زيارة، قابلته وحكى لى أنه مرة من المرات اشترى ملابس من محل كبير، ودفع ثمنها ثم نسيها، فى اليوم التالى توجه للمحل وحكى لهم ما جرى. قالوا له : ادخل وهات هدوم بدل التى نسيتها مجانا! وفعلا قام بذلك وخرج دون أن يدفع مليما واحداً وحتى دون أن ينظروا إذا كان قد أخذ ما قال عليه أم زاد عليه أشياء أخرى!

بالرغم من أن حلمه قد تحقق وسافر لأمريكا وعمل واستقر بها، إلا أنه غير سعيد بالمرة، وينتظر بفارغ الصبر أن ينهى ابنه الأصغر المدرسة ويلتحق بالكلية حتى يعود لمصر!

مقابلة بعد الثورة، نهاية ٢٠١١

كان من المفترض أن يكون هذا اللقاء بينى وبين محمود وبين خالد فى عيادة محمود، ولكنه جاءته مكالمة عاجلة فاضطر للانصراف، فتمت المقابلة بينى وبين خالد فقط، الذى حضر لمصربعد ٢١ سنة من الغياب فى انجلترا، ومحمود عاد واستقر فى مصر، بعد غياب ١٤ سنة فى السعودية.

جلسنا خالد وأنا فى بيت خالد، ودار بيننا الحوارالتالى قلت له :

- أنت تعمل طبيب أمراض نفسية فى انجلترا، مش كده؟
- أيوه، عادلت شهادتى المصرية بأن اجتزت امتحانين فى انجلترا وأعمل طبيباً خاصاً.
- يعنى إيه؟
- فتحت شركة Mentalhealth صحة نفسية و أتعاقد مع المستشفيات والهيئات وأعالج مرضاهم.
- هل أولادك يتكلمون العربية؟
- مكسر!
- هل ترغب فى العودة لمصر؟
- طبعا، لكن ليس لى عمل هنا، ولابد أن أضمن أن الأولاد قد دخلوا كلياتهم أولا.

وقلت له :

- آخر مرة كنا فيها سويا من أكثر من عشرين عاما، كنت أنا قد أعلنت اعتزلى قبلك بعدة سنوات، ثم اعتزلت أنت وسافرت، وقتها كنا ننتمى لتيار كبير اسمه" الإسلام السياسى" أنا حدثت لى تحولات، وقد كتبتها فى مذكرات تنتظر النشر، ماذا حدث معك؟
- بعد أن عشت فى انجلترا وجدت أن معركتنا مع الغرب أخذت اتجاها خاطئا، كان يجب أن تأخذ مسارا آخر.
- هل من الممكن أن تشرح أكثر.
- لقد تعلمت الكثير والكثير من مرضاى، أنا أعالج ما يقارب المائة والخمسين حالة سنويا عندما كنت طبيبا مبتدئاً كان المريض النفسى بالنسبة لى مثل التلميذ الذى يجب أن يسمع كلام أستاذه، ويتبع نصائحه وإرشاداته، بعد أن نضجت، اكتشفت أننى أنا الذى أتعلم منهم!
- تتعلم من المرضى النفسيين، مثل فرويد؟
- لا، لا أقصد ذلك، ولكن البعد عن التيارات الإسلامية فى مصر أمكننى من أن أراجع أفكاري.
- وما الذى توصلت له؟
- كتبت كتابا على الكمبيوتر، ومع الأسف ضاع، ولم أكن قد طبعت منه نسخة ورقية وعلى كل حال لم أكن أنوى نشره.

- ما هو موضوع الكتاب وما اسمه؟
- اسم الكتاب" وماذا بعد؟ "، وفكرته الأساسية أن الجماعات الإسلامية كلها سارت فى طريق خطأ نظرا لغياب مفهوم واضح للإسلام.

سألت :-

- وما هو المفهوم الصحيح من وجهة نظرك؟
- هو مثل ما قال به محمد عبده وآخرون، أن الغرب به" إسلام بلا مسلمين" ونحن هنا فى البلاد الإسلامية عندنا مسلمون بلا إسلام.
- وماذا أيضا؟
- فى الغرب فعلا الناس تعيش قيم الإسلام الحقيقية، اكتشفت من خلال تجربتى الطويلة فى العلاج النفسى، ومن خلال تعاملي مع الحياة فى انجلترا أن هناك أربعة مبادىء أساسية يجب أن تكون موجودة فى أى فكر إسلامى حتى يكون إسلاميا بحق.
- وما هى؟
- أولا : أن يكون حرا، بمعنى أن يستطيع كل إنسان مهما كان مستواه أن يفهمه، ويتجاوب معه من داخل نفسه، لا بفرض التعاليم من الخارج.

ثانيا : العطاء، بمعنى أن يكون هذا الفكر قادرا على أن ينافس العالم فى أحدث ما توصل له من علوم وتقنيات وأساليب حياة، ثم يضيف لهذا العالم شيئا أكثر مما عنده.

ثالثا : أن يعتمد على الفطرة (common sense الحس المشترك)، وهذه الفطرة موجودة فعلا عند كل الناس.

رابعا : أن يعترف بالحق فى الاختلاف.

- حسنا! أعتقد أنك لا بد أن توضح هذه المبادىء بكثيرمن التفاصيل!
- لعلك تتذكر فى الماضى أننا كنا نختلف وبشدة، ثم هذا الاختلاف تنشأ عنه أفكار جديدة وطرق جديدة فى النظر لمبادىء الإسلام والمجتمع، وحتى بعد أن نختلف بمجرد أن نجلس سويا فى اليوم التالى إلا ونجد أن كلاً منا يفهم تماما ما يعنيه الآخر، حتى وإن لم نتفق.

- نعم، ولكن لا تنسىَ الفروق الفردية.
- أنا كنت وسطا دائما، بينما أنت كنت مشتعلا على الدوام، وتبحث دائما وأبدا عن أفكار جديدة، كنت أنت عنيدا جدا، هل تذكر؟
- نعم، أعترف بذلك.
- وأيضا مررت بتحولات كثيرة وأرهقت والدك ووالدتك معك!
- أعترف!
- على العموم أنا الآن أعتقد أن الإيمان الحق لا بد وأن يمر" بلخبطة" وتخبط حتى يكون إيمانا حقيقيا، وعلى هذا، أنا لا أجبر أولادى على ممارسات إسلامية إلا إذا كانوا مقتنعين بها، كما أننى لا أرغب فى أن أكوّن أسرة إسلامية منافقة!
- قلت : -
- بخصوص" لخبطة" ما قبل الإيمان، هذا مذكور بكل صراحة فى القرآن ولا أجد سببا واحدا حتى الآن فى تجاهل المفكرين والفقهاء لتلك المراحل في حياة الأنبياء.لا أتذكر أين قرأت هذا القول :" الحيرة هى بداية الطريق للحكمة "، هذا تعبير رمزى طبعا، لكن الإيمان الأعمى والتسليم بلا بحث، أعتقد أن هذا ليس هو مقصد القرآن.
- أيضا فى انجلترا، اكتشفت أن المرأة مثل الرجل، ومثلما يمكن للرجل أن يخطأ ويصلح من خطئه، يمكن للمرأة أن تخطئ وتصلح هي الآخرى وينتهي الأمر على ذلك.
- ذكرته قائلاً :-
- لعلك تذكر، أننى كنت أؤمن بذلك من أول يوم بعد انتهاء المرحلة السلفية من حياتى.
- نعم، وأنا كنت لا أفهمك وقتها.
- ألا يمكن أن تعثر على نسخة من كتابك المفقود؟
- حتى لو عثرت عليها، الأمر يحتاج لبحث أكبر، وعملى يأخذ معظم وقتى، كما أننى سعيد جدا بأننى قد اعتزلت ولا أرغب أن أضع نفسى فى موقع القيادة مرة أخرى،هل تعلم أننى اعتزلت، أكثر من مرة وفى كل مرة يدعونى فيها الأخوة لا أستطيع أن أرفض وأرجع مرة أخرى؟

- هذه أول مرة أعرف فيها هذا! عموما أنا لم أضع نفسى ولا مرة فى موقع القيادة، ولا يمكن أن أفعل فى المستقبل!
- لأنك كنت قد اتخذت القرار ونفذته وحدك، كثيرا ما كنت أتذكر أنك مثل أبو ذر الغفارى، لك طريق وحدك، تمشى فيه وحدك وتموت فيه وحدك!
- هذا غير صحيح، وإلا لما سعيت لنشر تلك المذكرات! أنا أرغب فعلا فى المساهمة فى ما بعد الثورة ولكن على طريقتى!
- هل اتخذت طريقا وسطا؟
- هذا متروك لتقييم القارىء.
- إذن فأنت الآن أخذت نفس الطريق الذى كنت أنا فيه سابقا! لقد كنت أقدّر جدا طريقك الراديكالى!
- ولكن قد حدث تحول! ولهذا كتبت المذكرت!
- وما اسم تلك المذكرات؟
- فى الأصل كان الإسم" سنوات التحول"
- اسم جميل!
- ولكن يمكن للقارىء أن يسأل تحول من ماذا لماذا؟ خصوصا أن عندى أكثر من تحول من الأأدرية إلى الإيمان ثم من السلفية إلى شلتنا القديمة والبحث الحر ثم من الإسلام السياسى إلى" ليبرالية إسلامية ". لقد مررت بتحولات كثيرة، لذا فقد كتبت فى العنوان آخر تحول!
- ولكنك لم تكن سلفيا!
- عندما قابلتك كنت أنهى المرحلة السلفية، لكن قبلها كنت سلفيا. ما رأيك فى الإسم التالى :" مذكرات مسلم ليبرالى : سنوات التحول"؟
- لماذا لا تبحث عن اسم إسلامى صرف، كل الذين قابلتهم هنا من أقاربى وأصدقائى يعتقدون أن الليبرالية كلمة سيئة السمعة!
- لقد فكرت فى هذا كثيرا، لكن هذا أقرب ما أستطعت أن أصنف نفسى به، وأعتقد انه يعبر بطريقة تقريبية عما أفكربه، عموما فى الماضى كانت الديمقراطية أيضا كلمة سيئة السمعة، والآن أصبحت مقبولة بل وشرط أساسى لتكوين الأحزاب حتى ولو كانت دينية، فلماذا نترك الليبرالية للعلمانيين، مع احترامى

الكامل لحق كل إنسان فى اختيار المبدأ الذى يراه معبرا عنه؟ لكن سؤالى هو : لماذا لا تكون هناك ليبرالية مؤمنة؟ لو تتذكر فى الماضى، فى التاريخ الإسلامى، أول ما تعرف المسلمون على الفلسفة فى البلاد المفتوحة، كانت كلمة الفلسفة كلمة سيئة السمعة، ومع مرور الإيام تقبلها المجتمع بل وأصبحت تدرس فى الكليات والمعاهد الإسلامية التقليدية.

- ماذا تعنى بالتصنيف؟
- أظن أننا متفقون أننا كنا فى الماضى ننتمى لتيار واسع اسمه"الإسلام السياسى" يريد أن يقيم دولة إسلامية.
- نعم.
- الأن، أعتقد أننا نؤمن بأن تحقيق أهداف ومبادىء الإسلام أهم من الشعارات أو المظاهر، بالرغم من أننا لم نتخلى عن الإسلام ولا عن قدرة الإسلام على بناء الحضارة مرة أخرى... ماذا تسمى ذلك؟ ماذا تصنفنى وبماذا تصنف نفسك؟
- سؤال محير!
- هل تكتفى بأن تقول أنك مسلم؟ كل الناس مسلمون! أكيد أن عندك مثل ما هو عندى أفكار جديدة، ماذا تسمى تلك الأفكار؟ إسلام منفتح مثلا؟
- لا، هذه تسمية غير مناسبة!
- لماذا غير مناسبة؟
- لا أعرف!
- أنا فكرت فى ذلك كثيرا،إنها غير مناسبة لأنه من الصعب أن تخترع تسمية لنفسك دون أن يكون لها ظلال فى المجتمع! أليس كذلك؟
- لكن الديمقرطية والليبرالية الغربية هى فى اضمحلال الأن، وأراها قد انحرفت عن المسار الصحيح. لقد أصبح السياسيون محترفين، ويسترزقون من السياسة، ولم يعد هناك مصلحون كما كان فى الماضى،و كما أنه يتم دائما تجاهل الشعب.هل تعرف أن معظم أعضاء حزب العمال أثناء غزو أمريكا للعراق كانوا يرفضون تلك الحرب، لكنهم اضطروا للموافقة عليها فى البرلمان حتى لا يفقدوا مناصبهم فى الحزب، لأن قيادة الحزب قد اتخذت قرارا بتأيد الحرب!

- أنا أوافق على كل ما قلته، وهذا هو المأزق الحقيقى الذى نواجهه الأن، علينا أن نبنى ديمقراطية على أساس سليم وخال من العيوب الموجودة فى الغرب، بعيدا عن سيطرة رأس المال على الحزب، وبعيدا عن سيطرة شلة المنتفعين، هذا أيضا ما أعنية بالليبرالية الإسلامية و هو التمسك بالأخلاق الإسلامية، و فى نفس الوقت الأنفتاح على العلم والمنجزات الإنسانية فى كافة المجالات، لسنا مجبرين على ممارسات خاطئة، ولكن لا يمكن أن نخترع العجلة.

أساسيات الديمقراطية معروفة و إذا كان هناك فيها شيئ ما لا يعجبنا يمكن أن نغيره، نحن أمامنا فرصة ذهبية، نحن فى ثورة بعكس الغرب المستقر أو الذى كان مستقرا، لأن ما يحدث له الآن لهو أمر خطير! نقطة أخرى أرجوك لا تنظر إلى ما تم تطبيقه من مبادىء إقتصادية فى مصر فى الثلاثين عاما الماضية على أنه ليبرالية اقتصادية، ما تم هو سرقة منظمة لخيرات هذا البلد، فى أم الدول الليبرالية الدولة تأخذ حقها" تالت ومتلت "من ضرائب وجمارك، وترد هذا العائد للشعب فى صورة خدمات وبنية أساسية ونظام صحى وتعليمى وهو ما لم يحدث فى مصر، كما أنه ليس هناك مبدأ ليبرالياً يقول إنك تبيع شركه قطاع عام بنصف أو حتى عشر ثمنها، ثم توزع هذا العائد الهزيل على المحاسيب واللجان المنبثقة عن لجان. لكن عموما أنا ضد القطاع العام، وضد ملكية الدولة إلا فى أضيق الحدود أو الاعتبارات المتعلقة بالأمن القومى.

- فلنعد للتغيرات الإنسانية، أظن أنك لم تكن تنوى الزواج، ولكنك تزوجت بسبب الحب على ما أتذكر وحضرنا خطوبتك، أليس كذلك؟
- بلى.
- أنت، كما أتذكر، ظللت ستة أشهر تكتم حبك، فما الذى تغير؟
- لا، استمرت فترة الحب الصامت سنتين.. سنتين وليس ستة أشهر!
- حسنا، ما الذى دفعك للزواج؟
- الحب!
- أنا طبيب نفسى والكلام ده" ما يمشيش معايا"!
- ماذا تقصد؟

- أعتقد أنك حتى وأنت فى الحركة الإسلامية لم تكن تنتمى لشىء، حتى ولا لمجموعتنا بالرغم من أنك كنت معنا باستمرار، كنت دائما لك طريق وحدك.
- وماذا بعد؟
- ربما تعبت من اللاأنتماء فقررت الزواج وكان الحب هو المبرر!
- يجوز! أنا لا أدعى أننى أفهم نفسى مائة بالمائة، ولا أظن أن أحداً يستطيع أن يدعى ذلك!
- أظن قبل الإسلام لم تكن مؤمنا بشىء؟
- صحيح، لم أكن أنتمى لا لدين ولا لوطن! وحتى بعد الإسلام لم أنتم لمصر إلا بعد وقت طويل، طبعا كنت أنتمى لمصر كمواطن يحمل الجنسية المصرية، لكن أقصد بالأنتماء أن أعيش فيها عن قناعة، وأن أبذل مجهودا لتطويرها.
- مشكلة الأنتماء أعمق مما تتصور! ولكن لنعد لموضوع التصنيف، كيف يمكنك أن تصنفني أنا؟ هذا سؤال محير فعلا!
- عندما تجد الاسم المناسب أخبرنى به! هل يمكن أن أقترح تصنيفا على غرار تعريف الماء بالماء؟ هل لى أن أقترح أن نصنف أنفسنا على أننا" خارج التصنيف"؟!
- تذكر دائما أن الإنساني أفضل وأبقى من السياسى!
- هل تعرف أننى سعيد بأننا قد تم استبدالنا؟
- ماذا تعنى؟
- أعنى الآية التى تقول ما معناه أن الله سوف يستبدل المؤمنين بآخرين إذا لم يقوموا بالرسالة المنوطة بهم، وعلى ذلك أعتقد أن شباب الثورة هم البديل الإسلامى الفطرى لنا. نحن كجماعات إسلامية على مختلف اتجاهاتنا،أعتقد أن وقتنا قد انتهى.
- أولا الشباب الذين أشعلوا شرارة الثورة جاءوا من مذاهب مختلفة، منهم الإسلامى ومنهم الليبرالى، ومنهم اليسارى، ومنهم الذى لا ينتمى لفكر محدد.
- أعتقد بعد نتائج الأنتخابات الأخيرة من الصعب تصديق مقولة أن الجماعات الإسلامية القديمة على وشك الاختفاء! وأخيرا على المستوى الشخصى، أنا أعرف ذلك ولكن لست سعيدا به!الآن
- مع الأسف، أنت ذكرتنى بما فعله معنا الأخوان يوم صلاة العيد.

- أنا كنت مسافراً وقتها ولم أحضر هذه الواقعة، وسمعت عنها" طشاش" ولكن لم أفهم الموضوع حتى الآن !
- الموضوع أن أمن الدولة بعد ٨١ كانت قد منعت صلاة العيد فى الخلاء، فقام مجموعتنا بالدعوة لصلاة العيد فى الاستاد وحضر أناس كثيرون جدا! يمكن فى ٨٦ مش فاكر التاريخ بالضبط.
- كيف أعلنتم عن الصلاة؟ هل قمتم بتعليق إعلانات مثلا؟
- نعم، كانت الفكرة بسيطة جدا، وقمنا بتنفيذها قبل يوم العيد بعدة أيام.
- وماذا حدث بعدها؟
- بعد الصلاة "هاج الإخوان وماجوا "، واتهمونا أننا خطفنا منهم الاستاد!
- كده..!
- بعدها قلنا لهم حسنا، فلتتولوا أنتم الصلاة القادمة، ولكن على شرط ألا تحضروا خطيبا من الأوقاف يكون منتميا لأمن الدولة! وافقوا وطبعا ضحكت عليهم أمن الدولة، أو عقدوا معها صفقة كعادتهم؟ الله أعلم! لكنى بعدها شعرت أننا قد تم اللعب بنا من قبل الإخوان، فلم أذهب لصلاة العيد بالخلاء بعدها إلى أن سافرت!

حان ميعاد صلاة العشاء، توضأنا وقال لي خالد أنه بعد أن اعتزل أخذ قرارا مع نفسه أنه لن يصلي إماما بأحد بعد الآن !

- لماذا؟
- لأنى كنت كما قلت لك سابقا، كنت اعتزلت أكثرمن مرة، وبعد كل مرة يطلبون منى أن أعود فألبى طلبهم، إلى أن اقتنعت أننى غير صالح كى أقود أحداً، وأتمنى يوما ما أن أصبح كاتبا فقط، أنا أكتب فى بعض المجلات العلمية مقالات متخصصة فى علم النفس، أنا الآن حر ومرتاح و غير مسئول عن أحد.
- قرار حكيم، ياريت تكتب مقالات للناس غير المتخصصين من أمثالى، على كل حال، هل تظن أنك ضللت أحدا؟
- لا، أبدا،أنا كنت فى مرحلة تغيير فى الأفكار، لذا كان على أن أنتظر!

- وعلى هذا تعاقب نفسك بأنك لن تصلى بأحد إماما؟..... هناك قصة حقيقية كتبتها أمريكية لا أذكر اسمها، اسم القصة" طعام وصلاة وحب "، ومثلتها جوليا روبرتس فى فيلم، تحت نفس الاسم. بعد طلاقها ذهبت لروما لتسمتع بالطعام، ثم للهند كى تصلى فى المعابد الهندية، ثم أخيرا إلى أندونيسيا كى تقابل هناك الحب. فى أندونيسيا قابلت معالجا بالأعشاب وعرافا فى نفس الوقت،حكت له حكايتها، فقال لها أن أهم شىء أن تسامح نفسها!
- أنا طبيب نفسى ولن تنفع معى هذه الحيلة! تقدم للصلاة!

بعد الصلاة سألته عن أى مراجعات أو تغييرات أخرى أجراها فقال :

- كنت أظن أن الخمينى أنقذ ثورة إيرن بأن قادها، الآن أقول ليته كان تركها بلا قيادة مثل ما حدث عندنا، كما أن مبدأ ولاية الفقيه الذى اخترعه هو مبدأ لا ينتمى للإسلام بأى شكل من الأشكال، بل هو مبدأ مضلل. صحيح أن حرب العراق هى التى فرضت علي إيران، ولكنه رفض أن يوقفها إلا بعد أن يدخل بغداد، وكان هذا خطأ فادحا. وأخيرا تحولت إيران لدولة ديكتاتورية صريحة.
- طبعا، أوافقك على كل ذلك وأكثر. هل تصدق أنه فى أول الثورة أيام وزير الخارجية نبيل العربى الذى كان قد سار خطوات فى طريق تطبيع العلاقات مع إيران، و أيضا عندما كنت أرى الوفود تذهب لإيران، كل ذلك أثار فى نفسى الخوف، هل تعرف لماذا؟
- لماذا؟
- لأن قادة إيران استطاعوا أن يفرغوا الثورة من مضمونها ويبقوا على شعاراتها، خفت أن ينقلوا تجربتهم لنا! طبعا لا يمكن أن نظل ننظر لإيران على أنها عدو، وعلى أن خطرها أكبرمن أسرائيل، بالعكس يجب أن ننظر للبرنامج النووى الإيرانى على أنه عامل إيجابى فى معادلة التوازن الاستراتيجى بيننا وبين إسرائيل،. لكن يوم أن تعودالعلاقات بيننا وبين إيران يجب أن تعود بحذر، ويجب أن تقف مصر على" رجليها" أولا.

ودعته لأنه كان لا بد أن أنصرف، وهو لا بد أن يسافر فى الغد إلى انجلترا.

هل يختار المرء أصدقاءه أم هم الذين يختارونه؟ هل الإنسان مسير أم مخير؟ من هم أصدقائى؟ من أنا؟ هذه الأسئلة تحمل بين طياتها ما تحمل!

٨- ثورة ٢٥ يناير

" إذا الشعب يوما أراد الحياة

فلابد أن يستجيب القدر"

أبو القاسم الشابى

فى كل مرة أنزل فيها لمظاهرات التحرير،وبعد ساعة من الزمن أنسى من حولى وماذا يهتفون وماذا يريدون، تغوص ذاكرتى و أسرح فى الماضى البعيد... هذا هو ما كنا نخطط له، هذاهو ما بذلنا له من أنفسنا ووقتنا وجهدنا ولكننا لم نوفق،هذا ما كانت تراه بصائرنا ولكن لم نراه رأى العين إلا بعد ثلاثين عاما، فى ٢٥ يناير، هذا هو ما آمنا به فعلا ولكن إرادة الله كانت أقوى وشاءت أن نرى الثورة وهى تتحقق ولا نشارك فى صنعها ولا فى مجرياتها.... لقد انتهى زماننا، هذه هى الحقيقة...!

هل فقدت أصدقائى هكذا مرة واحدة؟ نعم... هذه هى الحقيقة! يالهى! وحتى إن تقابلنا، فنحن لسنا نحن الذين كنا فى الماضى، لقد تغيرنا و جرت فى النهر مياه كثيرة! جزءا من أنفسنا تركناه وراءنا، هناك، ولن يعود! لا أستطيع أن أتعرف على أصدقاء جدد فى التحرير فلكل زمان رجاله!أعزى نفسى وأقول ليس مهما من حقق الثورة - الحلم، لكنه المهم أنها قد تحققت. أحيانا أقول لنفسى : لقد عشت من أجل الحلم، تبخر ثم عاد، ماذا تنتظر أكثر من هذا، متى ترحل؟!

قال الخيام :" وعيشنا طيف سراب فخذ حظك منه قبل فوات الأوان!"، وأنا قد نلت حظى كاملا، شاهدت وعشت الحلم وهو يتحقق، لقد قام الشعب المصرى وصرخ بوجه جلاديه وقال :" لا "....متى يكتمل الحلم؟ ومتى تضع الثورة أرجلها على بداية الطريق الصحيح؟ أعتقد أن مصر قد وضعت أرجلها فعلا يوم أن تم كسر حاجز الخوف ولا أعتقد أبدا أنه من الممكن أن يعود مرة اخرى طالما كان هناك من يمتلك الوعى والإيمان بمبادىء الثورة" كرامة، حرية، عدالة إجتماعية ".

يوم كتب الشهيد سيد قطب" العدالة الإجتماعية فى الإسلام "، هل كان بعيدا عما يحدث الآن أم أنها سلسلة من الحلقات المتواصلة عبر الأجيال؟ لماذا لا يرى الناس فيه سوى التطرف والتكفيروهما مرفوضان على كل حال؟ عموما تاريخ هذا الرجل يثبت بوضوح أنه لا توجد أفكار صالحة لكل زمان ومكان.

تدور فى ذهنى مسألة، أيهما أهم : الشعارات أم المضمون؟ هل نفرح بمن يمنينا بالأمانى المعسولة، ويمدح ثورتنا، ويمطرنا بوابل من الأغانى والبرامج الثورية، أم من يعمل فى صمت ويضحى بنفسه فى ماسبيرو ومحمد محمود، ومجلس الوزارء، وغير ذلك من أجل تحقيق هذه الشعارات على الأرض؟

لماذا لا أرى الوجوه حولى سعيدة؟ لقد أنجزالشعب المصرى أهم حدث فى تاريخه، ربما فى الخمسة آلاف سنة من عمر حضارتة، لماذا لا يحتفل الثوار بإنجازاتهم؟ الإجابة تأتينى سريعة : هذا الجيل يرفض أن يخدعه حكامه بالشعارات والإحتفالات، هذه الثورة تعنى محاسبة الحاكم وليس التصفيق له، والتهليل لأنجازاته، فالأنجاز هو وظيفة الحاكم وليس منّة منه. أتصور أن الجيل القادم لن يقتنع أبدا بنصف إنجاز، إنه يبغى الكمال، وهذه هى سمة الحضارة والتقدم.

بعد عام على الثورة أتذكره كأنه دهر كامل، لا يمكن إلا أن أعترف بأننى قلق لأنى خائف على مستقبل هذه الثورة.

يوم ٢٥ يناير، قبل ذلك اليوم بأسبوع، كنت فى الأوبرا أحجز تذاكر لى ولإبنتى ندى وخطيبها فى حفل موسيقى صوفية ممتزجة بموسيقى حديثة لفرقة ألمانية قادمة لمصر. بدأت المظاهرات فى هذا اليوم وكالعادة جلست أتابعها فى التلفزيون، واستغربت كيف يتركها النظام تمر هكذا؟ بدأت الأعداد تتزايد، قلت فى نفسى لا بد أن النظام قد أصابتة لوثة جعلتة يقف كالأبلة،هل يمكن أن تكون تلك المظاهرات بالإتفاق معه لإظهار الديمقراطية أمام انتقادات الغرب له؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بد وأنها ستنتهي خلال ساعات. قدرت أنها سوف تنتهي بعد صلاة العصر بقليل، وموعد الأوبرا فى الثامنة مساء، إذن سوف تكون هناك فرصة بالتأكيد لحضور الحفل.

بما أن هناك فرقة ألمانية سوف تكون موجودة بالحفل، فقد حصلت من الأوبرا على بعض الملصقات عن الحفل، وطلبت من مدرستى الألمانية "بتينا فان دار فاى" أن تعلقهم فى المعهد، وقلت كلمتين مختصرتين للطلبه، مفادهم أن هذا الحفل به تخفيض كبير للطلبة عند إظهار الكارنيه.

صليت العصر وانتظرت أن تنتهي المظاهرات، ولكنها لم تنته، المغرب، العشاء، لم تنته المظاهرات، بل ذهبت للتحرير... ماذا؟ التحرير؟ هذايعنى أنها غير مدبرة بالإتفاق مع النظام، إذن لا مفر من إلغاء فكرة الذهاب للحفل وانتظار ما ستسفر عنه الأحداث.بعد العشاء بحوالى ساعة قلت فى نفسى، لابد أن هذا النظام قد فقد عقله فعلا، هل ياترى يقطع الطريق على الأحداث أن تتطور كما تطورت فى تونس؟ ولكن كل الأنظمة الديكتاتورية تتشابه فى الغباء، فلماذا يكون النظام المصرى مختلفا عن ذلك؟ وقتها تذكرت محادثه لى مع فتحى الشقاقى الذى كان يتعجب ويقول، لماذا يتركنا النظام نعمل بحرية هكذا؟ ثم يجيب على نفسه، لا بد أن يأتى اليوم الذى ستنقض فيه علينا مباحث أمن الدولة، هذه الحرية لن تدوم.

أقول فى نفسى،نعم، لن يترك النظام المتظاهرون للصباح، بعد منتصف الليل تأتى سيارات المياه والمدرعات والقنابل المسيله للغاز، أقول: أيوه كده! لخبطنا الله يلخبطك!كان الكل يتساءل، هل تتحول مصر إلى تونس أخرى؟ بينما كنت أتساءل وأحاول دون جدوى أن أعثر على أية مصادر تمكننى من أن أفهم لماذا حدثت الثورة فى تونس.

يوم ٢٨ تأكدت من نجاح الثورة وأن مسألة استقالة مبارك أو إقالته هى مسألة وقت ليس أكثر، بعد ذلك بيوم أو يومين كنت فى كلية التربية الموسيقية بالزمالك، أعتذر لإستاذى فى البيانو شريف زين عن عدم استطاعتي الاستمرار فى كورس الإعداد للإمتحان، نظرا لأنشغالى بمتابعة المظاهرات.

كنت وقتها على وشك إنهاء برنامج التقدم لإمتحان البيانو **Grade 6** فى منهج كلية **Triniti** البريطانية، والذى يعقد فى كلية التربية الموسيقية بالزمالك مرتين فى العام. سألنى الدكتور شريف عن توقعاتي، قلت له إنها مسألة وقت، لابد لمبارك أن يغادر قصر الرئاسة، ليس أمامه خيار آخر.

هل يتوجب علىّ أن أشارك فى المظاهرات؟ كان هذا السؤال يبحث عن إجابه، بناتى ذهبن للتحرير، كل واحدة ذهبت مع خطيبها، كل من أعرفهم من أصدقائي يذهبون بشكل يومي، لماذا لا أذهب؟. كانت إجابتى على نفسى هى أننى خائف على مصير تلك الثورة، خائف بجد!

المظاهرات تعم مصر كلها وليس التحرير فقط، ولكن من حرك الثورة؟ من يحركها الآن هم أناس لا تعرف عنهم شىء، فما هو السيناريو الذى تتوقعه لنفسك هناك؟ طبعا أن أتعرف على أولائك القائمين على الأمور،

وهنا تكمن المشكلة، هم يسيرون بخطوات جيدة ولا يحتاجون ضيفا جديدا عليهم، هذا ما توقعته، وأظن أن هذا التفسير كان صوابا، كما أن ما أحتاجه أنا شخصيا هو الهدوء، حتى أستطيع أن أخمن أى مسار سوف تتخذه تلك المظاهرات فى المستقبل، حتى يتم الإطاحة بمبارك ونظامه. كل ذلك صحيح ولكن ما دوري أنا فى هذه الثورة، أو بالأصح، ما هو الدور الذى أتوقع أن أقوم به لنصرتها؟

ما كان يسيطر على تفكيرى وقتها هو الثورة الإيرانية، وكيف انتهت إلى ديكتاتورية قمعية، بعدها استبعدت فكرة التطورعن طريق الثورة، وكنت أرى أن السلامة هى فى التطور الديمقراطى الذى يمنع أي طاغية سواء كان فردا أم حزبا من خداع الشعب. حتى بعد إنتصار الثورة بثلاثة أشهر، لم أذهب لميدان التحرير ولا مرة، وكان بناتى يتعجبن مني قبل أصدقائي، ولكني كنت أقول لهم أننى سأذهب فى الوقت المناسب.

هل كنت أعاني من تأنيب الضمير للتخلف عن الالتحاق بمصر الثورة؟ فى الحقيقة أبدا، لقد انتهت سنوات النضال من حياتي منذ زمن بعيد، بعد أن كانت بالكاد قد بدأت، من المؤكد أننى لن أصبح مناضلا مرة أخرى، فأنا لست من الطينة التى خلق منها المناضلون، هكذا........

كنت أفكر بعقلي لا بعواطفي، لذا فلم أرغب فى أن أكون زائدا عن الحاجة، إنهم يفعلونها بكفاءة،" أتركهم فى حالهم "، كان هذا تقييمى للموقف.

لم يدهشني عزوفي عن الانخراط فى الفعل الثورى بطريقة عملية، لأننى كنت قد أخذت التحصين ضد العاطفة الثورية منذ ثلاثين عاما، أقصد الثورة الإيرانية، وهذا يعنى أن الثورات تحتاج ليس فقط للصوت العالى والمظاهرات والاعتصامات والاحتجاجات، ولكن أيضا للعقل، وهو ما كنت أحاول الاحتفاظ به لآخر لحظة، ولم يكن ممكنا ذلك إلا وأنا بعيد نوعا ما عن المشهد.

لن أبدأ فى نزول المظاهرات إلا بعد أحداث ماسبيرو، حين شعرت أن الثورة فى خطر.

كل ما سبق لم يدهشني، لكن الذى أدهشى عن نفسى فعلا هو الافتقاد للعاطفة! لو أن إنسانا أخبرني أنني سوف أظل بهذه الرزانة، والتفكير العقلانى، الذى يقترب من البرود العاطفى أثناء وبعد الثورة لم أكن لأتردد فى اتهامه بالجنون! لكن هذا ما حدث!

خوفي على الثورة والتفكير المستمر فى المنزلقات والمستقبل من ناحية، والإحباط الذى عشته بعد انحراف الثورة الأيرانية من ناحية أخرى أجهزا على طاقة الفرح الموجودة بداخلى.

البيانو هو آلة موسيقية تخاطب العقل أولا، بينما العود الشرقي يخاطب الوجدان أولا. ما فعله شوبان – من وجهة نظرى – هو أنه أدخل العاطفة فى مؤلفاته للبيانو، وما فعله نصير شمه هو إدخاله التفكير العقلى لآلة العود الشرقى.

الفقرة السابقة لا تتعلق بالموسيقى، بقدر ما أحاول تفسير ما حدث لى من برود عاطفي تجاه الثورة، متى سأفرح؟ بل متى سنفرح كلنا؟ هذا يتوقف على القرارات التى سوف نتخذها فى المستقبل ولا يوجد سوى العمل لتحقيق الأمل.

بعد مرور ثلاثة أشهر على الثورة أصبح واضحا أن الكبار، سواء من المجلس العسكرى، أو الأخوان أو السلفيين وكل الأحزاب السياسية الصغيرة المتناثرة هنا وهناك لا يرغبون فى الإستمرارفى تحقيق أهداف الثورة. لقد حققت الثورة لكل منهم ما كان يتمناه، ولم يكن يعرف الطريق لتحقيقه، وفى هذا الكفاية لمن أراد الهداية...!

سوف أرجع للماضى وللقارىء أن يعتقد ما يعتقد...!

قبل ظهور الإسلام كان هناك عدة محاولات متواضعة لعرب الجزيرة للخروج من الحيز الضيق، واكتساب أرض جديدة بها أسباب عيش ميسرة عن تلك التى عاشوا فيها. فشلت كل تلك المحاولات و كان لها أثر ضئيل. ما إن جاء الإسلام وانتصر على الكبار فى قريش، وما إن امتد الإسلام فى عهد عمروبدأت الدولة الإسلامية فى ترسيخ وجودها وبناء مؤسساتها، واستمر ذلك فى عهد عثمان، حتى أدرك الكبار أن الموضوع" جد"، فما المانع من الأنضمام" لثورة الإسلام"؟ لقد حقق الإسلام لهم ما حاولوه وتمنوه ولكن لم تكن عندهم القدره عليه.. إذن فلتبقى شعارات الإسلام كما هى ويظل علماء ورموز الإسلام يعظون الناس ويهذبون سلوكهم، ويتركون لبنى أمية وسادة قريش التجارة التى برعوا فيها من الأزل، وورثوها كابرا عن كابر، سوف ينعم الوعاظ والعلماء بالترف والأموال التى تمكنهم من تحقيق أهدافهم وتعاليمهم السامية، لامانع عند الكبراء والسادة السابقين أن يتنازلوا عن سيادتهم للجيل الجديد من علماء ورموز الإسلام، على أن يترك هؤلاء لهم الاقتصاد والأموال، وكانوا يعرفون أن السيادة ستأتى مرة أخرى فى وقت لاحق بعد السيطرة على الاقتصاد، وهذا ما حدث يوم خرج معاوية على

الخليفة على بن أبى طالب مطالبا بدم عثمان، وأخذ قميص الخليفة المقتول يعلق فى مساجد الشام حيث دارت الآلة الإعلامية الأموية و دارت بها و معها الأموال بسخاء، حتى انتهى الموقف باغتيال على الخليفة الرابع وتسليم الحسن السلطة لمعاوية مع أخذه التعهدات عليه بتسليم السلطة للمسلمين بعد وفاته مرة أخرى، كى يختاروا من يرونه أحق بها، كما سار الأمر بعد وفاة صاحب الرسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم..!

وافق معاوية على التعهدات براحة ضمير، وبراحة ضمير أيضا سلم السلطة لإبنه يزيد، وأخذ له البيعة علانية فى المسجد بعد أن وضع رجالا أشداء، ومعهم سيوف أشد على رقاب المعارضين من كبار الصحابة والمعترضين على الديكتاتورية القادمة...!

هكذا جرت الأمور باختصار، وهكذا اتضحت النيات المضمرة والحقيقية، واختفت الشعارات تاركة الحقيقة سافرة تعبر عن نفسها، ومن بعدها إلى اليوم نقول" يرتدى قميص عثمان" للدلالة على تناقض الظاهر مع الباطن واختلاف المعلن عن المضمر..!

كانت هذه المعادلة، وكان هذا هو الاتفاق غير المكتوب، والذى تم التعبير عنه فى القول السائد وقتها :" قلوبهم مع على وسيوفهم مع معاوية "...! ولكن كيف تم هذا...؟

من وجهة نظر قريش، هؤلاء المسلمون لا يفهمون شيئا عن الحياة.. الخليفة عمر يعيش زاهدا وبلا حراسة فيتم اغتياله، وعثمان يحيط الغاضبون بداره فلا يصدر أمرا بقتلهم أو حتى تفريقهم بالقوة، حقيقة لم يكن هناك وقتها غازات مسيلة للدموع، ولا بنادق رش تعمى العيون، لكن كان هنالك الأتباع الذين يستطيعون بالتأكيد الدفاع عن الخليفة، وإنهاء هذا الاضطراب فى يوم أو يومين على الأكثر، وكانت الأغلبية الساحقة من الشعب مع الخليفة ومع إنهاء الشغب.. ولكن عثمان رحمه الله لا يصدر الأمر بالدفاع عن المنصب الرفيع و يفضل أن يموت شهيدا، ومن بعده وعلى نفس المنوال يستشهد الخليفة على بن أبى طالب ولكن بيد مسلم متعصب يدعى عبد الرحمن بن ملجم، وهذا المتعصب قام بتكفيره أولا ثم بعد ذلك قتله (هل يذكركم هذا بشىء)...!

إذن هؤلاء الخلفاء يعيشون فى مثاليات لا مكان لها على أرض الواقع، ولا يدركون أن ثروات البلاد المفتوحة تحتاج لنظام امبراطورى كى يحميها، ولا يحتاج لمبادىء مثل العدل والمساواة والتقوى..! لن يشتري العدل أتباعا يحمون الطبقة الحاكمة، ولن تصد التقوى الطامعين والمشتاقين

للسلطة، أما المساواة فهى اختراع ليس إلا...! كان هذا هو باختصار تفكير الكبار من بنى قريش..!

استقر الأمر لبنى أمية فى الظاهر فقط ولعبوا دور الثورة المضادة ببراعة، فالمظاهر الإسلامية يتم احترامها، وحتى إن صلى أمراؤهم وهم شاربون الخمر، خلافا لكل ما جاء فى القرآن، فهذه أمور كثيرا ما تقع من الحكام وما على الرعية سوى الصبر...

ولكن فى الحقيقة لم تنقطع يوما الثورات، فاستشهد الحسين ابن بنت رسول الله، واستشهد عبد الله بن الزبير ابن أسماء بنت أبى بكر الصدّيق، وغير ذلك من الأفاضل، والذين لا يتطرق الشك فى إيمانهم وتقواهم وتمثيلهم الحقيقي لمبادىء الإسلام...استشهدوا دفاعا عن الثورة الحقيقية وقاموا بفضح الثورة المضادة ورموزها، ولا يزال التاريخ يذكر يزيد بن معاوية والحجاج الثقفي وأمثالهم بالعار والشنار، يسبق أسماؤهم الاحتقار، ويسوّد الاشمئزاز من أفعالهم صفحات الكتب التى نقلت لنا التاريخ...!

نعود لثورة ٢٥ يناير،...، إذن على الأقل كانت هناك ثروات واقتصاد واعد، وثروات لا حصر لها فى بداية الفتح الإسلامى، تبرر الاتفاق الذى تحدثنا عنه سابقا، ولكن فى حالة الثورة المصرية،يبدو أننا أصبنا بالعمى حتى لا ندرك أننا فقراء ولا يوجد عندنا ثروات سوى الثروة البشرية بالأساس، وأن السلطة التى يسعى كل طرف من الأطراف للأنفراد بها ما هى إلا وهم..!

الثورة هى أعظم حدث فى التاريخ المصرى ومازالت مستمرة وأن كان بطريقة مختلفة، بالرغم من أنها" لخبطت" نظامى الذى كان يتكون من دراسة اللغة الألمانية والموسيقى، فلم أعد قادرا سوى على متابعة أحداث الثورة وكتابة تلك المذكرات، ولكن هل أنا حزين لذلك؟ طبعا لا، هذا أقل ثمن يمكن أن يدفعه المرء. ثم أن الفرصة ما زالت موجودة لإستكمال الدراسة ولم ينته العمر بعدالآن الآن .

٩- مغزى الحكاية، محاولة رقم "١"

" الفهم الكامل يعنى الصفح الكامل "

مفكر يونانى قديم

" لا تصدقوا الظاهر وابحثوا فى الأعماق "، لا أتذكر أين قرأت هذه الكلمات، لكن هذا هو ما سأحاول القيام به فى هذا الفصل، والفصل الذى يليه.أحاول فهم وتفسير بعض الأحداث والمواقف التى ربما أكون قد حكيت عنها من قبل، وحتى إذا حكيت مواقف جديدة فالهدف الأساسي منها ليس السرد فقط،ولكن أيضا التحليل.

عندما أعود بذاكرتى للمدرسة الثانوية، وأحاول أن أفهم لماذا كان موقفى سلبيا من الدين والمجتمع، وهل كان الأمر مجرد مرحلة مراهقة، وإعجاب بالذات ينطبق عليها المثل السائد" خالف تعرف "، أم أن الأمر أعمق، ويحتاج لفهم مواقف أطراف متعددة؟ أجدنى بلا تردد منحازا للرأى الثانى.

مع بداية البلوغ تبدأ شخصيه المرأهق فى التفتح للحياة، ويأخذ التطور منحى مغايرا لمرحلة الطفولة التى لم يكن الطفل فيها يحتاج إلا للرعاية الصحية والغذائية والنفسية، ولكن بالتأكيد لا تشغله ولا يمكن أن يفهم أصلا ماذا تعنيه حياة الكبار، فلا يمكن لطفل فى الخامسة أن يفهم مثلا ماذا نقصد بعبارة مثل" خبرة الحياة تقول أن على المرء أن يسلك كذا أو كذا "، ولكن مع فترة المراهقه يبدأ الشاب فى التساؤل بينه وبين نفسه على الأقل، هل يدرك الكبار أن له متطلبات تختلف عن متطلباتهم؟ يرغب المرأهق دائما فى أن يمر ببعض التجارب بنفسه بعيدا عن مراقبة الآباء والمجتمع،من أجل اكتساب" خبرة النمو ".

هذه المقدمة ضرورية لكى أفهم ما حدث وقتها، وقت أن رفضت الدين، ورفضت سلطة الأسرة وسلطة المجتمع، ولم أعترف سوى بنفسى أو ما يوافق ما أفضله.لا شك أن الموقف السابق يحتوى على كثير من النزق والتسرع و الطيش، وكل ما يمكن قوله من مرادفات وكلمات متوافقة مع ذلك المعنى، ولكن حين أكون مجبرا على الاختيار بين" كبت النمو" وبين الطيش، سوف أختار الأخير، بلا تردد.

لم أقرأ ولا أعرف إن كان مصطلح" كبت النمو" قد تم استخدامه من قبل، ولكن أجده مناسبا تماما للموقف الذى واجهته فى مرحلة المراهقة من كل من الأسرة والمدرسة والمجتمع. طبعا تختلف ردود أفعال المراهقين على هذا الموقف، ولكنى أتحدث عن نفسى وموقفى فقط، لذا فسوف أحاول أن أتتبع جذور هذا الرفض.

فترة المراهقة : الجنس - الاختيار- الحب

حينما تعرفت على الدين لم أتعرف سوى على الأوامر والنواهى فقط، ولم يكن هناك فرصة للتعرف على الرب نفسه، وحين تبدأ فى البحث فى مدى عقلانية الأوامر والنواهى، ولا تجد لذلك تفسيرا سوى أنها عادات مجتمع ليس إلا، وأنها لا تناسب حياتك أنت الشخصية، لابد أنك سوي تمد تفكيرك مباشرة وتتشكك فى من أصدر هذه الأوامر. كنت ما زلت فى صدر شبابى، ولم تكن فكرة أن تحريم الموسيقى هو أمر مختلف فيه مطروحة وقتها، ولم أكن أملك من أدوات البحث والتفكير ما يؤهلنى للخوض فى أمور شائكة كهذه. الدين يقول إن الموسيقى حرام، إذن لا حاجة لى بهذا الدين، كانت الأمور وقتها هكذا.

طبعا ليس الموسيقى فقط، الأمر أعمق من هذا. ألا يكون لك اختيار فى عبادة الله، كان هذا أمرا مزعجا بالنسبة لى وقتها. كيف أؤمن بمن يقول لى :" إما أن تعبدنى وإما النار تنتظرك فى الآخرة"! أين هو الاختيار؟

ليس الحنان فقط ولكن أيضا العدل. الأغلبية الساحقة من الناس ترغب فى أن ترى العدل يتحقق فى هذه الحياة وأن ينتصر الحق. ولكن ماذا إذا شاهد مراهق فى السابعة عشرة من عمره أن الحياة ليست عادلة ولا تسير وفقا لمقتضيات الحق؟ سأذكر القارىء مرة أخرى بالحادث الذى وقع فى الشارع حين طلب منى جمال وزياد أن أضرب هشام" بونيه ". لا أقصد أن أعيد الحادث مرة أخرى لكن أستعيد ما حدث لجمال وزياد رحمهما الله باختصار.

كان كلاهما متعثراً فى الدراسة مما سبب لهما مشاكل جمة. منذ دخولنا مرحلة الثانوى ويشكو زياد من ذلك التعثر، فماذا كان رد فعله على ذلك؟ بعد أن تفشل محاولاته فى فهم المواد الدراسية يجلس بالساعات على المكتب فاتحا الكتب المدرسية أمامة، وفى نفس الوقت رافضا أن يستذكرأية

كلمة منها، ويعتبر أن مجرد جلوسه قد أبرأ ذمته أمام الله، وأن على الله أن يكتب له النجاح...!

حكى لى ذلك كما حكى لى أنه لم يعد يخاف من العقاب فى الآخرة، لأنه سوف يكون قد تعود على النار، ومن أجل أن يثبت ذلك لنفسه كان يدق كل يوم على يده بالشاكوش حتى يتعود على الألم...!

أيضا كانت فكرة الألم وفكرة العذاب عندى مرفوضتين تماما، ولا يمكن أن أؤمن لا بإله ولا بدين يعتمد على هاذين المبدأين.

أما جمال فبعد أن رسب فى الثانوية العامة كان يسألنا دائما :

هو الناس مش بتقول أن ربنا عادل؟ طب ليه ما نجحتش زيكم؟

بعد أن أعاد الثانوية العامة، واستذكر دروسه ونجح تخلى عن فكرة أن الله ليس عادلاً، ولكن أنا لم أتخل عنها...! أو على الأصح لم أقبل أن أعترف به ولا بالدين قبل أن أفهم الفلسفة من وراء ذلك وهو ما لم يتحقق إلا بعدها بسنوات.

كانت نهاية زياد نهاية حزينة، حيث أنه بعد أن فشل فى أن يجتاز امتحان الثانوية العامة ولعدة سنوات لم يكن هناك مفر من أن يدخل الجيش، وفى الجيش حدث له مرض نفسى، وبعد أن انتهى من الجيش،عمل كسائق لودر، وكسب أموالا معقولة من ذلك، مما جعل التفاؤل يعرف طريقه مرة أخرى إلى نفسه والتزم إسلاميا وأطلق لحيته، ولكن لم يتمتع طويلا بهذا التفاؤل،فقد كتب له القدر نهاية سريعة.أصيب بروماتيزم فى أسفل الظهر ولم يعد قادرا على العمل على اللودر، يأس من الحياة "وقعد فى البيت"، ورفض الأكل حتى توفاه الله.

ما كنت أحتاجه فى فترة ثانوى هو" الحب" أولا ثم" الحنان" ثانيا، وهو ما افتقدته فى الأسرة وفى المدرسة وفى المجتمع عموما، فى الأب أولا وفى الرب ثانيا، وهذا يعنى مباشرة : السلطة، بالنسبة لى وقتها إذا لم تستطع السلطة أن تلبي مطالبي واحتياجاتي الإنسانية فقدت شرعيتها. أعتقد أن الحاجة للحب والحنان ليست حاجتى أنا فقط، ولكنها حاجة كل إنسان ولكن فى فتره المرأهقه يكون الاحتياج على أشده.

هناك رأى لفرويد فى مثل هذه الحالة، وهو أن الموضوع برمته يتعلق بالجنس. إما أن يستطيع المرء حسب فرويد أن يقمع رغباته الجنسية التى لا حدود لها، ويحول فائض تلك الطاقة إلى عمل يتسامى من خلاله على ذاته وتنشأ الحضارة، وإما لا يستطيع أن يسطر عليها، وتتحول عنده إلى

عقدة.وبما أننى كنت أرفض تماما أن أمارس الجنس إلا مع حبيتى المنتظرة، وبالطبع لم تكن موجودة، فوفقا لفرويد فقد حولت الطاقة الجنسية المكبوتة للموسيقى.

الغريب أننى سوف أقرأ فيما بعد رأى فرويد عن التسامي بالغريزة الجنسية ليس فقط فى كتابات فرويد بل مع سيد قطب" فى ظلال القرآن"! إذن فقد كان قطب مقتنعا برأي فرويد فى هذه المسألة! معروف أن سيد قطب لم يتزوج.

طبعا فى فترة المراهقة يكون هناك احتياج لإثبات الذات والاستقلال بالرأى، ارتديت البنطلونات الشارلستون الضيقة من أعلى وواسعة من عند الأقدام، أطلت شعرى وسط معارضة الأب والأم كالمعتاد. الغريب أن من وقف معى فى تطويل الشعر هو جدى لأبى،لأنه كان يرى أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان له شعر، ولم يحلقه إلا ثلاث مرات طوال حياته!

الافتقاد للحب والحنان لا يعنى أن يتلقى المرء هاتين العاطفتين فقط، بل أن يعطيهما أيضا، فهما عمليتان تبادليتان، بمعنى أن المرء يحتاج للأخذ والعطاء. لم تكن الأسرة ولا المدرسة ولا المجتمع ولا حتى الأصدقاء موضوعا لهاتين العاطفتين، ولكن كانت الموسيقى.

لقد أعطتنى الموسيقى الشعور بالتسامى وحب النفس، والاقتناع بأن اللحظات التى أقضيها فى حجرتى معها هى أفضل ما يمكن للمرء أن يحصل عليه فى هذا العالم، وبالتالى فقد أعطيتها نفسى. لم أجد فى الأوامر والنواهى الدينية سوى قيود بلا معنى، لأن الله نفسه كان غائبا عنى وقتها، وإذا لم يكن الرب قادرا على إعطاء المرء ما يحتاجه والمرء هنا يعنى" أنا "، فلا يوجد عندى حل آخر سوى إهمال هذا الموضوع برمته. كان إثبات وجوده من عدمه وقتها محاولة ليس لها معنى.

هذه محاوله لتفسير ما حدث فى فترة اللاأدرية، وأيضا تفسير لمذا اهتممت بالتصوف بعد ذلك. فالله فى الفكر الصوفى هو الحب قبل شىء.

مرة من المرات حكى صديق لى أنه كان فى جلسة تحشيش مع صنايعي، أخذ الصنايعي يتحدث عن حبه لله، وأن الله هو الذى يلهمه أفكاره حين يتعقد الموضوع فيما يتعلق بصنعته، قال له صديقى كيف ذلك وأنت تحشش؟ فرد عليه قائلا أن الله يحبه، فهو يعرف أن الحشيش لازم له وأن الله سيغفر له ذلك، ولأن الله يحبه،فقد منعه من شرب الخمر، ومن الزنى،ومن أشياء أخرى أسوأ من الحشيش.

يمكن للمرء أن يتخيل الحب على أنه كلمة مبتذلة من كثرة استعمالها فى الأغانى العاطفية والأنتاج السينمائى، وربما يتسارع لذهنه العلاقة بين الرجل والمرأة. لاشك أن الحب بين الرجل والمرأة هو أحد أهم صور الحب، لكنه ليس هو المجال الوحيد. ليس هذا هو المكان المناسب لتفصيل ذلك الأمر لكن باختصار الحب الحقيقى العميق - أيا كان موضوعه - هو الوحيد القادر على أن يخرج المرء من شرنقته وعزلته، ليتصل اتصالا مباشرا بالحياة، وبكل ما فيها من قيم الحق والجمال.

منذ شبابى وأنا أعانى مرضا نادرا من أمراض الروماتيزم وليس له علاج،ولكن مسكنات فقط على ما لها من آثار جانبية. بعد أن تزوجت بحوالى سنتين، سمعت أن هناك من يعالج بالإبر الصينية، كانت طبيبة فى عمر والدتى، ما أن بدأت فى تحسس الأماكن التى سوف تضع فيها الأبر حتى انطلقت منى آهات التألم، فى كل مرة أتألم فيها تبدى هى تعاطفها مع آلامى. انتهت الجلسة وتحسن الوضع قليلا، ولكن لم يكن يغنى عن الدواء. بعد أن عدت للمنزل بعد أول جلسة حكيت لزوجتى أننى شعرت بحنان تلك الطبيبة فضحكت، وتفهمت الموقف، خصوصا أننى طوال اليوم ظللت أغنى لليلى مراد :" ياطبيب القلب، بقيت حبيب القلب"!

هذا هو ما أقصده بالحنان وهو أمر يختلف عن الحب، وإن كان الاثنان يجمعهما العاطفة الصادقة.

أن تجد من يتألم لآلامك، أن يدرك أحزانك دون أن يبغى من وراء ذلك غرضا ما غير التعاطف الإنسانى الخالص،هذا التعاطف هو لون من ألوان" الحنان ".

بالرغم من اختلافى التام مع الإمام" ابن تيميه" اختلافا يكاد يكون فى كل صغيرة وكبيرة، إلا أننى أتعاطف معه كشخص مر بمحن كثيرة، وعذب وسجن فى سبيل مبادئه، خصوصا أنه كان يحلو له وهو فى السجن أن يلهج بالدعاء :" ياحنّان يامنّان برحمتك أستغيث ". أنا لا أحب ابن تيميه ولكن عاطفتى تجاه محنته هى التعاطف، ونفس الموقف مع الإمام أحمد بن حنبل وموقفه فى أثناء محنة خلق القرآن.

من من الشباب لا يهتم بكرة القدم؟ من لا يتمنى أن يصبح فى مثل نجوميتهم، وينال تصفيق الجماهير مثلهم؟ هكذا كان الحال معى، من الكرة الشراب فى الطرقات إلى فريق الأشبال باستاد الشرقية، كنت أعتقد أننى سأصبح لاعب كرة قدم، انتظمت فى التدريبات فى الملعب الكبير، إلى أن جاءت أول مباراة حقيقية.

استعد الفريق للذهاب لماتش فى شرويده (قريه صغيرة بجوار الزقازيق)، كان الملعب مفتوحا، بمعنى أنه لم تكن هناك أسوار ويمكن أن ترى قروية تسحب الجاموسة وتختصر الطريق وتنزل أرض الملعب دون أن يسبب هذا اعتراضا من أحد! المهم أننى ظللت احتياطيا طوال الشوط الأول وأنا أتحرق شوقا لنزول المعلب، فى الشوط الثانى نزلت أخيرا وبدأت فى اللعب ولكن ليس كما فى التدريب. كان جسمى الضئيل مقارنة بأجسام اللاعبين القوية عاملا هاما فى أنه - ومع كل التحام - كانت الكرة تضيع منى، حاولت أن أعوض ذلك بالجرى المستمر من الدفاع للهجوم والعكس إلى أن احتسب الحكم ركلة جزاء لفريقنا وقال لى المدرب :" ادخل وهات جون يا كابتن "، ترددت واعتذرت أننى لست فى الفورمة، اختار لاعبا غيرى، شاط الكرة وأحرز هدفا، بعدها اقتنعت أننى لن أكون مميزا فى كرة القدم، وتخليت عن التصفيق والإعجاب المنتظر من الجمهور والذى عشت معه أوهاما لذيذة قرابة العام، كان هذا تقريبا فى الإعدادية!

ما أقصد أن أقوله أني عشت فترة المراهقة كما يحياها أى شاب، لم يكن عندى كبت من أى نوع، ما عدا الأمور الجنسية، وكانت اختيارا قبل أن تكون خجلا أو دينا. مارست عدة رياضات بعد أن تركت كرة القدم، ولكن ليس بغرض الاحتراف ولكن كهواية. مارست التنس بشقيه والكروكيه والسباحة.

مهما وصفت لا يمكن أن أبالغ فى أهمية الاختيار الحر عندى فى أى مرحلة من مراحل عمرى، سواء كنت لا أدريا أم مؤمنا كان الاختيار هو حجر الإساس فى كل ما أقوم به. للحقيقة ما عدا ستة أشهر عشتها فى كنف المبادئ السلفية.

طبعا أؤمن بالمثل القائل :" إن جاء لك الجبر خده بالرضا "، فلا تخلو حياة المرء من أمور هو مجبر عليها، لا يستطيع أن يغيرها، ولكن الاختيار الذى أقصده هو عندما تتاح للمرء فرصة اختيار. غنى عن الذكر أن القرآن نفسه يقول بالأختيار، وينهى رسوله عن إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام، لأن ذلك فى المفهوم القرآنى يسمى" النفاق" وهو أسوء من الكفر.

غالبا ما يلعب الأب دورا محوريا فى ضبط إيقاع الأسرة، وتكييف أفرادها مع قيم وتوقعات المجتمع. لم يشذ أبى عن ذلك الموقف، لكنه كان يتمتع بخصوصية لا بد من الحديث عنها بشىء من التفصيل.

العائلة

بعد أن خرج أبى على المعاش بفترة، أحسست أن الحياة انسحبت من تحت أقدامه، كما هو الحال مع كل من يشغل منصباً رفيعاً، ثم يجد نفسه يحيا فجأة فى الفراغ. سألته إذا ما كان يرغب فى أن أسجل معه قصة حياته فوافق، مع الأسف لم أسجل معه سوى القليل وبعدها فقدت تلك التسجيلات، لذا سأعتمد على الذاكرة، يحكى أبى :

نشأت فى أسرة مكونة من ثلاثة أخوة ذكور وأربع نساء، فى قرية العزيزية بالشرقية، كنت الابن الأكبر، وكان والدي مدرس لغة عربية. بعد أن حصلت على شهادة البكالوريا (تعادل الثانوية العامة الآن) بمجموع مرتفع (وقتها) وكنت من المائة الأوائل على الجمهورية، ذهبت كى أقدم أوراقى فى كلية الهندسة كما كنت أخطط لنفسى وفى الطريق قابلت أصدقاء لى يستعدون لتقديم أوراقهم فى كلية الطب وأقنعونى أن أقدم معهم فى كلية الطب لأنني فى كلية الهندسة سأكون وحيدا، إذا أنهم كلهم سوف يقدمون فى كليه الطب. عندما عدت سألنى أهلى إذا ما كنت قد قدمت الأوراق فى كلية الهندسة؟ فأخبرتهم أننى غيرت وجتهى لكلية الطب، فقالوا لى :

- على بركة الله.

لم يستسغ أبى أن أنتقل للدراسة وحدي فى كلية الطب فهاجرت العائلة بأكملها للقاهرة! كنت أذاكر كثيرا فى الكلية، لكن لم تكن درجاتى تتناسب مع ذلك المجهود، إلى أن وصلت للسنتين الآخيرتين فى الكلية حتى بدأت أفهم المواد الدراسية بشكل أفضل، وكنت أذاكر ساعات أقل وحصلت على درجات أفضل.

بعد التخرج عملت فترة بفارسكور، ثم انتقلت للعمل فى ميت غمر محافظة الدقهلية، هناك تعرفعت على الدكتور صلاح عبد القادر طبيب النساء، أجرنا سكناً مشتركاً، وفتح كل منا عيادة، كانت عيادته تقابل عيادتى. كنت وقتها طبيبا بوزارة الصحة، أنهيت الماجستير ثم قررت أن أدرس الدكتوارة فى تخصص جديد وقتها اسمه" المسالك البولية ".

كان عائد العيادتين لا بأس به، مما سمح لنا بأن نوظف طباخاً كى يقوم على شأن الطعام، كما اشترى كل منا سيارة، كانت سيارتى من طراز انجليزى عتيق" أوستن ".

فى يوم جاء لى الدكتور صلاح وقال لى :

- اسمع، بالطريقة دى إنت مش ها تنجح فى الدكتوراة، لازم تقفل العيادة وتتفرغ للمذاكرة .
- مقدرش .
- ليه؟
- مين هايدفع أجرة البيت والطباخ وبنزين العربية؟ ماهية الوزارة إنت عارفها لا تكفى كل ذلك.
- ملكش دعوة، أنا هادفع ده كله وابقى ردهم لى ياسيدى بعد ما تاخد الدكتوارة وترجع لعيادتك تانى!

وفعلا، اغلقت العيادة حتى حصلت على درجة الدكتوراة فى المسالك البولية. بعد أن فتحت العيادة مباشرة جاءت لى عملية صعبة، وعندما سألت أهل المريضة لماذا لم يذهبوا لفلان أوفلان وهم من المشاهير؟ أخبرونى أنهم ذهبوا لهم وأشاروا عليهم بأن هناك دكتورحصل على الدكتوارة حديثا فى هذا التخصص الجديد،" ودلونا عليك ".

توكلت على الله وقلت لهم" إن شاء الله هاعمل العملية، لكن لا أضمن النتائج لأن العملية صعبة" فوافقوا، رفضت أن أتقاضى أية مبالغ إلا بعد أن تنجح العملية، ولم أحدد مبلغا معينا، كل همى وقتها أن تنجح العملية، وأثبت نفسى فى هذا المجال الجديد.

بعد شهر حضر أهل المريض والسرور يعلو وجوههم، وأخبرونى أن العملية نجحت. سألونى عن المصاريف فقلت لهم" اللى تدفعوه، أجرتى أنا أخدتها بنجاح العملية ". ما كان منهم إلا أن أعطونى مائتى جنيه!

كان هذا مبلغا محترما، إذا أن مرتبى وقتها من وزراة الصحة هو ١٧ جنيهاً فى الشهر. سددت ديونى للدكتور صلاح، وبدأت مسيرتى فى العمل الطبى.

نقلتنى وزارة الصحة للزقازيق، ففتحت عيادة بها وبدأت الأمور فى الاستقرار. فبدأت أفكر في الزواج، وبدأت أبحث عن زوجة. قال لى صديقى الدكتور الفوال" العروسة عندى، بنت خالى عباس ".

أول ما دخلت فيلا الدكتورعباس قلت فى نفسى هذه ليست فيلا كما أخبرنى الدكتور الفوال، بل هى قصر! من المؤكد أنهم سوف يرفضونى! حكيت للدكتور عباس عن ظروفى الماليه بكل صراحة، وقلت له إننى لا أملك سوى وظيفتى وعيادتى وسيارة لا أزال أسدد فى أقساطها، ولا أضمن أن تظل العيادة تعمل بكفاءة أم تتغير الظروف!

إلى هنا انتهت حكاية والدى، وحتى تكتمل الصورة لا بد أن أذكر شيئا عن عائلة والدتى.

جدى عباس رحمة الله عليه كان وحيدا على بنات، أرسله أبوه لأنجلترا كى يأخذ الدكتوراه فى الصيدلة، حصل على الدرجة سنه ١٩٢٠، أثناء دراسته كان ينوى أن يتزوج إنجليزية ويستقر فى انجلترا، فمنع عنه أبوه المصروف كى يجبره على الرجوع لمصروتزويجه من مصرية! فعلا عاد لمصر، وعندما لم تجد الحكومة المصرية وظيفة تليق به، فتحت لى" مصلحة الكيمياء" وعينته رئيسا لها. مازال المبنى موجودا حتى الآن بالقرب من رمسيس.

أنجب جدى عباس خمس بنات ولم ينجب ذكوراً، وعلى هذا كان الهم الأكبر هو أن يزوّجهن، فانتدب لتلك المهمة المقدسة ابن أخته، الذكر الوحيد أيضا على أخوته البنات : الدكتور الفوال الذى تزوج من كبرى بناته" نادية".

قام الدكتور الفوال بتزويج هدى للدكتور عبد الحى مشهور الذى سيصبح رئيس جامعة طنطا، وزوّج" رضا" والدتى من أبى الذى سيصبح نائب رئيس جامعة الزقازيق، وزوّج" اعتدال" والتى نسميها دوللى من الدكتور نبيل طبيب فى القوات المسلحة، وأخيرا زوّج" وفيه" التى نسميها توفى من الدكتور حسين طبيب النساء الذى قام بتوليد ابنتاى ندى وسارة!

كانت والدتي متفوقة دراسيا مما أهلها للدراسة بكليه الطب،وحين تزوجت كانت فى السنة الثانية ولم تكن هناك كلية طب فى الزقازيق فاضطرت لترك الدراسة كى تتفرغ للزواج وإنجاب الأطفال الذين هم : أنا وبعد سنتين، أخى هانى.

التمرد على السلطة

يعد الأب فى الأسرة المصرية هو صاحب السلطة الأولى، لا يمكن أن أقول إن أبى كان" سى السيد "، لا، على العكس، لم نتعرض لا أنا ولا أخى، لعنف جسدي مثلا، لكن كان متسامحا ومدركا لحدود دوره فى الأسرة، وهذا الدور يتلخص فى العمل المستمر الذى يكفل للأسرة الرفاهية وترك أمر التربية والتوجية للأم.

بعد أن حصل والدى على شهادة الدكتوارة قام بالتدرييس فى جامعة أسيوط لأن وقتها لم يكن هناك كلية طب فى الزقازيق، فكان نظامه عبارة عن

ثلاثة أيام كاملة يقضيها غائبا عن الأسرة فى أسيوط، والأربعة أيام المتبقية من الأسبوع يقضيها ما بين المستشفى فى الصباح والعيادة فى المساء.

منذ ثانيه إعدادى سيكون ما سأفتقده فى الأب هو تماما ما سأفتقده فى الرب: الغياب فى مواجهة التغيرات الجديدة وفرض الحضور عن طريق تنظيم الحياة على طريقة المجتمع وقوانينه وعلى رأسها احترام السلطة والدين.قامت الأم بدور الأب فى التوجية، لم يكن مطلوبا منها ولم تستطع أن تجعل من نفسها سلطة فى مواجهة أولادها. كان المجتمع يتغير ببطء لكن بثبات. سوف تكون التفاصيل هنا غير ذات جدوى كبيرة، إذ أن ما واجه أسرتنا الصغيرة هو نفسه ما واجه معظم الأسر فى المجتمع المصرى فى نفس الوقت.

بعد الحرب الخاسرة فى ٦٧ تعرضت صورة الزعيم الخالد للاهتزاز بشدة بل والنقد، فكما ذكرت سابقا كانت أول مرة أنطق فيها بلفظ" ابن كلب" كانت فى أول يوم فى المدرسة الإبتدائية بعد وفاة الرئيس عبد الناصر ١٩٧٠. لقد أخذنا عمرو وأنا هذا اللفظ من أهالينا ولم نكن طبعا مؤهلين كى نناقشة بموضوعية، ولكن ككل طفل فى مثل هذه السن الصغيرة يتبنى أراء أسرته بدون تفكير ويعتبرها الصواب المطلق.

كانت هذه هى أول بوادر التمرد على السطلة : رئيس الجمهورية" ابن كلب"! مهما كان اختلاف المرء مع رئيس الجمهورية، إلا أنه من الصعب أن ينشأ الطفل على رفضه بهذه الطريقة، لكن ما أستطيع أن أقوله الآن أن عبد الناصر هو الذى" عمل كده فى نفسه "، ولكنه لم يضر نفسه فقط ولكن أضر بالجميع. مهما بلغ بى التمرد إلا أننى كنت أتوق فعلا أن أرى رئيس الجمهورية شخصا محترما من قبل الأهل والأصدقاء وهذا ما لم يحدث.

ربما كانت هذه الشتيمة شيئا عاديا بالنسبة لأطفال كثيرين، لكنها بالنسبة لعمرو وبالنسبة لى كان التلفظ بها شيئا فظيعا يخرج عن حدود التصور، ويعنى افتتاح مرحلة جديدة فى علاقة الطفل بالمجتمع.

فى العام ١٩٧١ وحين قبض السادات على علي صبري وشعراوي جمعه وضياء الدين داوود وآخرين وألقى بهم فى السجن، فيما عرف وقتها باسم مراكز القوى، لم أتمالك نفسى من الإعجاب بهؤلاء الذين تحدوا سلطة أكبر رأس فى الدولة، وحاولوا أن يقوموا عليه بانقلاب. عندما سمعت الرئيس السادات فى التلفزيون يشرح كيف أنهم قد أعدوا مؤامرة تقضى بأنهم يقومون بالإستيلاء على المواقع الحيوية فى الدولة وحين يذهب

الرئيس السادات كى يلقى بيانا فى ماسبيرو على الأمة يتم منعه من ذلك،ويقولون له : ممنوع...!

لا أستطيع سوى أن أتأمل فى الصحف بإعجاب صورة أولائك الذين واتتهم الجرأة أن يحاولوا منع رئيس الجمهورية شخصيا من دخول مبنى الإذاعة والتلفزيون، بالنسبة لى كان هؤلاء أسماء مغمورة لم أسمع عنها إلا وقتها، إلا أنه قد تم ترجمة ذلك عندى بأن الإنسان المغمور يستطيع أن يتحدى أكبر سلطة فى البلد، بل ويحاول القيام بإزاحتها والجلوس مكانها....!

لم يعد هناك شك بالنسبة لعلماء النفس والإجتماع أن هناك صراعا خفيا بين الطفل ووالده، مهما كانت مثالية الأب. الأمر لا يتعلق بالأخطاء بل بالسلطة وشرعيتها. سوف يكون مصطلح" قتل الأب" مصطلحا علميا مستخدما فى المراجع العلمية للإشارة لهذه القضية، وبالرغم من أن المصطلح تم صكه بعد أن وجد العلماء قصة حقيقة فى العصور القديمة، لكنهم يستخدمونه بالمعنى الرمزى وليس الحرفى.

نفس الصراع يمكن أن نتتبع آثاره بين المرء وربه، أيا كانت الديانة التى يدين بها...! الحديث عن الأعماق غالبا ما يثير المشاكل ويستثير الرفض فى أول الأمر، لكن مع مرور الأيام يتعود المرء على أن ما تم تلقينه من مبادىء ثابتة، وما شب عليه من اعتقادات راسخة هى أمور أبعد ما تكون عن الحقيقة،وأنه لا بد للأنسان الراغب فى معرفه الحقيقة كما هى، أن يخوض هذا الصراع المرير بنفسه. إن قررت أنك ترغب بالحقيقة وأن تختبرها بنفسك لا أن تخضع لما يحكونه لك عنها، لن يجدى أن يخوض عالم أو فقيه هذا الصراع نيابة عنك، إن لم تخضه بوعى وتصميم سوف تخوضه نفسك فى غيبة عنك....! وهذا هو ما حدث معى، صممت أن أخوضه بكامل الوعى ومن الجذور وليس من خلال المسكنات والحلول السطحيه المتداولة فى المجتمع.

إن قررت أن تتبع أراء المجتمع والدين التقليدى وتمتثل لكل الأكلشيهات المتداولة فأنت أيضا إنسان صالح لاغبار عليك ومعظم الناس كذلك، لكن عليك أن تعود أذنيك على سماع آراء مخالفة لما هو سائد، دون أن يسبب لك هذا اضطرابا كبيرا.

الصراع الدنيوى على السلطة علاجه هو الديمقراطية، ولكني كنت صغيرا جدا على أن أفهم معنى الديمقراطية، أما الصراع الدينى فقد كان الوصول للحل المناسب عن طريق آيات الله فى القرآن والإتصال الشخصى مع القرآن الكريم بعد أن عدت من فرنسا كما سبق أن ذكرت.

فى العام ١٩٧٣ سوف تحقق مصر لأول مرة انتصارا على إسرائيل مما يعيد لى الثقة مرة أخرى بالسلطة وشرعيتها. ليس فقط بالنسبة لطفل فى الثالثة عشر، بل وأيضا بالنسبة للجميع يعد النصرعلى العدو هو أحد مصادر الشرعية.

فى ٦ اكتوبر كنت ألعب الكرة الشراب مع أصدقائى فى مكان واسع فى المساكن الشعبية التى تم بناؤها بعد حرب ٦٧ وذلك ليسكن فيها أهالى السويس وبور سعيد والإسماعيلية، بعد أن أجبرتهم الحرب على ترك مساكنهم، كانت العلاقة بيننا وبين الشباب المهاجرين جيدة جدا، إلا أنهم كان عندهم ميلا دائما لتكوين شلل منهم خاصة بهم ومغلقة عليهم وهو أمر مفهوم لى كل حال. عدت للمنزل وقت العصر كى أتناول طعام الغداء فوجدت الراديو مفتوحاً بصوت عال، وإذا بأمي تخبرني أن الحرب قامت...! عاد أبى من الخارج وسرعان ما أبدى رأيه :

الظاهر أن المرة دى صحيح مش زى الفشر بتاع ٦٧.

فى نفس الوقت الذى استعدت فيه الثقة فى الجيش المصرى وفى السلطة، اقتربت من السلطة الأبوية بالمنزل، بل اقترب الشعب المصرى كله من بعضه، لكن ليس بالدرجة الكافية.ما زال الباطن يموج بالكثير.فى ٢٤ اكتوبر٧٣، بعد الحرب بأيام قليلة تم عرض مسرحية" مدرسة المشاغبين ". لايمكن القول أن هذه المسرحية اخترعت التمرد على سلطه المدرسة والناظر، ولكنها بلورت ما كان يحدث بالفعل.وقتها كنت فى ثالثة إعدادى، وأنتظر بفارغ الصبر أن أنتقل للثانوى حتى أعيش ما نتناقله سرا عن عن الطلبة الفاقدين" بتوع الثانوى" الذين يضربون المدرسين، وعن الطلبة الذين يحملون مطاوى فى جيوبهم....! لا يوجد طالب فى مصر وقتها وإلا تعرض للضرب والإهانة من المدرسين عدة مرات فى حياته، لذا كانت مظاهر العنف التى نسمع عنها من طلبة ثانوى ولا نستطيع أن نجدها فى المدرسة الإعدادية هى أفعال مبررة من وجهة نظرنا وقتها، كانت بمثابة طريق شائك فيما يسمى ثقافة" أخذ الحق باليد "، حين يعجز القانون ليس فى حالة واحدة ولكن على المستوى الجماعى تسود تلك الثقافة وهذا هو ما كان... من يستطيع وقتها أن يشتكى مدرسا؟ لا أحد، كانت الثقافة السائدة وقتها عن أولياء الأمور أن ذلك هو حق المدرس، وهو من باب التأديب، وهذا مرادف عندهم للتربية والتعليم، ولكنه لم يكن عندنا كذلك، كان معنى ذلك أننى أرفض سلطة المدرس فى أن يقوم بعملية التربية والتعليم، وأرفض المجتمع الذى أعطاه تلك السلطة.

فى عام ١٩٧٤ وقعت حادثة الفنية العسكرية، وهى باختصار أن مجموعة من الشباب الذين يرغبون فى إقامة دولة إسلامية قاموا بمحاولة انقلاب على السادات عن طريق محاولة الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية، واستخدام الدبابة الموجودة بها والأسلحة التى سوف يستولون عليها من الجنود هناك، استخدام ذلك فى غزو قصر الرئاسة وإسقاط الرئيس وإعلان الدولة الإسلامية.....!

لم يكن لى أن أعرف شيئا وقتها عن تلك القضية لولا أن أ.خ، جارنا الذى يقطن فى منزل يبعد عن منزلنا مائة متر كان طالبا فى كلية الهندسة وفى نفس الوقت أحد المتهمين وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. لم أكن أعرفه معرفه شخصية لكنى كل" الحته" كانت تعرفه وتعرف قصته. فى ١٩٧٩ عندما يخرج من المعتقل ويحكى لى عن تجربته سوف أكون قد انتقلت منذ زمن قليل من السلفية إلى الإسلام السياسى، الذى يرى أن واجب المسلم الأول هو العمل على إقامة دولة إسلامية، أسمع كلامه ويبدو لى كأنه بطل أسطورى خارج من رحم التاريخ، لأنه كان خارجا للتو من معتقل قلعه صلاح الدين بعد خمس سنوات قضاها هناك...! كانت محاولة الانقلاب الفاشل التى قاموا بها قد تمت بقياده" صالح سرية" الفلسطينى. أنقل شيئا يسيرا من التحقيق معه وبالذات رأيه فى حرب ٧٣ والسادات حتى يتسنى للقارىء أن يطلع على بذور العنف، ليس مهما أن الانقلاب فشل، ولكن المهم أن ثقافة العنف التى سنتعرف عليها حالا من خلال رأى قائد الأنقلاب الفاشل سوف يتم بعثها من كتب التراث مرة تلو المرة :

إن ثقافة المتهم (صالح سرية) ظهرت من خلال بعض الأسئلة لم يعرضها مباشرة، ولم يحرص المحقق على أن يأتي بثقافة المتهم بصورة مباشرة متتالية، ولكي نوضح وجهة نظرنا في ذلك ففي حديث عن حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ قال المتهم (صالح سرية) مثلاً :

" أريد بهذه المناسبة أن أوضح رأيي بالنسبة لهذه الحرب، وأنا أقولها عن عقيدة : إن أي حرب تنتصر فيها بلد عربي على العدو الصهيوني فهي شيء مشرف نحمده للرئيس" السادات" أما موضوع تآمرنا ضده فهي قضية آخرى ترجع إلى عقيدتي من ضرورة إقامة دولة إسلامية عقائدية، والإطاحة بنظام الحكم القائم في سبيل ذلك بصرف النظر عن من يتولى هذا الحكم أو عن أعماله..... ". انتهى.

حتى لا نخرج عن السياق، كان هذا الوسط الذى نشأت فيه يحمل فى طياته إجابة على سؤال جوهرى : لماذا التمرد؟ كان الأمر يبدو غريبا لأننا

كلنا كشعب مصرى نكاد نرفع السادات لأعلى المراتب بعد نصر ٧٣، فماذا حدث حتى يقوم بعد النصر بسنة واحدة فقط بضعة شباب بمحاولة الانقلاب عليه؟ حتى قائد هؤلاء الشباب يعترف له بالفضل فى نصر ٧٣ كما نقلت من موسوعة ويكيبيديا، ثم بعدها بأقل من عشر سنوات فى ٨١ يقوم خالد الإسلامبولى الملازم بالجيش المصرى باغتياله...! كيف يمكن تفسير ذلك..؟ ابحث عن الثقافة..

لم يقتصر العنف فقط على نظم الحكم العربية ولكنه كان متبادلا بينها وبين جماعات الإسلام السياسى، كل منهما يدعى الشرعية، هذا يدعى شرعيه طرد المستعمر الغاصب، ووراثه ثورة الاستقلال والآخر يدعى الشرعية الدينية التى شكلت وتشكل ثقافة الجماهير. بما أننى انتميت فترة من الزمن إلى جماعات الإسلام السياسى، والتى خضت فيها تجربة الإعتقال وما بعده، وكانت من أخصب فترات حياتي، لذا فأقول أننى أفهم جيدا الشعور الذى يتملك المرء وقتها أنه هو الممثل الشرعي الأساسي للوطن إن لم يكن الوحيد.

سأخرج قليلا عن نطاق المذكرات وأقول إننى أتمنى أن تكتمل الديمقراطية الوليدة بعد ثوره ٢٥ يناير، وتصبح ديمقراطية راسخة يتخلى فيها الجميع عن فكرة التغيير بالعنف، وقبل ذلك يقتنع شركاء الوطن بشرعية الآخر، ما دام يلتزم بالدستور والقانون، ويؤسس جماعاته وأحزابه بطريقه علنية شفافة، ويتبنى فلسفة التغيير السلمى، كل ذلك من شأنه أن يصحح الأخطاء، فالديمقراطية أوسع من أن تنحصر فى صناديق انتخاب.

يحلو للمرء دائما أن يقول إنه يتبنى الثقافة التى يرى أنها صحيحة، لكن الحقيقة هى أن ثقافة المجتمع، ثم الجماعة التى يعتنق دينها، والأسرة التى نشأ فيها، وشلة الأصدقاء التى ينتمي لها هى التى تتحكم فى المرء من حيث يدرى، أو من حيث لا يدري. إذا تقبل المرء ثقافة المجتمع يصبح بالتعبير الرسمى مواطنا صالحا - وهذا ما لم يحدث معى - وإذا رفضها يصبح خارجا على المجتمع وقيمه، حتى وإن لم يأت بأفعال عنف، أتحدث عن وجهة نظر المجتمع له.

لم أكن وحدى الذى رفضت ثقافة المجتمع فى السبعينيات، ولكنى عشت فترة مجموعات كبيرة من الشباب رفضت كل منها المجتمع بطريقتها، كنت تجد هناك الجماعات اليسارية جنبا إلى جنب فى الجامعة مع الجماعات الإسلامية، وأيضا كانت المجموعات التى تأثرت بأفكار الهيبز الأوربية وقامت بتمصيرها، هذا فضلا عن عشرات بل مئات الجماعات الهامشية.

لم أنضم لأى منها فى مرحلة الثانوى، ١٩٧٤-١٩٧٧ لكن كانت لى طريقتي الخاصة. عندما يرفض المرء سلطة ما، عليه أن يبحث عن سلطة بديلة تملأ هذا الفراغ الذى نتج عن الرفض، مع الأسف طوال سنوات كنت أبحث عن هذه السلطة البديلة ولم أجدها.

دخلت سنة أولى ثانوى وأنا مهيأ نفسيا لرفض سلطة المجتمع، والتى تتمثل فى سلطة الأب الغائب، والمدرسة المتسلطة، و قيم المجتمع المحافظ، ما إن قرأت عن الوجودية حتى وجدت ما يملأ الفراغ الناتج عن رفض السلطة. أن تحيا وفقا لقناعاتك لأن ما يقوله المجتمع ليس أكثر من هراء، عليك أن تبحث عن قيمك الشخصية، وتلك هى القيم الحقيقية مهما كانت غرابتها - هذا هو الدرس الأول فى الفلسفة الوجودية. أما الدرس الثانى فهو أنك إن أردت أن تحيا وفق قيمك فقط فلا بد أن تتحمل الثمن، ثمن معارضتك للقيم السائدة!

فى منتصف السبعينيات – لا أتذكر التاريخ تحديدا - تلقى أبى مكالمة من رئيس الوزراء فؤاد محيى الدين يخبره فيها أن عليه أن ينهى عمله فى أسيوط فورا كأستاذ جامعى،لأنه قد تم اختياره ليكون واحدا من ثلاثة قاموا بتأسيس كلية طب الزقازيق، الاثنان الآخران كما أخبرنى والدى هما الدكتور محمد عبد اللطيف والدكتور عثمان الهايج، رحم الله الجميع.

كان من المتوقع أن يقضى معنا الوالد فترة أطول بالمنزل لأن السفر ثلاثة أيام فى الأسبوع لأسيوط قد انتهى، ولكن الذى حدث أن سفرياته للخارج تكررت بشكل دورى من أجل عقد اتفاقات عديدة مع الجامعات فى الخارج، ليس فقط لكلية الطب، ولكن أيضا للمستشفى الجامعى الذى كان يترأس مجلس إدارته، وهكذا ظلت العزلة بيننا وبينه على حالتها، أو على الأقل بينى وبينه.

١٠- محاولة رقم "٢"

" فى السياسة ليس مهما ما تفعله، بل المهم هو نظرة الناس لما تفعله "

ونستون شرشل

فى هذا الفصل سوف أعرض ليس فقط وجهة نظرى فى الأحداث ولكن أيضا وجهات نظرأفراد أسرتى فى شخصى.

الأب

للحق لم يكن الأب متسلطا، بالعكس، كان متسامحا لدرجة مذهلة، لذا فيبدو الأمر غريبا أن أرفض سلطته، وللحق أيضا لم أرفضها ولكني كنت أتطلع لسلطة مستقلة هى سلطتي أنا.

عندما تعلمت تدخين السجائر فى أولى ثانوى مع الشلة، لم أستسغ فكرة أن نقوم بذلك فى سرية، ويبدو الأمر كأننا أطفال يخشون من آبائهم، وعلى ذلك فقد تطوعت وقمت بإبلاغ أبى أننى أدخن...! لم أكن أتوقع منه الضرب فهو لم يفعلها أبدا معنا من قبل، لكن على الأقل كنت أتوقع" الشخط والنطر والزعيق" وكنت مستعدا له ومستعدا كى أدافع عن وجهة نظرى، لكن كل ذلك لم يحدث، بل فوجئت بأنه تقبل الأمر بصدر رحب، وقال لى،إننى الآن بالغ، وكبرت بما يكفى كى أدرك مصلحتى، وأدرك أن التدخين ضار بالصحة...!

أيضا عندما رفضت الدين قلت له ببساطة، إننى لم أعد أؤمن بالدين ولا بالله، ولا بالمحرمات الجنسية، وأخذت أحدثه عن أن ماركس يرى أن العالم فى بدايته كان يحيا مشاعية جنسية (بالرغم من أننى لم أؤمن يوما بالشيوعية) وأن المحرمات الجنسية ما هى إلا اختراع من المجتمع كى ينظم بها العلاقة بين أفراده، ولكنه أضفى عليها قداسة دينية بدون داع.....، لم يكن هذا الاعتراف أمامه فقط كما كان فى الإعتراف بالتدخين،ولكن كان أمام أمى أيضا التى انتفضت وبدت كأنما أصابتها الصاعقة، وطالبته بأن يتدخل

ويمنعني من الاستمرار في هذا الهراء، بينما ظل هو على هدوئه، يبتسم في أسى ويقول لها : عندما يكبر ويفهم الدنيا سوف يؤمن بالله ويعود للدين...!

أما ما لم يكن يتسامح فيه هو إهمالي لدروسي في الثانوية العامة لأنني كنت مشغولا بتسجيل وإستماع فيروز والموسيقى الكلاسيكية...! ببساطة كانت الموسيقى لها الأولوية عندي، لكنها لم تكن كذلك عند أبي... كلما دخل على حجرتي الخاصة ووجدني أستمع للموسيقى في هيام يستشيط غضبا ويقول لي قولته المأثورة :

- أيمن يابني، إنت Hopless case أي حالة ميئوس منها بلغة الطب...!
- كثير من العباقرة لم يتم تقديرهم إلا بعد وفاتهم وبفترة طويلة!
- ولكن ماذا يستفيد المرء من التقدير بعد أن يكون قد مات ـ لن يشعر بهذا التقدير على أية حال...!

يبدو أن طريقة التفكير هذه واقعية - براجماتية، فالمرء يجب أن يقوم بما يعود عليه بالنفع في حياته. ولكن هناك وجهة نظر أخرى كنت أفشل دائما أن أنقلها له، وهي أن المرء إنما يجد احترامه لذاته عندما يفعل ما يريده، حتى وإن لم يجد من وراء ذلك شيئا ملموسا في حياته.

قبل امتحان الثانوية العامة بأيام معدودة دخل على حجرتي وقال لي بلهجة لا ينقصها الحزم :

- أعتقد أنك سوف ترسب في الامتحان، لكن إذا حدثت المعجزة ونجحت ب ٥٠% سوف تدخل أي كلية أو معهد يناسب مجموعك، لا تطلب مني أن تعيد الثانوية مرة أخرى لأنني لن أسمح لك بذلك، ولا تطلب مني أن أدخلك كلية في رومانيا وتعود بعدها بسنة كما يفعل الدكاترة زملائي مع أبنائهم.

لم يزد على ذلك وكما دخل على الحجرة فجأة خرج فجأة...!

لابد أن أعترف أن تلك الكلمات القليلة الثقيلة قد جعلتني أشك في قدراتي، حيث إنني كنت قد تعودت في السنوات الماضية أن أهمل الدروس حتى شهر الإمتحانات ووقتها أبدأ في تكريس نفسي للمذاكرة وفقا للمثل القائل:" البكا على راس الميت "، حقيقي لم أكن أعرف ذلك المثل العظيم وقتها لكن كانت لي قولتي المشهورة :" لما ييجي الامتحان ابقى أذاكر للامتحان "...! لكن ما أدراني، ربما كانت الثانوية العامة شيئا مختلفا؟

كانت مفاجأة كبيرة لوالدى حين حصلت على مجموع أكثر قليلا من ٧٠% فى الثانوية العامة وهو وقتها أهلنى لدخول كلية الهندسة، إذ أنها كانت أول سنة يتم تطبيق نظام رياضة وعلوم فيها واندفع كل الطلاب للقسم العلمى أملا فى كلية الطب فكانت النتيجة أن الهندسة أصبحت متاحة بمثل هذا المجموع المنخفض....!

بعد السنة الإعدادى فى هندسة اسكندرية، طلبت من أبى مصاريف السفر لفرنسا، فرحب بذلك بينما كانت والدتى تنتابها الشكوك حول سلامة موقفة....!

لكن فى الحقيقة لم يكن أبى ينظر لى فقط على أنى حالة ميئوس منها، لكنة ينظر لى أيضا على أن عندى عقل راجح، لكن مع الأسف لا أعرف كيف أستفيد منه فى المذاكرة.

كانت تنتابه الدهشة عندما أحصل على تقدير جيد فى كلية الهندسة، لأنه كان يرانى مشغولا" لشوشتى" فى نشاطاتى الإسلامية، وليس عندى وقت للمذاكرة...! كان يحاول أن يلفت نظرى على استحياء أننى لو حصلت على تقدير جيد جدا فإنه باستطاعته، وعن طريق معارفه أن يعمل على تعيينى معيدا بالكلية، ويحاول أن يقنعنى أن هذه الوظيفة تناسبنى تماما. كنت أخبره برفق أيضا أن فكرة أن أصبح مدرسا أو أستاذا جامعيا هى أبعد ما تكون عن تفكيري، وأن المستقبل الحقيقي الذى أفكر فيه هو مستقبل الإسلام والحركة الإسلامية..! كان يستشيط غضبا ويقول لى :

- ما تسيب الكلية أحسن وتروح تحارب فى أفغانستان....!
- لو أن السوفييت دخلوا مصر لن أتردد فى أن أرمى المسطرة الهندسية وأمسك بدلا منها كلاشينكوف..!

وتنتهى المحادثة على ذلك.

بعد الحملة الفرنسية على مصر انتفض الشعب المصرى بكل طوائفة، ولم يهدأ حتى أخرج" الفرنساويين" من البلاد. بعد أن فشلت ثورة عرابى واحتل الأنجليز مصر، كان الهدف الأكبر لكل الحركات الوطنية هو" الإستقلال "، وعندما قامت ثورة ١٩١٩ كان شعارها" الاستقلال التام أو الموت الزؤام "، بعد أن حصلنا على الإستقلال فى ١٩٥٦ وغادرت القوات الإنجليزية قناة السويس بلا رجعة، حصلنا أخيرا على الإستقلال.

لم تمر سوى عقود حتى أدركنا أن الاستقلال الذى حصلنا عليه هو استقلال منقوص، وجوهر الأمر أننا لم نكن نستطيع أن نعول أنفسنا، وأن

اقتصاداتنا سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية هى اقتصادات تابعة، سواء للشرق أوالغرب، ليس هذا فقط بل تسليح الجيش يعتمد على الخارج أيضا.

قريب من هذا حدث معى. كانت كلمة الإسقلال تفعل بى كما تفعل الموسيقى الحالمة بالآذان : كلمة سحرية! الاستقلال هنا يعنى الإستقلال عن العائلة أولا، ثم عن المجتمع ثانيا. كلما شاهدت فيلم" أنا حرة" لإحسان عبد القدوس أتذكر نفسى وقتها.

فى الإسكندرية، فى المدينة الجامعية بسموحة، بدأت أول خطوات الاستقلال عن الإسرة. من حسن الحظ أن التنسيق فى المدينة الجامعية أدخلنى المدينة الجامعية الجديدة نظرا لصغر سنى، وهكذا حصلت على غرفة مستقلة. كم كنت سعيدا أن حصلت عليها لأنى كنت أخشى أن يتم " تسكينى" فى غرفة مزدوجة أو ثلاثية.

فى يوم كنت عائدا من الخارج فى الواحدة صباحا، أوقفنى الحرس واقتادونى للمدير :

- مواعيد المدينة الساعه ١١، بعد ١١ مش ها سمح بدخول أى طالب!
- الكارنيه بتاعى أهه، مفيش حد يقدر يمنعنى من دخول المدينة، ومن فضلك عشان عايز أنام لأن ورايا محاضرات بكره...
- ها طلب البوليس إذا حاولت تدخل بالعافية!
- اتفضل... أنا مستنيهم فى غرفه ٢٠٧!

بعد مهاترات سمح لى بالدخول وأنا أسأل نفسى وقتها ما الفرق بين سلطة الأسرة وسلطة مدير المدينة الجامعية؟ وما هو معنى الاستقلال الذى حصلت عليه؟

كان هناك بضعة أصدقاء لى مغتربين يؤجرون شقة خارج المدينة، ولكن لم يكن لى مورد مالى مستقل يسمح لى أن أفعل مثلهم، يومها كتبت جملة واحدة :" الإستقلال فى جوهره هو استقلال اقتصادى ".

فى ليلة رأس السنة قررت أن أحتفل بها فى المدينة الجامعية، قمت بشراء زجاجات بيرة وأدخلتها خلسة، ثم دعوت بعض أصدقائي من المسيحين والمسلمين واحتفلنا بالليلة، حرصنا على ألا يشعر بنا أحد، لا من مشرفي المدينة، ولا من أعضاء الجماعات الإسلامية التى كانت منتشرة وقتها، كم أزعجنى ذلك الإختفاء، أولا حين أدخلت زجاجات البيرة للمدينة

كان لا بد أن يتم فى الخفاء، ثم عندما شربناها كان ذلك لا بد أن يتم أيضا فى الخفاء. أين هو الاستقلال إذن؟

أثناء محاضرة فى الكلية وجدت مكانا فى الصف الأول بجوار طالبة فجلست بتلقائية، بعد قليل جاء لى طالب من الجماعة الإسلامية يطلب منى أن أغادر إلى الخلف لأن تلك المقاعد مخصصة للبنات فقط، سألته إذا ما كانت إدارة الجامعة قد قامت بذلك التخصيص؟ فأجاب بالنفى وبرر ذلك بأنه أمر دينى، قلت له :

- أنا لن أتحرك من مكانى إلا فى حالة واحدة فقط وهى أن تقول الفتاة التى بجوارى أنها متضايقة من وجودى..

ثم سألتها إذا ما كنت ضايقتها وترغب فى ألا أجلس بجوراها، فأجابت بالنفى، فقلت له :

- عايز تطبق الدين طبقه على نفسك ولكن ليس لك سلطة علىّ...

أخذ يسرد الآيات والأحاديث وطبعا لم أكن أستمع له، ووجدت أنه من غير المناسب أن أصدمه وأقول له أننى غير مؤمن لا بدين ولا بإله، فقط تمسكت بحريتي الشخصية، لما لم يجد فائدة منىّ انصرف. ما شعرت به وقتها أن الاستقلال هو كلمة هشة جدا فى المجتمع المصرى.

استقيظنا ذات يوم فى شهر فبراير على جو دافىء، فقررنا أن نحتفل بهذه المناسبة فأحضرنا زجاجات البيرة، واشترينا مايوهات وذهبنا للسباحة على شاطىء ميامى. أخفينا الزجاجات فى الرمال، تسابقنا للوصول للصخرة و قضينا وقتا ممتعا. تمشيت وحدى على الصخرة، ونظرت للبحر، كانت المياة رائقة جدا، لدرجة أننى استطعت أن أرى بعض الأسماك من خلال الماء.

وقتها شعرت بفراغ رهيب لم أعرف سببه، رجعنا للشاطئ وأخرجنا البيرة من الرمل وأفرغنا الزجاجات فى جوفنا، وعدنا للمدينة الجامعية.

كانت هذه هى المرة الثانية التى أشرب فيها بيرة، صارحت نفسى بعدها أن طعمها لا يروقنى وفعلا لم أشربها من بعد ذلك. لكن ما صارحت به نفسى وكان أهم من البيرة هو أننى غير سعيد، أين هى السعادة وأنا وحيد؟ تمسكت أكثر وأكثر بالأمل أننى سوف أقابل يوما ما حبيبتى، فهى التى سوف تعطى الحياة معناها وأن الإستقلال ليس له معنى دون المشاركة.ولكن الأملاً يظل أمل، وعلى المرء أن يواصل حياته، وذهبت بعدها لفرنسا فى الأجازة الصيفية.

أعود لأبى مرة أخرى...

بعد اغتيال السادات، جاء خالد لزيارتى، ففتح له أبى الباب، وبعد أن أنهينا جلستنا وانصرف حذرنى أبى بأنه لا يرغب فى أن يدخل أحد من أصدقائى لمنزله مرة أخرى :

- إنت عارف أمن الدولة بيعملوا إيه فى البيوت اللى بيدخلوها؟ يلاقوا تلفزيون يكسروه، مرتبه يشقوها، مش عايز يعملوا كده فى بيتى....!

- ....!

مرة أخرى أواجه حقيقة أننى ضيف فى هذا المنزل، وأن السلطة المطلقة فيه للأب...!

هذه الحقيقة كانت أوقات الخطر فقط، لكن ما عدا ذلك كنت أستقبل أصدقائى بحرية، بل يستطيعون قضاء الليل فى المنزل، وبعد أن ضاقت بى حجرتى الصغيرة خصوصا أيام الإمتحانات التى كنا نقوم فيها بعمل معسكر، انتقلت لغرفة الصالون حيث أستطيع أن أستضيف ثلاثة وربما أربعة أصدقاء للمذاكرة سويا أيام الامتحانات، كما سبق وقلت، لم يكن هناك مذاكرة سوى أيام الإمتحانات.

يوم امتحان الميكانيكا فى السنة الثانية، كان يبيت معى يسرى ومحمد نجيب، سهرنا وقتها للصبح ولم ننم وجاء وقت الإمتحان ولا يزال محمد يشرح لنا فى مسألة يراها مهمة، نزلنا على السلالم وهو يشرح لنا، أخذنا تاكسى وهو يشرحها لنا، وصلنا الإمتحان متأخرين حولى نصف الساعة، وما أن استلمت ورقة الأسئلة حتى وجدت تلك المسألة... الحمد لله....!

من المؤكد أن الفضل فى ذلك يرجع إلى أن أبى كان متسامحا لدرجة كبيرة فى مثل هذه الأمور، أكثر من هذا، كنت قد عدت للتدخين وقتها، وكنت أدخن فى غرفتى بكل حرية، كان أبى" ليبراليا" فى مثل تلك الأمور التى تتعلق بالحرية الشخصية.

حكى لى صديقي أنور عما كان يعانيه مع أبيه عند أية مناقشة يختلفا فيها، إذ كانت تنتهي ببوكسات من قبل أبيه...! كان صديقى أنور كثيرا ما يسهر معى للمذاكرة،ولكن حتى نقرأ كتباً ونتناقش فيها، ثم فى الثانية ليلا أوصله لبيته بالموتوسيكل الذى اشراه لى والدى، وكنت قد علمت نفسى عليه وكادت تحدث كارثة أول يوم لولا ستر الله.

في الحقيقة لم تكن المذاكرة تستمر بينى وبين أنور سوى نصف ساعة على الأكثر، ثم تبدأ القراءات والمناقشات حول ذلك الذى قرأناه. أذكر وقتها قرأنا سويا كتاب لرءوف توفيق عن أفلام سينيمائية وغير ذلك، أيضا كنا نستمع سويا لبحيرة البجع لتشاوكوفيسكى. بعدها بسنوات طويلة عاد أنور من رحلة الحج، و تحول إلى سلفى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، قلت له إذا كان ذلك هو اختياره فهو حر، لكن إذا كان المتزمتون فى السعودية أخافوه من الله فذلك هو أنور الذى لا أعرفه.

لم يكن أبى غائبا فى ذلك الخضم من المناقشات، مرة سألنى وكان يتفرج على برنامج للشعراوى فى التلفزيون وسألنى :

- ما رأيك فى الشيخ الشعراوى؟
- حديثه يناسب مجتمعاً زراعياً ثابتاً، لكننا نتجه لمجتمع مدينى متغير،وعلى ذلك لا أستطيع أن أسمعه و...!
- بلاش تخاريف...!

كانت القرية مازالت بداخله حتى بعد أن" لف" بلاد العالم، ووافق على الكثير من القيم الإيجابية الحديثة.

طبعا بالنسبة لما كان يعانيه صديقي أنور من لكمات، كانت كلمة تخاريف كلمة" حنينة" جدا جدا..! أن تعاني من كلمات هو أمر مختلف تماما عن أن تعاني من لكمات..!

بعد أن تم اعتقالي فى الزقازيق، وقبل ترحيلي إلى القاهرة بلحظات اقتادونى لغرفة، وأدخلونى فيها، وجدت أبى ينتظرني ويقول لى :" لا تعاند كثيرا، أى حاجة يدوها لك فى المعتقل لازم تأكلها، وخللى بالك من صحتك ". كانت هذه أول مرة أشعرفيها أنه يهتم بى حقا، ويحبنى حقا..!

بعد أن خرجت من المعتقل جاء أقاربنا للتهنئة فقال له زوج عمتى :

- يجب أن تكون فخورا بأيمن لأنه ضحى بنفسه فى سبيل الوطن..

لم أكن أتوقع أن يكون رد أبى :

- أنا فعلا فخور به.....!

أيضا بعد أن اغتال متطرف يهودي لا أذكر اسمه، اسحق رابين، رئيس الوزراء الإسرائيلي، قال أبى ونحن فى جلسة عائلية وهو يفتخر :

- أيمن ده فى يوم من الأيام كان متطرفاً....!

حتى ذلك اليوم أحتار فى تفسير ذلك....!

أيضا لابد أن أقول إننى استفدت منه فى بعض المواقف التى اكتشفت بعدها أن رأيه أقرب للصواب من رأييى. مرة وأثناء الزيارة فى المعتقل طلبت منه أن يحضر لى سجائر المرة القادمة لأنها قد نفذت منى، رفض وقال لى أن التدخين أمر خاطىء، ولا يمكن أن يشجعنى عليه. وقتها احترمت فيه أنه لم يخضع لفكرة أننى معتقل، وأحتاج للتسلية، أو الترفية، الخطأ خطأ ولا يجب التشجيع عليه.

إذا ذكر الفخر فلا يسعني سوى أن أفخربأبي، ويحق لى أن أفخر...! لقد كرس حياته لأسرته ولم يجن منفعة ذاتيه قط..! حتى السجائر لم يكن يدخنها، فقط يتفرج على منشتات الكرة ويشجع نادى الاسماعيلى...! أيضا يهوى الفرجة على الأفلام الأجنبية الكلاسيكية ذات المستوى الرفيع أو الكوميديا، هذا هو كل ما كان يستمتع به فى الحياة.

مرة اصطحبنا للسينما كى نشاهد فيلم" الاختيار" ليوسف شاهين، بعد أن عدنا للمنزل قال لى :

- أنا لم أفهم شيئا من هذا الفيلم، هل فهمته أنت؟

أخذت أشرح له ما فهمته من الفيلم، تعجب وقال لى أنه لا يحب تلك الأمور المعقدة..! كانت الحياة عنده أبسط من ذلك، كانت مبادئه واضحة وسهلة الفهم : أن تحيا لأسرتك وتعمل على إسعادها عن طريق توفير الحياة السهلة المرفهة، وأن تراعى واجباتك الدينية.

هذا النوع من إنكار الذات الذى عاش فيه أبى هو ما كنت أراه غير مناسب لشخصيتي...! لاشك أننى عشت فى الحياة أوقاتا كثيرة لنفسى، وهذا ما كان أبى يستغرب له، مرة قال لى :

- إنت عايز تعيش على مزاجك؟
- طب أعيش على مزاج مين؟

كانت فكرة أن يعيش المرء الحياة كما يريد فكرة غريبة على أبى، بالرغم من أن أصدقاءه الأطباء ومعارفه فى الجامعة، كثيرا منهم كان يعيش الحياة بالطول والعرض، لكنه لم يكن يفكر فى ذلك أبدا، بالتأكيد لا يمكن أن أقول عن نفسى أننى عشت الحياة بالطول والعرض، ولكن عشت كما أريد أن أعيش، لا كما يريد المثل الأعلى للمجتمع أن أعيش.

كان أبى مثله مثل الكثيرين من جيله، يرى أن المثل الأعلى للمرء هو أن يحيا كي يقوم بواجبه تجاه أبويه وتجاه أسرته وتجاه عمله. أعتقد أن جيلي أنا تأثر بهذه الفكرة أيضا فى نفس الوقت الذى تأثر بفكرة أن يحيا

المرء لنفسه، مما جعل منه جيلا مشوشا، لا ينتمي لهذا ولا لذاك انتماء نهائيا، ربما كان جيل أولادى هو الذى عاش على مزاجه، هذا إذا فهمنا هذا التعبير على أنه عاش لنفسه أكثر من أن يعيش للواجب، وليس بمعنى الأنفلات.

رأيي الشخصي أن انتشار السلفية الدينية، وقبول فئات عديدة من المجتمع لها هو إعادة إنتاج للمثل الأعلى القديم مرة أخرى، وهو ليس مثلا سيئا، بالعكس، يحمل كثيراً من القيم الإيجابية لكنه يصبح سلبيا حين يقترن بالتسلط على حياة الآخرين، ويفرض عليهم ما يتوجب، وما لا يتوجب عليهم أن يقوموا به تحت ستار من الدين و الأخلاق الفاضلة، ولا يتركهم حتى يكتشفوا القيم المناسبة بأنفسهم.

لأنى عشت الحياة على طريقتى، أجد نفسى قريبا من جيل الشباب وجيل أولادي.

قبل وفاته بسنوات أصاب أبى الكبر، وعلى عكس ما كان ينظر لى نظرة سلبية، ويردد على مسامعى أيام الشباب أنه حين يكبر لن يجدنى بجواره، على العكس من ذلك كنت بجواره حتى اللحظة الأخيرة.

التحول الذى حدث هنا هو أننى أصبحت أنا الذى أحدد له أدويته، ومسار حياته التى انحصرت فى أشياء قليلة، حتى أنه فى يوم قال لى :

- هو انت عايز تتحكم فى حياتي؟

فى الحقيقة كنت أرى أنه بدون هذا" التحكم "، لن يكون ممكنا أن يستمر فى الحياة طوال الفترة الأخيرة من حياته.

كان أخى قد انتقل للعمل والإقامة بالقاهرة منذ فترة بعيدة، لذا فكنت أنا الذى أصاحبه فى سنواته الأخيرة من عمره، وكنا نقيم سويا فى فيلا خاصة كل له دور فيها. بدأت ألاحظ أن قيادته للسيارة ليست على ما يرام، حاولت أن ألفت نظره ولكنه لم يستجب، ذات يوم اتصلت بى والدتى فى التليفون وقالت لى أنهم قد" خبطوا" سيارة، كنا فى العجمى، أسرعت و أعدتهما بسلام للشاليه. بعدها بفترة فى الزقازيق كان يسير وحده فى الشارع حتى يشترى أشياء من السوبر ماركت المجاور، فوجئت بأن الجيران يصيحون علىّ ووجدته أسفل الفيلا فى الحديقة ورأسه يملاؤها الدماء، فقد وقع على جزء خرسانى أثناء السير، أخذته لمستشفى صديقة الدكتور جاويش حيث قاموا بعمل غرز له فى وجهه، ثم عدنا للمنزل.

حاولت بلا جدوى أن أقنعه أن أصحبه فى السير، إلى أن كانت سنة ٢٠٠٥، كانت أمي وأخي يستعدون للسفر فى هذا اليوم للحج، دخل علينا أبى وهو يقول أنا" عمل حادثة بالعربية "، وأنه أغمى عليه والناس فى الشارع" فوقته" فقاد السيارة وركنها فى الجراج.

كانت السيارة في حالة يرثى لها ولكن ذلك لم يكن يمثل أهمية إلا بقدر أن المرء يستطيع أن يخمن حجم الحادثة. أقنعنا والدتى وأخى بالسفر حسب ميعادهما،لأن الأمور كانت تبدو على مايرام،فعلا سافرا وجاء الليل فإذا بالدنيا تنقلب رأسا على عقب...!

كنت أجلس معه أنا وزوجتى فى الصالة، فإذا به يقول لنا :" إيه النمل اللى ماشى على السجادة ده؟"، لم يكن هناك أى أثر للنمل...! فهمنا مباشرة أن الموضوع جد، من أجل أن نشعره أن ما يراه حقيقة كنسنا السجادة وقلنا له أننا نظفناها من النمل. بعدها قال :" ما هذا المكتوب على الكرسى؟"، طبعا لم يكن هناك شيئ مكتوب. اتصلت بالدكتور جاويش استاذ المخ والأعصاب فحضر، وطلب منه أن يحكى الحادثة كما وقعت، وبدأ أبى يحكى :

" كنت راجع من العيادة، ووجدت نفسى أصطدم بسيارة نقل كبيرة والناس تساعدنى حتى أفيق ولكنى لم ألاحظها ".

أبدى الدكتور جاويش انزعاجه من موضوع أنه لم ير السيارة، وبدأ فى عمل اختبارات رؤية واتضح أنه لا يرى الجانب الأيسر نهائيا...! أكثر من هذا عنده تشويش فى الرؤية...! بعد الفحوصات المبدئية أخبرنى الدكتور جاويش أن عنده جلطة فى المخ وكتب على حقن وأدوية ولابد أن يأخذها سريعا، وطلب منا أن ندعو الله أن" يعدي" ال ٤٨ ساعه القادمة على خير.

أحضرت الحقن والأدوية وهنا بدأت الواقعة، أبى يرفض أن يأخذ الدواء ويرفض أن يعترف أصلا أنه مريض...! لم يكن هناك أمامي من مفر سوى إجباره على أخذ الدواء والحقن، مما كان له الأثر فى أن يعتقد أنى أريد أن أتحكم فيه...!

بعدها سارت الأمور سيرا حسنا بفضل الله، وبعد أن تم شفاؤه بدأ يسأل الدكتور جاويش الذى كان يتابع معنا كل يوم، إذا ما كانت عنده جلطة حقيقى، ويستفسر منه استفسار الطبيب حتى اقتنع بذلك، ولكنه لم يكن عنده استعداد أن يتنازل عن رأيه أننى أحاول التحكم فى حياته...! من ناحيتي تقبلت هذا الأمر، ولم أعد أناقشه كثيرا فى مسألة الدواء، و عدم ركوب

السيارة، وعدم المشي وحده فى الطريق، والتخلى عن العيادة واعتزال الطب. لقد كنت أنفذ ما أراه صوابا.

لم يمر على الأمر بسهولة، لكن على مدار سنوات كنت أتمزق من داخلى، إما أفرض عليه النظام الطبى وإما أن أتركه" لنفسه "، وهذا لم يكن ممكنا، أيضا مسألة العناد التى كان يقاوم بها، ورفضه الاعتراف بالمرض، كانت مشكلة كبيرة، بعد سنوات وبعد أن اقتنع بحقيقة مرضه قال لى :

" هو انت عايز بسهولة تغير من نظام واحد عاش ٧٥ سنة على نظام معين؟"

كان هذا بمثابة إعتذار مبطن و تفويض لى منه أن أقوم بما أراه مناسبا.

لمدة خمس سنوات قادمة سوف يتروواح بين الشفاء وبين المرض. فى الشيخوخة تبدأ صلات المرء بالحياة تقل تدريجيا، كان يرحمه الله يخترع لنفسه بعض المهام الصغيرة كى يشعر أنه مازال يستطيع القيام بشىء ما، فكان يغسل الأطباق فى المطبخ بدلا من الشغالة، هذا إذا كانت الأعداد بسيطة. فى يوم من صيف ٢٠٠٩كان يضع بطيخة بالثلاجة فسمعنا صوت ارتطامه بالأرض، ساعدناه على القيام وأجلسناه على كرسى بالرسيبشن، فطلب منا أن ننقله للسرير وراح فى النوم.

لم يسبب له الوقوع أية إصابات، ولم يرتطم بشىء ما. وقع وفقط. كانت المشكلة هى أن الدم لا يصل إلى المخ بما فيه الكفاية. على الفجر بدأ فى التقلب على السرير وهو خارج عن الوعى تماما، استدعيت له الدكاترة من الجامع بعد صلاة الفجر فقالوا بأنه لابد أن يتم نقله للمستشفى.

ظل فاقدا للوعى وجاء الليل وأنا معه فى العناية المركزة، رجوت أمي أن تذهب لترتاح فى المنزل وتأتى فى الصباح. ظللت مستقيظا فى كرسي أمامه، وفى منتصف الليل أفاق، وكانت فرحتى كبيرة بذلك، ولكنها لم تدم سوى دقائق معدودة، إذا أنه بدأ فى التحدث مع شخصيات لا وجود لها مما أصابنى بالهلع، حاولت أن أكلمه ولكني لم أكن موجودا أمام عينيه، بعد أن التفت لى بدا لى أنه لا يعرفني، حاولت أن أعرفه بنفسي، ولكنه لم يتعرف على.

أصابنى الذهول إذ أنى لم أكن أتوقع ذلك أبدا.كانت أول مرة أراه على هذه الحالة.

فى المستشفى قمنا بجميع الفحوصات الضرورية وغير الضرورية، كل شيء سليم، فقط الدم لا يصل بما فيه الكفايه للمخ.

بعد أيام عادت له ذاكرته، نظر لى وتعرف على وقال :

" أنا بموت، رجعنى البيت"

عدنا للمنزل وظل بعد ذلك على سرير المرض حوالى ستة أشهر إلى أن جاء الأجل.

الأم

بالنسبة لأمى كانت وما زالت وسوف تظل تنظر لى على أننى طفلها الصغير شأنها شأن كل الإمهات...! ربما أستطيع أن أقول أن نظرتها لى تغيرت، ورأت فى شخصى رجلا يتحمل المسئولية بعد مرض أبى. قبلها كنت دائما فى عينها ابنها الصغير.

نشأت فوجدتها تعانى من ورم فى ركبتها يجبرهاعلى البقاء أياما كثيرة فى السريرحتى" يفش" ذلك الورم فتعود لممارسة حياتها الطبيعية مرة أخرى، وبعد فترة يعود الورم... وهكذا، جربت أدوية وأنواعاً مختلفة من العلاجات بلا جدوى، فتوافقت مع المرض وسلمت أمرها لله.

بعد ثلاثين سنة من المرض اشتكت من أسنانها فقامت بعمل أشعه بانوراما عليها، فوجد الطبيب أن هناك بؤرة صديدية تحت سن من أسنانها هى السبب فى كل ما تعانيه فى ركبتها، خلعت ذلك السن وشفاها الله من مرض ركبتها..!

قلت لها :"جس الطبيب ركبتى فقلت له يا سيدى إن التألم فى سنتى"! وذلك على وزن أغنية فهد بلأن :" جس الطبيب نبضى فقلت له ياسيدى إن التألم فى كبدى، فاترك يدى يا سيدى، اترك يدى.."!

حينما قال الرسول أن الجنة تحت أقدام الأمهات لم يكن ذلك من فراغ،حاولت أمى كثيرا التوفيق بينى وبين أبى، وبينى وبين المجتمع دون جدوى. لم يكن يهمها من الأمر سوى أن أعيش حياة سعيدة.

هناك أمران لا يمكن أن تتخيل أمى الحياة بدونهما، أسرتنا الصغيرة التى هى أبى وأخى وأنا، والعائلة الكبيرة التى هى أخواتها وكل ما يمت لهن بصلة، وقد استمر هذا الوضع حتى الآن فأطلق بناتى على هذا الوضع تسمية لطيفة :" آنه وأخوتها "، آنه تعنى جده أو أم باللغة التركى، ويستخدمها كثير من المصريين بدلا من كلمة جدتى أو ستى.

بعد انتهاء دراسة يوم الخميس تتجمع الخمس بنات وأبناؤهن وبناتهن فى فيلا الجد حيث نشأنا وتربينا فيها. نقضى الخميس والجمعة فى حياة مشتركة ثم يوم السبت صباحا، نرتدى ملابسنا ونجهز شنطنا ونركب السيارة ونعود للمدرسة مباشرة، أحيانا كنا نتأخر فكان لا بد أن يأتى معنا الأب كي يدخلنا المدرسة بلا عقاب.

هذا بالنسبة للدراسة، أما فى الأجازة الصيفية كان الجميع ولمدة ثلاثة أشهر يقضونها فى فيلا الجد فى الأسكندرية.

بعد أن وصلت للثانوى بدأت كل عائلة تبحث لنفسها عن شقة مصيف فى الأسكندرية، وهذا كان أول مراحل الاستقلال الأسرى عن الرابطة العائلية الموسعة، والتى امتدت عبر سنوات طويلة.

ما أن دخلت الجامعة حتى انتهى وإلى الأبد موضوع التجمع فى القاهرة يوم الخميس والجمعة لأن جدتى قد توفيت بعد معاناة مع المرض، ورفض جدى أن يعيش فى فيلا القاهرة، وانتقل لفيلا الإسكندرية يقضى فيها الصيف والشتاء إلى أن وافاه الأجل.

لم يكن من الممكن أن تتركه بناته يعيش وحدة، فكانت كل واحدة منهن تقضى معه أسبوعا، وبعد أن ينتهى الأسبوع تعود لبيتها وتأتى أختها حسب المواعيد المقررة. استمر هذا الحال حوالى ست أو سبع سنوات إلى أن توفى جدى أيضا.

بعد أن تزوج الأطفال الذين هم نحن وأصبح لكل منهم عائلة مستقلة وأولاد أو بنات أو الإثنين معا، حاولت أمى وأخواتها أن يعقدن اجتماعا دوريا مرة كل ثلاثة أشهر للعائلة التى تكبر يوما بعد يوم، وذلك إما فى المنزل أو فى ناد من النوادي.

لم تصمد تلك الفكرة أكثر من سنتين نتيجة لعوامل عدة، منها متاعب العمر التى عانت منها أمى وأخواتها،وصعوبة توفيق المواعيد بين كل هؤلاء، فأصبح التلاقى يتم وفقا لما هو عادى : أى فى الأفراح والمآتم.

هذه المقدمة الطويلة أردت فيها أن أوضح أننا عشنا حياة مشتركة وسط عائلة كبيرة، إذا ذهبت للحلاق وبعدها بيوم أو يومين اتصلت بابن خالتى فى التليفون لأمر ما، يقول لى :" نعيما."

كان الخبر ينتشر عبر أسلاك التليفون لبقية خالاتى، وبعد ذلك تتولى كل واحدة منهن مهمة أن تنقله لأبنائها وأحفادها...!

عشنا سنوات طويلة نضحك على نفس النكت، وندخل نفس الأفلام، ونرتدى نفس الملابس، ويتم تلقيننا نفس القيم، ونكره نفس الأشياء،"نستعيب" نفس الأشياء ونفضل نفس الأشياء...، باختصار كل ما يمكن أن يوضع بعد كلمة نفس..!

هذه الحياة شبه المشتركة لم تكن سيئة، بالعكس، كانت أياما مليئة بالحيوية، لكنها ربما ساهمت فى رغبتى المستمرة بالاستقلال. هناك كلمة مفيدة جدا هنا، هى كلمة" نمطي "، نعم أرغب أن أحيا كإنسان عادي، ولكن لا يمكن أن أكون يوما إنسانا نمطيا.

ما كانت ترغب فيه والدتي حقا هو أن تجعل منى إنسانا نمطيا، بمعنى تبنى نمط العائلة الموسعة الذى يتفق فى أمور، ويختلف فى أخرى عن نمط المجتمع ككل. سواء نمط المجتمع، أو نمط العائلة، أو حتى نمط الأصدقاء فقد كنت دوما ضد التنميط.

بعد أن خرجت من المعتقل كنت مطلوبا من أمن الدولة عدة مرات، مرة قلت لنفسى : أنا جربت المعتقل فلمَ لا أجرب الهروب؟ رافقتنى أمي وكانت خير رفيق، مما أشعرنى حقا بحنان الأمهات الغريزى. بعد ذلك قلت لنفسى المعتقل أرحم من الهروب...!

أن تحيا كهارب يعنى أنك تحيا فى خوف مستمر، ليس هذا هو المهم، فمشاعر الخوف هى مشاعر طبيعية يواجهها المرء عدة مرات فى حياته، لكن المشاعر التى لا تحتمل هى أنك ترغب فى ممارسه حياتك الطبيعية دون جدوى. حاولت أن أبحث عن عمل حتى أعيش حياة طبيعيه قدر الإمكان،ولكن تخليت عن هذه الفكرة لأنى وجدت نفسى موزعاً بين رغبتى فى ممارسة حياة طبيعية فى ظل الهروب من ناحية، وبين ضرورات التخفي من ناحية أخرى.

بعد ثلاثة أشهر تجلت الأزمة عن لا شيء، ولم تكن هناك قضية من أساسه ولكنها" غلاسة والسلام" وأفرجت أمن الدولة عن أصدقائى المعتقلين، وعدت لحياتى مرة أخرى. لكن ما استفدته من تلك التجربة هى أنها قربت بيني وبين أمى وذلك ليس بالمكسب الهين.

أسرتى

بالنسبة لإبنتي الكبيرة فإنها تعتبرنى مثلها الأعلى، وكانت تقول لى أنها ترغب فى أن تتزوج شخصا مثلي. لم أرتح يوما لمثل هذه النظرة لأنى لا أصلح أن أكون مثلا أعلى لأى إنسان. ما أرغب فيه حقا هو أن أحيا كشخص

عادى. ما أن خطبت حتى خفت المثل الأعلى عندها، ثم بعد أن تزوجت أصبح لها الآن حياتها الخاصة، وإن كانت طوال حياتها لها شخصية مستقلة، لكن مسألة المثل الأعلى أعتقد أنها قد تلاشت بعد الزواج مما أسعدنى وخفف عني حزن الفراق.

إبنتى الوسطى سارة كانت تنظر لى نظرة سلبية، ليس لى فقط ولكن أيضا لأمها لأنها ترى أننا نحيا خارج نطاق الحياة التى يحياها الناس الأن، ما زلنا نتمسك بالأخلاق الفاضلة، واعمل الخير وارميه البحر...ألخ وأننا تسببنا بطريقة تربيتنا لها فى أن تواجة صعوبات فى حياتها.... بدأت نظرتها تتغير لنا بعد أن دخلت الجامعة، مؤخرا اقتنعت أن هذا هو الطريق الصحيح وأن السعادة ليست فى المظاهر ولا فى أن تساير الناس، وأن ما ربيناها عليه هو ما سوف تربى أبناءها - فى المستقبل - هى أيضا عليه....!

كلتا الاثنتين تعتبرانى أبا ديمقراطيا، وتلوذان بى عندما تتشدد الأم فى بعض المواقف، وزوجتى تقول لى بعتاب خفيف :

- طبعا، هم يعرفون أنك ستوافق لهم، وأصبح أنا الأم الشديدة....!

لم أكن أوافق لهما إلا إذا رأيت أنه مطلب ذو معقولية، وفى أحيان أخرى كنت أتبنى نفس رأى زوجتى أو أحاول أن أجعل الظروف مناسبة للموافقة.

عندما بدأت موضة حفلات عمرو دياب فى مارينا، كان رفض زوجتى باتا إلا إذا ذهبت أنا معهما، طبعا لم أكن شابا حتى يمكننى أن أقف على رجلى ست ساعات، هذا فضلا عن أننى لست من عشاق غناء عمرو دياب، وهو غناء تجاري ولا أجد فيه قيمة فنية كبيرة اللهم إلا فى بضعة أغان عددها محدود. كان الحل هو أن أرتب لهما مع أصدقائهما وأقاربهما الذين أثق فيهم كى يذهبوا مع بعض" شلة" كى يحمي بعضهم بعضا، أيضا أرتب لهم سائق مضمون.

لم أفرض على عليهن الحجاب، بل هما اللتان اختارتا ذلك بأنفسهما. سارة تحجبت أولا بالرغم من أنها الأصغر سنا، ندى كانت تسألني ما هو الوقت المناسب للحجاب فأرد عليها :

- الوقت المناسب هو الوقت الذى ترين فيه أنك مستعدة لذلك.

ابنتي الصغيرة زينة تعتبرنى مضحكا أجيد فنون الإضحاك. بعد يوم قضيته فى المنزل معها وحدنا قالت لى :

" القعدة لوحدنا أحسن ما ماما تكون معانا، عشان بنلعب براحتنا...!"

لا أقوم بافتعال الألعاب والمواقف المضحكة مع الأطفال، لأن ذلك ينساب من روحي ببساطة وبلا مجهود كما فى التأليف الموسيقي. الفرق الوحيد هو أننى فى التأليف الموسيقى أحتاج للهدوء والتركيز، بينما فى الضحكك واللعب لا يتطلب الأمر ذلك. فى الحقيقة هذا ما فعلته أيضا مع أخوتها فى طفولتهما. لم أكن أقرأ لهما القصص فقط، ولكن أيضا كنت أخترع لهما قصصا مضحكة، أسعد لحظات حياتي هى عندما ألعب مع الأطفال، و عندما يغادرون مرحله الطفولة أشعر بالحزن لأنى لن أستطيع أن ألعب بعد ذلك...،

من القصص الأثيرة عند زينة، إبنتى الصغرى، هى قصة مخترعة اسمها" المخدة الكبيرة والمخدة الصغيرة "...

وهما أختان فى عمر الطفولة والمدرسة الإبتدائية، تمثل المخدة الكبيرة العقل والرزانة، وتحاول أن ترشد أختها الصغيرة (المخدة الصغيرة) للطريق الصحيح فى التعامل مع المجتمع، ولكن دون جدوى، فالأخت الصغيرة (المخدة الصغيرة) لا تلقى بالا لتعلميات أختها الكبرى، ففى أثناء ذهابهما للمدرسة فى الأوتوبيس تصعد المخدة الصغيرة لكى تجلس فوق السطح لأن الجو فوق أحسن..! تحاول المخدة الكبيرة أن تنزلها بلا جدوى، فتضطر أن تصعد كى تنزلها بالقوة وتهرب الصغيرة منها وتدور المغامرة...!

فى حصة اللغة الفرنسية تطلب المدرسة من المخدة الصغيرة أن تسمّع فعل الكينونة، ولم تكن الصغيرة تحفظه، فتخترع كلاما غير مفهوم، ولما تستفسر منها المدرسة عما تقوله، تجيبها بأن هذه هى الفرنسيه الحديثه...! وتدور المغامرة...

حدوته قبل النوم عبارة عن مغامرة جديدة من مغامرات المخدة الصغيرة وأختها الكبيرة..! لم تكن البنات تمل من تلك المغامرات وكان على كل يوم أن أرتجل مغامرة جديدة..!

تلك المغامرات ومن قبل ما كنت أحكيه لأختيها أبعد ما يكون عن أى مبدأ تربوي أو تعليمى فى رأى زوجتى، التى كانت تخشى أننى سوف ألقنهم قيما غير سليمة، ولكن كنت أرى أن على المرء فى هذا العالم أن يكون عنده فرصة من أجل الاعتراض على القواعد والقوانين، وحبذا لو تعلم ذلك من الصغر..!

لن أبرر موقفي ولا أنوي الدخول فى مناقشة عن الخطأ والصواب، لكن أعتقد أن ما كنت أحكيه لهم قد أفادهم كثيرا.....!

بعد الإفراج عنا بعد اغتيال السادات كنت مع صافيناز كاظم فى نقاش، وكان من رأيها أننا يجب أن نطلق أسماء جديدة على المواليد بدلا من الأسماء التقليدية، فيجب حسب رأيها أن نسميهم : مقاوح، معاند، محارب، مشاكس... إلخ لأن الحياة التى نعيشها تتطلب تلك الأسماء....!

لقد كنت أرى - وما زلت - أن النظام التعليمى هو نظام فاسد ويجب مقاومته، ليس فقط النظام التعليمى بل وكل النظم التى تقوم عليها الدولة المصرية، بداية من رأس الدولة والنظام السياسى....! المقاومة والرفض هما الطريق الصحيح من أجل الإصلاح، ويجب أن نبدأ بالأطفال، هذا ما علمته بناتى ولا أعرف إلى أى حد قد نجحت فى ذلك، لم أفسد ثقتهم بالعالم، بالعكس، أصبح عندهم مناعة ضد الأكاذيب التى يتم ترويجها عن أن الحياة لونها وردى، والدنيا جميلة، واقتنعوا بأن ثقتهم بأنفسهم أهم من ثقتهم بالعالم ومبادئه ونظمه المزيفة.

بدلا من المثل القائل :" خدوا فالكم من عيالكم "، أقول :" تعلموا من عيالكم "، مرة كنت أحكى لابنتى ندى عن حياة الرسول، وكيف تم تعذيب الصحابة، وتم إيذاؤه هو شخصيا، كنت أحاول أن أوصل لها زيف الفكرة القائلة أن الحياة عادلة، وأوضح لها أن فكرة الصواب الذى لا يختلف عليه اثنان هى" افتكاسه" لا وجود له فى الواقع، أيضا كان ذلك ضروريا كى أهيئهم لفكرة أننى من الممكن أن يتم اعتقالي فى أية لحظة.

يبدو أننى قد "زودت الجرعة" لأنها بكت وقالت لى :

" ده كان زمان يابابا، دلوقي فيه حاجات حلوة كتير، المدرسة والتلفزيون والفسح...."

بالفعل أحسست أنى أخطأت،"هديت اللعب"، وأخذت أطمئنها. من بعدها تعلمت أن أوازن بين عرض السلبيات والايجابيات، أو على الاقل ما زلت أتعلم، وإن كان يغلب على تفكيرى اكتشاف السلبيات من أجل إصلاحها وليس من أجل" تسويد الدنيا "...!

كانت ندى فى امتحانات الثانوية العامة حين تم اعتقالى لمدة ٤٨ ساعة، كنت أدعو الله ألا تتأثر وتكمل امتحاناتها على خير. بعد أن خرجت وجدت أن ما علمته لها هى وأختها فى الطفولة قد أثمر، فهما كانتا على استعداد لتقبل المحنة، أقصد اعتقال أبيهما.

لا أستطيع أن أصف فرحتي حين كانت نتيجة ندى فى الثانوية العامة هى ٩٨ ونصف %، إذن يمكن للتلميذ أن يستمتع بحياته ويحصل على درجات مرتفعة فى نفس الوقت.

أيضا نظل مع المثل المعدل :" تعلموا من عيالكم "، مرة كانت سارة صغيرة، وقامت بعمل خطأ لا أتذكره فقلت لها :

- احنا بنحب الحلوين اللى ما بيعملوش كده

فما كان منها إلا أن ردت بتلقائية بنت ذات السنوات الخمس :

- ومين يحب الوحشين؟

بعدها تعلمت أن الحب لا يجب أن يقتصر على" الحلوين" فقط، بل وأيضا" الوحشين ". لم أستفد من ذلك فى الحياة فقط، بل وأيضا فى الدين وبدأت أعيد تفسير آيات القرآن وأحاديث الرسول فى ضوء هذا المبدأ الجديد، وبدأت أفهم بعمق المبادىء الصوفية التى تقدم التسامح والتبشير بالعفو مع "العاصين" كسبيل للهداية بدلا من التخويف و العقاب.

ومادمنا مع سارة فلا يفوتني أن أقول إنها وحتى فترة شبابها المبكر كانت تعتبر ندى مثلا أعلى لها وتتأثر جدا لما يصيبها، مما كان له أثره السلبي عند ندى التى كانت تحاول دائما أن" تعمل الصح" وما يتناسب مع كونها" مثلا أعلى" لأختها. حاولنا كثيرا توضيح الموقف لسارة أنه لا يوجد إنسان لا يخطأ، وأن أى إنسان معرض للظلم وسوء المعاملة من الآخرين، ولكنها تخلت عن اعتبار أختها مثلها الأعلى بعد أن أصبح لها حياتها وصديقاتها واهتماماتها الخاصة التى لا تشاركها فيها ندى، وخصوصا اهتمامها الفطري بالسياسة.

كل بنت من بناتي وجدت عندي ما تهتم به، فندى كانت تهتم بالرومانسية والعلم، وهذا أيضا ما أهتم به، فقرأت من صغرها من مكتبتى أشعار جبران وكتاباته بالإضافة للروايات التى كانت دوما موجودة. سارة كانت تهتم بالسياسة خصوصا السياسة اللبنانية وأحداث الحرب الأهلية، وقد وجدت ذلك عندى أيضا. عندما يحين أوان مشاهدة فيلم وثائقى فى الجزيرة عن الحرب الأهلية اللبنانية والقوى المتصارعة هناك، كان ذلك يعنى أننى أنا وسارة فقط من يجلس أمام التلفزيون. ورثت سارة قدرا لا باس به من العناد الذى أتميز به، وهو ما تحاول زوجتى بلا جدوى أن تجعلها تعدل عنه، أما أنا فأرى أن لكل شىء وقته وأوانه، وعلى هذا تراني ساره على أننى أهملها ولا أهتم بها.

لم تهتم ندى مطلقا بالسياسة، وحين كانت تحاول الحصول على معلومات منى عن ذلك كنت أقول لها أنها ستجدها فى الكتب الموجودة بالمكتبة أو النت، كانت تريد أن تحصل على المعلومات بسهولة وربما من أجل المشاركة فى الأحاديث السياسية المطولة بينى وبين سارة.

عموما لا أؤمن بتوجيه المرء إلى وجهة هو لم يجد فى نفسه ميلا لها، فكنت أقول لها :

- مش لازم كل واحد يفهم فى السياسة...

حين كانت تصر على أبداء آراء سياسية تسألها سارة :

- الأمين العام للأمم المتحدة اسمه ايه ياندى؟

التاريخ السياسي اللبناني بالذات يتعرف فيه المرء على الحياة الحقيقية سافرة بلا" زواق".. تبديل المواقف والتحالفات بلا أدنى محاولة لتبرير ذلك. الانتقال من النقيض للنقيض هو أمر مألوف، السياسيون الفاسدون المرتشون لا يحاولون أن "يداروا" أنفسهم، الطوائف و تغليب المصالح الشخصية الضيقة على حساب الدولة الغائبة أصلا هو سيد الموقف.... هذا فضلا عن أن لبنان جعل من نفسه مسرحا لصراع كل القوى العربية والأجنبية التى تتخيلها، والتى لا تتخيلها.. هذا هوالتاريخ اللبناني السياسى باختصار، وهو الذى جذب سارة له بدون تدخل منى، لكن إذا توقفنا عند السياسة فى لبنان نكون قد ارتكبنا خطئا كبيرا، فما يعطي لبنان مذاقه وروعته أنه وسط كل تلك التقلبات كان مصّرا على العيش واجتياز المصاعب.

كان الفرقاء" يقوّصون بعضهم البعض صباحا" وهذا بالدارجة اللبناية يعنى يقتل بعضهم بعضا قنصا بالرصاص، ثم يستريحون بالليل يستمتع الجميع بصوت فيروزالملائكى وموسيقى الرحبانية المحلقة فى الآفاق الرحبة بكل ما هو إنسانى وجميل. فى لبنان الحرب الأهلية يمكن أن تجد ليس فقط المسيحى ضد المسلم، والشيعى ضد السنى، لكنك تجد أيضا المسيحى ضد المسيحي والسني ضد السني والشيعى ضد الشيعي والفلسطيني ضد الفلسطيني....، باختصار الوضع البنانى هو تجسيد لمقوله" هوبز "، حرب الجيمع ضد الجميع، وإن كان الموضوع ليس له علاقة بالرأسمالية، بل بالظاهرة التى عرفت باسم" اللبننه ".. هذا هوحال لبنان فى الحرب الأهلية الذى انجذبت له سارة، وغنى عن الذكر أن لبنان مازال يعانى من آثار هذا الوضع المؤلم لليوم.

ليس فقط فيروز، وليس فقط الغناء، ولكن فى كل المجالات الثقافية تفوقت فيها لبنان على نفسها. ذلك البلد الصغير الملئ بالمشاكل لم يكن لينكفىء على نفسه ومشاكله، بل كان يصدّر الفن والثقافة للعالم العربى، حتى فى أحلك الساعات. كنت صغيرا لكنى أتذكر جيدا أنه كان أمرا طبيعيا ومتكررا أن يصطحبنى أهلى لشراء البضائع المستوردة من شارع الشواربى الذى كان يمتلئ بالبضائع المستوردة، فيما عرف ذلك وقتها باسم تجارة الشنطة.

أيضا المصارف التى تقوم بتحويل العملة والبنوك الصغيرة فى بيروت، كل ذلك كان يعمل وسط الرصاص وأعمال الدمار. هذه التوليفة التى لا مكان فيها للمنطق، تجدها على الدوام فى ذلك البلد الصغير بحجمه الكبير بتأثيره، والذى غنت له فيروز فى مسرحيه بترا :

بيقولوا زغير(صغير) بلدى بالغضب مسور بلدى

....

بيقولوا إلال (قليلون)، ونكون إلال بلدنا خير وجمال...!

هذه النقطة الأخيرة - الغناء والموسيقى اللبنانية - كانت ندى تتفق فيها مع سارة مما أهلهما كى تفهما اللهجة اللبنانية أفضل منى، وكثيرا ما كنت أسألهما عن معانى كلمات دارجة لبنانية لا أفهمها.

عندما نجلس سويا أمام التلفزيون أو شاشة السينما لمشاهة فيلم ليوسف شاهين تعترض زوجتى على أمرين، أولهما أوافقه عليه وهو أنه يجعل من الممثلين نسخة منه، اما ثانيهما والذى لا أوافق عليه هو أنه يعرض الأمور الجنسية بصراحة زائدة عن الحد.

تهتم ندى أكثر بإفلام يوسف شاهين، وترى أنها فضيلة أن يعبر المرء عن نفسه بصراحة، بينما ترى سارة أن العالم قد تجاوز تلك المناقشات، وأصبح التعبير الحر من بديهيات الحياة المعاصرة.

لا أستطيع أن أشاهد حلقات **Grey's anatomy** مع البنات والتى تجاوزت حلقاتها المائة حلقة!

هذا النمط لا يعجبنى، تحاول ندى أن تحصل منى على مبرر منطقي دون جدوى، هذا النمط لا يعجبني وهذا هو كل ما فى الأمر.

أفادهما كثيرا الأنفتاح على العالم والتعرض لمبادىء مختلفة ومتعارضة من صغرهم، وبالتالى لم تجدا صعوبة فى اعتبار المبادىء الدينية

المنغلقة والسلفية هى أمورمن الماضى، و خارج نطاق العالم الحديث، وأصبح لهما نظرتهما الخاصة بهما للدين، التى توفق بين صحيح الدين ومبادئه الأساسية، وبين متطلبات الحياة المعاصرة.

وجدت سارة كتاب" نهج البلاغة" لعلى بن أبى طالب فى مكتبتى، أخذت تقرأ فيه وصدمها موقفه السلبي من المرأة، وحين سألتني عن ذلك قلت لها إن الإنسان هو ابن بيئته وتلك الأفكار كانت شائعة وقتها ولا تجد استهجانا، والأفكار الراسخة فى المجتمع تحتاج عقودا وأحيانا قرونا حتى تتغير، لا تحكمي على الماضى بمقاييس الحاضر، لو أننا عشنا هناك ما كان لنا أن نعرف شيئا عن الحضارة، و لتصرفنا مثلهم أو على الأقل وجدنا تلك الأمور طبيعية. انظري للحاضر سوف تجدين من يعيش بيننا ويؤيد ضرب الزوجات والأبناء والأطفال فى المدارس، ويعتبر كل ذلك من باب التربية وتأديب العاصين.

كثيرا ما تسآلأنى ابنتاى عن حديث منسوب للرسول صلى الله عليه وسلم لا يتفق مع مبادىء الدين السمحة، أو تستفسران منى عن بعض المرويات عن الصحابة، و التى تتحدث عن ضرب الرجال للنساء فأقول لهما : أنتما قرأتما القرآن وتعرفتما على سيرة الرسول العطرة، ما توافق من الأحاديث مع ذلك فأهلا به، والاختلاف فى تعريف الحديث الصحيح من الضعيف يحتاج لمتخصصين، وحتى أولئك المتخصصين تختلف آراؤهم اختلافا بينا، وعلى هذا اتبعا ما تراه فطرتكما مناسبا للموقف، وسوف يكون هذا هو الأختيار الصحيح. على كل حال يابنيتيّ لم يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة له ولا إمرأة قط، أكثر من هذا فقد اعترض على على بن أبى طالب حينما همّ بأن يتزوج امرأة أخرى على فاطمة.. ضعا فى اعتباركما دائما أن الرسول هو مثلنا الأعلى وليس الصحابة وليس أقوال الفقهاء.

بعد المرحلة الابتدائية وجدتا الكمبيوتر والنت فى البيت متاحين بشكل طبيعى، أكثر من هذا قمت بتعليم ندى مبادىء البرمجة بلغة بيزك وسى بعد أن أنهت الشهادة الإبتدائية. حاولت تعليمهما الموسيقا والعزف على البيانو، ولكن لم أجد عندهما الموهبة الكافيه لذلك، بعكس" زينه "، ابنتي الصغري التى تتعلم بسهولة، وتعزف بالفطرة، ولكنها تفضل اللعب والفرجة على برامج الأطفال على أن تجلس أمام البيانو، ومن ناحيتي لم أحاول أن أفسد طفولتها.

أيضا أفادهما انفتاحهما على العالم فى إجادة اللغة الإنجليزية... حين انتهت ندى من الجامعة وبدأت فى التحضير للماجستير كان لا بد أن تجتاز

امتحان Tofel في اللغة الأنجليزية، اشتريت لها كتابا كى تتدرب على الامتحانات و ملحقا بالكتاب CD به الإجابات والتدريب على الاستماع.

لم تهتم ندى بالكتاب، ولم تفتحه أصلا إلا ليلة الامتحان إرضاء لى فقط، وقالت لى :

- بعد كل المسلسلات التى نشاهدها وكل الروايات التى نقرأها وتقول لى ذاكرى انجليزى، ده حتى يبقى عيب...!

حصلت ندى على درجات تقترب من النهائية، وأعطوها شهادة أنها تستطيع تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية..!

نفس الموقف حدث مع سارة، مما جعلنى أنظر للكتاب وال CD وأقول :

- يعنى مفيش حد عايز يحلل ال ١٥٠ جنيه اللى اشتريت بيهم الكتاب....!

بالنسبة لزوجتي فالموضوع متشابك. زوجتي وأنا كل منا آت من عالم مختلف، لكن ما يجمع بيننا أننا كنا نرفض العالم الذى نعيش فيه، ولكن كل منا له طريقته، فأنا راديكالي وبالتالي حين أرفض فأنا أرفض بقوة وعنف، وحين أرغب بالتغيير يعنى تغييرا كليا، وهى محافظة ترفض بلطف وأدب، وترغب فى التغيير ولكن ليس كثيرا جدا ....!

غنت ورده" الحب غريب وما لوش أسباب "، فمن العبث أن نبحث فى المثل القائل :" إيش لم الشامى على المغربى؟". الكيمياء التى تقرب بين المحبين كانت وما زالت سرا غامضا، لا نعرف عنه أكثر من قشور، لكن ما أستطيع أن أؤكده أن حبى كان من أول نظرة.

بعد الزواج اكتشفنا اختلافاتنا وكان لا بد أن نصل لحلول وسط، وبالرغم من راديكاليتى فأنا لا أرفض الحلول الوسط، خصوصا تلك التى تبدو معقولة ومفيدة ولا مفر منها.

أول مشكلة واجهتنا هى مسالة تربية البنات. هى لا تتسامح فى الفوضى والإهمال، ولكن ما تراه هى فوضى وإهمال أراه أنا طريقة صحيحة فى الحياة، أن يحيا المرء على فطرته التى خلقها الله عليها لهو أمر جيد. على عكس كل الآباء، كنت أشجع البنات على إهمال المذاكرة والفرجة المستمرة على برامج الأطفال، خصوصا بعد أن اشتريت دشا عندما وصل لمصر فى أوائل التسعينات وكان حدثا...! تسابق الجميع - الصغير قبل الكبير

- فى فتح" حنفية النصائح" و توضيح مخاطر الدش الذى سمعوا عنه فقط ولم يشاهدوه..!

تناقشنا أنا وزوجتى فى هذا الأمر، واتفقنا على أن المنع هو أسهل طريقة لإثارة الرغبات الخيالية التى لا وجود لها فى الواقع، وأن المواجهة هى الطريق السليم، خصوصا أننا مقبلون على عالم منفتح" على بعضه" وإن قمنا بالمنع اليوم لن نستطيع ذلك غدا.

لم أقم بدور الرقيب أبدا، بطبيعة الحال لم يكن متصورا أننا سوف نتفرج على أفلام بورنو، ولكن الأفلام العادية سواء عربية أو أجنبية كثيرا ما تحتوى على مناظر" حراقه "، كنا نشرحها للبنات ونفهمهم أن ديننا لا يرضى تلك التصرفات. كانت أكثر الأسئلة تكرارا منهم هى : لماذا يفعلونها إذن؟ كان جوابنا دائما أن هناك طرقا كثيرة للحياة تخالف طريقتنا لكن طريقتنا وديننا هو الأفضل.

من السهل إقناع الطفل، لكن لابد أن تكون أنت مقتنعا من أصله، لأن الطفل له حاسة سليمة جدا فى إدراك ما إذا كان الآباء مقتنعين بما يعلّمونه له أم لا....!

لم يكن هناك برامج أطفال مصرية لها قيمة، فكان البنات ينتظرن قناة تونس والمغرب كى يشاهدا برامج الأطفال، وقد وصل بهما الشغف بتلك القنوات حدا أنهما كانتا تنتظران افتتاح القناة المغربية وبعدها مباشرة تأتى برامج الأطفال.... لقد حفظتا النشيد الوطني المغربي لأنهما كل يوم كانتا تنتظران الافتتاح، وحفظته أنا معهما بالتبعية....!

يبدو أنهما قد أخذتا عنى جينات المذاكرة فى آخر لحظة، ومبدأ" ذاكر قليلا لكن بعمق "...!

نسيت أن أقول أننا قد استعنا بالكتب التى تتحدث عن تربية الأطفال، وخصوصا كتب دكتور سبوك مما ساعدنا كثيرا على فهم تصرفات الأطفال ونظرتهم للحياة ولأبائهم.

المشكلة الثانية التى واجهتنى فى بداية الزواج هى مسألة الألوان...!

زوجتى كلاسيكية ترى التوافق فى الألوان كما تراه المدرسة الكلاسيكية، بينما التوافق عندى هوما أراه متوافقا...! أنجذب بشدة للألوان الإفريقية الزاعقة التى تحتوى على خليط من الأحمر والأزرق والأصفر وكل ما يمكن أن يتخيله المرء من ألوان!. طبعا أتحدث عن الملابس. لم أتخيل أننى سوف أرتدى ربطة العنق فى حياتى، فلماذا أخنق نفسى؟. ولكن حتى

أكون منصفا تقبلت برحابة نفس أن أرتديها فى فرح البنات. ما عدا ذلك لا توجد هناك حاجة لذلك. البنطلون المفضل عندي هو الجينز، لا أرى سببا فى شجار زوجتي معي بسبب أنني ذهبت للعزاء ببنطلون جينز...!

لم يكن أمامي سوى أن أتخلى عن فكرة الألوان الإفريقية، وأترك لزوجتى حرية اختيار ملابسى وذلك بعد الزواج. لقد أرادت أن تصنع منى إنسانا متوافقا مع المجتمع، ونجحت فى ذلك إلى حد كبير. لكن احتجت وقتا حتى أقتنع أننى لا بد أن أغير ملابسى عند النوم، أو أهتم بأن يكون الشراب الفردتين لون بعض، أو أنى لابد أن أحلق ذقنى بانتظام أو أرتب الحجرة التى أعيش فيها وأقرأ فيها، لأنه ممنوع أن يقترب أحد من كتبى ويرتبها على مزاجه، فلم يكن مفر من أن أرتبها أنا بنفسي... لكن اشياء مثل تناول الحلو قبل الطعام لم تمانع فيه زوجتي، لكن بالتأكيد كانت تمانع عندما تصنع طعاما للضيوف وتتركه بالثلاجة، وتستيقظ كي تجدني قد تناولت منه وجبة العشاء...! لم يكن هناك تبرير عندى لذك سوى :

- أنا أهم من الضيوف...!

فى الحقيقة كنت وما زلت أرى أن موضوع الاهتمام بالطعام عندنا نحن الشعب المصرى قد زاد عن حده..! خصوصا أن عاداتنا الغذائية معظمها عادات خاطئة، ولكن تقول لمين وتعيد لمين...! الاحتفال بالضيوف يعنى الطعام، وهو عند زوجتي كما عند المصريين كافة...!

فى الكلية كان عندى بنطلون جينز وسويتر جلد أسود كان والدى قد اشتراه لى من الخارج، كنت أحب ذلك الطقم جدا، لدرجة أننى مكثت شهورا عدة لا أرتدى غيره فى الكلية، وكنا وقتها فى بداية تعارفنا، بعد أن مرت شهور وقمت بتغييرها صارحتني بأنها كانت تظن أننى لا أملك غير ذلك الطقم..!

عموما تنظر لي زوجتي على أننى شخص غريبا، لا آبه بتقاليد أو عادات المجتمع، وتحبنى كما يقال" كله على بعضه، شروة واحدة" الرغم من تلك الغرابة التى لم تتعود عليها حتى الآن ، ولكن أظن أنها مخطئة، أنا أوافق على التقاليد التى تناسبنى...! وعلى الرغم من نظرتها تلك إلا أنها ترى فى نفس الوقت أننى قادر دائما على بعث الحيوية فى المنزل، وإزاحة الملل عنها وعن طريقتها الكلاسيكية فى النظر للعالم.

الحق يقال، النظرة الكلاسيكية للعالم" تخلى الجمل يطهق"!

مرة من المرات كنا فى إجازة فى قرية سياحية بالغردقة، وجاء المساء، وقت حفلة السمر فى لوبى الفندق، لم أرتح لفكرة أن أقوم بارتداء ملابس عادية، وحضرت الحفلة بالمايوه والشبشب. لماذا ينبغى على أن أقيد نفسى بقميص وبنطلون، بينما الأصل فى الرحلة أن يكون كل إنسان على حريته..! طبعا حاولت زوجتي بكل ما أوتيت من وسائل إقناع ولكن لم تفلح، بعدها لم تجد سوى جملتها المعتادة :" إنت غريب...!"، أحيانا أظن أن أهلي كان المفروض يسمونني غريب وليس أيمن!

دائما ما كانت تتهمني بأنني ألعب وأضحك مع البنات ولا أتقيد بقيد ما، وعلى ذلك فسوف يحبونني أنا ويكرهونها هى لأنها رمز النظام، و أنا رمز الفوضى. وطبيعى أن الأطفال ينجذبون لكل ما هو فوضى وتهريج...!

العناد الطفولي هو أيضا مما تتهمني به زوجتي دائما، وتحاول أن تجد فى جذور تربيتى ما يفسر ذلك، لكن أظن أن ذلك فى الجينات أكثر منه تربية وتعليم..!

بعد أن أخذت مني شيئا من حب الحياة والبساطة فى التعامل، وأخذت منها كثيرا من النظام واحترام مواعيد النوم والطعام... أصبحت تنظر لى على أننى إنسان طبيعي لكن لى أحيانا تصرفات غريبة غير مفهومة...!

حتى البنات كانوا أحيانا ينظرون لى على أنني إنسان غريب ومختلف عن آباء زملائهم، عندما كانوا يقارنون أنفسهم بهم و يتعجبون، ويقولون أننى الأب الوحيد الذى لا يشجع أبناءه على المذاكرة....! حين كانوا يحكون ذلك فى الفصل كان يتعجب منهم زملاؤهم وزميلاتهن.

أحيانا يرغبون فى المذاكرة وأنا أرغب فى الفرجة على التلفزيون، أقول لهم ببساطة :" بلاش كلام فارغ، العلم فى الراس مش فى الكراس "! أو أقول لهم :" العلم لا يكيل بالباذنجان؟ ابقوا ذاكروا بكره...!". تستشيط زوجتى ولكن قد تعودنا على ذلك...!

لم يكن معنى ذلك أننى ليست لى علاقة بمذاكرتهم، بل كنت أستذكر معهم بعض المواد، وأمهم تستذكر معهم مواد أخرى. على كل حال لم يدم هذا طويلا، منذ السنة الخامسة إبتدائى انتقلت مسؤلية المذاكرة لهم بالكامل، وأصبحنا نحن فقط نجيب على ما لا يفهمونه. لقد غرزنا فيهن الاستقلال من الصغر. ولم يكن معنى ذلك أيضا أن البنات قد أصبحن نسخة منّى أو من أمهن، بالعكس كل لها شخصيتها المستقلة.

كان البنات يحصلن على أعلى الدرجات فتشدد عليهن أمهن ألا يقلن لزملائهم أنهم يتفرجون على التلفزيون كل يوم، حتى فى أيام الامتحانات، حتى لا يصيبهم الحسد.....!

لا أعرف لماذا لا أعير الحسد أى اهتمام مع أننى أؤمن به لأنه ورد فى القرآن، القرآن يأمر المسلم بأن يقرأ سورة الفلق، لكنه لا يأمره بأن يتقي الحسد ونظرات الناس...! أهتم بالابتعاد عن الشخص المصاب بالأنفلونزا أكثر من اهتمامى بالابتعاد عن موجبات الحسد. حتى الآن أفشل فى إقناعها بوجهة نظري...!

نقطة التحول بدأت عند زوجتى بعد أن ادركت أن كل أسرة لها نظامها، وكل مجموعة من الناس لها تفضيلاتها، وأيضا الأشياء التى تعتبرها من المكروهات، وبما أنه لا يوجد نظام يصلح للجميع فعلينا إذن أن نضع نظاما خاصا بنا فى تربية البنات، وفى تعاملنا مع الآخرين.

فى هذه النقطة بالذات حدث توافق كبير بيننا، إذ أن النظام مع أنه متعب فى الأول لكنه مريح فى النهاية. أن أحيا بلا نظام كما كنت فى السابق هو أمر لا يمكن أن أتصوره، والفضل فى ذلك يرجع لزوجتي.

المشكلة الثالثة التى كانت تحتاج لاتفاق هى وضع قواعد للشجار. الكتاب يقول إن الشجار بين الأزواج يجب أن يتم فى الغرف المغلقة، بعد فترة وجدنا أن تطبيق هذا المبدأ فى أسرتنا لا يؤتى نتائجه المرجوة، وأنه من الأفضل أن يتم إخراج الشحنة الأنفعالية وقتها مباشرة لأن تأجيلها للغرف المغلقة يسبب عدة مشاكل، أولها هو فقدان التلقائية مما يؤدى لوضع خطة للشجار، وهذا يعنى توسيع نطاقه، ثانيا أحيانا كثيرة يتم نسيان سبب ودواعى الشجار، مما يفقده معناه، وبالتالي يتم نسيانه، وهو هدف وإن بدا حسنا فى الظاهر إلا أن العيب فى ذلك هو" تخزين" الشحنة الأنفعالية وعدم تصريفها فى وقتها، مما يجعلها تظهر بعد ذلك فى صور أخرى غير مفهومة. بالتالى تنازلنا عما هو موجود بالكتب، وكنا نتشاجر أمام الأطفال، ولكن وضعنا خطا أحمر لذلك وهو ألا يتضمن الشجار تجريحا شخصيا، أيضا وضعنا هدفا ثابتا وهو أن يحاول كل طرف أن يجد حلا وسطا، وعلى الطرف الثاني أن يقبل، به وأن يقوم بالاعتذار مباشرة بلا تأجيل، فكما تم الشجار أمام الأطفال يجب أن يتم الاعتذار أمامهم.

تعلمنا الكثير من الكتب، ولكن الكتب لا يمكنها أن تعلمك كل شيء. فى مسلسل للأطفال وفى المقدمة أغنية عن فيل يدعى" بابار "، كنت أتفرج

عليه مع ندى وسارة، اختفى المسلسل ثم ظهر مرة أخرى وتفرجت عليه مرة ثانية مع زينة، تقول كلمات أغنية المقدمة :

بادروا دوما إلى الاعتذار عن الزلل

لا تركضوا خجلا ضحكنا قلنا أجل

المشكلة الرابعة هى أن زوجتى فيما يتعلق بأبنائنا مثل "القطة الشرسة"! ومن ناحيتى أرى أن هذا ما يجب أن تكون عليه الأمهات، لا تسمح لكائن من كان أن يمسهم بسوء، حتى ولو كان نفسها!

احتاج الأمر بعض الوقت وبعض المعاناة حتى أدركت أن هناك فرقا بين "الحماية" وبين "ضرورات النمو". لا يمكن للطفل أن تكون حياته كلها إما فعل الصواب أو تعلمه، لابد أن تكون هناك مساحة له حتى يتصرف بحرية، ومادام هناك حرية فلا بد من الخطأ، وما دام هناك تعامل مع الناس فلا بد من النقد، لا يمكن أن يحبهم الجميع، ويحترمهم الجميع. لم تكن تسمح لنفسها أبدا أن تكون أما فاشلة، وأنا بدورى كنت أقدر ذلك فيها جدا، ولم أسمح لنفسى بأن أعطل عملها وتربيتها للأطفال، حتى حين أكون غير مقتنع، المهم عندى هو النتائج، لكن ربما يكون المرء فاشلا أمام الناس، ولكن أمام نفسه هو إنسان ناجح أولا وفى نظر نفسه، قبل أن يكون ناجحا فى عيون المجتمع، فى نفس الوقت لا يمكن للمرء أن يحيا وحده فلا بد أن يكون ناجحا فى المجتمع لكن بعد أن يكون ناجحا مع نفسه وليس قبلها، وهذا هو ما عملنا عليه سويا.

ما إن اتفقنا على هذه النقطة الأخيرة حتى تأكدنا أننا عثرنا على التوازن المفقود، على الأقل أصبحت تتقبل تصرفاتى التى ربما تراها هى أو يراها المجتمع غير مألوفة، وهى تتلخص فى أشياء بسيطة مثل أننى" أزهق" من النفاق الإجتماعى أحيانا فأقول رأيى بصراحة فى أشخاص، أو مواقف أو تصرفات، ربما من الأجدر أن يسكت المرء عنها. لن يكون من المفيد هنا ذكر المواقف والحكايات، فكل الحكايات السابقة بها ملامح من هذا، لذا فسأكتفي بهذا التلخيص.

المشكلة الأخيرة أعتقد أنها تتعلق بالجميع وليس بنا وحدنا، مشكلة عدم الامتاع الجنسي. قبل الزواج كنا نسمع العبارة الشهيرة أن الزواج هو أجمل شىء فى الحياة، ويقصد بتلك العبارة المتعة الجنسية... قولا واحدا هذاغيرحقيقى، بل وتضليل. كعادتنا فى المصارحة، صارحنا أنفسنا فى ليلة الدخلة أننا لم نجد ما يحكون عنه، مرت الأيام ولم يختلف الوضع، مرت

أسابيع، شهور، سنين ولم يختلف الوضع.... هو فيه إيه؟! حكيت لها حكايتى مع البنت اللعوب فى فرنسا، وفى وسط الحكاية قلت لها أننى عندما كنت أحتضنها كنت أبحث عن الحنان الذى أفتقده، وبالطبع لم أجده معها، وكيف أن تلك المسكينة قد " زهقت" منى بعد أن بذلت كل محاولاتها كى تثيرنى بلا فائدة، وفى النهاية أدارت ناظرى إلى الشاشة التى تعرض الفيلم أمامنا، ولكن كنت أرى المناظر المعروضة كألعاب جنسية أكثر منها شيئا حقيقيا يثير الشهوة. قلت لزوجتى أنه ربما فيلم عادى وتمثيل متقن يثير الشهوة عندى أكثر من كل أفلام البورنو. من ناحيتها اهتمت هى بالنقطة الأخيرة وبدأنا عملية تحليل للوضع.

بدأ شعاع من الوعى يتسلل داخل أنفسنا، المشكلة ليست فى الجنس. لو كانت المشكلة جنسية بحتة لوجدت الإثارة فى أفلام البورنو، ولكن ما معنى أن أجدها فى فيلم عادى، ليس فيه من العرى إلا القليل بالمقارنة بأفلام البورنو؟ الشىء الذى تفتقده الأخيرة هو الإحساس والمشاعر الحقيقية. التقطنا الخيط سويا، ووصلنا إلى أنه لن توجد متعة جنسية بيننا ما لم يصاحبها الحب والحنان والمحاولات المستمرة والدؤوبة لإيجاد مخرج لهذا الوضع المأساوى، هذا ما اكتشفناه يومها. ليس فقط الحب والحنان هو ما اكتشفنا أنه ضرورى من أجل علاقة جنسية سليمة، ولكن أيضا المصارحة. فلا بد لكل طرف أن يبحث عما يمتعه، وفى نفس الوقت وهو يمتع نفسه لا بد أن لا ينسى إمتاع الطرف الآخر، فالجنس عملية تبادلية وليست من طرف واحد. لا توجد اسطمبه واحدة تصلح للجميع، وعلى هذا فقد ناضلنا حتى نجد ما يناسبنا. أخيرا وجدنا أن الصيام الجنسى مفيد جدا، فمرة واحدة بعمق أكثر بركة من مرات عديدة سطحية.

فى النهاية و قولا واحدا أيضا، وبالرغم من أن ذلك خارج نطاق المذكرات : العلاقة الثابتة والمستقرة، والتى تمنح الزوجين معنى للحياة، وهدفا مشتركا أهم مائة مرة وأجمل مائة مرة من العلاقة الجنسية. العلاقة الجنسية ليست أجمل شىء فى الحياة كما يقال. يمكن للأنسان أن يحيا عمره كله بلا جنس دون أن يعانى من مشكلة عويصة، لكنه لا يمكنه أن يحيا ولو يوم واحد بدون حب وحنان وتفاهم مشترك. بدون ذلك سوف تظهر المشاكل داخل نفسه بطريقة أو أخرى. مرة أخرى، أجمل شىء فى الحياة هو الحب والحنان والتفاهم المشترك وليس الجنس.

أثناء تأدية فريضة الحج، تعجب زميل بالغرفة وسألنى لماذا أتعب نفسى، وأبذل مجهودا كبيرا فى وضع كل شىء فى مكانه؟ أجبته بأننى

تعودت على النظام. فى الحقيقة الفضل فى ذلك يرجع لزوجتى. أقول لها ونحن فى طريقنا للكعبة المشرفة إن هذا الموقف يثبت أننى لست غريب الأطوار، فقط عندما أقتنع أنفذ، أما اذا لم أقتنع فنجوم السماء أقرب لها.

الحج

طوال أكثر من ثلاثين عاما منذ دخولي فى الإسلام لم أكن مهيئا لأداء فريضة الحج.كان المهم أولا أن أصل لتوافق ما بين أفكارى وبين مبادىء الإسلام، كان ذلك يمثل لى أولوية، لم أكن مهيئا كى أقف أمام الكعبة وأنا لا يزال فى عقلى أشياء غير مفهومة تجاة الإسلام. كانت زوجتى تقول لى :

- بلاش حج، نعمل عمرة
- ولا حتى عمرة، المسألة أننى غير مؤهل للوقوف أمام الكعبة
- ومتى ستتأهل؟ - حين يأذن الله - إنت غريب...!

فى مرة قام والدى بعمل" عزومة" على العمرة لعائلة أخى بالكامل وعائلتى أيضا، أبديت رفضى المهذب، و أخبرت زوجتى أن باستطاعتها أن تذهب معهم إن أرادت، لكنها رفضت وأصرت أنها لن تذهب سوى معى، وكما يقال بالألمانية :" ليس بدون زوجى Nicht ohne mein Mann!. كان الأطفال ما زالوا صغارا، ولا يمكن أن يتحمل أحد مسؤليتهم فى رحلة كهذه وعلى هذا لم يذهبوا أيضا. معظم أصدقائي وأقاربي كانوا يرون أنى مقصر فى هذه النقطة، وأننى أملك الاستطاعة فعلام التأجيل؟ كان ردي هو أننى سوف أحج بيت الله عندما يأذن الله. كان البعض يسألني :

- وكيف ستعرف أن الله قد أذن؟ هل تنتظر مناما؟
- فى الوقت المناسب سوف أعرف. أنا متأكد من ذلك.

فى عام ٢٠١٠ استقر تفكيرى تماما على" الليبرالية الإسلامية" واستطعت أن أقدم لعقلى ووجدانى تفسيرا منطقيا وعقلانيا للإسلام، ليس فقط فى الكليات بل وأيضا فى الجزئيات. إذن فهذه هى العلامة. أنا الآن مؤهل لزيارة بيت الله الحرام، والسير على نفس الأرض التى سار عليها يوما نبى الله محمد، ومن قبله جد المسلمين الأكبر إبراهيم. أنا الآن مؤهل كى أرتدى الملابس البيضاء، وأقابل الله عند الكعبة. هذا هو الوقت المناسب للحج .

بدأت الرحلة بمكة، سوف أشير لنقاط محدودة. نظرا لأن الرحلة كلها كانت تستغرق ثلاثة عشر يوما، كان البرنامج مزدحما، ما إن وصلنا فندق أجياد حتى وضعنا أمتعتنا، وذهبت أنا وزوجتى كى نزور الكعبة المشرفة فى طواف القدوم،وجدنا أبواب الدور الأرضى المؤدية للكعبة مغلقة

فصعدنا إلى الأدوار العليا. ما أن شاهدناها من عل حتى انهمرت دموعنا بتلقائية وأتممنا الطواف. ظللنا مستيقظين لمدة الأيام الثلاثة الأولي بلا نوم ولم نشعر بالإرهاق. كأن هناك مغناطيسا بينى وبين الكعبة فى كل مرة كنت أراها فيها بعد ذلك. لم أستطع أن أحول ناظرى عنها، وعن الجموع التى كانت من كل لون وجنس وهى تطوف بها. كنت أظل أرقب ذلك المشهد الباهر ما بين الصلاة والصلاة بلا إرادة وأشعر أننى أحيا فى التاريخ لا فى الحاضر، وكأنما أشهد نزول الوحى على الأنبياء واتصال السماء بالإرض. إلى اليوم يسكن البيت العتيق بداخلى.

لم أجد مثل تلك الروحانية العالية فى المدينة وحين صارحت زوجتى بذلك أخبرتنى بنفس المشاعر. لم أقم بزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم، و لم أشعر بالرغبة فى ذلك لأن الكعبة المشرفة كانت ما زالت تستولى على كل مشاعرى، ولم أكن أرغب فى أن أدخل على تلك المشاعر مشاعر أخرى، لذا فقد اكتفيت بالصلاة فى المسجد النبوى، الذى بهرنى بزخارفه وروعة تصميماتة الهندسية.

عموما كانت رحلة موفقة للغاية على الرغم من الإرهاق الذى أصابنى فيها.

هذه بعض النقاط المختصرة فى تلك الرحلة المباركة، ومازالت مشاعر الحنين كتلازمني حتى اليوم لزيارة الكعبة المشرفة مرة أخرى. لو قدر الله لى رحلة عمرة سوف أختار البرنامج الذى تكون فيه زيارة المدينة هى الأسبق، حتى يتسنى لى زيارة قبر النبى ومشاعرى فارغة من أى أثر طاغ للكعبة المشرفة، كى أستقبل على مهل النفحات النبوية الشريفة.

ولكن متى يحدث ذلك؟ الله أعلم.

كنت قد انقطعت عن كورس الألمانى فى معهد جوته، وعندما عدت من الرحلة المقدسة سألتنى فراو فكتوريا عن مشاهداتى، فحكيت عن أننا ظللنا – زوجتي وأنا – ثلاثة أيام فى مكة بلا نوم وبلا إرهاق فقالت :

الأماكن المقدسة تشع طاقة إضافية...!

سألونى زملائي فى الكورس عما تغير فى شخصيتى بعد تلك الرحلة قلت لهم :

تعلمت الصبر..!

١١- خاتمة

كما تزرع تحصد!

فى النهاية أود أن أرسل رسالة لأبنائى و أحفادى الذين يعيشون بعد ثلاثين عاما من الآن : عندما تجدون أنفسكم تعيشون فى مثل تلك المظاهر الحضارية، التى سبق وعشتها فى بيت الشباب فى مارسيليا، أو تجدون أنه قد أصبح لكم نظاماً صحياً كما فى ألمانيا، أو تجدون أن التعليم، عندكم قد تطور بحيث يستطيع المرء أن يتعلم بسهولة ويسر فى منهج معد أصلا للتعليم وليس لعمل تمثيلية اسمها التعليم، عندما تجدون أنفسكم تعاملون أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة على قدم المساواة أمام القانون، عندما تجدون فى أنفسكم تسامحاً مع أبناء وطنكم المتفقين معكم والمخالفين لكم، عندما تجدون أنفسكم وقد أصبحتم دولة غنية، عندما تجدون أنفسكم تعيشون كل تلك المظاهر الحضارية، ساعتها تذكروا آباءكم وأجدادكم و" لا تلوموا الخريف ".

نحن يا أبنائى وأحفادي عشنا ستين عاما تحت حكم ديكتاتوري تم فيه تخريب كل شىء، وأهم ما تم تخريبه هو شخصية المواطن المصرى. لقد قمنا بكل ما نستطيع القيام به وقدمنا من التضحيات ما تدرسونه الآن فى كتب التاريخ كى نصل لثورة ٢٥ يناير.

أبنائى وأحفادى، عندما تقرأون فى كتب التاريخ عن الحياة المزرية التى كنا نعيش فيها تذكروا قول الكاتب الكبير يوسف عز الدين عيسى" لا تلوموا الخريف" ولكن حتى لاتنسوا عليكم أن تتذكروا، وتذكّروا أبناءكم من حين لآخر،كيف عاش آباؤكم وأجدادكم آلاما عظيمة، تذكروا ذلك حتى لا تقعوا تحت طائلة ديكتاتورية أيا ما كان مسماها، وأيا ما كان شعاراتها.

أبنائى وأحفادى، لم يكن من الممكن أن ننتقل للحضارة هكذا فى سنوات قليلة بعد ثورة ٢٥ يناير العظيمة، بل احتاج الأمر عقودا من الزمن، وها أنتم تجنون ثمرة ما بذرناه لكم! وليكن أمام أعينكم دائما أنكم لا تعملون لجيلكم فقط، بل قولوا :" زرع آباؤنا فأكلنا ونزرع كى يأكل أبناؤنا ". وفقكم الله.

أثناء إعداد تلك المذكرات وجدت زوجتى ممسكة بنسخة كتبتها قبل النشر draft وتقرأها، قلت لها ماذا تفعلين؟

قالت لى بعد ٢٥ سنة زواج :

- باتعرف عليك!

■■■

انتهت الشهادة، شهادتي على نفسى، و على تلك
الأيام كما عشتها، إن أحسنت فأرجو من الله أن
يعاملني بإحسان، وإن أسأت فأرجو أن يعاملني الله
بعفوه وكرمه.

" كان ربك على كل شىء مقتدرا"

صدق الله العظيم.

١٢- ملحق

Das Wild

Die Sache ist um!
Kram in deiner Schublade herum،
Lass den Mist!
Verhalt dich nicht ،wie ein Zivilist!
Checks und Scheine geglten mehr nicht،
Das Wild zeigt sein whares Gesicht
Der zivisierten Welt stehen Verändrungen bevor،
Mit Feststellungen haben sie Schendluder getrieben،
Muss unser Geld sie immer finanzieren ?
Die Friedenzeit ist schon vorbei
S t ö b e r in deinen Papieren herum ،
Und rett nur ،was zu retten ist!
Verhalt dich nicht wie ein Zivilist!
Ihre R ü s t u ng strotzen vor Edelsteinen
Vom F u ß bis zu den Beinen.
Sie S t ö b e r t e n das schlimmste Wild auf ،
Aus dem Schiff h üp f t e die entsetlische Maus!

--

Jag den Hund vor die T ür!
S t ö b e r das Kind aus den Bett!
Die Jage beabsichtigt zu entfliehen.
Das Netto ist nicht zu kalkulieren..Und du..
Du hast keine Zeit zu revidieren
Das Kapital f l ü c h t e t e zur Mutter hinauf..
Sie sockten die Truppen schon mehr auf..
Die Sache ist um!

--

Es ist Lost!
Es steht drau ßen ،
Lacht und weint ،aber immer beisst.
Es hat keinen Sohn ،doch keine Eltern
Worauf l äu f t das hinaus ? ist es wiklich schlimmer ü b e r aus ?

...........!
Versuch' s mal zu entfliehen!
Das Netto ist nicht zu Kalkulieren!
Keine Überlegungen anzusetzen ،
Lieber in den Wind Schlagen!
Keine Probleme anzupacken ،
Sondern sie zu bagatellisieren!
Alleine kann man sein Pä k c h e n tragen،
Du kannst ruhig einpacken!

--

Über Sock und Steinen sthet er drau ßen،
Sie lockten es hervor
Wie noch nie kommt es hervor
Es kommt hervor ،wi noch nie..
Die Sache ist Um!

--

عن الكاتب

أيمن عبد الستار

المهندس أيمن عبد الستار، من مواليد الجيزة، متزوج وله ثلاث بنات، وهو عضو نشط في نادي القصة في نادي الصيد وله مساهمات عديدة. هذه المذكرات هي أول أعماله الأدبية التي يتم نشرها.

للتواصل مع الكاتب :

aymgab@yahoo.de

www.facebook.com/aymanabdalsattar

Inv:207

Date:4/2/2014

في هذه المذكرات يبحر بنا الكاتب المبدع المهندس أيمن عبد الستار عبر السنوات والأحداث التي عصفت بمصر منذ ستينات القرن العشرين حتي اليوم.

بأسلوبه السهل في الفهم ولكن العميق في المعنى يسرد لنا الكاتب الحوادث التي أثرت في حياته منذ الطفولة، من المدرسة إلي الجامعة إلي المعتقل إلي دنيا العمل، ونمر معه بمراحل تطوره الإنسانية وانعكاسات الأحداث التي ألمت بالوطن عليه، راسما صورة دقيقة للمجتمع المصري وتغيراته عبر السنين.

نتعرف علي شخصيات عديدة يسقط منها القارئ علي ذكرياته الخاصة لتكون هذه المذكرات تأريخا أمينا للحالة المزاجية للشعب المصري عبر هذه السنين المليئة بالأحداث الجسام.

هذه المذكرات ليست فقط قصة حياة كاتبها، بل قصة خمسون عاما من تاريخ مصر والمصريين.

الناشر
دار كتابات




9 789775 023223

